



رايتشل لُفْغَرِن

في مواجهة  
التحدّيات

Originally Published in English under the title:

## AGAINST THE ODDS

Copyright 2016

Arabic Edition Copyright 2023 - Gleam Publications

www.gleampublications.com

feedback@gleampublications.com

All Rights Reserved

الطبعة الأولى بيروت ٢٠٢٣

الكتاب: في مواجهة التّحدّيات

المؤلّف: رايتشل لُفغرن

ترجمة: سعيد باز



دار منهل الحياة  
Dar Manhal al Hayat

تصميم الغلاف والتصميم الداخلي: دار منهل الحياة

ص. ب. ١٦٥ منصورية، المتن- لبنان

هاتف: +٩٦١٤٤٠١٩٢٢

فاكس: +٩٦١٤٥٣٢٤٨١

بريد إلكتروني: info@DarManhal.org

موقع إلكتروني: www.DarManhal.org



الناشر: دار منهل الحياة بإذن من Gleam Publications

التّرقيم الدّولي: 978-614-460-106-8

جميع الحقوق باللّغة العربيّة محفوظة للنّاشر وحده،  
ولا يجوز استخدام أو اقتباس أيّ جزء منه من دون إذن النّاشر.  
وللناشر وحده حقّ إعادة الطّبع والنّشر من خلال النّسخ المطبوعة  
أو أية وسيلة سمعيّة أو بصريّة، أو عبر الانترنت في أيّ مكان.

## الإهداء

مُهدّي مع المحبّة إلى جودي يُودر، مُمثّلة «بولس» بالنّسبة إليّ في شركة آلام المسيح. لقد علّمتني صَعَفَ الحياةِ الجميلَ ومحبّة الرَّبِّ يسوع بِطُرُقٍ عميقة. أنتِ تعيشين فيلبّي ٣: ١٠ بِبَهاء.

لكِ إلى الأبد

مثيلهُ «تيموثاوس» بالنّسبة إليك



## كلمة شكر

إِنَّ رِحْلَةَ كِتَابَةِ كِتَابٍ هِيَ دَائِمًا كَذَلِكَ تَمَامًا: رِحْلَةٌ. وَهِيَ لَيْسَتْ أَبَدًا رِحْلَةً يَقُومُ بِهَا الْمَرْءُ وَحِيدًا. فَكِتَابَةُ كِتَابٍ تُشْبِهُ قَلِيلًا تَنْشِئَةً وَوَلَدًا. إِذْ تَقَعُ عَلَى عَاتِقِ الْأَبْوَيْنِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْأَكْثَرُ مُبَاشَرَةً وَأَهْمِيَّةً، وَلَكِنَّ الَّذِينَ حَوَالِيَهُمَا يُوَدُّونَ دَوْرًا بَارِزًا. إِذَا، لِجَمِيعِ الَّذِينَ أَسْهَمُوا فِي مَشْرُوعِ كِتَابٍ آخَرَ بَعْدَ، شُكْرًا لَكُمْ!

يُوجِّهُ شُكْرًا خَاصًّا إِلَى هَيْئَةِ التَّحْرِيرِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُعَاوَنَةِ لِي: پَاتِي ل. وَبَارْبِ اسْمِثْ وَلِيزِي ل. شُكْرًا لَكِنَّ عَلَى السَّمَاحِ لِي بِأَنْ أَعْتَمِدَ عَلَيْكُمْ بِطَرِيقٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا فِي أَثْنَاءِ وِلَادَةِ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ! إِنَّ كَلًّا مِنْكُمْ تُوَدِّي دَوْرًا مُهِمًّا مُكْمَلًا فِي جُهُودِ كِتَابَتِي. وَلَوْلَاكُمْ، لَكُنْتُ أَضِيعُ!

شُكْرًا لَكَ جِي جاي هُفْمَانِ عَلَى جَمِيعِ سَاعَاتِ الْكِتَابَةِ الْمَشْتَرَكَةِ. إِنَّ الْعَصْفَ الذَّهْنِيَّ مَعَكَ عِنْدَمَا يُعْلَقُ عَلَيَّ هُوَ حَلٌّ مُمْتَازٌ لِأَنْسَادِ سُبُلِ الْكَاتِبِ. فَكُم يَرُوقُنِي وَجُودُ كَاتِبٍ آخَرَ بِصِفَةِ أَفْضَلِ صَدِيقِي لِي!

شُكْرًا لَكُمْ، عَائِلَةٌ فَيْرَا، عَلَى اسْتِقْبَالِكُمْ لِي وَجَعَلِكُمْ قُلُوبَكُمْ وَبِيوتَكُمْ مَكَانًا أَلْيَقًا جَدًّا لِإِرْسَاءِ أَسَاسِ هَذَا الْمَشْرُوعِ. لَقَدْ كَانَ كُلُّ إِسْهَامٍ مِنْكُمْ هَدِيَّةً ثَمِينَةً. شُكْرًا لَكُمْ عَلَى كَشْفِ نَفْسِكُمْ وَذِكْرِيَاتِكُمْ، وَإِبْدَاءِ مَحَبَّتِكُمْ. تَشَرَّفْتُ بِفُرْصَةِ دُخُولِي سِرِّكُمْ الْعَائِلِيِّ السَّعِيدِ!

إلى دُوَيْطِ مَلَرٍ وَسِي هُوَسْتَتَلَرِ اللَّدَّيْنِ تَصَوَّرًا هَذَا الْمَشْرُوعَ وَجَدًّا فِي الْبَحْثِ وَفِي الْهِفَافِ عَلَى ثُرَاتِ فَيْرَا: مَا كَانَ هَذَا الْكِتَابُ لِيُوجِدَ الْيَوْمَ لَوْلَا مُثَابَرَتُكُمَا وَاسْتِعْدَادُكُمَا لِإِطْلَاعِي عَلَى جُهُودِكُمَا فِي شَكْلِ مَوَادِّ بَحْثٍ مَكْتُوبَةٍ وَمُقَابَلَاتٍ. إِنِّي أُجِلُّ عَمَلَكُمَا الدَّقِيقَ، وَأَنَا شَاكِرَةٌ بِصُورَةٍ فَائِقَةٍ عَلَى سَاعَاتِ تَعْبِكُمَا الَّتِي لَا تُعَدُّ وَالَّتِي اسْتَثْمَرْتُمَاهَا كِرَائِدِينَ وَمُنْقَبِينَ لِأَجْلِ هَذَا الْكِتَابِ.

وَإِلَى أَبِي فَيْرَا وَإِخْوَتِهَا الَّذِينَ جَعَلَتْ حَيَاتُهُمُ الْمُتَّسِمَةَ بِالْمَحَبَّةِ وَالتَّضْحِيَةِ الْهَادِنَتَيْنِ، لَكِنِ الْهَائِلَتَيْنِ، حَيَاةَ فَيْرَا وَشَهَادَتَهَا مَيْسُورَتَيْنِ لَهَا: إِنَّ قُدُوتَكُمْ فِي عَدَمِ الْأُنَانِيَّةِ وَالْقُلُوبِ الْخَادِمَةِ تَتَأَلَّقُ بِبِهَاءٍ.

وَإِلَى فَيْرَا الَّتِي تَرَكْتَ مَحَبَّتُهَا وَحَيَاتُهَا مِنْ بَعْدِهَا ثُرَاتًا بِحَجْمِ جَبَلٍ: شُكْرًا لَكَ عَلَى الْقُدُوةِ الَّتِي عَشْتَهَا وَالْحَيَاةِ الَّتِي أَثَرَتْ فِيهَا لَمَّا كُنْتَ مَعَنَا هُنَا. لَمْ أَقَابِلِكِ قَطُّ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَكِنِّي أَتَطَّلَعُ قُدُمًا إِلَى لِقَائِكَ فِي السَّمَاءِ. إِنَّ ثُرَاتَكَ حَيٌّ بَعْدَكَ.

وَفَوْقَ الْكُلِّ، تَشْكُرَاتِي لِلَّهِ. إِنَّ عَزْمِي عَلَى الْكِتَابَةِ آتٍ مِنْكَ. عَسَى أَنْ تَأْتِيَ هَذِهِ الصُّفْحَاتُ بِالتَّمْجِيدِ لَكَ.

رايئشِل لُفَغْرِن

## المحتويات

٥	الإهداء	
٧	كلمة شكر	
١١	عواصف وظلال	١
٢١	معارك كبيرة وصغيرة	٢
٣١	أيام المستشفى والمحِبُّون	٣
٣٩	في البيت من جديد	٤
٤٥	الوداع ليس إلى الأبد	٥
٥٥	عالم من العجب	٦
٦٣	عن النجوم وكُرَاتِ الثلج	٧
٧١	يَقْظَات	٨
٧٩	عصاك وعُكَازَكَ يُعْزِيَانِي	٩
٨٩	تَعْلَمُ الاتِّكَال	١٠
٩٧	ماذا سَيَكُونُ مُسْتَقْبَلِي؟	١١
١٠٥	هِمَّةٌ عَالِيَةٌ	١٢
١١٧	عيدُ المِيلَادِ فِي بَلِيْز	١٣
١٢٥	شَوَاطِيٌّ مَايْنُ	١٤
١٣٧	تَعْهَدُ مُعَلِّمَةٌ	١٥
١٤٧	تَعْلَمُ الْمُنْحَبَاتُ	١٦

١٥٥	مُعَامِرَات فِي الْخَارِجِ	١٧
١٦٩	الرِّمَيْلَةُ الطَّيَّارَةُ وَالذَّيْنَامِيَت	١٨
١٧٧	حُلْمِي	١٩
١٨٧	الْحَيَاةُ هِبَةٌ	٢٠
١٩٧	عَبْرُ الْمَاضِي	٢١
٢٠٥	تَنْوِيهِ	
٢٠٩	عَنِ الْمَوْلُفَةِ	
٢١١	خِدْمَاتُ الْمَعُونَةِ الْمَسِيحِيَّةِ (خ م م)	
٢١٣	الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ وَالسَّلَامِ	

## عواصف وظلال

هَتَفْتُ لِأُحْتِي الصَّغِيرَةَ الَّتِي بَدَأَتْ تَمْشِي حَدِيثًا: «لِينَا! نَحْنُ عَصْفُورَتَانِ، وَنَحْنُ نَطِير!» وَقَدْ هَبَّ نَسِيمُ أَيَّارِ اللُّطِيفِ فِي أَنْحَاءِ قَرِيَةِ هَارْتَقَلِ بُولَايَةِ أُوْهَايُو، مُدَاعِبًا شَعْرِي الْأَشْعَثَ وَأَنَا أَدُورُ فِي حَلَقَاتٍ وَاسِعَةٍ. مَدَدْتُ ذِرَاعِي، فَدَارَتْ تَتُّورَتِي حَوْلَ كَاحِلِي الْعَارِيَيْنِ. وَمَدَّتْ لِينَا ذِرَاعَيْهَا الْمُكْتَنَزَتَيْنِ لِتُقَلِّدَنِي، فَتَمَايَلَتْ عَلَى رِجْلَيْنِ مُتَقَلِّبَتَيْنِ. فَضَحِكْتُ وَفَهَقْتُ.

بَعْدَ لِحْظَةٍ أَرْدَفْتُ: «لِينَا، الْعَصَافِيرُ تُغَنِّي. عَلَيْنَا نَحْنُ أَيضًا أَنْ نُغَنِّي.» وَانْفَجَرْتُ فِي أَغْنِيَةٍ بَهِيجَةٍ نُظِمَتْ فِي ذِهْنِي الْبَالِغِ ثَلَاثَ سِنِينَ، جَاعِلَةً لِينَا تُفَهِّقُهُ مِنْ جَدِيدٍ. وَقَدْ رَفَرَفَتْ ذِرَاعَايَ وَرَقَصَتْ قَدَمَايَ الصَّغِيرَتَانِ فَكِدْتُ أَحْسُ أَنْنِي أُطِيرُ فِعْلًا!

انْتَهَى تَمْشِي لَمَّا سَمِعْتُ أَحْتِي الْكُبْرَى تُنَادِي: «حَانَ وَقْتُ الْغَدَاءِ، فِيرَا. تَقُولُ تَاتَا أَنْ نُحْضِرِي لِينَا وَتُغْتَسِلَا. بِسُرْعَةٍ!» فَالْتَفْتُ إِلَى لِينَا، وَرَفَعْتُهَا إِلَى عَرَبَتِنَا الْحَمْرَاءِ الصَّغِيرَةِ. وَقُلْتُ لَهَا: «رُبَّمَا نَتَنَاوَلُ شَوْرَبَةَ. تَاتَا تَطْبُخُ شَوْرَبَةَ طَيِّبَةً.»

قَالَتْ لِينَا مُؤَافِقَةً: «جَوْعَانَةٌ، شَوْرَبَةَ طَيِّبَةً.» كَانَتْ تَقْرِيبًا ابْنَةَ سَنَةٍ وَنِصْفٍ، وَمَا زَالَتْ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَكَلَّمَ جَيِّدًا جَدًّا، وَلَكِنَّا دَائِمًا فَهَمْنَا إِحْدَانَا كَلَامَ الْأُخْرَى. حَتَّىٰ عِنْدَمَا نَتَخَانِقُ، كُنَّا نَتَفَاهَمُ.

«تَقُولُ تَاتَا أَنْ نُعْجَلُ.» وَانْعَطَفْتُ نَحْوَ الْبَيْتِ، لَاهِثَةً مِنْ جَهْدِ جَرِّ الْعَرَبَةِ.

وجدنا تاتا في الداخل تتحرّك بنشاطٍ في المطبخ كالعادة. كانت أختي روث ابنة الخمس سنين تُساعدُ طائِعَةً في وضع الطَّعام، واستطعتُ أن أسمع صوت أُمِّي من مكانٍ ما في البيت قائلاً لأخي ليون إنَّ وقتَ الغداء قد حان. كان ليون أصغر منِّي قليلاً وأكبر من ليانا قليلاً. وقد هُرِعْتُ لمساعدة ليانا في غَسْلِ يَدَيْهَا المَكْتَنَزَتَيْنِ، قبلَ أن أُرِلَّ إلى مكاني المعتاد على أَحَدِ البُنوك الطَّويلة.

بكلِّ تأكيد، كانت تاتا قد طَبَخَت شَوْرَبَةً. وكنتُ جَواعانَةً جدًّا حتَّى لم أملك عني اختلاس النَّظر قليلاً في أثناء صلاتنا الصامتة، لِأشاهد البُخارَ يتصاعدُ رقيقًا من الطَّنْجِرة. وما إن قالَ بابا «آمين!» حتَّى أخذتُ رشفَةً ضئيلةً من المَرَقِ بِمِلْعَتِي. ياي! ما أطيَّبها! ولكنَّ ما ليثُ أدنأني أن ارتفعتنا بِسرعةٍ لمَّا سمعتُ ماما تقولُ شيئًا ما لبابا، وبقيتِ مِلْعَتِي مُعلَّقةً في الهواءِ إلى حين.

كانت ماما تقول: «ينبغي لي أن أذهب إلى البلدة عصرَ اليوم.» وإذ أنزلت مِلْعَتِي مُحدِثَةً قَعْقَعَةً، تَهَزَّزْتُ على مقعدي بِتَحْمُسٍ. إذا كانت ماما ذاهبةً لإحضار البقالة، فربَّما تأخذني معها! ونظرتُ عبْرَ الطَّاولَةِ إلى ليانا، فإذا بها مُنهمكةٌ في تناول شَوْرَبَتِهَا والمَرَقِ يتقطَّرُ على ذقتها. ستكونُ ليانا أصغرَ من أن تذهب إلى البلدة. أمَّا أنا، لقد كنتُ بنتًا كبيرة. وهذه الفِكرَةُ بذاتها جعلت عينيَّ البُنِّيَّتَيْنِ ترتَقِصانِ ابتهاجًا. لقد عَلِمْتُ تمامًا أنَّ ماما ستصطحبُني!

لمَّا استعدتُ ماما للدَّهَابِ عصرَ ذلك اليوم، لَحِقْتُ بها إلى الخارج. «ماما، هل لي أن أذهبَ معكِ؟» وقد وقفتُ مُتلهِّفَةً على رؤوس أصابعِ قدمي، مُنتظرةً ما كنتُ على يقينٍ بأنَّه سيكون جوابها.

«ليسَ هذه المرَّة، فيرا. يُمكِنُك أن تبقى في البيت وتلعب مع ليون وليانا. ستَقضون وقتًا مُمتعًا.» وانحنتُ لكي تُقبِّلني سريعًا، فمسَّ شريطا قلنسوتها النَّسائيَّةِ جانِبَ وجهي.

واحتججتُ بِسرعةٍ مُتوسِّلةً: «ولكن، ماما. رجاء؟ أريد أن أذهب معكِ!»

فجاءَ جوابُ ماما لطيفًا، لكنَّ حازمًا: «لا، حبيبتي. ليس اليوم. اذهبي والعبي، وأحسني التصرُّفَ مع تاتا.» وإذ قالت ذلك، دارت وركبت في السيَّارة.

علمتُ عندئذٍ أنَّ ماما كانت جادَّة. فكلُّ توسُّلاتي ومُناشداتي ستكونُ عبثًا. ولكنني عقدتُ عزمي على الدَّهَابِ، وعندما أعقدُ عزمي على أمرٍ ما لا أستسلمُ بِسهولةٍ. وفجأةً عرَفْتُ ما سأفعله.

انزلتُ حُفِيَّةً إلى مُقَدَّمِ السَّيَّارَةِ، وعرزتُ نفسي بِلِزِقِ المِصَدِّ. إذا كانت أمِّي تأتي  
 أن تأخُذني معها، فلن أدعها تذهبَ أبداً. عرزتُ قَدَمِي الحافِيتَيْنِ بنبات، وبذلتُ قُوَّتِي  
 الضئيلة ضدَّ ذلك المِصَدِّ المَعْدِنِي الكَبيِر، مُتَحَدِيَةً إِيَّاهُ أن يُرَحِّحَنِي. وبِكُلِّ التَّصَمِيمِ  
 الذي حواه ذَهْنِي الصَّغِيرُ في تلك اللَّحظة، كنتُ على يقينٍ بأنَّ المِصَدِّ لن يُرَحِّحَنِي. لقد  
 حملتُ سيارتُنَا الفُورِدَ دائماً ذِكرياتٍ سعيدهً عن تلبيةِ رَعْبَانِي، ولكنها آنذاك كانت عدوَّتِي.  
 سمِعتُ المُحرِّكَ يدورُ هادِراً، وشعرتُ به نابضاً عبرَ السَّيَّارَةِ. وإذ وضعتُ أمِّي ناقِلَ  
 الحركة في نُقطةِ الانطلاقِ وبدأتُ تتقدَّم، ضاعفتُ الدَّفْعَ. ثُمَّ زَلَّتْ قَدَمَايَ فجأةً. وقبلَ  
 أن يُتاحَ لي وقتٌ لِأُصرِّخَ، كان نِصفُ جِسمي تحتِ السَّيَّارَةِ وباتَ سَوادُ العَجَلَةِ الهائلُ  
 فوقي. خبطة... صُراخ... زعيق. كان كلُّ شيءٍ عَمَامَةً مُشوَّشةً من الصَّجيجِ والألم.  
 أَحسستُ يَدِي بابا القَوِيَّتَيْنِ ترفعانِي وتوقَّفتُ عَنِ الصُّراخِ. «أهَيَ بخير، فكتور؟  
 آه، الدَّم! لم أرها. آه، فيرا، طِفْلَتِي!» وقد كانت ماما تبكي.

بحركةٍ رشيقةٍ من يَدِ بابا، رَدَّ القِطعةَ المسلوخةَ من فروةِ رأسي إلى مكانها.  
 «الجُمُجمةُ مكشوفةٌ والدَّمُ كثيرٌ جدًّا. الأمرُ رديءٌ، إمَّا، ولكنها حيَّة. افتحي لي بابَ  
 السَّيَّارَةِ. علينا نقلُها إلى المُستشفى حالًا.»

دُقتُ دَمًا على لساني. وأحسستُ بابا يضعني برفقٍ، لكنَّ بِسرعةٍ، على مقعدِ  
 الفُورِدِ الخلفيِّ. لقد حالَ الأَلَمُ دونَ تركيزي على أيِّ شيءٍ. «أنا موجوعة!» وقد كنتُ  
 أبكي مُنهدَّةً.

ثُمَّ شعرتُ بذراعينِ حائِيتَيْنِ تُطَوِّقانِي عن كَتَبِ، فعَلِمْتُ أَنَّنِي في حضنِ ماما. وقد  
 أراحتني لمسَّتُها وهَدَّأتني.

كان صوتُها مُسَكَّنًا، لكنَّ مُتَوَتِّرًا. «لا بأس، فيرا. ماما هنا. اشش...» وبين تَهْدِئتي  
 تَكَرَّارًا، صَلَّتْ بِهَمَسَاتٍ وتوسَّلتْ إلى بابا أن يسوقَ أَسْرَعَ.

كان صوتُ بابا العميقُ مُطمئنًّا. «إمَّا، سَنَصِلُ إلى هُنَاكَ عاجلاً الآن. لا بأس.» كان  
 يَسوقُ أَسْرَعَ بكثيرٍ من المُعتاد. وقد عرِفْتُ ذلك من طريقتِهِ توقُّفِ السَّيَّارَةِ مُنزلِقَةً عند  
 كُلِّ تَفَاطُعٍ. إذ كانت ترتجُّ بِسرعةٍ وشِدَّةٍ كُلِّما داس المَكايِحَ. وقد جعلَ الارتجاجُ وجعي  
 أسوأ، ولم أتمكَّن من الكَفِّ عن البُكاءِ.

في المُستشفى، حملني بابا إلى الدَّاخِلِ. وعلى ذراعِيهِ، بطريقَةٍ ما، لم يَكُنِ الشُّعورُ  
 بالألمِ شديداً كما كان. فلَمَّا وضعَني على النُّقْالةِ، عادتِ حِدَّةُ الأَلَمِ ومعها الخوفُ. ماذا

سيفعلون لي؟ هل يحقنوني بالإبر؟ ثمّ قال الطبيبُ بهدوءٍ مُطمئنًا: «فيرا، سنُعالجُكِ». فاستلقيتُ ساكنةً جدًّا، وبكيت.

قطبوني وصرفوني إلى البيت، وعمامةً بيضاءً ملفوفةً حولَ رأسي. وقد حملتني ماما طولَ الطريقِ إلى البيت. إنّ الجرحَ المُقَطَّبَ البالغَ طوله ثلاثين سنتيمترًا سيتركُ ندبًا بطولِ قَدَمٍ واحدةٍ على جانبِ رأسي. وقد بقيتُ مُعتمِرةً العِمامةَ باقيَ الصَّيف. ومع أنّ الحادثِ كان صادمًا وراضًا بما يكفي، لم يعلم أحدٌ منّا أنّ ما سيأتي بعد ثلاثة أشهرٍ سيُلقي ظِلَّهُ عليه.

في ساعاتِ الفجرِ الباكِرةِ من يومِ جُمعةٍ شديدِ الحرِّ في شهرِ آبٍ، استيقظتُ باكيةً. فانزلتُ من السريرِ مَنامتي البيضاء الطويلة، ومشيّتُ بِحُطًى سريعةٍ وخفيفةٍ على ألواحِ الأرضيةِ الخشبيةِ الصّارةِ إلى عُرفةِ نومٍ والديّ. قُلْتُ بِالْحاجِ وَنِباتٍ مُهاجِةٍ: «ماما!» وإذ وقفتُ في بابهما، انتظرتُ حتّى تستيقظَ ماما، عالِمةً أنّها تفعلُ ذلك دائمًا عندما احتاجُ إليها.

«نعم، فيرا؟» وانسلتُ من السريرِ، ثمّ انحنيتُ لي كي أقبلَ إليها. وسألتُ همسًا: «ما خطبُكِ، يا صغيرتي؟» وكان بابا ما يزالُ نائمًا.

«ماما، رأسي يوجعُني.»

مستت جبينني بيدها الناعمة الباردة. «يا إلهي، أنتِ محرورة! تعالي، ماما ستُساعدُكِ.» وإذ اقتادتني إلى حُجرةِ الجلوسِ، أنامتني على الأريكة، وذهبت ليحضرَ حُرقةً باردة. «حُذي، تناولي هذا!» وقد عادت بمِلققةٍ وفينينةٍ دواءِ الحُمى التي استعملناها للطفلةِ لينا لما كانت أسنانها تطلع. ففتحتُ فمي وتناولتُ السائل، مُكشِّرةً حِيالَ حلاوتهِ المُغثيةِ ومذاقه المرُّ تاليًا. وقد آلمني البلعُ وشعرتُ بالخشونة الكثيفة في حَنجرتي.

«ماما، رقبتي توجعُني.»

فعدت بجانبني ومسدّت شعري رجوعًا عن جبينني. «اشش، فيرا، ماما هنا معكِ تمامًا، وستتَحسَّنُ عاجلاً. ما عليكِ إلّا أن تستريحي الآن.» ثمّ بلّلتُ وجهي الساخنَ ويديّ الحارّتين ورمتُ لي برفقةٍ باللغة الألمانية. وبعدَ حينٍ غَطِطَ عليّ نومٌ مُضطرب. ثمّ استيقظتُ لأجدَ ماما قد ذهبت ونورَ الشَّمسِ الصّباحيِّ الباكر مُتدفِّقًا عبرَ النّافذة.

كان بابا قد رجَّع توًّا من حَلْبِ البَقَرَات. واستطعتُ أن أسمعَهُ مُناديًا بأبي الأولاد كي ينهضوا لتناولِ الفَطُور. فإذا نمنا إلى وقتٍ مُتأخِّرٍ جدًّا، نُعاني العواقبِ الوخيمة بِسِحْنِنا من السَّريرِ بأقدامنا. وقد كفى اختبارًا كهذا عادةً لِتعليمِ أيِّ نَعسانٍ أن ينهض متى نَدَهنا صوتُ بابانا الهادِرُ إلى مُباشرةِ النَّهارِ.

استطعتُ أن أشمَّ القهوةَ وأسمعَ نشيشَ قَدِيدِ اللَّحْمِ في المقلاة، مُختلِطًا بصوتَي تاتا وماما النَّاعِمين وهُما تُعدَّان الفَطُورَ معًا في المطبخ. وحاولتُ أن أُديرَ رأسي لما دخلَ بابا حُجرةَ الجلوسِ بعدَ حينٍ. وإذ صرختُ عاليًا، أغمضتُ عينيَّ بإحكامٍ حيالَ الألم. كانت رَقَبَتِي مُتصلِّبة، ودقِّي رأسي بشدَّة. تجمَّعَ الدَّمعُ في عينيَّ لما انحنى أبي فوقِي.

«ما خَطْبُكَ، فيرا؟ قالت لي ماما إنَّكَ لم تكوِني تشعُرِينَ بِتَمَامِ الصَّحَّةِ هذا الصَّبَاحِ.»  
لم يكد صوتي يعلو عن الهمس: «رأسي يوجعني، يوجعني عندما أحرُّهُ.»  
«همم...» اتَّسمتُ نَبْرَاتَهُ بالتفكيرِ والتفهُمِ. «هل تُريدِينَ شيئًا تأكليهنَّ؟»  
فهزَّرتُ رأسي بعضَ الشيءِ.

«طِيب. إذا استريحي فحسب.» وربَّت كِتفي برفقٍ ثمَّ غادَرَ العُرْفَةَ.  
مضى الصَّبَاحُ مُتطاوِلًا. وبعدَ غَسْلِ صُحونِ الفَطُورِ، أَحصَرَت لي ماما شُرْبَةَ ماءٍ باردة. ولكنَّ البلعَ اللمني، ورفضتُ أكثرَ من بضعِ رَشَفَات.  
قالت ماما قَلِقَةً: «فيرا، عليكِ أن تشربي شيئًا ما. لَدَيْكَ حَمَّى. هيَّا، جَرِّي مزيدًا من الرِّشَفَات.»

فبكيتُ وأبيت. وتوسَّلتُ: «ماما، احمليني.» فوضعتني في حِضْنِها وهزَّرتني. فأراحني ذلك، وغَفوتُ وصحوتُ بالتناوب. وعندَ الغداءِ أيضًا، رفضتُ الطَّعامَ. ولمَّا جاء بابا ليُراني قبلَ مُغادرةِ البيتِ بعدَ الأكلِ، مضى والقلُّقُ بادٍ عليه. «أظنُّ أنَّني سأُتصلُ بالدُّكتورِ ريم وأرى هل يقدرُ أن يُعرِّجَ عَلَيْنَا في زيارةٍ عصرَ اليوم.» هكذا سمعتهُ يقولُ لِماما وهو مُنصرفٍ.

لمَّا جاء الدُّكتورُ ريم حاملًا الحقيبةَ السوداءَ التي كان يستعمِلُها في الزِّياراتِ البيتيَّةِ، أخذَ حرارتي وتسمَّعَ لقلبي ورثيَّتي. وبعدَ إكمالِ فَحصِهِ لي، بدا رزينًا. وقد تركَ لدى ماما دواءً «لإنزالِ الحرارة»، كما قال. وكانت كلمائهُ عندَ المُغادرةِ: «إن لم تنزَلِ حرارتُها أو لاقت صعوبةً في التَّنْفُوسِ، فلا تتردَّدوا في أخذها إلى المُستشفى.»

تطاوَل العَصْرُ وحلَّ المساء، فوجِعني جِسمي كُلُّه بِشَكْلِ يُرْتِي له. دَقَّ رَأْسي بِشِدَّة، وتحوَّلَ بُكائي إلى أُنَاتٍ واهِيَةٍ. لقد كُنْتُ أَكثَرَ تَعَبًا من أن أبكي فِعْلًا.

«ماما؟»

«نعم، صغيرتي؟» ولاقَت عينا ماما الرِّقِقتان عينيَّ بِرَفق.

«ماما، هل أَتَحَسَّنُ عاجِلًا؟»

«أُصَلِّي لِأَجْلِ ذلك، فِيرا. إمَّا اهدِإي واستريحي.»

امتدَّت زِلالُ المساء على تِلالِ أُوهايو حينَ أَنتِ خطواتُ بابا الواسعةُ به من الحظيرة. «هل من تحسُّن؟» وكان صوتُهُ أَهدأ من المُعتاد.

رأيتُ ماما تهزُّ رَأْسها نَفِيًا، واستطعتُ أن أرى القَلَقَ في عينيها وقد كان صوتُها هادئًا بالمِثْلِ. «أخشى أن تكونَ حالُها أسوأ، يا فِك. أطرافُها مُتصلِّبة.»

«كيف حرارتُها؟» وأقبلَ نحوي، ناظرًا إليَّ من عُلِّ باهتمامٍ جِدِّيِّ.

ضغَطتُ ماما يَدَها على جِبيني. «ما زالت مُرتَفِعة.»

«أينَ أَنتِ مَوجوعة، فِيرا؟» وقد انحنى فوقي جَزَعًا. فما كانَ مِنِّي إلَّا الأَينُ رَدًّا، فذهَبَ لِيَتَّصَلَ بالطَّيِّب. ولمَّا رَجَعَ بَعْدَ لَحَظات، كانَ سَريعَ الخُطى وكَثيبَ الوجه. «علينا أن نأخُذَها إلى المُستشفى في الحال.» ثمَّ انحنى وحمَلني على ذِراعِيهِ القويَّتَين. وإذِ التفتَ إلى جِدِّيِّ، سأَلها: «هل تستطيعينَ أن تبقيَ مع الأَولاد، أمَّاه؟»

فقالَت تاتا: «طَبَعًا، فِكْتور!»

وإذِ استعادَت ماما قَلنسوتَها عِنِ العَلَّاقَةِ، وَضَعَتها على رَأْسها ووَدَّعت الأَولادَ الباقينَ قَبْلَ التَّوجُّه للخروجِ من البابِ مع بابا ومعِي.

وقَفَ أخي أَفردُ ابنُ الأَربَعِ سَنينِ مُستَحِيًّا في مدخلِ البابِ. «باي، فِيرا!»

قلتُ بِصَوْتِ صارٍ: «باي!» وقد وَجِعني حَلقي جَدًّا بِحَيِّثُ لم يخرُجِ الكلامُ صحِيحًا. «أَحسِنِ التَّصَرُّفَ مع تاتا، بُنِّي.» كانتَ كَلِماتُ بابا حازِمة، وما كانَ مِنِ أَفردٍ إلَّا أن أوماً برَأْسِهِ مُوافِقًا. وقد أَغمَضتُ عينيَّ وانتظرتُ، مُنَجِرَفَةً داخِلَ عَمَامَةِ أَلمي وخارجَها. في مُستشفى أولطمان مَدينةِ كانتن، في ولايةِ أُوهايو، أَلقيتُ نَفسي تحت الأَنوارِ السَّاطِعةِ في عُرْفَةِ الطَّوارئِ، تُحيطُ بِي أَقدامٌ سَريِعةُ الحَركةِ وأصواتٌ مَخفضة. كان

الأطباء والممرضات لطفاء، ولكنَّ الإبرَ والحركة والأصواء في أثناء الفحص آلمتني. لقد فزعْتُ وأحسستُ السُّخونةَ والبرودةَ بالتناوب. ولمَّا رأنتني ممرضةً ارتجف، غطتني ببطانيةٍ مُدفئة. فكنكنتُ عميقًا وأغمضتُ عينيَّ بإحكام، مُحاولَةً أن أنجو من الوجع. ثمَّ دخلَ الطبيب، فرفعَ عنيَّ الغطاءَ وقَلبْتُ على جنبي. لقد دفعوا رجليَّ المتصلبتين صعودًا ورأسي إلى الأمام في وضعٍ جنينيٍّ، فصرختُ من الألم الشديد. وقالت لي الممرضةُ مُهدئةً وهي تُمسدُّ شعري: «مهلاً حبيبتي. سيدومُ هذا مُجرَّدَ لحظات.» حاولتُ أن أقاومَ الوضعَ المؤلمَ، ولكنَّ ممرضةً أخرى ثبَّتتني في مكاني. فأحسستُ وجعًا حارقًا في ظهري، وتقطرتِ الدُموعُ على وجهي، وقلتُ آنهً: «ماما.»

«اشش، حبيبتي. يُمكنك أن تزي ماماكِ عاجلاً. إنَّما ابقي ساكنةً وكُوني فتاةً صالحة.» بدتِ تلكَ الدقائقُ العشرُ وقتًا طويلًا جدًّا. ولمَّا انتهتِ البزلُ القطنيُّ أخيرًا، وباتت في وُسعي أن أستلقيَ للمعتاد والأغصيةَ مشدودةً فوقِي، كانتِ الدُموعُ ما تزالُ تسيءُ على خديَّ. فمسحتُ لي الممرضةُ الدُموعَ عن وجهي وأحكمتُ تغطيتي بالبطانية. «انتهى الأمر، عزيزتي. لكِ الآن أن تستريحي.»

ما سمعتُ قطُّ الكلماتِ المشؤومةَ التي قالها الطبيبُ لوالديَّ. ولكنَّ في غرفةٍ أخرى كان الطبيبُ يُعلمهما بجديَّةٍ أنني بحاجةٌ لأنَّ أُدخلَ إلى المستشفى في الحال.

«أنا أسفٌ جدًّا. لقد جاءت نتيجةُ البزلِ إيجابيةً بوجودِ شللٍ أطفال. سنجعلُها مُستريحةً بقدرِ الإمكان. ولكنني أخشى أن يكونَ علينا تويُّ أمرٍ إصابةٍ وبائية.» كانتِ تلكَ سنةَ ١٩٥٢، وكانَ شللُ الأطفالِ مُستشريًا في أنحاءِ البلد. وقد هزَّ الطبيبُ رأسه بأسى. وبعدَ طمأنئتهما بأنَّه سيعملُ كلَّ ما في وُسعه لأجلي، تركهُما ليتقبَّلا الخبرَ وحدهُما. في تلكَ الأثناء، كُنْتُ أدفعُ على نقالةٍ مُدوّلةٍ صُعودًا إلى الطابقِ الخامسِ من المستشفى. وهُنا في المَشَمَس، انضمتُ إلى مرضى آخرين في جناحِ شللِ الأطفالِ شبه المعزول. وقد فصتني ممرضةٌ بأشهُ رشيقةً في الحال.

«مرحبًا، ما اسمُكِ، يا صغيرة؟»

كانتَ عيناها الباسمتان لطيفتين ويداها مترفقتين. وقد بدا أنَّها أحستُ كم كُنْتُ خائفة. فقلْتُ بصوتٍ صارٍ: «فيرا.»

«اسمٌ جميل، عزيزي. افتحي لي فمكِ، لو سمحت!» ثمّ دسّت ميزانَ حرارة تحت لساني، وأمسكت يدي قليلاً بين أصابعها الدافئة ريثما أخذت نبضي. كانت كفيّة بشكل واضح. ولكن هيمَنَ عيلها حنانٌ مُريحٌ أيضاً. «فيرا، اسمي مسز غاسطن، وسأتولّى الاعتناء بك في أثناء المدة القصيرة التالية. ما عليك إلا أن تستلقي ساكنة الآن وتستريحي وتحسّني عاجلاً بالفعل.» وأعطتني إحدى ابتساماتها الرقيقة قبل أن تدورَ ومضِي بنشاط.

فعلتُ كما قيل لي واستلقيتُ ساكنةً. لم يكن هناك أيُّ شيءٍ آخر أستطيع أن أعمله. فالآن باتَ كاملٌ جذعي وذراعيّ مشلولة. إمّا رقبتي وساقاي فقط كانت تتحرّك جُزئياً. «ماما!» صرختُ مُناديةً التعزية الوحيدة التي أعرفها ممّا باتَ تنفّسي عسيراً.

عادَت الممرّضاتُ سريعاً، ولقّفنَ بطني وذراعيّ بخرقِ صوفٍ ساخنة لإراحة عضلاتي المتصلّبة. فأحسستُ أيّ وحدي بصورةٍ مؤسّسة، وتوسّلتُ: «ماما!»

تكتّ الدقائقُ مؤلّيةً، وباتَ تنفّسي حَسَنًا. وإذ كافحتُ لأخذِ النَّفسِ عبْرَ غَمَامَةٍ من الألم، سمعتُ صوتَ الدُّكتور ريم. وقد بدا الصّوتُ آتياً من مكانٍ بعيد. «إنّها تتنفّسُ بعَضَلاتها البطنيّة الآن بدلاً من عضلاتِ صَدْرِها. ينبغي أن ننقلها إلى آلةِ التَّنْفِيسِ الاصطناعيّ.»

شعرتُ بجِسمي المتصلّب المتخشّب يُرفع. ثمّ مددوني على سريرٍ داخلِ أسطوانةٍ معدنيّةٍ مكيفّة الضّغط، وعدّلوا الرِّغوةَ المطاطيّةَ حولَ رقبتي. وقد برَزَ رأسي خارجَ طرفِ ذلك الأنبوبِ المعدنيّ الكبير، فيما اختفى جِسمي داخلَه. ثمّ أغلقوا الفتحاتَ الجانيّةَ وشغّلوا الآلة. وفجأةً شعرتُ كأنّني أستطيعُ التَّنْفِيسَ من جديد. لقد كنتُ مرهقةً جدًّا حتّى أغمضتُ عينيّ.

ثمّ وجدتها بِقُربِي. تمتمتُ باسمي برِقّة: «فيرا» ففتحَ عينيّ بعدَ جَهد.

قلتُ مُتلعِثمةً بِضعف: «ماما.» ولمسّتُ لي شعري.

ثمّ أحسستُ يدًا أخرى تمسُّ وجهي، كانت يدَ بابا التي خشنها العمل.

«فيرا، نحنُ هنا.»

رفعتُ نظري لأري عينيّ كليهما مُغرورفتين. ولم أعلم أن الطَّبيبَ كان قد أخبرهُما نوًّا بأنّني رُمّا لا أعيشُ عبْرَ تلك اللّيلة.

أغمضتُ عينيَّ بِصَجَرٍ، ولكنْ من خِلالِ الصَّبَابِ سَمِعْتُ أبَا يقول: «لن تموتَ،  
إمَّا. لَن أدَعَهَا.»

«إنَّها في يَدِي اللهُ، فَك. سيؤوُلُ الأمرُ إلى الخير!» انجرفْتُ بعيدًا إلى وَقَعِ صَوْتِ ماما،  
فيما انحسرتْ مَوْجَةُ الأَلَمِ أمامَ أمواجِ الإعياءِ التي اكتنفتني.  
وبجانبي انتظرَ والداي وصلِّيًا.



## معارك كبيرة وصغيرة

طَوَالَ اللَّيْلِ اسْتَيْقِظْتُ وَنِمْتُ فِي غَمَامَةٍ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْمَكْتُومَةِ وَالْكَوَابِيسِ وَالْأَلَمِ. حَلَمْتُ بِظُلْمَةٍ عَظِيمَةٍ تَكْتَنِفُنِي، وَاسْتَوَلَى عَلَيَّ خَوْفٌ شَدِيدٌ حَتَّى عَجَزْتُ عَنِ الْحَرَكَةِ أَوْ التَّنَفُّسِ. ثُمَّ سَمِعْتُ مَامَا تُنَادِينِي بِاسْمِي. فَاسْتَيْقِظْتُ لِأَجِدَهَا مَا زَالَتْ هُنَاكَ بِقُرْبِي، مُمَسَّدَةً شَعْرِي وَهَامِسَةً بِالتَّعْزِيَةِ فِي أُذُنِي. وَانْجَرَفْتُ مِنْ جَدِيدٍ دَاخِلَ أَحْلَامٍ مُضْطَّرِبَةٍ.

«مَامَا، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَنَفَّسَ! سَاعِدِينِي.» وَحَاوَلْتُ أَنْ أَجْلِسَ، إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ. فَالْشَّلُّ فِي رُئْتِي، يُرَافِقُهُ تَجَمُّعُ سَوَائِلَ، آتَانِي شُعُورًا مُلْهِثًا بِالِاخْتِنَاقِ، وَقَدْ نَاضَلْتُ ضِدَّهُ.

وَبَيْنَمَا حَارَبْتُ لِأَجْلِ حَيَاتِي، قَلَّمَا أَدْرَكْتُ مَعَارِكَ الصَّلَاةِ الْمُلتَمَعَةِ الَّتِي خَاضَهَا أَبَوَاي وَهُمَا يُرَاقِبَانِي فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الطَّوِيلَةِ. لَمْ أَعِ الْمَعَارِكَ الَّتِي كَانَ الْأَطِبَّاءُ وَالْمُمرَضَاتُ الْأَبْطَالُ فِي أَنْحَاءِ بِلَادِي يَخُوضُونَهَا ضِدَّ الْوَبَاءِ الْمُرُوعِ.

وَلَمْ أَعْلَمْ أَنَّهُ فِي مَكَانٍ مَا، لَا يَبْعُدُ كِيلُومِتْرَاتٍ كَثِيرَةً عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنَا مُمَدَّدَةٌ فِيهِ مُتَنَفِّسَةً بِخَشُونَةٍ شَدِيدَةٍ، كَانَ صَبِيٌّ صَغِيرٌ فِي سِنِّي قَدْ مُدِّدَ مَدْفُونًا، بَعْدَمَا مَاتَ بِهَذَا الْمَرَضِ الْمُخِيفِ نَفْسَهُ. حَتَّى إِنَّ وَالِدِي دُونَالِدَ هِيرشِرِغِرَ لَمْ يُسَمَّحْ لَهُمَا بِإِقَامَةِ جَنَازَةٍ لِابْنِهِمَا الْبَالِغِ سِنَّتَيْنِ. فَمَصْلُحَةُ الصَّحَّةِ الْمُحَلِّيَّةِ سَمَّحَتْ فَقَطْ بِخِدْمَةِ دَفْنٍ وَجِيذَةٍ بِجَانِبِ الْمُقْبَرَةِ لِلْعَائِلَةِ وَالْأَهْلِ الْمَفْجُوعِينَ. إِنَّ وَبَاءَ شَلَلِ الْأَطْفَالِ الَّذِي اجْتَاكَ بِلَادَنَا حَبَسَ كَثِيرِينَ فِي قَبْضَةِ الرُّعْبِ. فَلَمْ يَكُنْ مُحَابِبًا لِأَحَدٍ، وَقَدْ فَهِمَ أَقْلَاءَ، إِنْ كَانَ قَدْ فَهِمَ أَحَدٌ، طَبِيعَةَ عَدُوِّ شَلَلِ الْأَطْفَالِ. وَسَنَةَ ١٩٥٢ كَانَ الْعُلَمَاءُ قَدْ بَدَأُوا فَقَطْ يَفْهَمُونَ الْفَيْرُوسَ وَكَيْفَ

انتشر، ولم يوجد أيُّ علاجٍ معروف. ومع أنَّ نِسبَةً مئويَّةً ضئيلةً فقط من ضحايا شلل الأطفال صاروا مشلولين تمامًا، فإنَّ اتِّجاهاتِ المرَضِ الوَبائِيَّةِ أَلَقَتِ الرُّعْبَ بين مجموعات السُّكَّانِ في أنحاء الولاياتِ المِتَّحِدَةِ كُلِّهَا.

بالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، كانتِ الأَيَّامُ التي أعقَبَتِ إدخالي المُستشفى عَمَامَةً من النَّضالِ لأجلِ النَّفْسِ، ومُحاوَلَةِ النَّوْمِ، واحْتِمَالِ الأَلَمِ. ولم أَكْذُ الأَحِظُ ما جرى حَولِي. غيرَ أَنَّنِي لاحظْتُ أمرين. فقد لاحظْتُ متى اهْتَمَّتْ باربرا غاسْطُنْ بي، وعرَفْتُ متى كان والدَيَّ هُنَاكَ ومتى لم يكونا.

كان حضورُ ماما هُنَاكَ أَقَلَّ تَوَاتُرًا من حُضُورِ بابا، بما أنَّ الأولادَ الباقين كانوا بِحاجةٍ إليها أيضًا. فكلُّ مساءٍ، كُنْتُ أَسْمَعُ وَفَعَّ حُطَى أَبِي التَّقِيلَ في الرِّدْهَةِ، حتَّى فوقَ صَوْتِ الأنفاسِ المُفَقَّعِ بِاستِمْرارِ والصدِّرِ من رثتي الحديديَّةِ. لقد جاءَ أبي دأَمًا، حتَّى بعدَ نهارٍ من العَمَلِ الشَّاقِّ وأداءِ المهامِّ. وكانت رؤيتي إيَّاه آتِيًا حَولَ الرِّاويَةِ تُؤْتِينِي شُعُورًا بالأمانِ لا يُمكنُ أن يُحدِثَهُ أيُّ شيءٍ آخَرَ. فكانتِ النُّقْطَةُ الأَشَدُّ إِشْرَاقًا في أَيَّامِي أن أُحَسَّ تلكَ اليدَ الكَبِيرَةَ التي خَشَنَها العَمَلُ تَمَسُّ وجهي وتَمَسُّ شعري، وأسمَعُ صَوْتَهُ المُدَوِّيَّ عادةً يسألُ بِلُطْفٍ: «كيفَ حالُ صغيرتي فِيرا اللَّيْلَةَ؟»

أحيانًا، وهو جالسٌ بِقُرْبِي مدى ساعاتِ المساءِ الطَّوِيلَةِ، كان يحكي لي قِصَصًا، وأحيانًا كُنَّا نَسْتَرِيحُ في صمتٍ مقرونٍ بالتَّفكيرِ والتأمُّلِ. وكان مُجرَّدُ وجودِهِ بِقُرْبِي كافيًا. ولكنَّ أحيانًا كانت وطأهُ المرَضِ تشنُّدُ عليَّ جدًّا حتَّى لا أكادُ أعرفُ أنَّ أبي بِقُرْبِي. وقد كان أوَّلُ أسبوعينِ لي في المُستشفى حُصُوصًا على هذه الصُّورة. إذ أُصِبْتُ بذاتِ الرُّئَةِ من جرَّاءِ تجمُّعِ السائلِ في رثتي وقُدْرَتِي المُضَعَفَةِ على السُّعالِ. وفي أعقابِ الإصابةِ، حصَلَتِ حُمَّى مُرتَفِعَةٍ. فكافَحْتُ لأجلِ حياتي مُجدِّدًا.

امتَلأتِ رثاتي بِالبلغمِ، وكنْتُ غيرَ قادرةٍ على إخراجه بالسُّعالِ. فكنْتُ أُخْتَبِقُ وأتَقَيَّأُ من خُيُوطِ المُخاطِ الكثيفةِ، وأصيرُ شاحِبَةً أحيانًا إذ أُجاهِدُ لأخِذِ النَّفْسِ. وهذه الأوقاتُ كانت دأَمًا تُحَضِّرُ الأطبَّاءَ والمُمرَضاتِ راكضين. فكانوا يبذلون كلَّ جهدٍ لِضَحِّ البلغمِ خارجًا، ساحبينَ منه حَبالًا لِرِجَّةٍ طويَلةٍ من فمي لتنظيفِ مَجاريِّ الهوائيَّةِ.

ومُجدِّدًا، لم أعرفُ شيئًا عن المعاركِ التي يجري حَوضُها في نَفْسِي والدِّي، أو أيَّةَ معاركٍ تُخاضُ في السَّماويَّاتِ على نَفْسِيهِمَا. غيرَ أَنَّهُما بعدَ ذلكِ بِسِنينِ أَخْبَراني عنها.

كانت ماما امرأة ذات إيمان. لقد حَزَنْتِ لِأَلَمِي وَعَجْزِي، وَلَكِنَّ ثِقَّتَهَا الْوَادِعَةَ بِاللَّهِ أَبَقَّتَهَا قَوِيَّةً. أَمَّا بَابَايَ، فَقَدْ كَانَتْ قُوَّتُهُ سَبَبَ سُقُوطِهِ. وَكَانَ عَاقِدَ الْعَزْمِ عَلَى أَنْ يُبْقِيَنِي حَيَّةً.

ذَاتَ لَيْلَةٍ، بَعْدَ نَحْوِ أُسْبُوعَيْنِ فِي الْمُسْتَشْفَى، أُصِبتُ بِنَوْبَةِ اخْتِنَاقٍ فِي أَثْنَاءِ وُجُودِ بَابَا هُنَاكَ. وَبَعْدَ جِهَادِي بِتِّ مُهَكَّةً وَضَعِيفَةً لِلْغَايَةِ بِحَيْثُ لَمْ أُسْتَطِعِ الرَّدَّ لَمَّا نَادَانِي بِاسْمِي. حَتَّى إِذْنِي لَمْ أُسْتَطِعِ فَتَحَ عَيْنَيَّ.

وَإِذْ أَصَغَى بَابَا عَاجِزًا إِلَى تَنْفُسِي الصَّحْلِ الْمُتَقَطِّعِ، سَرَحَ ذِهْنُهُ رَجُوعًا إِلَى فِرَاشِ احْتِضَارِ أَبِيهِ قَبْلَ سِنِينَ كَثِيرَةٍ. كَانَ ذَلِكَ عَصْرَ نَهَارٍ شَتَائِيٍّ بَارِدٍ سَنَةِ ١٩٣٨، قُبَيْلَ عِيدِ الْمِيلَادِ، لَمَّا نُويِّي أَبُوهُ.

حَضَرَهُ الْمَشْهُدُ مِنْ جَدِيدٍ بوضوح، كما لو كان في الخامسة عشرة ثَانِيَةً: الْوُجُوهُ الْكَنْيْبِيَّةُ لِأَخُوْتِهِ الْأَكْبَرِ سَنًا، خَدًّا أُمَّهُ الرَّقِيقَةَ الْمُبْقَعَانَ بِالدُّمُوعِ، الْبُكَاءُ النَّاعِمُ مِنْ أُخْتِهِ الصَّغْرَى، وَقَدْ وَقَفُوا جَمِيعًا حَوْلَ السَّرِيرِ. وَمَا زَالَ الصَّوْتُ الْخَشِنُ لِذَلِكَ السُّعَالِ الْمُبْرَحِ يَتَرَدَّدُ فِي أُذُنِيهِ، عَالِيًا عَلَى نَحْوِ مَوْلِمٍ فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ السَّاكِنَةِ لَوْلَاهُ. كَانَ الْجَدُّ قَدْ سَعَلَ دَمًا مِرَارًا وَتَكَرَّرًا، وَكَانَ فِكْتُورَ عَاجِزًا عَنْ تَسْكِينِ الدَّاءِ.

ثُمَّ جَاءَ صَبَاحُ الْمِيلَادِ، بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. كَانَ يَوْمًا بَارِدًا مُلْبَدًا بِالْغَيْومِ، سَمَاوُهُ مُكْفَهَرَةٌ وَصَامِتَةٌ بِتَلْجٍ غَيْرِ مَصْرُوفٍ. فَبَيْنَمَا هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ عَبَّرَ الْحَشْدَ، اجْتَمَعَتِ عَائِلَةٌ سَمِيونَ أَوْفَرَهْلْتِ وَأَصْدِقَاؤُهُ لِدَفْنِهِ. وَقَدْ جَمَدَتِ دُمُوعُ فِكْتُورِ دَاخِلَهُ. لَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ بَعْدَمَا رَحَلَ أَبُوهُ سَيُضْطَرُّ الْآنَ لِأَنْ يَكُونَ رَجُلًا لِأَجْلِ أُمِّهِ وَإِخْوَتِهِ، وَالرُّجَالُ لَا يَبْكُونَ.

وَإِذَا كَانَ أَبُوهُ قَدْ عَلَّمَهُ شَيْئًا مَا، فَهُوَ الرُّجُولَةُ. فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنَاءِ سَمِيونَ التَّسْعَةِ احْتَرَمَهُ احْتِرَامًا عَمِيقًا، وَلَمْ يَجْرُؤْ أَيُّ مِنْهُمْ عَلَى تَحْدِي سُلْطَتِهِ. كَانَ رَجُلًا قَلِيلَ الْكَلَامِ، جَدِّي التَّصْرُفِ، ذَا أَخْلَاقٍ رَفِيعَةٍ فِي الْعَمَلِ. وَغَالِبًا مَا رَجَعَتْ كَلِمَاتُهُ إِلَى بَابَايَ فِي السَّنِينَ اللَّاحِقَةِ الْحَافِلَةِ بِالْعَمَلِ الشَّاقِّ وَالْكِفَاحِ: «فِكْتُورِ، إِنْ لَمْ تُجَرِّبِ الْأَمْرَ فَلَنْ تَعْرِفَ أَبَدًا مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْمَلَهُ.»

وَلَكِنْ الْآنَ إِذْ شَاهَدْتَنِي وَالِدِي، انْقَضَ عَلَيْهِ بِكُلِّ شِدَّةٍ ذَلِكَ الشُّعُورُ غَيْرُ الْمَرْغُوبِ فِيهِ بِالْعَجْزِ. فَعَلِمَ أَنْ لَيْسَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ مَا عَدَا الصَّلَاةَ. وَلَمْ يَبْدُ أَنْ صَلَوَاتِهِ تَتَخَطَّى سَقْفَ الْغُرْفَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ. «اللَّهُمَّ، أَنْتَ تَعَلَّمْ مَا أُرِيدُهُ.» حَتَّى مِنْ خِلَالِ ضَعْفِي، سَمِعْتُهُ يُصَلِّي بِسُكُونٍ قَرِيبِي. «يَنْبَغِي أَنْ تَعِيشَ قَرِيبًا، يَا اللَّهُ. رَجَاءً، اجْعَلْهَا صَبِيحَةً!»

ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَنْهَضُ. لَمْ أَرِدْ لَهُ أَنْ يَنْصَرِفَ. وَتَحَرَّكْتُ، إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَسْتَطِيعَ بَعْدُ أَنْ أَفْتَحَ عَيْنَيَّ. إِنَّمَا سَمِعْتُ وَقَعَ خَطَوَاتِهِ الثَّقِيلَةَ يَتَحَرَّكُ ذَهَابًا وَإِبَابًا بَقْرِي. وَإِذَا اسْتَرَحْتُ، انْجَرَفْتُ فِي نَوْمٍ مِنْهُكَ.

إِلَى جَانِبِي، اسْتَمَرَّ بَابَا يُصَلِّي، مُتَضَرِّعًا إِلَى اللَّهِ لِأَجْلِ حَيَاتِي. إِنَّ الْمَعْرَكَةَ فِي دَاخِلِهِ لَمْ تَكُنْ مَعْنِيَّةً بِي فَقَط. لَقَدْ كَانَتْ مَعْنِيَّةً بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِمَنَ اللَّهُ عَلَى حَيَاتِهِ هُوَ أَيْضًا؟ اعْتَادَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْكَنِيسَةِ دَائِمًا، وَقَدْ تَبَعَ اللَّهُ عَلَى طَرِيقَةٍ مَا. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ قَدْ سَلَّمَ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى التَّمَامِ.

لِيَتَنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسَاعِدَهَا! لِيَتَنِي... فَكَّرْتُ يَانَسًا. لَقَدْ رَغِبَ فِي أَنْ تَكُونَ قُوَّتُهُ قُوَّتِي. لَنْ أَدْعَهَا تَمُوتَ. وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قَبْلُ تَمَامًا، تَأَقَّ أَنْ يَحْتَضِنَنِي بِذِرَاعِيهِ الْقَوِيَّتَيْنِ. غَيْرَ أَنَّ حَمْلَهُ لِي الْآنَ سَيَعْنِي مَوْتًا حَتْمِيًّا.

لَعَلَّ هَذِهِ الْمُوَازَاةَ هِيَ الَّتِي اخْتَرَقَتْ صَمِيمَ بَابَايَ بِشَأْنِ الْخِيَارِ الْمَائِلِ أَمَامَهُ. إِذَا حَمَلَنِي وَأَرَاخَنِي، أَمُوتُ. فَيَنْبَغِي لِي أَنْ أَكُونَ دَاخِلَ الرُّتَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ كِي أَنْتَفَسَ. وَهَكَذَا هُوَ أَيْضًا تَأَقُّ إِلَى التَّمَسُّكِ بِحَيَاتِي وَجَعَلِي أَعِيشَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْيِي.

وَاجْهَتُهُ الْحَقِيقَةُ بِقُوَّةٍ مُجَدَّدَةٍ. «أَنَا بِلَا عَوْنٍ لِأَعِينَهَا. يَا رَبُّ... لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ هَذَا... بَعْدَ الْآنِ.» انْكَسَرَ قَلْبُهُ، وَإِذْ دَسَّ رَأْسَهُ فِي يَدَيْهِ بَكِي. لَمْ أَسْمَعْ قَطُّ بِبَابَايَ يَبْكِي، إِذْ كَانَ النَّوْمُ يَغْمُرُنِي. وَلَكِنَّ شَخْصًا آخَرَ كَانَ عَلِيمًا بِالصَّرَاعِ تَمَامًا، وَمَسْرُورًا جَدًّا بِأَنْ يُعِينَ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ هَذَا. فَكَانَتْ تِلْكَ لِحِظَةً فِيهَا حَبَسَتِ السَّمَاءُ نَفْسَهَا، وَالآبُ انْتَظَرَ. لَقَدْ شَعَرَ فَيَكْتَوِرُ بِثِقَلِ عِنَادِهِ، وَبِكَرْبِ الْمَوْتِ مُطْبِقًا عَلَى نَفْسِهِ. وَغَافِلًا عَنِ أَيِّ شَيْءٍ حَوْلَهُ، جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

«آه، يَا اللَّهُ، رَجَاءٌ... أَنْتَ تَعْلَمُ مَا أُرِيدُهُ مِنْكَ.»

تَحَوَّلَتِ الدُّمُوعُ إِلَى تَنْهَدَاتٍ مَكْبُوتَةٍ، وَاهْتَرَّتْ كَتِفَا بَابَا الْعَرِيضَتَانِ بِعَاطِفَةٍ مَكْبُوحَةٍ. «وَلَكِنْ، يَا رَبُّ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقَاتِلَ بَعْدَ الْآنِ. لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْقِذَهَا. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُخَلِّصَ نَفْسِي. رَبُّ، لَا تَكُنْ إِرَادَتِي...» وَإِلَى حِينٍ اخْتَنَقَ بِالْكَلِمَاتِ، مُكَافِحًا كِي يَفْتَحَ يَدَهُ وَيُرْخِي كُلَّ مَا كَانَ عَزِيرًا عِنْدَهُ فِي يَدَيْ اللَّهِ غَيْرِ الْمَنْظُورَتَيْنِ. وَكَمَا لَوْ أَنَّ هَذِهِ الْيَدَ غَيْرَ الْمَنْظُورَةَ عَلَى كَتِفِهِ شَدَّدَتْهُ، هَمَسَ بِالْكَلِمَاتِ: «بَلْ إِرَادَتُكَ. مَهْمَا اخْتَرْتَهُ أَنْتَ... فإني... سأقبله. أيها الآب، إنني أسلمك الكل، كل شيء.»

لدى هذه الكلمات، غمره فراغ غريب، كأنما استنفد كل ما عنده كي يقولها. ولكن حتى فيما لاحظ هذا، بدأ الدفء يتدفق في أوصاله. وبدا أن الابتهاج والسلام غمرا نفسه الجريحة، فعلم دون أدنى شك أن صلاته هذه المرة قد سمعت.

وإذ نهض عن ركبتيه ومسح بضع دموع متناثرة عن وجهه الملوّح، نظر إليّ. ثم مس رأسي برفق وانحنى أقرب ليصغي إلى تنفسي. كان الوضع ما زال على حاله طوال أسابيع. ولكن بابا، بطريقة ما، كان في سلام وسكينة. لقد بدا كل شيء مختلفا عما كان عليه قبلا.

وإذ شعر بدوار، قعد على مهل واستأنف سهره. فكر في السنين المنقضية منذ وفاة أبيه، وكيف تساءل غالبا عن الكلمات التي تكلم بها الواعظ في الجنازة. إذ كان الخادم قد قال شيئا ما عن «رجاء حيي»، وعلى مدى سنين لم يعرف بابا حقا ما عناه ذلك الكلام. أخيرا كسب معرفة عقلية له دون شك، ولكنه لم يحص قط داخل قلبه. أما الآن، في هذه اللحظة المقدسة، فقد علم فجأة، في الجزء الأعمق من كيانه، ماذا عنى أن يحوز المرء «رجاء حييا». وبتسليم القلب ذاك لله، لم يجد السلام فقط بل حياة جديدة أيضا.

شكوت أنه في نومي، ونهض بابا كي يؤاسيني. كان المساء أخذا في التآخر، وسيكون عليه عاجلا أن يُعادِر ليلا. ولكنه أراد أن ينتظر حتى تعود الممرضة. لقد أدرك فجأة أن شيئا ما قد تغير. أكان يتصور ذلك؟ شيء ما في تنفسي بدا مختلفا. فهو ما عاد خشنا وصارًا.

وقف محذفا إليّ من علّ بعض الوقت، متسائلا هل يمكن أن تكون ملاحظاته صحيحة، وهو لا يكاد يجرؤ أن يرجو. فلما دخلت ممرضة الليل بعيد ذلك، أكدت ما كان يفكر فيه. إذ قالت مُبتَهجةً بحذر: «يقينا أنها مُستريحه على نحو أسهل بكثير مما كانت عليه قبل سويعات.»

صباح اليوم التالي، دخل الدكتور اغراهم كالمعتاد. ولما لاحظ أنني بدوت أقلّ إجهادا في تنفسي، أجرى فحصا وافيا. وعندما انتهى، ابتسم لبابا. «إنها بالتأكيد أحسن حالا هذا الصباح. إذا سار كل شيء حسنا من الآن، فقد نكون على الطريق إلى الشفاء.»  
لما قال لي بابا «صباح الخير»، ومض في عينيهِ بريق خاص. لقد كنت بخير كفاية حتى أكلت قليلا من الفطور! ولم أعلم أنه كان محتفلا بأكثر من نوع واحد من «الحياة

الجديدة» ذلك الصَّبَاح. إِمَّا عَلِمْتُ أَنَّهُ كَانَ سَعِيدًا، وَذَلِكَ جَعَلَنِي سَعِيدَةً. فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ بِالِابْتِسَامِ. وَكَانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ابْتَسِمْتُ فِيهَا عَلَى مَدَى أَيَّامٍ.



سَأَلَتِ الْمُرْضَةَ مُلَاطِفَةً: «أَلَسْتَ جَوَاعَنَةً، فَيَرَا؟»

فَقُلْتُ لِأَنخَةً بِلا تَرُدُّدٍ: «حَلِيبَ بِالتُّوْكُولَا». كُنْتُ حَدِيثًا أَتَعَلَّمُ التَّكَلَّمَ بِالْإِنْكَلِيزِيَّةِ، إِذْ كَانَ أَغْلَبُ كَلَامِنَا فِي الْبَيْتِ بِأَلْمَانِيَّةِ بِنَسْلِقَانِيَا. وَكُنْتُ أَفْهَمُ مِنَ الْإِنْكَلِيزِيِّ أَكْثَرَ مِمَّا أَتَكَلَّمُهُ بِهَا، وَلَكِنَّ كَلِمَتَيْنِ عَرَفْتُهُمَا قَبْلَمَا جِئْتُ إِلَى الْمُسْتَشْفَى وَصَفَتَا لَوْنَ طَعَامِي الْمُفْضَلِ.

تَنَهَّدَتِ الْمُرْضَةُ وَهَزَّتْ رَأْسَهَا. «لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَعِيشِي عَلَى الْحَلِيبِ بِالشُّوْكُولَا، عَزِيزِي. إِنَّهُ يُكُونُ مُخَاطَبًا فِي رِثْتِكَ إِذَا شَرِبْتَ كَثِيرًا جَدًّا مِنْهُ. أَنْتِ خَفِيفَةٌ كَرِيشَةَ، وَإِنْ لَمْ تَأْكُلِي طَعَامًا مُنَاسِبًا فَلَنْ تَكْتَسِبِي قُوَّةً. وَمِنْ شَأْنِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَيْبًا الْآنَ، أَمَا؟»  
«مَوْز». وَرَاقَبْتُ وَجْهَهَا بِعَبَثٍ وَخُبْثٍ.

فَقَالَتِ الْمُرْضَةُ مُسَاوِمَةً: «كُلِّي هَذَا الْمِقْدَارَ الضَّيِّلَ مِنَ الْخُضَرِ أَوَّلًا، ثُمَّ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَأْكُلِي قَلِيلًا مِنَ الْمَوْزِ». وَابْتَسَمَتْ لَمَّا فَتَحْتُ فَمِي مُتَرَدِّدَةً لِلِاسْتِجَابَةِ. «ذَلِكَ صَحِيحٌ. الْآنَ سَتَصِيرِينَ كَبِيرَةً وَقَوِيَّةً».

كَشَّرْتُ وَابْتَلَعْتُ الْبَارِزَ وَالْجَزَرَ شَاكِيَةً. وَالْآنَ إِلَى قِضْمَةِ الْمَوْزِ الْمَوْعُودَةِ! كُنْتُ مُتَعَلِّمَةً بِسُرْعَةٍ أَنْ أَحْصَلَ عَلَى مَا أُرِيدُهُ مِنَ الْمُرْضَاتِ. فَقَدْ بَدَوْنَ كُلُّهُنَّ مُجَبَّاتٍ لِي، وَكَدَنَ يُشَعْفَنَ بِي.

إِمَّا كَانَ الْأَكْلُ شَيْئًا رَفُضْتُ أَنْ أُنْجِزَهُ تَمَامًا، حَتَّى لَوْ كَانَتْ مُمَرَّضَتِي الْمُفْضَلَةُ، مِسْرَ غَاسِطُنَ، تَتَمَلَّقُنِي. لَقَدْ كَرِهْتُ مَحَاوَلَةَ الْأَكْلِ. لَمْ أَكُنْ أَتَحَرَّكَ قَطُّ، الْأَمْرُ الَّذِي أَبْقَانِي قَلِيلَةً الْقَابِلِيَّةَ لِلْغَايَةِ. كُنْتُ دَائِمًا مِيَالَةً لِأَنْ أَكُونَ أَكْوَلًا، حَتَّى كَطِفَلَةٍ صَغِيرَةٍ. أَمَا الْآنَ فَقَدْ كَانَتْ الْمَعْرَكَةُ الشَّاقَّةُ لِإِدْخَالِ مَعْدِّيَاتٍ كَافِيَةٍ إِلَى جِسْمِي صَلِيبًا يَوْمِيًّا لِكُلِّ مَسْؤُولٍ لَطِيفٍ عَنِ الْإِعْتِنَاءِ بِي.

«فيرا، إذا كان لك أت تختاري نوعًا واحدًا من الطعام تأكليته كل حين، فأَيُّ نوعٍ تختارين؟ ما هو الشيء المُفضَّلُ عندك لتأكليهِ بالذات؟» كان الدكتور اغراهم يقوم بجولاته اليومية المعتادة، ولا بدَّ أنه كان قلقًا حيال النُحول الشَّدِيد الذي بَلَغَهُ.

رفعتُ نظري وابتسمتُ له ابتسامَةً عريضة أبرزت أسناني. «مَثَانات.» لم أكن قطُّ قد عرَفْتُ ما كانت هذه قبلما جنْتُ إلى المُستشفى. ولكنَّ المُمرَّضات، في استِمَاتِهِنَّ لَجعلي آكل، جَرَبْنَ كلَّ شيءٍ تقريبا. وقد أحرزتِ المَصاصاتُ المُثلَّجة نِجاحًا نادرًا.

طلَبَ الدكتور اغراهم أن تُوزَّع المَصاصاتُ المُثلَّجة في جَنَاحِ شَلَل الأطفال على أساسٍ يوميٍّ. كم أحببتُ أن أَلحَسَ ذلك التَّلج المَلوَّن لِساني، لِيَتَقَطَّرَ نِزولًا على ذقني السائلِ المُنتَهِ بالفاكهة! وفي ما بعد، استجابةً لِتوسُّلي، نال جميعُ الأولاد الآخرين في الجَنَاحِ واحدةً كُلَّ يومٍ أيضًا. وقد أصبحَ ذلك بُقعةً مُشرِقةً في روتيننا اليوميِّ.

كان التَّعافي مُضجِرًا، وموَلِّمًا أَغلبَ الأحيان. إذ كان كلُّ يومٍ حافلًا بِنِوباتِ الوجباتِ والتَّمارين والقيُولاتِ والكِماداتِ السَّاخنة. وكان التَّكْمِيدُ السَّاخِنُ هو النَّشاطُ الأَقَلُّ تفضيلًا عندي. فقد كان يُجرى خمسَ مرَّاتٍ على مدارِ السَّاعة، وكُلُّ وِلْدٍ في الجَنَاحِ كرهَ تلكَ الخِرَقَ الصُّوفيَّةَ الحارَّةَ المُستَحَكَّةَ. ومن ثَمَّ ابتكرنا نوعًا من اللُّعبة بيننا لِرَفْعِ المعنوياتِ الجَماعيةِ استِعدادًا لِلِمحنةِ المُعَدَّبةِ.

يسألُ ماثيو مُحزَّرًا: «كيفِ الكِماداتُ السَّاخنةُ اللَّيلة؟»

فتَهتِفُ سارةُ مُعبرةً: «أووهِ، ساخنة!»

«أووهِ...» تنطَلِقُ أَنَّهُ جَماعيةٌ مِنَّا جميعًا، نحنُ الأولادُ في الجَنَاحِ، فيما تُدفعُ عربتهُ

تبخيرِ الكِماداتِ إلى المريضِ التَّالي.

متى جاءَ دَوري، كنتُ دائمًا أُشِيخُ وجهي عن المُرُضةِ لِأُبَوِّز. وكانت تُلْفُ ذِرَاعِيَّ وساقِيَّ وكَتِفِيَّ وجِدعي وظهري بالخِرَقِ السَّاخنةِ المُبْحَرَّةِ، ثُمَّ تُغَطِّيها بِالپلاستيكِ لِإِبقائها دافئةً ورطبةً. وقد كانت تَفَعَلُ هذا كُلَّهُ من خِلالِ فَتحاتِ رَتَّتي الحديديَّةِ.

وإذ تُهرَعُ إلى المريضِ التَّالي، تقولُ لي بِمَرَحٍ: «نصف ساعة فقط، حبيبتي، ثُمَّ يُمَكِّننا أن نَشيلها!» وكُنْتُ ما أزالُ غيرَ ناظِرَةٍ إليها. حتَّى إذا جاءت لِتَشيلها، كنتُ دائمًا أشعُرُ بالسُّخونةِ والحِكةِ والنَّكدِ، وإن كان التَّصلُّبُ والألمُ في أطرافي وجسمي يُسَكِّنان

إلى حين.

كان صَرَرُ الشَّلَلِ على رِئَتِي شاملاً، وكافحتُ كي أُفَصَلَ عن الرِّئَةِ الحَديديَّةِ أَكثَرَ بِكثِيرٍ مِمَّا كَافَحَ بَعْضُ المَرَضَى الأَخرين. ولكن قَليلاً فقليلًا، أوَّلاً بإبقاء إحدى الفَتَحاتِ مَفتوحَةً على جانب الرِّئَةِ لِتَخفيفِ الضَّغْطِ في الدَّاخل، ثُمَّ بتمريني تدريجيًّا بِضَعِ دَقائِقِ خَارِجِ الرِّئَةِ، بدأتُ أَنْعَلِمُ التَّنَفُّسَ قَليلاً جَدًّا وحدي.

ذاتَ صَباحٍ كانتِ مِسرُ جِوانَ لِتَلفيلِ تَتولَّى الاعْتِناءَ بي. ابتسمت لي ابتسامَةً عَريضةً وأَعَلَمَتَنِي: «فِرا، اليَومَ قال الطَّيِّبُ إنَّ في وُسعِكَ أن تُجَرِّي اسْتِعمالَ السَّريرِ الهَزارِ. أَتُحِبِّينَ ذلكَ؟» فنظرتُ إليها وهَزَزْتُ رَأسي موافقَةً: «نعم، رِجاءُ!»

ضَحِكْتَ ضَحكةً خافِةً. «أَحسَنَتِ، فِرا. أنتِ تَتَعَلَّمينَ حُسنَ السُّلوكِ بِكُلِّ تَهذيبٍ.»

جَعَلَتَنِي إِطراءُها أَشعُرُ بالطَّمأنينةِ والسَّعادةِ في داخلي، وكنْتُ نَوَافَةً لِإِرضائِها إِذِ فَتَحَتِ الرِّئَةَ الحَديديَّةَ وَجَهَّزَتَنِي لِاعتِلاءِ السَّريرِ الهَزارِ.

كان السَّريرِ الهَزارِ منصوبًا في الرِّدْهةِ، وقد اسْتَعَمَلَتِ حَركَتَهُ التَّرْجِيحِيَّةَ جاذبيَّةَ الأَرْضِ لِذَفْعِ الهِواءِ إِلى داخِلِ رِئَتِي المَريضِ وخارِجَها. أوَّلَ الأَمْرِ، شَعَرْتُ بانقِطاعِ نَفْسي قَليلاً فَتَشَبَّهْتُ بِالمَمرُضَةِ بِشِدَّةٍ بِواسِطَةِ رِجَليَّ. وَقَلْتُ يائِسَةً: «مِسرُ لِتَلفيلِ، لا أُريدُ هذا.»

«بلى، تُريدِينَهُ طَبعًا، فِرا. لا بأسَ. فقط دَعيْني أُعَدِّكَ حَتَّى تَنطَلِقَ الحَركةُ، وسيكونُ أَسهَلًا عَليكِ أن تَتَنَفَّسي.» ثُمَّ ثَبَّتَنِي على السَّريرِ بِالرِيطَةِ وَأَطلَقَتِ الحَركةَ. وكما وَعَدَتِ تَمامًا، صارَ أَسهَلًا فِعالًا أن أَتَنَفَّسَ. فابْتَسَمْتُ لَها ابتسامَةً مُرْتَعِشةً.

«لا بأسَ، فِرا. سأكونُ هُنا تَمامًا لِأُساعدِكَ. إِمَّا فِكرِي أَنَّكَ إن تَعَلَّمَتِ القِيامَ بِهذا، يَتَسَنَّى لَكَ أن تَقْضي وَقْتًا أَكثَرَ خَارِجَ الرِّئَةِ الحَديديَّةِ.»

أَحبَبْتُ أَيَّ تَحَدٍّ، ولكنَّ شُعورَ الانفِصالِ عن مَحبوبِتي «أَمَرْتَنَ،» كما كُنْتُ أُسَمِّي رِئَةَ أَمَرْتَنَ الحَديديَّةَ الصَّفراءَ اللَّماعةَ، كان صَعَبًا عَلَيَّ. فَمَا زِلْتُ فِيها ثَلاثَةَ أَشْهُرٍ، وقد أَتَنَنِي شُعورًا عَظيمًا بالأَمانِ، خَصوصًا في حَالي المُضَعَّفَةِ.

كانتِ الأَمْرَسُنُ آلَةُ تَنَفُّسٍ بِشَكلِ بِرَميلٍ مَبطوحِ تَشغَلُ على مَبداٍ أَداءِ خِوائِيةٍ. وَكُنْتُ مَحجوزَةً داخِلَ الرِّمِيلِ من رِقبَتِي فما دونَ، وَجِسمِي مُستَقَرٌّ على سَريِرِ مُثَبَّتٍ على سِكَّةٍ مَعَدِنِيَّةٍ تُيسِّرُ الدَّحرجَةَ عَندَ الرِّغْبَةِ. فَمَتى أُديرَ المُحرِّكُ الكَهربائيُّ أَسفَلَ السَّريرِ، ضَخَّ إِلى الخارِجِ مُعْظَمَ الهِواءِ وَجَعَلَ رِئَتِي تَتوسَّعُ. ثُمَّ يُضغَطُ الهِواءُ داخِلَ الرِّمِيلِ فَتَرفُرُ رِئَتاي.

ومتى بدأتُ أؤدي علاماتِ التعبِ في أثناءِ جلساتِ السَّريرِ الهَرَّازِ، عمَدَتِ مِسْرٌ لتلْفِيدِ أو مُمْرَضَةٍ أُخْرَى إلى تشجِيعِي. «مُجْرَدَ دَقَائِقٍ قَلِيلَةٍ بَعْدَ، ثُمَّ نُعِيدُكَ إلى أَمْرَسْنِكَ.» وهكذا كَانَ أَنَّنِي قَلِيلًا فَقَلِيلًا تَعَلَّمْتُ أَنَّ السَّرِيرَ الهَرَّازَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا يُخَافُ منه، بل بالأحرى بَاتَ صَدِيقِي، مِثْلَ أَمْرَسْنِي. وفي عيدِ مَوْلِدِي الرَّابِعِ، بِشَهْرِ تَشْرِينِ الثَّانِي من تلكِ السَّنَةِ، التَّقَطَّتِ المُمْرَضَاتُ صُورَةً لِي وَأَنَا «وَاقِفَةٌ» على السَّرِيرِ الهَرَّازِ.

كَانَ الدَّوْسُ الثَّقِيلُ من خَطَوَاتِ بَابَا فِي الرُّوَاقِ هُوَ البَقْعَةُ الأَشَدُّ إِشْرَاقًا فِي وَجُودِي اليَوْمِيّ. فَلدَى دُخُولِهِ الجَنَاحِ، كُنْتُ دَائِمًا أَسْتَقْبِلُهُ بِشُوقٍ. وَقد كَانَ ودودًا مع باقي الأَوْلَادِ فِي الجَنَاحِ أَيضًا، مُغَايِظًا وَمُضَاحِكًا لَهُم لَدَى مُرُورِهِ بِأَسْرَتِهِمْ. وَكَانَ دَائِمًا يَفْعُدُ على كُرْسِيٍّ بِجَانِبِ رِئْتِي الحَدِيدِيَّةِ، وَيُصْغِي إِلَيَّ مُتَحَدِّثَةً عَن يَوْمِي، مُبْتَسِمًا وَهَازًا رَأْسَهُ، وَأحيانًا مُمَسِّدًا شِعْرِي بِرَفَقٍ.

لَمْ تَأْتِ مَآمَا زَائِرَةً كُلَّ يَوْمٍ. كَانَتْ تَنْتَظِرُ مَوْلودَهَا السَّادِسَ، وَكَانَتْ فِي آخِرِ النَّهَارِ أَكْثَرَ إِعْيَاءٍ مِنْ أَنْ تَجِيءَ. إِذَا كَانَتْ تَأْتِي كَلَّمَا اسْتَطَاعَتْ، وَعِنْدَمَا تَأْتِي أَنشَبْتُ بِكُلِّ لِحْظَةٍ مَعَهَا. وَذَاتَ لَيْلَةٍ قَبْلَ افْتِرَاقِنَا، ابْتَسَمَتْ لِي أُمِّي ابْتِسَامَتَهَا الخَاصَّةَ فَعَلِمْتُ أَنَّ لَدَيْهَا سِرًّا تَقُولُهُ لِي. وَانْتَظَرْتُ بِتَلَهُّفٍ لِأَعْرِفَ مَا هُوَ.

«فَإِذَا، عِنْدَمَا يَجِيءُ الطِّفْلُ، فَهَلْ تُحِبِّينَ أَنْ تُسَاعِدِينَا بِتَسْمِيَّتِهِ.» وَقد كَانَتْ هَذِهِ طَرِيقَةً بِهَا قَرَّرَتْ هِيَ وَأَبِي أَنْ يَعمَلَا على جَعْلِي أَشْعُرُ بِأَنَّي مَشْمُولَةٌ بِوَصُولِ المَوْلُودِ الجَدِيدِ، وَلَوْ كُنْتُ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُونَ فِي البَيْتِ كَبَاقِي أَحْوَاتِي وَإِخْوَتِي.

«أُوهِ، نَعَمْ!» شَعَرْتُ بِسَعَادَةٍ بِالخُفَى فِي دَاخِلِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَغْنِي. «الطِّفْلَةُ لِينَا فَاتِنَةٌ، وَلَكِنِّي مَسْرُورَةٌ بِأَنْ تُرَزِّقَ طِفْلًا آخَرَ.» وَدُونَ فِكْرَةٍ ثَانِيَةٍ، عَرَفْتُ مَاذَا سَأَسْمِي أُخْتِي الطِّفْلَةَ الجَدِيدَةَ هَذِهِ. «وَأَنَا سَأَسْمِيهَا بَارِبْرًا، لِأَنَّ مِسْرَ غَاسِطُنَ هِيَ الَّتِي أُحِبُّهَا أَكْثَرَ الكُلِّ.»

فَضْلًا عَن زِيَارَاتِ بَابَا اليَوْمِيَّةِ، كَانَ اعْتِنَاءُ مِسْرَ غَاسِطُنَ المَرِحِ بِالدَّعَامَةِ الأَسَاسِيَّةِ فِي رُوتِينِي اليَوْمِيّ، وَقد أَحْبَبْتُهَا بِكُلِّ قَلْبِي الصَّغِيرِ. وَلَكِنِّي كُنْتُ صَغِيرَةً وَمُتَقَلِّبَةً، وَكَانَ فِي وَسْعِي أَنْ أَكُونَ انْتِقَامِيَّةً. فَقد خُضْتُ مَعْرَكَةً صَغِيرَةً دَائِمَةً النَّتَاجِ يَوْمَ وُلِدَتْ أُخْتِي الطِّفْلَةُ.

كُنْتُ فِي مُتَنَصِّفِ حَمَامِي، وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِأَنَّي مُنَحَرِفَةٌ المِزَاجِ خُصُوصًا ذَلِكَ اليَوْمِ، الأَمْرُ الَّذِي كَانَ عَيْرَ عَادِيٍّ عِنْدِي. «فَإِذَا، حَانَ الوَقْتُ لِتَقُومِي بِتَمَارِينِ الرُّجْلَيْنِ.» هَكَذَا

أَعَلَمْتَنِي مِسْرَ غَاسِطُنْ مِرْحَ. وَحَاوَلْتَ مُسَاعِدَهُ الْمُرْضَةَ أَنْ تُحَرِّكَ قَدَمِي وَفَقًّا لِدَكَ،  
إِلَّا أَنَّنِي نَفَرْتُ. فَقَالَتْ مُسَاعِدَةُ الْمُرْضَةِ مُتَمَلِّقَةً: «هَيَّا الْآنَ، فَيَرَا، حَرِّكِي قَدَمَكَ هَكَذَا.»

أَحْسَسْتُ التَّمَرُّدَ يَفُورُ فِي دَاخِلِي حَيَالَ عَجْزِي الدَّائِي وَالانزِعَاجَ الَّذِي بَدَأَ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ  
يُسَبِّبُهُ. فَعَقَدْتُ شَفْتِي فِي تَبْوِيزَةٍ، قَائِلَةً بِتَحَدٍّ: «لَنْ أَفْعَلَ هَذَا، لَنْ أَفْعَلَ هَذَا!»

اعْتَرَضَتْ مِسْرَ غَاسِطُنْ بِلُطْفٍ: «هَيَّا الْآنَ، فَيَرَا. أَيْنَ فَتَائِي الْمَرْحَةَ هَذَا الصَّبَاحَ؟ عَلَيْنَا  
أَنْ نَقُومَ بِتَمَارِينِكِ. وَلَكِنَّهَا لَنْ تَسْتَعْرِقَ وَقْتًا طَوِيلًا، ثُمَّ نَنْتَهِي مِنْهَا. مُوَافِقَةٌ؟»

فَكَرَّرْتُ بِوَقَاحَةٍ: «لَنْ أَفْعَلَ هَذَا!»

فَرَقَّتْ مِسْرَ غَاسِطُنْ مُشْفِقَةً. «وَلَكِنْ عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَ هَذَا، أَرَدْتِ أَمْ لَمْ تُرِيدِي، فَيَرَا.  
لَيْسَ بِيَدِكَ خِيَارٌ!» وَمِنْ ثَمَّ بَاشَرْتَا تَحْرِيكَ سَاقِي فِي الْمَاءِ الدَّافِئِ. فَأَشْحَتُ وَجْهِي عَنْهُمَا  
مُعْبَسَةً وَشَهَقْتُ تَكَرَّرًا بِطَرِيقَةٍ يُرِثِي لَهَا.

عِنْدَئِذٍ تَمَامًا دَخَلْتُ مِسْرَ لِتَلْفِيلِدِ الْعُرْفَةِ. وَإِذْ رَأَتْ وَرَطَطَهُمَا، هَزَّتْ رَأْسَهَا مُتَعَطِّفَةً  
وَسَأَلَتْ: «هَلْ تَجْعَلُكِ مِسْرَ غَاسِطُنْ تَقُومِينَ بِأَشْيَاءٍ صَعْبَةٍ، فَيَرَا؟»

«نَعَمْ، إِنَّهَا تَفْعَلُ هَذَا.» وَقَدْ امْتَلَأَتْ عَيْنَايَ بِدُمُوعٍ غَيْرِ مَسْكُوبَةٍ. وَانْحَدَرَتْ قَطْرَةٌ  
عَلَى خَدِّي، فَمَسَحْتَهَا مِسْرَ غَاسِطُنْ بِرَفْقٍ.

وَفَسَّرَتْ مِسْرَ غَاسِطُنْ بِرِاعَةٍ: «لَا تَتَدَخَّلِي الْآنَ فِي مَا لَا يَعْنِيكِ، جِوَانَ. إِنَّهَا تَقْضِي  
يَوْمًا عَسِيرًا تَمَامًا.»

ابْتَسَمَتْ مِسْرَ لِتَلْفِيلِدِ بَتَفْهَمٍ وَغَمَزْتَنِي بِعَيْنَيْهَا. «حَسَنًا، عِنْدِي لَكَ فِعْلًا خَبْرٌ قَدْ  
يُبْهَجُكِ، فَيَرَا. هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَحْزُرِي مَا هُوَ؟» وَوَمَضَتْ عَيْنَاهَا بِمِرْحٍ.

فَسَأَلْتُ بِحُزْنٍ: «لَا أَدْرِي! مَا هُوَ، مِسْرَ لِتَلْفِيلِدِ؟»

أَجَابَتْ مِسْرَ لِتَلْفِيلِدِ بِابْتِهَاجٍ: «لَكَ أُخْتُ طِفْلَةٌ!»

انْقَلَبَتْ عَبَسَتِي بِسَمَةِ فُورِيَّةٍ، وَهَتَفْتُ: «أَنَا سَأَسْمِيهَا!»

ثُمَّ لَمَّا تَذَكَّرْتُ شِكْوَايَ، حَدَّقْتُ إِلَى مِسْرَ غَاسِطُنْ وَرَفَعْتُ ذِقْنِي حَالًا بِتَحَدٍّ: «أَنَا  
سَأَسْمِيهَا، وَسَأَسْمِيهَا جِوَانَ!» هَكَذَا أَرَدْتُ بِانْتِصَارٍ بَهِيَجٍ. وَنَظَرْتُ إِلَى مِسْرَ لِتَلْفِيلِدِ  
لِأَجْلِ الْمَوْافِقَةِ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ الْغُرْفَةِ لِإِخْفَاءِ صَوْنِهَا، تَارِكَةً مِسْرَ غَاسِطُنْ  
لِتُنْهِيَ مَعْرَكَتَهَا وَحَدَّهَا.

## أَيَّامُ الْمُسْتَشْفَى وَالْمُجِبُّونَ

قُلْتُ مُفْهَمَةً: «أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرَاكَ، نَانَسِي!»

«أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرَاكَ أَنَا أَيْضًا، فَيَرَا.» وَهَزَّتْ نَانَسِي عَلَيَّ إِصْبَعًا. فَمَدَدْتُ لِسَانِي خَارِجًا وَأَظْهَرْتُ وَجْهًا مُكَشَّرًا فِي الْمِرَاةِ فَوْقَ رَأْسِي.

كَانَتْ نَانَسِي فِي السَّابِعَةِ مِنَ الْعُمُرِ، وَلَمْ تَكُنْ فِي رِثَةِ حَدِيدِيَّةٍ. إِمَّا كَانَتْ عَلَى سَرِيرٍ عَادِيٍّ. وَلَكِنْ بَعْدَ سَنَةٍ تَقْرِيبًا فِي الْمُسْتَشْفَى، كُنْتُ مَا أَزَالُ أَقْضِي جُزْءًا لَا بَأْسَ بِهِ مِنْ أَيَّامِي فِي الرِّثَةِ الْحَدِيدِيَّةِ، خُصُوصًا فِي أَوْقَاتِ الْقِيلُولَةِ وَسَاعَاتِ اللَّيْلِ. وَغَالِبًا بَعْدَ بَضْعِ سَاعَاتٍ عَلَى السَّرِيرِ الْهَرَّازِ فِي الرَّدْهَةِ، كُنْتُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلِاسْتِرَاحَةِ دَاخِلَ رِثَتِي الْحَدِيدِيَّةِ أَيْضًا. عُلِّقْتُ مِرَاةً فَوْقَ كُلِّ رِثَةٍ حَدِيدِيَّةٍ حَتَّى يَتِمَكَّنَ الْوَلَدُ الَّذِي فِي الرِّثَةِ الْحَدِيدِيَّةِ مِنْ رُؤْيَةِ الْوَلَدِ الَّذِي فِي السَّرِيرِ الْمُقَابِلِ لَهُ. وَقَدْ أَسْهَمَ ذَلِكَ فِي تَسْلِيَتِنَا وَتَقْطِيعِ السَّاعَاتِ وَنَحْنُ نُجْرِي «أَحَادِيثَ بِالْمِرَاةِ». وَلَكِنْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ يَكُنْ مُفْتَرَضًا أَنْ نَنْصَرِفَ إِلَى تَسْلِيَةِ أَنْفُسِنَا، بَلْ كَانَ مُفْتَرَضًا أَنْ نَأْخُذَ قِيلُولَاتِنَا.

«نَانَسِي، أَوَدُّ أَنْ أَقُولَ لَكَ سِرًّا.»

«مَا هُوَ؟» وَكَانَتْ نَبْرَتْهَا مَكْبُوتَةً وَتَوَاقَةً.

ابْتَسَمْتُ لَهَا مِغَايِظَةً. «يُمْكِنُنِي أَنْ أَقُولَهُ لَكَ إِذَا وَعَدْتِ بِأَلَّا تَقُولِيهِ لِلآخَرِينَ.»

هَكَذَا قُلْتُ لَهَا بِهَمْسٍ مُرْتَفِعٍ.

فتوسّلت بصبرٍ نافد: «طبعًا لن أقوله، فإرا. أنا دائماً أحفظُ أسراركَ. هيّا، قولي لي!»  
 همستُ بأهميّة: «ستأني أمّي هذا المساءَ لتقرأ لي. إذا كُنْتِ ساكنةً فعلاً، تستطيعينَ  
 أن تسمعي أنتِ أيضًا.  
 «يا بنتان!»

أجفَلنا كِلتانا شاعرتينِ بالدُّنْب إذ أَطلَّتِ الممرّضةُ برأسها من وراءِ الباب. وكان  
 وَجْهها عابسًا. «أليس مُفترّضًا أن تكونا، أنتمُ الاثنتينِ، نائمَتينِ؟»

لم نجرؤُ أن ننظرَ إحدانا إلى الأخرى، بل أومأنا برأسينا مُوافقتينِ دونَ كلام.  
 «طيبٌ إذًا. لا مزيدَ من الكلامِ حتّى تكونا قدِ استرحتُمَا قليلًا. هل تفهمانِ؟»  
 أومأنا برأسينا ثانيةً، وقامتِ الممرّضةُ بجولةٍ سريعةٍ في الجناح، ثمَّ انصرفتِ.  
 كانتِ الممرّضاتُ لطيفاتٍ معنا. حاولنَ جعلَ الحياةِ عائليّةً التوجّهِ ومرحّةً بقدرِ  
 الإمكانِ لمرضاهنَّ الصغار. ولكنهنَّ أيضًا جعلننا نُحسِنُ التصرّفَ بتهديبٍ ونُطيعُ  
 القوانين. كان كثيرون من الأولاد لا يرونَ والدَيْهم يومياً، وكانتِ الممرّضاتُ مثلَ أمّهاتٍ  
 أو خالاتٍ بديلاتٍ لنا جميعاً، مُلزِماتٍ إيّانا أن نقولَ «رجاءً» و«شكراً»، ومُواجهاتٍ إيّانا  
 عندما نبكي من الألم.

ذلكَ المساءَ جاءتِ ماما كما وعدت، مُحضرةً معها كِتَابًا جديدًا أرسله شخصٌ  
 ما في عُلبَةٍ زاهيةِ الألوان لأجلي. وقد كان طبعةً مُزوّدةً بالصُّور الجميلة لحكاياتِ  
 حضانة الأطفال. ومع أنّ عددًا قليلًا من الحكايات كانَ جديدًا عليّ، أحببتُ الاستماعَ  
 إليها تُقرأ لي.

«ماذا سنقرأُ الليلية، فإرا؟» مدّت ماما يداً لتُتمسّدَ شعري، وعيناها البُنَيَّتَانِ رقيقتانِ  
 في وجهها الحنون.

فقررتُ بِسرعةٍ: «جاك وبنْتةِ الفاصوليا. يُعجِبُنِي كيف تنمو نبتةُ الفاصوليا الصغيرةِ  
 بِسرعةٍ كبيرة. يبدو الأمرُ أشبهَ بعجيبة!»

ابتسمتِ ماما وقلّبتِ الصّفحاتِ بإبهامها حتى وجدتِ الحكايةَ التي طلبتها. ثمَّ  
 قرأتِ قراءةً مُعبرةً عن الصّبيِّ اليائسِ وأمّه المسكينة، وساقِ نبتةِ الفاصوليا السُّحريّة،  
 والماردِ الشّريرِ.

أَصْعَيْتُ بِشَوْقٍ وَهِيَ تَقْرَأُ، حَابِسَةً نَفْسِي فِي أَثْنَاءِ الْأَجْزَاءِ الْمُخِيفَةِ. أَمَّا نَانِسِي فَجَلَسَتْ عَلَى طَرْفِ سَرِيرِهَا وَعَيْنَاهَا مُتَبَيِّنَاتَانِ عَلَى وَجْهِ مَامَا.

لَمَّا وَصَلَتْ إِلَى جُزْءِ الْحِكَايَةِ الَّذِي يَصِفُ كَيْفَ نَجَا جَاكُ مِنَ الْمَارِدِ، زَفَرَتْ نَفْسِي بِارْتِيَاكِ. وَلَمَّا صَارَ جَاكُ فِي الْأَخِيرِ قَادِرًا عَلَى تَوْفِيرِ الطَّعَامِ لَأُمِّهِ بِوَأَسْطَةِ الدَّجَاجَةِ الَّتِي بَاضَتْ بَيِّضًا ذَهَبِيًّا، ابْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً.

هَذِهِ الْحِكَايَةُ تَلْتَمِهَا حِكَايَةُ «الْبَطَّةِ الْبَشْعَةِ» وَحِكَايَتَانِ أُخْرَيَانِ قَبْلَمَا رَدَّتْ مَامَا الْكِتَابَ إِلَى مَكَانِهِ. فَقُلْتُ مُتَوَسِّلَةً: «حِكَايَةُ أُخْرَى بَعْدَ مَامَا، رَجَاءً!»

قَالَتْ مُطْمَئِنَّةً: «سَأَجِيءُ مِنْ جَدِيدٍ عَاجِلًا، وَسَنْقَرَأُ بَعْضَ الْحِكَايَاتِ الْإِضَافِيَّةِ.» فَتَنَهَّدْتُ أَسْفَةً.

وَهْتَفْتُ نَانِسِي: «شُكْرًا لَكَ، مِسْزُ أُوقِرْهُلْتِ. أَنَا أَحِبُّ فِعْلًا الْقِصَّةَ الْجَمِيلَةَ.» فَابْتَسَمَتْ لَهَا مَامَا، وَتَذَكَّرْتُ أَنَا فِجَاءَةً سُلُوكِي الْحَسَنَ.

«شُكْرًا لَكَ، مَامَا.»

فَانْحَنَتْ لِتَبْوَئِنِي عَلَى جَبِينِي. «أَنَا أَحِبُّكَ، فَيْرَا. نَامِي نَوْمًا هَانئًا اللَّيْلَةَ.»

«لَيْلَةَ سَعِيدَةٍ، مَامَا.»

«لَيْلَةَ سَعِيدَةٍ، مِسْزُ أُوقِرْهُلْتِ.»

نَظَرْتُ إِلَى نَانِسِي حَالِمَةً، وَقَدْ شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ فِجَاءَةً. «كَانَتِ الْحِكَايَاتُ مُمْتِعَةً، أَمَّا كَانَتْ؟»

فَأَبَدَتْ نَانِسِي مُوَافَقَتَهَا، قَائِلَةً بِتَثَاؤُبٍ. «بَلَى، أَرْجُو أَنْ تَجِيءَ مِنْ جَدِيدٍ عَاجِلًا. أَنَا أُحِبُّ مَامَاكَ كَثِيرًا جَدًّا.»

كَانَ الْأَوْلَادُ فِي الْجَنَاحِ كُلُّهُمْ كَعَائِلَةٍ وَاحِدَةٍ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ. لَقَدْ تَنَاقَسْنَا وَهْتَفْنَا بَعْضُنَا لِبَعْضٍ بِالتَّثَاؤُبِ، وَأَحْيَانًا تَخَانَقْنَا فَوْرًا، تَمَامًا كَأَيَّةِ مَجْمُوعَةٍ عَادِيَّةٍ مِنَ الْأَوْلَادِ. وَقَدْ كُنَّا، نَانِسِي وَأَنَا، مُتْقَارِبَتَيْنِ خُصُوصًا، لِأَنَّ سَرِيرَيْنَا كَانَا مُتَجَاوِرَيْنِ، وَكَانَتِ نَانِسِي تَطْلُبُ لِي الْمُمْرِضَةَ كُلَّمَا احْتَجَّتْ إِلَى مُمْرِضَةٍ أَوْ أَرَدَتْهَا.

ذَاتَ يَوْمٍ، لَمَّا كَانَتِ الْمُمْرِضَاتُ يُجَهِّزْنَ نَانِسِي لِتَقْفَ وَحَدَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ مِنْذُ مَرَضِهَا، أَصَابَهَا الدُّعْرُ. وَقَالَتْ لِهِنَّ مُتَوَسِّلَةً: «لَا، لَا، رَجَاءً، لَا تَتْرُكْنِي!»

وإذ سمعتُ صديقتي في محنتها، شعرتُ بشقّةٍ عظيمةٍ من نحوها. وكانت الممرّضاتُ قد علّمننا بتدريهنَّ المرّح كيف نُشجّع بعضنا بعضاً في أوقاتِ التّعافي الصّعبة.

فمن الجِهةِ المُقابلةِ في الغُرفةِ، هتفتُ بصوتٍ صارٍ: «يُمكِنُك! أنا أعرفُ هذا!»

أوماتُ برأسها مُوافقةً وهي ترتجفُ، وشاهدتُ الخوفَ يُفسِحُ في المجالِ للتّصميمِ إذ أدعنتُ. «صحيح، سأجرّب.»

وقفتُ وحدها دقائقٍ قليلة. ولمّا انهارت من جديد وتشبّنت بالممرّضة، تصاعداً هُتافاً تشجيعِ قلبِي حارٌّ من جميع أنحاء الجناح.

زعلتُ بابتهاج: «لقد فُمتِ بالأمر! علمتُ أنّه كان يُمكِنُك ذلك، نانسي. أحسنت!»

كانت تلك لحظةَ نجاحٍ حقاً. ولمّا التفتتِ الممرّضةُ لتتصرّف بعدما ساعدت نانسي على الرّجوع إلى السرير، رأيتُ دموعاً في عينيها.

فسألتُ متحيّرةً: «لِمَ أنتِ حزينة، مِسز لتلفيلد؟»

وضحكتُ ضحكةً مُرتعشة، قائلةً: «أوه، فيرا! لسْتُ حزينة، حبيبتي. تلكَ

دُموعُ سرور.»

لم أفهم آذاك أنّ الممرّضاتِ في أغلب الأيام كُنَّ يُسررنَ إذا زادتِ الحركةُ في إصبعٍ قدّمٍ أو يَدٍ لدى مريض. ولكن أكثرَ من ذلك، سبّب دموعها جمالاً محبّةً مُشتركةً تتبادلها مجموعةٌ من الأولاد المتألّمين.

كُلُّ صباحٍ كانت واحدةٌ من مُساعداتِ الممرّضاتِ مُمشطٍ لي شعري الطّويل. وكانت هذه واحدة من تجاربي الكبرى. وفي بضع مناسبات، تحدّثتُ ممرّضةً عن قصّ شعري قصيراً حتّى يكونَ الاعتناءُ به سهلاً. فكنْتُ أبدي سخطي في تلك المناسبات قائلةً بحزم:

«ليس لك أن تُقصّي شعري! ليس لك ذلك. سيكونُ باباي مُستاءً منك!»

ولكنني كُنْتُ أشكو بالتأكيد في أثناء تسريح تشابكات شعري. فكانت الممرّضاتُ

يرفعنَ رؤوسهنَّ حالاً ويقولنَ: «تذكّري ما قلناهُ عن شعرك، فيرا.»

فأنتهدُّ وأقول: «أعرف. يجبُ أن يُعاني الجمال.»

«ذلك صحيح. يجبُ أن يُعاني الجمال.» ومن ثمّ أستسلمُ للمحنة دون مزيدٍ

من التذمّر.

وذات يوم، لما كان لإحدى الممرضات قليلاً من الوقت الفائض، صَفَرَتْ في شعري  
أشْرِطَةً قَرَنْفُلِيَّةً. فأبديتُ إعجابي بالأشْرِطَةَ إذ نظرتُ إليها في مرآتي بافتتان. «شُكْرًا لِكَ.  
إِنِّي أبدو جميلة، أليس كذلك؟»

ذلك المساء، لما جاء بابا يزورني، كانت مِسْرَ غَاسْطُنْ تُوَدِّي لي الاعتناء المسائيَّ  
كالمعتاد. فألقى باباي نظرةً على شعري وأشاح وجهه بِرِصَانَةٍ. وسألت مِسْرَ غَاسْطُنْ:  
«مِسْتَرُ أَوْقَرَهْلُت، هل مِن حَطْب؟»

كَانَ باباي رَجُلًا لا يَتَصَنَّعُ في الكلام، بل يتوجَّه مباشرةً إلى النُقْطَةِ المقصودة.  
«ماذا يجري هنا، مِسْرَ غَاسْطُنْ؟» وقد نَظَرَ نَوًّا إلى أَشْرِطَتِي القَرَنْفُلِيَّةِ، كما لو كان  
يَتَهَمُّهُنَّ بِجَرِيمَةٍ.

«ماذا؟ هل تعني شعرَ فيرا، مِسْتَرُ أَوْقَرَهْلُت؟ ألا يُعْجِبُكَ؟»

بقي باباي صامتًا إلى حين، ثُمَّ نَظَرَ إلى مِسْرَ غَاسْطُنْ عَيْنًا بَعِينٍ وشرَحَ بهدوء:  
«حَسَنًا، كيف يكونُ شعورُكَ إذا كانت تَسْرِيحَةُ شعركِ هكذا ضدَّ ما تُوَمِّنُ به عائلتُكَ،  
ثُمَّ دَخَلَتْ فوجَدَتْ شعرَ ابنتِكَ على هذه الحال؟»

أومأت مِسْرَ غَاسْطُنْ برأسها مُوَافِقَةً باحترام. «أنا أفهمُ الآن مِسْتَرُ أَوْقَرَهْلُت.  
أفهمُ فِعْلًا.»

«شُكْرًا لِكَ. كنتُ أعلمُ أَنِّي أستطيعُ أن أثِقَ بِكَ.»

أنهى بابا الحديثَ بِحَزْمٍ، ولكنْ كان في صوته مَوَدَّةٌ لم تفتني.

بلا كلمة، أزالَتِ الأَشْرِطَةَ بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ غادرتنا لِنَمِضِي ساعاتِ الزِيارَةِ المُعتادة مَعًا.  
وقد شعرتُ قليلًا بِخِيبَةٍ الأمل من جِهَةِ الأَشْرِطَةَ. إلا أَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ وَالِدِي يَكُنَّانِ  
احترامًا رَفيعًا لِمِسْرَ غَاسْطُنْ لأنها تَكُنُّ احترامًا مُتبادلاً لهما. ومن أجلِ ذلك زادَ حُبِّي  
لها أَكثَرَ بَعْدَ.

بينما كَرَّتِ الأَيَّامُ، عيَلَ صبري لِتوسيعِ سلسلةِ نشاطاتي. فإذا كانت أصابعُ يَدِي أَكثَرَ  
شَلَلًا من أن أستعملها، تحوَّلتُ إلى استعمالِ أصابعِ قَدَمِي في وقتٍ مُبَكِّرٍ جدًّا. حتَّى  
إِنِّي، في الأشهرِ القليلةِ الأولى من إقامتي، تعلَّمتُ أن ألعبَ الدُمى بأدبائي وأطفالي في  
رثتي الحديدية. فكنْتُ أَخْذُ أصابعِ قَدَمِي وَأَصْفُها وَأُغْطِيها بِبَطَّانِيَّةٍ. لم أَكُنْ أستطيعُ أن  
أراها، ولكنْ كان في وسعي أن أحسَّها وأتصوَّرَ كيف تبدو.

وذات يوم، بعدما تخرَّجتُ إلى سريرٍ على مدى جزءٍ من كلِّ يوم، تبيَّن لي أنَّني  
أستطيعُ أن أُمسِكَ بِقَلَمٍ تلوينٍ بينَ أصابعِ قَدَمَيَّ وألَوْنٍ صَوْرًا. وبعْدَما أكملتُ قَوْسَ قُرْحٍ  
ملوَّنَه بِالوَانِ زاهيةٍ وَسَطَ غُيُومٍ أَرْجوانِيَّةٍ وَبُرْتَقَالِيَّةٍ، انتظرتُ مجيءَ مُمَرِّضَتِي المُفْضَلَةِ  
إلى الجَنَاحِ. «انظري، مِسْرُ غَاسِطُنْ. لقد عَمِلْتُ هَذِهِ الصَّفْحَةَ لِكَ خُصُوصًا.» وقد قَدَّمْتُ  
الصُّورَةَ لها بِشَوْقٍ، وقلبي سعيدٌ بِفِكْرَةِ سُرُورِها.

«عجَبًا، شُكْرًا لِكَ، فِيرا! هذهِ صُورَةٌ جميلة، مشغولةٌ بِاتِّقانٍ، والألوانُ كُلُّها داخِلَ  
الخُطُوطِ.» ثُمَّ انحنَتِ وباسْتِنِي. «أنا فَخُورَةٌ جدًّا بِكَ.» ولمَّا ابتسمتُ، احمرَّتْ وجهي  
حِيالَ الإِطْرَاءِ.

بعْدَ سنةٍ، كانتِ مِسْرُ غَاسِطُنْ ما تزالُ مُمَرِّضَتِي المُفْضَلَةَ. فعلى الرُّغمِ من تسميتي  
أختي الطِّفْلَةَ بِاسْمِ مِسْرٍ لِتَلْفِيدِ، كان حِقْدِي قَصرَ الأمدِ، وباتتِ مكانه مِسْرُ غَاسِطُنْ  
في قلبي أَكْثَرَ ثَبَاتًا من ذي قَبْلِ. وقد عَلِمْتُ دَائِمًا أَنَّهُ إِذَا تَلَقَّى أَحَدًا غَيْرِي هَدِيَّةً أو  
لُعبَةً جَدِيدَةً، فَكُلُّ ما كان عليَّ أن أفعلَه هو أن أَطْلُبَ من مِسْرُ غَاسِطُنْ فَتُحْضِرَ  
لي واحِدَةً أَيضًا. وَبِعضِ الطُّرُقِ، أَفسَدْتُني بتدليلها لي. إِلا أَنني لم أشعرْ بِأَيِّ وَخْزٍ  
ضميرٍ من جهةِ هذا.

بعْدَ ذلكِ بِأسابيعٍ قليلةٍ، رأيتُ نانسي تَقْتَطِعُ أَشْكالًا بِمِقْصٍ. فتوسَّلتُ إليها: «نانسي،  
رجاءً، دعيني أُجَرِّبُ.»

رَدَّتْ بِواقِعِيَّةٍ: «لا تستطيعين. يجب أن تكونَ لِكَ أَصابعُ لِتَقْضِي بِها، فِيرا. لكن  
يُمْكِنُني أن أَقْضِ شيئًا ما لِكَ. أَيَّ شَكْلِ تُرِيدِينَ؟»

هزرتُ رأسي بتصميمٍ. «لا، نانسي. أريدُ أن أُجَرِّبَ الأمرَ بِنَفْسي. رجاءً، أعطيني المِقْصَ.»  
وإذ هزَّتْ رأسها بِشَكِّ، ناولتني المِقْصَ وَطَلَحِيَّةَ وَرَقٍ عليها بعضُ الأشْكالِ. فأمسكتُ  
المِقْصَ بِحرصٍ بينَ أصابعِ إحدى قَدَمَيَّ، والتقطتُ الورقةَ بِقَدَمِي الأخرى، وبدأتُ أَقْضِ.  
وَكانَ أوَّلُ شَكْلِ قَصَصْتُهُ غَيْرَ مُتَقَنَّ، إِلا أَنني شعرتُ بِاحساسِ انتِصارٍ إذ رفعتُ نظري  
إلى نانسي وقلْتُ بِابتِسامةٍ عريضةٍ: «هل تَرَيْنِ؟ قلتُ لِكَ إِنني أستطيعُ القيامَ بالأمرِ!»  
فهزَّتْ كَتِفَيْها. «تَخميني أَنكَ تستطيعين. ذلكَ جيِّدٌ إلى حدِّ بعيدٍ، فِيرا.»

ثُمَّ صَقَلْتُ مهاراتي في القَصِّ من ذلكِ الحينِ فصاعدًا، وسُرعانَ ما باتَ في وُسْعِي أن  
أَقْضِ بِاتِّقانٍ تامًّا كما يستطيعُ أن يُقْضِ أَيُّ شخصٍ له يدان. ولمَّا رأَتني المُمَرِّضاتُ أَقومُ  
بذلكِ، تعجَّبْنَ معًا. «كيفَ تفعلين ذلكِ، فِيرا؟»

أَجِبْتُ بِوَأَقْعِيَّةٍ: «أَفْعَلُ ذَلِكَ فَحَسْبُ.»

وَقَدْ سَمِعْتُ مِسْرَ لِتَلْفِيلِدَ مُعَلِّقَةً لِمُمْرُضَةٍ أُخْرَى وَهُمَا تُغَادِرَانِ الْغُرْفَةَ. «أَعْتَقِدُ أَنَّهَا سَتَتَقَدَّمُ كَثِيرًا فِي الْحَيَاةِ. لَا يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْإِعَاقَةَ سَتَمْتَعُهَا مِنَ الْكَثِيرِ.»

ثُمَّ ذَاتَ يَوْمٍ فِي شَهْرِ آبٍ، بَعْدَ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ تَمَامًا مِنْ اسْتِشْفَائِي، جَاءَتْ جَدَّتِي تَزُورُنِي. لَمْ تَكُنْ تَجِيءُ كَثِيرًا، وَكَانَ مَجِيئُهَا أَمْرًا خَاصًّا كُلَّ حِينٍ. وَقَدْ سَأَلْتُهَا بِتَلَهُّفٍ: «جَدَّتِي، أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرِيَنِي أَرْمِي كُرَّةً؟» كَانَتْ تَلِكُ أَحَدَتْ مَهَارَةَ اكْتَسَبْتُهَا، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أُشَارِكَ فِيهَا أَيُّ شَخْصٍ يُوَدُّ الْمَشَاهِدَةَ.

شَاهَدْتَنِي أَرْمِي الْكُرَّةَ بِقَدَمِي، وَفَرَّقَتْ عَيْنَاهَا، وَقَالَتْ مَا دِحَّةٌ: «جَيِّدٌ، انظُرُوا هَذَا!» ثُمَّ أَخْبَرْتَنِي عَنْ مَوْسِمِ التَّلْعِيبِ، وَكَيْفَ كَانَ الدَّرَاقُ وَالبَدْرَاقُ يَبْرَدَانِ فِي الْمَرَّاطِبِينَ عَلَى الْمَنَاضِدِ فِي الْبَيْتِ. وَأَخْبَرْتَنِي كَمْ صَارَتْ لِيْنَا كَبِيرَةً مِنْذُ مُغَادِرَتِي. وَأَخْبَرْتُهَا عَنِ الْحَيَاةِ فِي الْمُسْتَشْفَى، وَعَرَفْتُ نَاسِي بِهَا. ثُمَّ حَانَ وَقْتُ انصِرَافِهَا. وَكَانَ خُدَّهَا نَاعِمًا عَلَى خُدِّي لَمَّا وَدَّعْتَنِي.

فَلَمَّا حَلَمْتُ أَنْ تَكُونَ تَلِكِ آخِرَ مَرَّةٍ أَرَى فِيهَا جَدَّتِي عَلَى الْإِطْلَاقِ. فَتِلْكَ اللَّيْلَةَ نُوفِّيتُ بَهْدِوً فِي الْبَيْتِ. وَمَا كُنْتُ لِأَعْلَمَ مَا فَقَدْتُهُ، حَتَّى رَجَعْتُ إِلَى الْبَيْتِ وَمَا عُدْتُ أَسْمَعُ دَوَسَ قَدَمَيْهَا الْبَهِيحَ عَلَى أَرْضِيَّةِ الْمَطْبَخِ، أَوْ صَوْتَهَا الْقَوِيَّ مُنَادِيًا بِاسْمِي. وَلَكِنْ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْوَالِدِيِّ، كَانَتْ هَذِهِ ضَرْبَةً ثَقِيلَةً فَوْقَ مَا كَانَ يُوَاجِهَانِهِ أَصْلًا.

وَفِي مَا خَصَّ أَبَا، كَانَ الْعَدْدُ الْمُدْهِلُ لِلْفَوَاتِيرِ الطَّبِيَّةِ قَدْ بَدَأَ يُلْقِي ثِقَلَهُ الضَّاعِطِ. وَقَدْ كَانَ يَشْتَغَلُ بِكَدِّ وَكَدْحٍ، فَيَنْهَضُ بَاكِرًا قَبْلَ الْفَجْرِ لِيَقُومَ بِالْمَهَامِ الْيَوْمِيَّةِ فِي الْحَظِيرَةِ، وَيَتَنَاوَلُ الْفَطُورَ عِنْدَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ مَعَ الْعَائِلَةِ. وَإِذْ يُغَادِرُ لِأَجْلِ نَهَارٍ طَوِيلٍ فِي فِرْقَةِ الْبِنَاءِ، يَرْجِعُ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَحْلُبَ الْبَقَرَاتِ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَيَتَنَاوَلُ عِشَاءً سَرِيعًا مَعَ عَائِلَتِهِ، وَيَتَوَجَّهُ عَائِدًا إِلَى الْمُسْتَشْفَى فِي زِيَارَتِهِ الْمَسَائِيَّةِ لِي.

وَفِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، فَكَّرْتُ فِي بَيْعِ الْمَزْرَعَةِ لِدَفْعِ النَّقْفَاتِ الَّتِي اسْتَمَرَّ الْمُسْتَشْفَى فِي الْمَطَالَبَةِ بِهَا لِقَاءِ الْإِعْتِنَاءِ بِي. غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ شَاءَ رَاحِمًا أَنْ يُدَبِّرَ بِطَرُقٍ أُخْرَى. فَكَمَا هِيَ الْحَالُ أَغْلَبَ الْأَحْيَانِ، نَهَضَتْ جَمَاعَاتُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُسَاعَدَةِ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ هَذَا. فِإِذْ صَارَتْ قِصَّتِي مَعْرُوفَةً عَلَى نِطَاقٍ أَوْسَعِ بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ وَالْأَقْرَبَاءِ، أُرْسَلَتْ كَنَائِسُ فِي أَنْحَاءِ الْوَالِيَّاتِ الْمُتَّحِدَةِ مَبَالِغَ مَالِيَّةٍ شَتَّى لِْمُسَاعَدَةِ عَائِلَتِنَا عَلَى سِدَادِ الْفَوَاتِيرِ الْمُسْتَمِرَّةِ.

وقد جاءت المعونة بِطُرقٍ أُخرى ملموسة أيضًا. فذاتَ يَوْمٍ اتَّصَلَ أُسْقُفُ كَنِيسَةِ هارتفل المِينونِيَّةِ المُحَافِظَةِ، رومانِ مِلَرٍ، بِبَابَا طَالِبًا مِنْهُ أَنْ يُعَرِّجَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ شِغْلِهِ مَا. وَمَا وَصَلَ بَابَا، نَاوَلَهُ رومانِ مِفْتَاحِينَ وَوَثِيقَةً مِلِكِيَّةً وَاقْتَادَهُ إِلَى سَيَّارَةِ شَفِي. «أَعْلَمُ أَنَّكَ بِحَاجَةٍ إِلَى سَيَّارَةِ الْآنَ الْآنَ، خُصُوصًا بِوُجُودِ جَمِيعِ الرِّبَارَاتِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا لِلْمُسْتَشْفَى. لَقَدْ تَبَرَّعَتْ بِضَعِّ كُنَاسٍ لِشِرَاءِ هَذِهِ السَّيَّارَةِ. إِنَّهَا هَدِيَّةٌ لَكَ وَلِعَائِلَتِكَ.»

رُغْمَ كَوْنِ بَابَا رَجُلًا قَوِيَّ التَّحْفُظِ، كَادَ يَبْكِي عِرْفَانًا بِالْجَمِيلِ. «شُكْرًا لَكَ. لَنْ تَدْرِي أَبَدًا كَمْ يَعْنِي هَذَا.» وَكَانَتْ مُصَافِحَتُهُ الْوَدَاعِيَّةَ حَارَّةً وَشَدِيدَةً، مُعْبِرَةً عَمَّا عَجَزَتْ عَنْهُ الْكَلِمَاتُ.

إِنَّمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، كَانَ لِلْحَيَاةِ خَارِجَ جُدرَانِ الْمُسْتَشْفَى تَأْثِيرٌ قَلِيلٌ. فَقَدْ أَرَدْتُ بِقُوَّةٍ أَنْ أَقَابِلَ أُخْتِي الطُّفْلَةَ، وَكَثِيرًا مَا افْتَقَدْتُ مَامَايَ. عِدا ذَلِكَ، كُنْتُ قَانِعَةً فِي أَغْلَبِ الْأَحْوَالِ بِالْأَفْرَاحِ وَالْإِنْتِصَارَاتِ الصَّغِيرَةِ فِي حَيَاتِي الْيَوْمِيَّةِ.

## في البيت من جديد

جاء شهرُ تشرينِ الثَّاني، ومعه عيدُ مَوْلدي الخَامِس. وكنتُ ما أزالُ أُعَدُّ الأيَّامَ حتَّى الثَّالثَ عَشَرَ منه على مدى أسابيع، وقد ساعدتني مِسْرُ غاسِطُنَ على وَعِيِّ تسلسلِ الأمورِ كُلِّ يومٍ. والآنَ كان صباحُ الجُمعة. لقد وصلَ اليومُ المُنْتَظَرُ طويلاً في الأخير. فاستيقظتُ شاعِرةً بشيءٍ من الحماسة والترُّقُب.

حيَّتني مِسْرُ لتلفيلدِ بابتهاجٍ شديدٍ: «عيدَ مَوْلِدِ سعيدًا، فيرا! كيف حالُ فتاةِ العيدِ هذا الصَّبَّاح؟»

بدا في عينيها بريقٌ خاصٌّ، وكنتُ تواقَّةً لِأَعْرِفَ ما إذا كان عندها شيءٌ ما تقوله لي.  
«أنا بخير، مِسْرُ لتلفيلد. لا أطيقُ الاضطرابَ لِأَكُلِ الكاثو.»

فابتسمتِ ابتسامَةً عريضة، وسألت: «ما قولك في ما ستلبسينَ اليوم؟ ألا ينبغي أن يكونَ شيئًا خاصًّا لهذا اليومِ الخاصِّ؟»

«ما عندي شيءٌ جديد، مِسْرُ لتلفيلد. يُمكنني أن ألبسَ فُستاني الأزرق. أنا أحبُّ ذاك.»

«ما قولك في بدءِ عيدِ مَوْلِدِكِ مُفاجأةً من جميعِ المُمرِّضات؟»

من جميعِ أنحاءِ الجَنَاحِ اجتمعَتِ المُمرِّضاتُ ومُساعداتُ المُمرِّضاتِ حولَ أمرسني الصِّفراءِ، وعلى وُجوههنَّ بَسَمَاتٌ كبيرة، وغنَّينَ «سنة حلوة».

ثُمَّ أعلّنت مِسْرَ لِتِلْفَيْلِد: «والآنَ إلى مُفاجَأَتِكِ.» ثُمّ مدّت يدها داخِلَ كَيْسِ، وأخرَجَت شيئاً أصغر. «هل يُعجِبُكِ، فِيرا؟»

أطلقت صرخةً ابتهاجٍ طويلةً حادّة. «فُستانُ جديدا!» وكان لذلك الفُستان الذي يَلَوْنُ ضوءِ الشَّمْسِ قَبّةً مُدوّرةً وتَنوّرةً واسعة. «إنّه جميل! شكراً جزيلاً لَكُن!»  
فَهتَفَتِ المُمْرَضَاتُ بصوتٍ واحد: «نحنُ نُحبُّكِ، يا فِيرا!»

سألت مِسْرَ لِتِلْفَيْلِد: «هل لنا أن نَقِيسَهُ؟» ولم أكن بحاجةٍ إلى أيِّ تَمَلُّق. فسرعان ما بِنْتُ جالِسَةً في حُلّةٍ عيدِ مَوْلِدِ المُبَهْرَجَةِ، وعلى وجهي ابتسامَةٌ كبيرة. لقد كان قِياسُهُ مُناسِباً لي تماماً، وما كان في وسعي أن أحلمُ بطريقةٍ أَسعدَ لِمباشرةٍ يومي.

ذلك المساء، جاء بابا وماما كِلاهُما يزورانني. «سنة حُلوة، فِيرا!» وعانقتني ماما. أحضرنا لكِ قَالِبَ كاتُو للاحتفال.

نظرتُ إلى الكعكة البِيضاءِ كالثلج، ذاتِ الحافاتِ القَرَنفَلِيَّةِ الرَقِيقة، وقُلْتُ مُتنفِّسةً: «إنّها جميلة! هل لي أن أحتفظَ بها؟»

«اعتقدتُ أنّكِ سترغبين في أن نأكلها معكِ. يُمكننا إقامةَ حفلةٍ صغيرةٍ إذا أردتِ. ولكنّ إذا أحببتِ أن تحتفظي بالكعكة، فلا بأس في ذلك أيضاً.» وبرقتَ عيناها قليلاً. «هل تعتقدين أنّها أجملُ من أن تؤكلي؟»

أومأتُ برأسي أن نَعَم، وَضَحَكْتُ بابا ضَحَكَةً خافِتَةً. «أنتِ نحيلةٌ كفايةً، فِيرا. سيكونُ مزيدٌ من قوالبِ الحلوى للسَّنِينِ الأُخرى. أعتقدُ أنّه ينبغي لك أن تأكلي قطعةً كبيرةً طَيِّبَةً الآنَ الآن.» ومهما قالَ بابا، كان ما أردتُ أنا أيضاً أن أفعلهُ. فغَيَّرْتُ رأيي، وأكلنا كلُّنا الكعكة، وأشركنا المُمْرَضَاتِ والأولادَ الآخرينَ في ما تبقّى. لقد كانت تلكَ حفلةً تُذَكِّرُ. ولمّا ودّعني بابا وماما ساعةَ الإواءِ إلى السَّريرِ، استلقيتُ وقتاً طويلاً بعدَ ذهابهما، مُتَلدِّدَةً تماماً بِذكرياتِ ذلكِ اليومِ.

كان اليومُ التَّالِي يومَ سبت. وبعضَ الأحيانِ أَيَّامَ السَّبْتِ، كان القِسِّيسُ كُرمان، وهو خادمٌ لِلرَّبِّ من جماعتنا، يجيءُ لزيارةِ الأولادِ في جَنَاحِ شَلَلِ الأطفال. وكان شعرُهُ الشائبُ وابتسامتُهُ اللطيفةُ دائماً يجعلانني أشعُرُ بالارتياحِ والمودّة.

اجتمعَ الأولادُ كلُّهم حوله، وابتسمَ لِكُلِّ مَنَّا بِدَوْرِهِ مَرَحًا. «ماذا سيكونُ لنا اللَّيْلَةُ، يا أولاد؟ قِصَّةٌ أو قصيدةٌ أوّلاً؟» لقد كانَ مُحِبًّا عظيمًا للشَّعْرِ الجيّدِ، وغالبًا ما استشهدَ به لنا.

فتوسّلت نانسِي باشتياق: «رجاءً، قُلْ لنا قصيدةَ السَّماءِ من الأسبوعِ الماضي.»  
 «آهه، قصيدةَ إميلي دِكسن: 'توجَدُ سماءٌ أُخرى.' إِنَّهُ عُنوانٌ جميل، أليس كذلك يا  
 نانسِي؟» فأومأت برأسها موافقةً، وأصغينا كلُّنا يهدوءٍ إذ انطلقَ في إلقاءٍ فصيح.

«توجَدُ سماءٌ أُخرى،

صافيةٌ وصاحبةٌ دائماً،

ويوجدُ إشرافُ آخر،

حتّى لو عمّ الظلامُ هناك.

لا تُقلِّقك الغاباتُ الذّابِلة، أوستن،

لا تُقلِّقك الحُقُولُ السّاكنة...!

ههنا غابةٌ صغيرة،

ورقها أخضرٌ دائماً؛

ههنا جَنِينَةٌ أزهى،

حيثُ لم يكنْ أيُّ صقيع؛

في زهرها غيرِ الذّابِلِ

أسمعُ النّحلةَ اللّماعةَ تَطِنُ:

أُهيّبُ بك، أخي،

هلمَّ ادخُلْ جَنِينَتِي!

وسألتُ: «حضرةُ القِسيّسِ كُرمان، ما معنى 'أُهيّبُ بك'؟»

فابتسم: «هذا سؤالٌ جيّد، فيرا. 'أُهيّبُ بك' هي طريقةٌ لطيفةٌ للقولِ 'أناشِدُكَ أو

أرجوك'. والآنَ إلى قصّة. مَنْ سيختارُ قصّتنا اللّيلة؟»

ارتفعت يدُ ماثيو حالاً: «داؤد وجُليات.»

فقال القِسيّسُ كُرمان موافقاً: «آهه! قصّةٌ بطلٌ من الكتابِ الأفضلِ على الإطلاق.

هل يُوافقُ الجميع؟» وبعدَ قليلٍ من الشّجار والنّقاشِ في ما بيننا، اتّفقنا على أنْ طلبَ

ماثيو يجبُ أن يُبَي. فأبّتهُ قصّةُ حكاها القِسيّسِ كُرمان كانت جيّدة.

نَظَّفَ حَنَجْرَتَهُ مُتَّحِنِحًا، جاعلاً تشويقنا يزدادُ قليلاً. «حسنٌ جدًّا إذًا. فلنبدأ. منذ زمانٍ طويل، عاشَ صَبِيٌّ راعٍ كانَ يَعْتَنِي بِخِرَافِ أَبِيهِ. وكانَ صَبِيًّا شُجاعًا سَمَحَ الطَّبَعِ يُرْتَمُ أَغْلَبَ الأَحْيَانِ وهو يقومُ بِعَمَلِهِ. وكانَ اسْمُ الصَّبِيِّ داوُدَ. وذاتَ يومٍ، لما كانَ داوُدُ يَقودُ خِرَافَهُ إلى الماءِ، سَمِعَ زَئِيرًا عَالِيًا. ودونَ أيِّ إنذارٍ، وثَبَّ أَسَدٌ كَبِيرٌ هائلٌ عن إفريزِ صَخْرِيٍّ فوقَ داوُدَ وهَجَمَ على واحدٍ من حُمَلانِهِ. كانَ داوُدُ يَحْمِلُ يَدِيَةَ عَصَا خَشَبِيَّةً طَوِيلَةً. وكانَ فَتَى قَوِيًّا كما كانَ راعِيًّا صالحًا. فَعَلِمَ أَنَّ عليه أن يحميَ ذلكَ الحَمَلَ الصَّغِيرَ.» وقد انتظرنا كلنا بتوتُّرٍ فيما حكى القِيسِيُّ كيفَ تصدَّى الصَّبِيُّ للأَسَدِ وقتلَهُ، مُنقِذًا الحَمَلَ الجَرِيحَ من فِكْيِهِ الصَّارِيينَ.

وَكُنَّا مَشْدودِيْنَ لَمَّا تَحَدَّثَ عَنِ الدُّبِّ الكَبِيرِ الَّذِي جَاءَ أَيضًا، وَسَرَرْنَا مِنْ جَدِيدٍ لَمَّا أَنْقَذَ داوُدَ الخُرُوفَ الصَّغِيرَ مِنَ الخَطَرِ. وكانَ أَحسَنَ الكُلِّ حَدِيثُهُ عَنِ جُلِيَّاتِ وَكَيْفَ بِمِقْلَاحٍ وَحَجَرَ هُزِمَ العَدُوُّ الرَّهِيْبُ لِجَيْشِ كَامِلِ.

ثُمَّ خَتَمَ القِيسِيُّ كُرْمَانَ كَلِمَتِهِ قَائِلًا: «هَذَا الصَّبِيُّ عَرَفَ كَيْفَ يُفَاتِلُ هَذِهِ الأَشْيَاءَ المُخِيفَةَ كُلَّهَا لِأَنَّهُ وَثِقَ بِاللَّهِ فِي يُعِينُهُ. وَإِذْ تَكْبُرُونَ أَنْتُمْ لِتَصِيرُوا رِجَالًا وَنِسَاءً، سَتَحْتَاجُونَ أَيضًا إِلَى اللَّهِ فِي يُعِينَكُمُ. وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَتَنظَّرُوا حَتَّى تَصِيرُوا أَكْبَرَ سِنًا لِتَطْلُبُوا مِنْهُ المَعُونَةَ. إِنَّهُ مَعَكُمْ مِنْذُ الآنَ.» لَقَدْ كَانَ وَجْهُ القِيسِيِّ رَزينًا، وَنَحْنُ كُلُّنَا أَوْمانًا بِرُؤوسِنَا مُوافِقِينَ بِجَدِّيَّةٍ، فَاهِمِينَ فحوى كَلِمَتِهِ.

وَإِذْ ألقى نَظْرَةً على سَاعَتِهِ، قامَ عَن كُرْسِيِّهِ مُتَصَلِّبًا بَعْضَ الشَّيْءِ. وَقَالَ مُبْتَسِمًا: «حَانَ وَقْتُ النُّومِ لَكُمْ أَيُّهَا الصُّغارُ. والأَحسَنُ لِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى بَيْتِي لِأَنَامَ فِي سَرِيرِي.» ثُمَّ كَمَا كَانَتْ عادَتُهُ المُعتَادَةَ، ثَمَّنَى لَنَا لَيْلَةً سَعِيدَةً بِالكَلِمَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي رِوَايَةِ «رُومِيو وَجُولِييت» المشهُورَةِ لِشَكسْپِير: «لَيْلَةً سَعِيدَةً، لَيْلَةً سَعِيدَةً! الاِفتِراقُ أَسَى حُلُوٌّ جَدًّا بِحَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ أَقول...»

«...لَيْلَةً سَعِيدَةً، حَضْرَةَ القِيسِيِّ كُرْمَانَ. شُكْرًا لَكَ لِأَنَّكَ جِئْتَ! تَعَالَ ثَانِيَةً سَرِيعًا!» وَشَاهَدَنَاهُ يَنْصَرِفُ ماشِيًّا فِي الرُّواقِ. ثُمَّ بَدَأَ التَّدافُوعُ فِي نَسْتَعَدُّ لِلنُّومِ كَالْمُعْتَادِ.

كَذَلِكَ العَامِلَاتُ الاجْتِمَاعِيَّاتُ اللّوَاتِي دَعَوْنَاهُنَّ نَحْنُ الأَوْلَادُ «السَّيِّدَاتِ الشَّائِبَاتِ» جِئْنَ أَيضًا لِيقْرَأَنَّ لَنَا دُورِيًّا. وَقَدْ أَمَّنَتْ مَكْتَبَةُ الإقْلِيمِ العَامَّةُ مَجْمُوعَةً صَغِيرَةً مِنَ الكُتُبِ لَنَا نَحْنُ الأَوْلَادِ. وَأرسلتُ أَيضًا مَسْؤُولِي مَكْتَبَةِ أحيانًا كِي يَقْرَؤُوا لَنَا. وَقَدْ سَاعَدَتْ جَمِيعُ

تلك القصص الرائعة على تمضية الساعات الطويلة المٌضجرة في الجَنَاح. هذا الانفتاح المُبكر على كُتُب كثيرة جدًّا كوَّنَ محبَّتي المستمرَّة مدى الحياة للمُطالعة والأدب.

أما وقد صارَ عيدٌ مَوْلدي ماضيًّا، كانَ الحدُّثُ التَّالي الذي ترقَّبته هو عيدُ الميَلاَد. أي حَتَّى يومَ أعلَنَ بابايَ أَنهم سيأتون بي إلى البيت عاجلاً. ولم أكد أستوعِبُ الخبرَ لما أخبرني به. فهتفتُ مدهوشةً: «صحيح؟ تعني أن في وسعي المجيء إلى البيت للبقاء فيه؟»

ولكن لى الفكرة التَّالية، تبدَّدَ فرحي. فسألْتُ بتلهُفٍ: «كيف سأتنقِّس؟» وقال شارحًا: «سيكون عندنا لكِ رئةٌ حديديةٌ في حُجرة الجلوس، مثلما لكِ هنا تمامًا: «أُبعجِبُكَ ذلك؟»

«أوه، نعم!» أردتُ أن أرفُصَ من الفرح. «متى يُمكنني أن أذهبَ إلى البيت، بابا؟»  
«نودُ جميعًا أن نستقبلِكَ في البيت لعيد الميَلاَد. لقد افتقدنا وجودكِ معنا.»

وهكذا كانَ أَنه قَبْلَ عيدِ الميَلاَد بثلاثة أيَّام، في صباحِ ثلاثاءٍ مُثلج، حملتني والدي على ذراعِيهِ القويَّتين إلى الخارج، حيث كانت السيَّارة بانتظاري. وقد ودَّعتُ المُمرَّضات في ذلك الصُّباح، وبالتَّوقِ النَّمودَجِيِّ للحدائِةِ الباكِرة شعرتُ بشيءٍ من الحُزن عند الانصراف. كنتُ على يقينٍ بأنني سأراهنَّ ثانيةً، وأكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ أردتُ أن أكونَ في البيت.

كانت الرحلةُ إلى البيت بالسيَّارة غريبةً بالنسبةِ إليَّ. لقد شاهدتُ العالمَ يتوارى خارجَ نوافذِ السيَّارة وأنا مدهوشة. وكان قد مضى تقريبًا عامٌ ونصفٌ منذ دخولي المُستشفى. فلما حملتني بابا إلى داخل البيت، وقَفَ إخوتي وأخواتي كلُّهم حولي باستحياء، كغُرباءَ صغار. وأنا نفسي شعرتُ بالاستحياء على نحوٍ غريب.

نصَّبوا لي بِسرعةِ الرِّئةِ الحديديةِ في حُجرة الجلوس، ووَضعتُ داخلها لأستريح بعد رُكوبِ السيَّارة الشَّاقِّ.

«فيرا، أعلِّميني إذا كان هُنالك أيُّ شيءٍ يُمكنني أن أعمله لمُساعدتِكَ.» بدت روثُ أحكمَّ وأرشدَ مِمَّا كانت لما غادرتُ البيت. فأومأتُ برأسي إيجابًا ونظرتُ من وجهٍ إلى وجهٍ باستطلاع. باتَ افرْدَ أطولَ مِمَّا كانَ لما غادرتُ البيت، وباتَ وجهُ ليون المُكتنِزِ أنحفَ الآن، وقد تعلَّم المَشِي حديدًا. أمَّا لينا ففاجأتني أكثرَ الكلِّ. إنَّها ما عادت طفلةً

الآن. وقد ابتسمتُ لها ابتسامَةً خاصَّةً لِأذْكُرَّها بصدقتنا القديمة. فردَّتْ بابتسامَةٍ عريضة، في عَدَمِ يقين.

«هذه أُخْتِكِ فيرا. هِيَ سَمْتِكِ!» نظرتْ جُوَّانَ إِلَيَّ وَإِلَى رَتْتِي الحديديةِ بعينين مُستطليعتين واسعتين، ماصَّةً أصابعها وهي تُفكِّرُ باهتمام. وقد بدتْ غيرَ مُتيقِّنةٍ بما تُرسي عليه فِكْرَها. أمَّا أنا، في المُقابل، فقد أحببْتُها في الحال.

سُنْعُوْضٌ عاجلاً عن الوقت المُضاع، لكنِ الآنَ كنتُ بحاجةٍ لأنَّ أُستريح. «أهذا مُريح؟» رَتَّبَتْ رُوْثَ مِخْدَّتِي تحتَ رأسي ومَسَدَتْ لي شعري. فأومأتُ برأسي عرفاناً بِالجَميل. وإذ كنتُ أَنْجَرِفُ كي أنام، إذ ذاكَ تَمَامًا سَمِعْتُ شَخْصًا يَهْمِسُ: «ليلةٌ سعيدة، فيرا.» وقد كانَ ذَلِكَ الشَّخْصُ لينا.

ثُمَّ سألتني: «هل يُوجِعُك أن تكوني في هذا الشَّيء؟»

فاتبسمتُ لها بِنُعاسٍ: «لا! إِنَّهُ يُسَاعِدُنِي.» ووعَدْتُها: «سأَلعَبُ مَعَكِ عندما أَسْتَيْقِظ.» فسألتْ بأمَلٍ: «بِدُماكِ وأدبائِكِ؟» وأومأتُ برأسي أن نَعَم، وَبَرَقَتْ عيناها الدَّاكِنَتانِ سُروراً.

وَدُونَ كلمةٍ أُخرى، دارَتْ وَمَصَّتْ رَاكِضَةً. فأغمضتُ عينيَّ من جديد. لقد كنتُ تَعْبَانة. ولكنْ كانَ جيِّداً أن أكونَ في البيت، بعدما قَضَيْتُ في المُستشفى خمسَ مئةِ يوم!

## الوداع ليس إلى الأبد

قالت روث لي مُطمئنة: «وداعًا، فيرا! سنشتاقُ إليك!»

أضافت لي بتلهُف: «سأذهبُ وأراك!»

كنتُ قد قضيتُ في البيت ثلاثة أشهر، وكانت ماما الآن تُجهزني للرحلة إلى مستشفى كليفلاند. فإنَّ الأطباء في مستشفى أولطمان كانوا قد أوصوا بمركز تومي بافليون في مستشفى مدينة كليفلاند، بوصفه الخيارَ الأكثرَ تقدُّمًا لمتابعة علاجي الصَّروريِّ وجراحيِّ الإضافيَّة وتدعيمي. وكان تومي بافليون معروفًا كواحدٍ من أفضل مراكز التَّنفس الإقليميَّة للعناية وإعادة التأهيل في البلَد. وقد أرادَ والداي لي خيارَ العنايةِ الأفضلِ المتاح.

كانت ردةً فعلي الأولى لما تبين لي أنني سأرجعُ إلى المستشفى ردةً فعلٍ سوداء. إذ كنتُ تواقًا قد بدأتُ أستمتعُ بالحياة في البيت مع إخوتي وأخواتي وأتكيفُ معها، فلم أرحبُ بفكرة السَّاعات الطويلة في سريرِ مستشفى ورثةٍ حديدية بعيدًا عن البيت.

قال باباي مُطمئنا: «ولكنَّ الطَّبيب قال إنَّه يُمكننا أن نأتي بكِ إلى البيت لتكوني مع

العائلة كلَّ نهايةِ أسبوع.»

واقترحَ أفرَد مؤاسيًا: «وسنأتي لترككِ.»

فوافق ليون: «سنأتي.»

واكتفتِ الطفلةُ جُوآنَ مِمَّصِ إصبعِها والنَّظَرِ إليَّ.

حاولتُ أن أكونَ مَرِحَةً عندَ الوداعِ، ولكنني لم أشعرَ بالمرحِ. عَلِمْتُ أَنَّني سأفتقدُهم، خصوصًا لينا. وإذ انطلقتِ السَّيَّارةُ مُبْتَعِدَةً عن البيتِ، انزلتُ دمعَةً على خَدَّي. نظرتُ من النَّافذةِ إلى الخُضرةِ الجديدةِ في أوائلِ الرَّبيعِ. ورأتُ ماما الدَّمعةَ فَمَسَحَتْها عن وجهي.

«مهلاً الآن، فيرا. لا تبكي. سكتونين بخيرٍ تمامًا. ستكسبينَ أصدقاءَ جُدِّدًا وتتعلمين كيف تمشينَ وتأكلينَ وحدكِ. أَلَنْ يُعْجِبَكَ ذلك؟»

أومأتُ برأسي إيماءً خفيفةً. «رُبَّمَا.» لم أكنَ على يقين.

كان مُستشفى مدينة كليفلاند مُجمَعًا ضخمًا من مباني القرميد. وقد شعرتُ بالضياعِ إذ نظرتُ ببأسٍ وبؤسٍ إلى أبنيتِهِ المهيبَةِ. أنزلني بابا من السَّيَّارة وحملني إلى المبنى المُناسبِ، حيثُ تمَّ إدخالِي وإصعادي إلى جناحِ شلِّ الأطفالِ على نقالةٍ.

استعجَلتُ بِضَعِ مُمرَّضاتٍ شابَّاتٍ بنشاطٍ لإِراحتي. وراقبتُ كلَّ حركةٍ مِنْهُنَّ بِتَدقيقٍ حادٍّ. كُنَّ لِباساتٍ قُبَعاتٍ بيضاءَ مُنشأةً، تمامًا مثلَ المُمرَّضاتِ في أولطمان. وكان لإحداهُنَّ عيناَنِ داكيتان مُفَعَمتان بالحياةِ وحركاتٌ سريعة. وقد بدتُ أُخرى خَجِلَةً، تشكَّلتُ على خَدَّيها غَمَازتانِ عندما ابتسمت. فرددتُ عليها بابتسامة. أردتُ أن أكسبَ أصدقاءً، ولكنني بقيتُ أشعرُ بِالوَحدةِ والضياعِ. لم تكنْ أَيُّهُ واحدةً من هاتينِ المُمرَّضتينِ مثلَ مِسزِ غاسطُن. ولمَّا جاءَ بابا وماما ليَتَمَنِّيا لي ليلةً سعيدةً، تمَنَّيتُ لو يقدران أن يظلاً معي.



«حانَ وقتُ الاستيقاظِ والإشراقِ، فيرا!» كانَ ذلك صباحَ الثُّلاثاءِ، بعدَ أُسبوعٍ من دخولي مُستشفى كليفلاند، وكنْتُ أَتَكيَّفُ بِسرعةٍ مع روتيني اليوميِّ. وما لَبِثتِ المُمرَّضةُ أن سألتني بابتهاجٍ: «الْفَطُورُ أَوَّلًا، ثُمَّ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَخْتارِي فُستائًا. أَيُّ واحِدٍ تودِّينَ أَنْ تلبَّسي اليومَ؟ الأصفرُ أم الأزرق؟»

فقررتُ: «الأزرق!» ثُمَّ سألتُ: «هلِ استيقظَ پول؟» كانَ صديقي الجديدُ نعمةً أَيَّامِي الطَّويلةِ الأولى في المُستشفى. لقد استرسلنا، هو وأنا، في المُحادثةِ ثانيَ يومٍ لوجودي هُناك، وبدا دائمًا قادرًا على الإجابةِ عن أسئلتي، حتَّى عندما يكونُ تَعَبًا جَدًّا. كانَ عليه

أن يبقى داخلَ الرِّثَّةِ الحديديةِ كلَّ حين، مثلما كان عليّ ذلك في بدايةِ مرضي. ولكنه كان دائماً يتنسم. وقد حكى فصصاً عجيبة.

ابتسمت لي الممرضة من علّ، وهي تُساعِدُنِي على تناولِ عَصِيدِي، وقالت: «نعم، عزيزي. لقد استيقظ قبل قليلٍ أصلاً. بعدَ تمارينك، لك أن تزوريه. أنا على يقين!»  
اشتملَ برنامَجِي على ساعاتٍ من العلاجِ والوجباتِ والاستراحات. ولكنْ بعدَ الفطور تحدّثتُ دائماً إلى پول، وقتاً قصيراً على الأقلّ. إنّما اليومَ بدا أكثرَ مرحاً من المعتاد. وقد عَلِمْتُ أنّهُ كان مسروراً برويتي من طريقةِ ابتسامه لي.

«مرحباً، فيرا.»

«مرحباً، پول.» كان أيُّ حَجَلٍ لديّ قد تبدّدَ في غضونِ اليومِ الأوّل. وكان پول مثلاً أخٍ أكبرٍ لي. فحكمتُهُ ولُطْفُهُ في الثانيةِ عشرةً من العمر جعلاني أشعرُ بالأمانِ معه.

سألتُ مُسْتَطْلِعَةً: «هل يروُكُ بقاؤك في الرثةِ حديدية؟»

«تُساعِدُنِي على التَّنْفُوس، كما أُحْمَن. ففي هذه الحال، نعم.»

«ألم تضجّرَ منها؟»

«حسنًا، رُبّما. ولكنني ذات يومٍ سأخرجُ وأمشي من جديد. عليك أن تتمسّكي بالأمل.»  
فقلتُ بابتهاج: «أعلمُ أنّك ستتمكّن من ذلك يوماً ما. تروُفني الرثةُ الحديديةُ في الليل. ولكنني مسرورةٌ بكوني خارجها مُعْظَمَ الوقتِ الآن. لعلك يوماً ما ستتمكّن من اللّعبِ معي. كم سيُعجّبني ذلك!» وأوماً برأسه مُوافِقاً.

أملتُ رأسي إلى جهةٍ واحدة. «لماذا يمرضُ النَّاسُ، پول؟»

«لا أستطيعُ أن أشرحَ السَّبَبَ بالتأكيد، فيرا. تخميني أنّ ذلك جزءٌ من الحياة. إنّما يؤسّفني أنّ عليك أن تكوني مريضة. فذلك عيبٌ حقاً.»

هزرتُ رأسي إنكاراً. «لا، پول، ليس كذلك. لأنني قابلتُك، كما تعلم، ونحنُ الآنُ صديقان. لو لم أتعرّفُ بك، لكنكُ حزينة.»

ابتسمَ ابتسامتهُ البطيئة. «ذلك صحيح، فيرا. أنت على حقٍّ بأنّ أموراً حسنة قد تطلُعُ من أمرٍ صعب، حتّى لو بدت لنا كأنها أمورٌ سيئةٌ في البداية.»

«ولكنني فعلاً أفقدُ عائلتي. أفقدُ لنا أكثرَ الكلّ. وأنت تفتقدُ أخاك الصّغيرَ أكثرَ الكلّ، صحيح؟» كان پول قد أخبرني كلَّ شيءٍ عن عائلته الكبيرة ذات الإخوة والأخوات

الكثيرين. وكان والداهُ أغلب الأحيان معه، كما كان يجيءُ أحدُ إخوته أو أخواته الأكبر سناً بعضَ الأحيان. إنّما كان ينبغي أن تكونَ في الثانية عشرةً من العمر لتزورَ مريضاً في الجنّاح. ولم يكنْ أيُّ من إخوتي وأخواتي قد بلغ تلك السنَّ بعد.

بدا مُستغرباً في التّفكير لحظةً. «ذلك صحيح، فيرا. ولكن إذا أمكنَ أن تتحسنَ صحتك، يُمكنك أن تذهبي إلى البيت وتعيشي معهم كلَّ حين، صحيح؟»  
 أومأت برأسي إيجاباً بسرور. «وأنا لا أشعرُ كثيراً بالوحدة والوحشة معك هنا.»  
 «فيرا، حانَ الوقتُ للتّمرنِ فوقَ لُوحِ الوقوف.» كانت الممرضةُ بجانب السرير، مُستعدّةً لنقلي لأجل جلستي العلاجيّة التّالية.

«أراك في ما بعد، پول.»

«أراك لاحقاً، صديقتي الصّغيرة.»

بعدما قضيتُ معظمَ وقتي على ظهري مُدّة سنةٍ ونصف، لم يكنْ تعلمُ التّكيّف مع وُضع جُلوسٍ أو وقوفٍ أمراً سهلاً. فقد جعلني لُوحُ الوقوف دائخةً أوّل الأمر. تُبْتُ عليه بالأريطة، أشبهَ بما كنتُ أُبْتُ على السرير الهزاز. ولكنّ اللّوح لم يكنْ يهزهز. لقد أُميتُ على مهلٍ نحو الأعلى حتّى صرتُ في وُضعٍ وقوف. وتدرجياً، بدأ جسمي يتكيّف مع الوُضع العموديّ من جديد.

لم تكنِ التّكيفاتُ سهلةً دائماً في المُستشفى. فبعضُ الأهدافِ كانت أهدافي الخاصّة. والأهدافُ الأخرى وجدّتها غير عمليّةٍ نسبةً إلى كميّة حياتي ومُواجهتي للصّعاب. وقد كان هديّ الأكبر أن أتخرّجَ من الرّثة الحديديّة إلى جهاز تنفّسٍ صدريّ. وأفرادُ الهيئة الطّبيّة شجّعوني بلا انقطاعٍ على ذلك.

أمرٌ آخر علّمني الأطبّاءُ إيّاه باكراً في كليفلاند هو كيف «أتنفّس كالضفدعة». وكان ذلك تقنيّةً جديدةً عرّفت أيضاً بالتنفّس البلعوميّ اللّسانيّ. ولمّا أخبرتُ پول عن التنفّس الصّفديّ وحوالتُ أن أخبره بالمصطلح التقنيّ الدّالّ عليه، ضحك وساعدني على لفظه حتّى صرتُ قادرةً على قوله بطريقة مُمْتَازة تقريباً.

كان حجابي الحاجزُ مشلولاً كليّاً. ولكن كان في وسعي أن أدفَع مزيداً من الهواء إلى داخل رئتيّ بخفضِ لساني وحبسِ فُقاعةِ هواء، ثمّ رَفَع لساني إلى سَقْفِ حلقي، فاتحةً قِصْبتي الهوائيّة، وضاعطةً الهواء داخلِ القِصْبَة الهوائيّة بلساني. وقد تعلّمتُ بِطُء.

كان ذلك صعبًا، واستسلم مرضى كثيرون. فكُنْتُ عاقِدةَ العزم، ولكنِّي استصعبتُ التَّمَرُّنَ قُدَّامَ الآخرين. وكان الدُّكتور أيبن، طبيبي، لطيفًا بصورة خاصة مع الأولاد، وقد بدا مُدرِّغًا احتياجي إلى الخُصوصيَّة.

كنتُ أقولُ له: «لا تنظر!»

فِيَنبَسِطُ وجهه المُربَّع في ابتسامه دَهْشَة: «لا بأس، فيرا. سأديرُ ظهري، وبعدئذٍ أريدُ أن أسمعك تُجربِّبن. مفهوم؟»

فأبدي موافقي بإيماءة من رأسي، ويعرفُ من أصواتِ عَظ - عَظ - عَظ أنني أتمرَّن. «جيد جدًا، فيرا. جرِّبي ذلك من جديد الآن.» ودونَ رُويَّةٍ وجهه، أعرفُ أنه كان بيتسم. إذ يُمكنني سَماعُ ذلك في نبرةِ صوته.

سيستغرِقُ الأمرُ بضعَ سنينَ قبلَ أن أتقنَ تلكَ التَّفنيَّةَ فعلاً. ولكن في الأخير سأستعيدُ بواسطة هذا التَّمَرينِ نَفْسًا كافيًا لأتمكَّن من الغناء، بل من الرِّعيق قليلاً أيضًا.

كانتِ الجبائرُ هي الجزء الأقلُّ تفضيلًا في برنامجي مُستشفى كليفلاند، ولا سيمًا جبيرتا السَّاقِ اللَّتانِ أرغمتا رجليَّ على البقاء في وُضْعٍ ووقوف. ثُمَّ جِذاءُ التَّجبيرِ البُنيُّ البَشْعُ الذي اضطرَّرتُ إلى لُبْسِه! وذاتَ يومٍ سألتُ المُمرضةَ عن ذلك الجِذاء. «إذا كان عليَّ أن ألبسَ حذاءً، فلماذا لا يُمكنني أن أحصلَ على جِذاءٍ أحمرَ بأشْرطَّة كالبنات الأخرى؟» وقد كان الحذاءُ الأحمرُ ذو الأشرطةِ شيئًا نُفِثُ إليه بشِدَّة، إلا أنني لم أحصلُ عليه قطُّ في أثناء إقامتي بالمُستشفى.

لم أفكِّرْ مرَّةً بشأنِ حقيقةِ كونِ والديَّ لا يريدان لي أصلًا أن ألبسَ جِذاءً أحمر. إنَّما علِمْتُ فحسبُ أنني كرهتُ الجِذاءَ البُنيَّ.

تُبَّتْ جبائرُ على أصابعي لِمَنعها من الالتواء. ومُرَّنتُ أصابعي ومعضماتي وذراعاي بِصَرامة، كما استمرَّت أيضًا مُعالجاتُ الكِماداتِ الصُوفيَّةِ الحارَّةِ المُبجَّرة. وتعلَّمتُ بِبطءٍ أن أطعمَ نفسي على نحوٍ مُملِّ.

أعطيتُ مُقومَ عنقي ومِسدًا معدنيًا أيضًا. فأعطاني هذان، فضلًا عن مُقومَي ساقِي، القُدرةَ على بدءِ المُشيِّ قليلًا. وذاتَ يومٍ صُوِّرتُ لأجلِ مُلصَقٍ يَخُصُّ «مسيرةَ العشرةِ سنَّات». فإذا جَلستُ على كرسيِّ المَدولَب، ابتسمتُ أمامَ الكاميرا، غيرَ خائفةٍ من الصَّوِّ الوِماض. لم أكن خائفةً أن أكونَ مركزَ الانتباه. ومع أيِّ عَرَفْتُ القليلَ عن «مسيرة

العشرة سنّات»، فقد عَلِمْتُ أَنْ مَالاً جَاءَ مِنَ الْمَسْئُولِينَ عَنْهَا لِلْمُسَاعَدَةِ فِي دَفْعِ فَوَاتِرِنَا الطَّبِيبَةِ. وَقَدْ سَمِعْتُ وَالِدِي مُصَادَفَةً ذَاتَ مَرَّةٍ يَتَحَدَّثَانِ عَنِ الْحَمَلَةِ الَّتِي أَسْهَمَتْ فِي تَوْفِيرِ مَوَارِدِ مَالِيَّةِ لِأَبْحَاثِ شَكْلِ الْأَطْفَالِ وَإِعَادَةِ تَأْهِيلِ مَرْضَى الشَّلْلِ.

كَسَبْتُ عِدَّةَ أَصْدِقَاءَ فَضْلاً عَنْ بُولِ. فَجَمِيعُ الْأَوْلَادِ تَفَاعَلُوا تَقْرِيْبًا. وَلَكِنِّي لَمْ أَقْصُرْ نَفْسِي عَلَى جَنَاحِ الْأَوْلَادِ، بَلْ مَشَيْتُ أحياناً إِلَى جَنَاحِ الْكِبَارِ.

كَانَ بِلْ يَهْتَفُ مُرْحَبًا: «آهَه! هَا قَدْ أَتَتْ فَيْرَا الصَّغِيرَةَ!» لَقَدْ أَحَبَّ هُوَ وَبُوبُ أَنْ يَلْعَبَا لُغَبَ الْوَرَقِ مَعًا. وَذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ كَانَ بُوبٌ خَارِجًا يَخْضَعُ لِلْعِلَاجِ، عَلَّمَنِي بُوبُ كَيْفَ الْعَبُّ لِعَبَةِ وَرَقٍ. وَسُرْعَانَا مَا صرْتُ بَارِعَةً فِيهَا، وَقَدْ لَعِبْتُ بِأَصَابِعِ قَدَمِي بِمَهَارَةٍ كَمَا لَعِبَا هُمَا بِأَيْدِيهِمَا. حَتَّى إِذَا رِحْتُ، يُرْجِعُ بِلْ رَأْسَهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَيَضْحَكُ، فَيَمَا يَهْزُ بُوبُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ: «الْغَلَطُ غَلَطْتُكَ يَا بِلْ. أَنْتَ عَلَّمْتَهَا كَيْفَ تَلْعَبُ. لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَلُومَنِي.» وَلَكِنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُسْتَاءً حَقًّا. فَعَيْنَاهُ الزَّرْقَاوَانُ طَرْفَتَا دَائِمًا، وَشَفَتَاهُ ارْتَعَشَتَا بِابْتِسَامَةٍ وَرَاءَ شَارِبِيهِ الْفِضِّيِّ اللَّوْنِ.

وَفَاءً مِنَ وَالِدِي بِوَعْدِهِمَا، أَخَذَانِي إِلَى الْبَيْتِ مُعْظَمَ نِهَائِيَاتِ الْأَسَابِعِ. وَإِذْ بَاتَ فِي وُسْعِي الْآنَ أَنْ أَبْقَى خَارِجَ الرُّتَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ فَتْرَاتٍ مِنَ الْوَقْتِ قَصِيرَةً، اسْتَمْتَعْتُ دَائِمًا بِالرَّحْلَةِ فِي السَّيَّارَةِ. وَلَكِنَّ أَفْضَلَ الْكُلِّ كَانَ وَصُولِي إِلَى الْبَيْتِ لِأَلْعَبَ مَعَ لِينَا. وَأَحْبَبْتُ أَيْضًا عِنْدَمَا تَقْرَأُ لِينَا لِي وَأَنَا أَسْتَرِيحُ فِي رَتْنِي الْحَدِيدِيَّةِ. إِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ الشُّعُورَ الْأَكْثَرَ أَنْسَا وَسَعَادَةً فِي الْيَوْمِ.

إِنَّمَا لَمْ تَقْتَصِرِ الْقِرَاءَةُ لِي عَلَى الْبَيْتِ وَحْدَهُ. فَإِنَّ بَرْنَامَجَ الْمُسْتَشْفَى لِلتَّرْبِيَةِ كَانَ مُطَوَّرًا لِلْغَايَةِ، وَجَمِيعُ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ كَانَتْ سُنُّهُمْ كَافِيَةً ذَهَبُوا إِلَى الْمَدْرَسَةِ كُلَّ يَوْمٍ بِضَعِّ سَاعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ. وَقَدْ أَحْبَبْتُ مُعَلِّمَتِي، مِسَ بَكْ. كَانَتْ مِنَ أَلْمَانِيَا، وَقَدْ جَعَلْتَنِي دَائِمًا أَبْتَسِمَ.

كَانَ نَهَارُنَا يَبْدَأُ بِدَفْعِ الْمَرْمُضِينَ لِلتَّلَامِيذِ عَلَى نَقَالَاتٍ مُدَوَّلِيَّةٍ عَبْرَ نَفَقٍ تَحْتَ الْأَرْضِ يَصِلُ مَبْنَانَا بِجَنَاحِ ثُومِي بِأَفْلِيُونَ.

خَاطَبْتُ الْمَرْمُضَ الَّذِي يَتَوَلَّى الْاهْتِمَامَ بِي: «جورج؟»

أَمَالَ الْمَرْمُضَ وَجْهَهُ الدَّاكِنَ بِأَدَبٍ. «نعم، مِزْ فَيْرَا؟»

«أَيُمْكِنُ أَنْ يَسْقُطَ الْمَاءُ السَّاخِنُ مِنْ تِلْكَ الْأَنْبَابِ فَوْقِي عَلَى وَجْهِ؟»

«أه، ليس بما يكفي لإيذائك، يا صغيرة. لا تقلقي. سأهتم بك جيداً.» ولكنني كنت دائماً ما أزال خائفةً أن يسقط الماء على وجهي ويصعب علي التنفس. أحياناً، سقطت نُقطةً أو اثنتان فعلاً عليّ ونحن مُرُّ تحت شبكة الأنايب. ولكن هذا الخوف كان يُنسى دائماً عندما نصل إلى قاعة الدرس.

لم تكن تلك القاعة مُجهَّزة بمقاعد وطاولات كقاعة درسٍ عاديّة. إمّا كان فيها بالأحرى صُفوف من الأسيّة. وقد رحّبت مس بك دائماً بتلاميذها بابتسامة كبيرة. «أنحن مُستعدون لمغامرة التعلّم؟»

«نعم!» كان صوتي دائماً يحمل حماسةً أكثر من أيّ واحدٍ من الأصوات الأخرى في القاعة.

«اليوم سنبدأ بكتابِ قراءتنا الأوّل. لقد تعلّمتم كُلكم الحروف والمقاطع، والآن حان وقتُ القراءة!» وكانت تتمشّي بهدوءٍ في أنحاء قاعة الدرس وتنقلُ المعرّفة مَرَحٍ وشغفٍ. بعض الأيّام، تعلّمنا حقائقٍ حسابيّةً أساسيّة، أو كتبنا رسائلٍ إلى مشاهير. وأياماً أخرى، قرأنا في كُتبٍ قراءتنا، أو تعلّمنا درس علوم. وفي أكثر من مُناسبةٍ واحدة، أحضرت مس بك حيواناتٍ حيّةٍ لصفنا. والذي يُذكرُ أكثر الكُلّ بينها كان ألك، التمساح الطّفل. وقد عاش في حوضٍ صغيرٍ على رَفٍّ وراء مكتب مس بك.

ذات يوم، أعلنت مس بك أنّ محطة التلفزيون المحليّة ستأتي لإعداد تقريرٍ عن مدرستنا. ثمّ قالت لي: «أنتِ تلميذتي الفضلى في القراءة، فيرا. أتودين أن تقرري للمُصوّر؟» فغمزني الابتهاج والحماسة. لقد كان مُمتعاً أن أكون مركزَ الاهتمام وأن أقدم قراءة بصوتي الأفضل.

بعد زيارةٍ إلى البيت ذات نهاية أسبوع، كنتُ أتوقّع روتيننا المدرسيّ المعتاد، وزيارةً لصديقي پول. ولكنّ لما استيقظتُ صباح الاثنين، لم أرَ پول في رتته الحديدية. فإذ تحيرتُ سألتُ المُمرضة القُربي: «أين پول؟»

نظرت إليّ لحظةً وكأنّها لم تدرِ ماذا تقول. فسألتُ: «هل نُقل؟ هل ذهب إلى بيته؟»  
«حسنًا، حبيبتي... ذهب إلى بيته بمعنّى ما. فبدلاً من أن ينامَ پول الليلة الماضية، ذهب إلى السّماء بدلاً من ذلك.»

هزرتُ رأسي إنكاراً: «آه، لا! هل مات پول؟ لا يُمكنني أن أراه الآن!» ورفعتُ نظري إلى وجهها باكيةً.

«أشش، حبيبتي. اهدئي الآن! لا تبكي. أنا أعلم أننا سنفتقدُ پول. ولكنه في مكانٍ أفضل.»

طوّقتني بذراعيها مهدئةً وربّنت رأسي. فانسحبتُ مُبتعدةً ورفعتُ نظري إليها يائسةً: «هل تعتقدين أنه يستطيع أن يركض ويلعب فوق هناك، يا ممرضة؟» ابتسمت بلطف: «أوه، طبعاً، فيرا. أنا على يقينٍ بذلك. إنه سعيد الآن، ولن يمرض ثانيةً أبداً. إنهما تذكري أنّ الوداع ليس إلى الأبد.»

قلْتُ وأنا أطرفُ بعيني ككففةً للدموع: «أعرفُ أنه أراد أن يركض من جديد. يوماً ما سأراه ثانيةً.» فمع أنّ قلبي اكتأب من أجل فقدِ صديقي، علمتُ بطريقةٍ جديّة من نوع ما أنه كان أسعد الآن، وقيلتُ ذلك دون مزيدٍ من التّساؤل.

تلك الليلة، لما أويتُ إلى السرير، تبيّنتُ بأنّ الدُمية التي أعطاني إيّاها پول كُنيت في الفراش إلى جانبي. وهمستُ: «ليلة سعيدة، پول!» كنتُ قد سميتُ دُميتي باسمه، والآن باتت هي المُذكّر الملموس الوحيد به.

افتقدتُ صديقي كلّ يوم. ولكنني تكيفتُ بسرعة، كما يفعل الصغارُ أغلب الأحيان. لم أخش الموتَ قطّ لِنفسي أو لأيّ شخصٍ غيري. كان مجردَ حقيقةٍ واقعيّة بالنسبة إليّ أنّ پول كان بحاجة لأن يذهب إلى السّماء.

بعد رحيل پول، كانت زيارتي إلى البيت ذات أهميّة خاصّة أكثر بعد. لقد اجتهدتُ في المدرسة، واستمتعتُ بزياراتِ عصرِ النّهار من قبل العمّال أو العَمَلاتِ الاجتماعيّين. واجتهدتُ أفرادُ هيئة المُستشفى لإبقائنا مُستمتعين، فكانوا يأتون إلينا بزوّارٍ يتفاوون بين «سحرة» أمكنهم إخراجُ أرنابٍ حقيقيّة من قُبعتهم، وأشخاصٍ تزَيّنوا بأزياءٍ مشاهير. وحصلتُ نزهاتٍ وبرامجٍ ومشاريع. أمّا وقد بات بإمكانني الآن أن أخرج في كرسيّ مُدولب، أمكن أن تأتي حتّى لينا لزيارتي أحياناً. كانت في الرّابعة من عمري فقط، ولكن أمكنها أن تدفعَ كرسيّ المُدولب وحدها تماماً. وقد كنتُ فخورةً بها!

في أثناء تلك الأيام الحافلة بالأنشطة، كانت أشياء أخرى تجري في عالمٍ شلّل الأطفال. فإنّ أفرادَ الهيئة الطّبيّة في كليفلاند، ومن جملتهم الدكتور فردريك سي روبنز وطبيران آخران، نالوا جائزة نوبل سنة ١٩٥٤ لنجاحهم في استنباتِ فيروس شلّل الأطفال

داخِلَ مُسْتَنبَتِ نَسِيحٍ حَيٍّ. وَمَضُوا قُدُماً مِنْ هُنَاكَ لِيُهَنْدِسُوا لِقَاحِي سُولِكَ (فيروس  
مقتول) وسابن (فيروس حي).

في شهرِ نَيْسَانَ مِنْ سَنَةِ ١٩٥٥، احْتَفَلَتِ الْوَلَايَاتُ الْمُتَّحِدَةُ كُلُّهَا احْتِفَالاً صَاحِبًا إِذْ  
أَعْلَنَتْ نَشْرَةَ إِذَاعِيَّةٍ رَسْمِيَّةٍ نَتَاجِجِ الْاِحْتِبَارِ الْمِيدَانِيَّةِ لِطَعْمِ سُولِكَ. فَاحْتِبَارَاتُ اللَّقَاحِ  
أَثْبَتَتْ أَنَّهُ كَانَ فَعَالًا عَلَى نَحْوِ شَبهِهِ كَلِّيٍّ فِي مَنَعِ شَلْلِ الْأَطْفَالِ التَّامِّ. وَالْمَرَضُ الَّذِي غَيَّرَ  
حَيَاتِي إِلَى الْأَبَدِ بَدَأَ يُقَهَّرُ آخِرًا.

وَفِي خَرِيفِ تِلْكَ السَّنَةِ، بَعْدَ ٩٩٩ يَوْمًا فِي مُسْتَشْفَىي أُولْطِمَانِ وَكَلِيْفْلَانْدِ،  
رَجَعْتُ إِلَى الْبَيْتِ.



## عالمٌ من العَجَب

قلتُ مُوجِّهَةً: «ليون، صَعُ كُرْسِيِّنِ مَعًا. سَيَكُونانِ الأَسْرَةَ. رُوث، مُكِنِّكَ أَنْتِ أَنْ تَكُونِي رَئِيسَةَ المُمَرِّضاتِ، مُكِنِّكَ أَنْ تَكُونِي مِيسِرَ غاسِطُن.» كُنَّا نُقِيمُ مُسْتَشْفَى فِي مَطَبَخِ المِزْرَعَةِ الكَبِيرِ. فَمُنْذُ رَجوعي إِلى البَيْتِ كانَ إِخوَتِي وَأَخوَاتِي مُفْتونِينَ بِقِصصِي عَن أَيَّامِي فِي المُسْتَشْفَى. وَاليَوْمَ قَرَرْنَا أَن يَكُونَ لَنَا مُسْتَشْفانا اللُّعْبَةُ الخَاصُّ.

سَأَلْتُ لينا بِتَوَجُّعٍ: «هَل تُوذِينِي الإِبْرَ؟» كانَتْ هِيَ مَريضَةً، وَقَدْ أَعْلَنْتُ أَنَّ جَمِيعَ المَرضَى سَيُحَقِّنونَ بِإِبْرٍ.

فَنظَرْتُ إِليها وَقَهَقَها. ثُمَّ اصْطَنَعْتُ هَيْئَتِي الجَدِّيَّةَ الفُضلى، وَأَعْلَمْتُ طَبيبتنا هَما يَقولُهُ: «أفرد، هَما أَنَّكَ أَنْتِ الطَّيِّبُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُخَبِرَ مَرضاكِ أَنَّ الإِبْرَ نَافِعَةٌ لهُم.»

ضَحِكَ أَفردُ ضِحْكَةً خَافِتَةً بِشَيءٍ مِنَ الارتباكِ. «أهَي كَذلكَ؟ حَسَنًا، لينا، الإِبْرُ نَافِعَةٌ لِكَ، وَلَذلكَ أَحْمَنُ أَنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيكِ أَنْ تَتَلَقِّي إِبْرَةً.»

قَهَقَها لينا ثَانيَةً، وَهَزَزْتُ أَنَا رَاسِي بِتَفادِ صَبْرٍ. «لا، أَفرد. الأَطبَّاءُ لَيسوا كَذلكَ. عَلَيكِ أَنْ تَكُونَ رَصيدًا تَمامًا وَمُشجَعًا جَدًّا.»

اسْتَعجَلتِ رُوثُ فِي حَرَكَتها، جاعِلَةً لينا وَليونَ وَجُوآنَ مُسْتريحينَ بِوسائِدِ الأَريكةِ وَالبَطَّانِيَّاتِ المَلوَنَةِ. وَخَيَّلَ إِليَّ أَنها كادَتْ أَنْ تَكُونَ جَيِّدَةً كَمَمرضَةٍ حَقيقِيَّةً.

بدت جوان الصغيرة مرعوبةً من الإبرة لما جاء الطيب الطيبُ افردَ ليقوم بما أمرتُ به. هزت رأسها، وارتجفت شفتها السفلى. «أنا لسْتُ مريضة!» ثمّ جلست ودفعت البطانية عنها. فنظرَ افردَ إليّ طلباً للتوجيه، وقررتُ أنّها يمكن أن تُعطى دواءً مملعةً بدلاً من ذلك. فكانت قانعةً أكثرَ جدًّا بهذا الترتيب، وحلّت المشكلة العويصة.

لما انتهينا من عالم لعينا، كان المطبخ كُتلةً فوضى من القدور وكؤوس الماء والبطنيات. ولكنّ ماما لم تُبدِ قطُّ احتياجًا واهتياجًا بشأن ذلك، بل جعلتنا فقط نُظفُ المكان. فما دُمنّا مسرورين وراضين، سرّها أن تدعنا نتخيّل.

كانت الحياة في البيت مُرتبةً تمامًا. إذ كانَ بابا مُدققًا جدًّا بشأن برنامَج العائلة. وقد كانت العبادة العائليةً دائماً جزءًا من يومنا. وكانت صباحاتي حافلةً بمُساعدة ماما لي في القيام بتماريني، مُمرّنةً عضلاتي بمجهودٍ لا ينتهي لتقويتها. كانت ذراعاي نحيلتين بِشكلٍ يرثي له. أمّا رجلاي فكانتا أقوى، بسبب استعمالهما أكثرَ بكثيرٍ في حياتي اليومية. وقد تيفّنت والدي بتناولٍ فيتاميناتي لإبقاء قوّتي كافيةً، وكلّ يومٍ عند الغداء كانت هي أو روث تُساعدني على ارتداءِ جبائري لأتمكّن من الجلوس واستخدام يديّ للأكل مع باقي العائلة.

أه، كم كرهتُ تلكَ الجبائر! فذات يومٍ أغاظتني خصوصًا خيبةُ تلكَ البدع المَعْدِنِيّة الصّخمة. ومن سَعدي أنّ روث كانت هي التي تلبسني إياها يومذاك. فرفعتُ رجليّ القويتين الصغيرتين ورفسُتُ قصبتي ساقِها. لو كانت ماما فاعلةً ذلك، لَكُنْتُ مُضطربةً إلى الإذعان فحسب، ولكنّ بطريقةٍ ما شعرتُ بأنّه أمرٌ مريحٌ أن أقاتل الأشياء التي كرهتها كثيرًا جدًّا.

«آخ، فيرا، كُفي! أنا أحاولُ أن أساعدك!» هكذا قالت فيرا مُحتجّةً.

فرددتُ تواءً: «كُفي أنتِ فقط! لا أريدُ أن ألبسها. إنّها تؤلّمني.»

«لا! قالت ماما إنّك كُنْتِ ستلبسِها.» وأقحمتُ روثَ جسمي داخلَ المِشدِّ، فبَوّزتُ.

رفسةٌ ثمّ رفسة!

فقالَت روث لاهتةً: «أوووه... كُفي هذه الدّقيقة، فيرا، وإلّا رَفَسْتُكَ في المُقابل.»

وأصررتُ بعناد: «لا يُمكنك أن تتراّسي عليّ. لن ألبسها.»

تبادلنا رَفَسَتَيْنِ أو ثلاثاً بَعْدُ قبلما استظهرت قُوَّةُ رُوْثٍ على إصراري. وفي ما بعد، لمَّا سألت ماما عن سبب الرُّضُوضِ على قَصْبَتِي ساقِي، قُلْتُ لها إِنَّ رُوْثَ أَحَدَتْهَا. ولمَّا سألتها ماما عن الأمر، احتجَّتْ بأنني البادئة وبأنَّها هي رَدَّتْ بالرُّفْسِ دِفَاعاً عن النَّفْسِ. ولم تكَّدْ ماما نُصْدُقُهَا، بما أَنَّ قَصْبَتِي ساقِيها لم تحمِلا أَيَّ رُضُوضِ. ثُمَّ نَبَهْتُنَا كَلْتِنَا أَنْ نُحَسِّنَ التَّصَرُّفَ ونُسَاعِدَ إِحْدَانَا الأخرى بدلاً من أَنْ نتقاتلَ في المُستقبل. ولمَّا غادرتِ العُرفة، نظرتُ إليَّ رُوْثٌ بارتباك، فكشَّرتُ حالاً تكشيرةً كبيرةً.

«أسفة. ولكنني ما زلتُ أكرهُ هذه الجبائر.»

«أسفةٌ أيضاً. ما كانَ ينبغي أن أرفسكِ. ولكن لا ينبغي أن تُقاتليني. لم تكَّدْ ماما نُصْدُقُني. ليس هذا حسناً، فيرا.» ولم تتمالكِ نفسَها عن إطلاقِ ضِحْكة خافتة رُغمًا عنها. فانحللنا كلتانا في الضحك، ونُسيَ خِلافُنا... حتَّى حانَ وقتُ لبسِ الجبائرِ ثانيةً في اليومِ التَّالي.

رُغمَ خناقاتنا بسببِ الجبائرِ، كانت روثٌ واحدةً من أفضلِ أصدقائي في أثناء تلك الأشهرِ والسَّنينِ الباكِرة في البيت. ونادراً ما سمحت لي ماما بالخروج في تلك الأشهرِ الباكِرة بما أُنِّي كنتُ مُعرَّضةً لِنزلاتِ البَرْدِ، وأيَّةُ عِلَّةٍ مُرتبطةٍ بالنَّفْسِ يمكن بِسهولة أن تتحوَّلَ إلى أزمَةٍ لي بوجودِ قُدْرَتِي الرُّثُويَّةِ المحدودة.

ومتى ذهبَ بابا وماما كلاهما في الأُمسيَّةِ إلى اجتماعاتِ الكنيسة، نَصَّعُ رُوْثُ الأولادِ الآخرين في أَسْرَتِهِم بِالطَّابِقِ العُلويِّ، ثُمَّ تَجَرُّ رُثِي الحديديَّةِ إلى داخلِ المطبخ. وهناك تقلي نَقانِقَ بولونيا لأجلِ وجبةٍ سريعة، ثُمَّ في أثناء تحدُّثِي إليها نُصَمِّمُ نماذجَ فساتينِ دُمَى نَسْتَعْمِلُها لِحِياطَةِ البسةِ دُمَى صغيرة. وكانت رُوْثُ أغلبَ الأحيان تجلسُ بقُرْبِي على مَدَارِ السَّاعةِ وتقرأ لي.

لمَّا دخلتُ الصَّفَّ التَّالي، بدأتِ مسَ دليلاً مَلَرِ تعليمي في بيتنا عصرَ كلِّ نهارٍ بَعْدَ انتهاءِ دوامها المدرسيِّ. وقد أحببتُ مُعلِّمتي. فمِثْلَ مسِ بَكِ في كِليفلاند تماماً، أحبَّتِ الأختُ دليلاً التَّعلُّمِ وفتحت لي عوالمَ من الأشياءِ العجيبة من خِلالِ تعليمها الحماسيِّ وتدريبها اللطيف، الدَّقِيقِ المُلاحظة.

«هيا، فيرا. لِنُجَرِّبْ من جديد.» ولَفَّتْ أصابعي حولَ القَلَمِ، ثُمَّ وَجَّهَتْ يدي. فرُغمَ كَوْنِ ذِرَاعِي ومُعْظَمِ العَضَلاتِ في يدي عديمَةً النَّفْعِ، كنتُ أستطيعُ تحريكَ بعضِ أصابعي قليلاً. وكنتُ قد تعلَّمتُ كتابةَ الحروفِ المُنفصلة من مسِ بَكِ، إلاَّ أَنَّ الأختَ

دليّة كانت الآن تُعلِّمني الألفباء المتّصلة. فركّزتُ باجتهاد، باذلة كلّ جهدي لرسم الخطّ الجميل الموضوع أمامي.

«انظري، هكذا تقومين بالأمر. نعم، هكذا تمامًا.» وقد شجّعتني ابتسامتها. فإذ بادلتها الابتسام، أمسكتُ بقلم الرّصاص، وبُطءٍ واجتهادٍ جرّبتُ من جديد.

تحدّثنا عن قواعد اللّغة والحساب بعض الأيام، ولكنّ أيامي المفضّلة فضيّت في التّكلّم عن الكُتب والتّاريخ والجغرافيا. وقد أحببتُ الدّراسات الاجتماعيّة وقرأتُ بنهم أيّ كُتبٍ قصّص أعطّني معلّمتي إيّاها لأدرّسها.

في أثناء سنّة الصّفّ الثّاني هذه، انضمّت إلى عائلتنا أختٌ أخرى. وُلدت يوم رأس السنّة، وسماها والديّ دليّة على اسم معلّمتي المحبوبة. وقد أحببتُ أختي الصّغيرة بشدّة من البداية تمامًا. كنتُ أستعملُ رجليّ، فأستلقي على الكنبّة وأحملُ أختي بين رُكبتيّ، كما لو كانتا ذراعين تمامًا. وكانت ماما تسمح لي بأن أحملها أغلب الأحيان. وأحياناً، كانت ترفدُ معي على سريري في عُرفتِي، فيما أستريحُ في أثناء اليوم. وقد أحببتُ أن أراقبَ فمها الصّغير اللّين يتحرّكُ ويطلقُ فقاقيع. وعندما تضحُ أفحمُ بعض أصابع قدميّ في فمها لأهدئها. كانت أصابع قدمين نظيفة، وقد استعملتها بدلاً من أصابع يديّ تمامًا، ولم تنزعج أختي الطّفلة قطّ.

مع أنّ حياتي كانت حافلةً بأشياءٍ عجيبة، ووجدتُ أحياناً فتراتٍ مُملّة، حين يكونُ إخوتي وأخواتي الأكبرُ غائبين، وإخوتي وأخواتي الأصغرُ نائمين، أو قائمين مَهامٍ مطلوبة. وقد نُصِبَ سريرُ المستشفى خاصّتي في عُرفة جدّتي القديمة بالطّابق الرّئيسيّ، حيثُ وُضِعَ تمامًا بجانب نافذةٍ تطلُّ على الطّريق. وحِيلَ إليّ أنّه سيكونُ الأمرُ مُسوّقاً إذا حدّثَ اصطدامٌ أو شيءٌ ما على الطّريق. إلّا أنّني مُعظمَ الوقتِ أرتضيتُ نفسي بتخيّل ما سأكونه ذات يومٍ عندما أكبر، أو بتصوّر اللّعبة الثّالية التي سألعّبها مع إخوتي وأخواتي في وقت فراغهم. كذلك أيضاً فضّيتُ كثيرًا من الوقتِ قارئةً كُتبًا شتى. فقد كانت الكُتبُ أصدقائي الأفضّل في تلك السّاعات الطّويلة الهادئة.

وإذ كرّ الشّتاء وأفسحَ في المَجَالِ للرّبيع، كانَ رُفقاء صفيّ يأتون أحياناً مع معلّمتي في أثناء الاستراحات ليَقضُوا ساعةً معي. فكُنّا نَقعدُ على بَطّانيّة تحت الشّمس المدفّنة، ونقرأ قصصًا وتضحك. وقد جاريتهم في دُروسي ونلّثُ علاماتٍ جيّدةً جدًّا.

كانت إحدى تسليباتي المفضلة خارج المدرسة والحياة العائلية قضاء وقت مع حيواناتي الأليفة وتوسيع آفاقي. وقد صنع لي بابا آله مثنى ذات أربعة دوايب حتى أمكن من التجوال في أنحاء البيت وحدي. وفي ذهني ذي السنين الثماني، كانت تلك المشاية بحاجة إلى لقب رومنطقي، ومن ثم سميتها «صانعة حريتي». وكان لدي ببغاء خضراء نابضة بالحياة والنشاط تقعد على مؤخر مشائتي وتصفر لي وتحدثني بصوت مرتعش كلما قل انتباهي لها. وقد أحببت التحدث إليها عن مشاعري بشأن الحياة.

كان حيواني الصديق الآخر تزييري الفاتن. وقد جعلني فروه الحريري وعينه البنيان الداكتان أعتقد أنه أجمل مخلوق في الدنيا. كان مؤدياً بعض الشيء أحياناً، ولكنه دائماً توخى رفاهتي وبدا عارفاً تماماً كيف أشعر. وبعض الأيام، متى كنت موحشة أو خائبة الأمل بشأن شيء ما، كان كليلي يتسلق إلى سريري ويدس أنفه تحت ذراعي. فكنا نشاهد المطر يطرطش على النافذة فوق سريري، وأحدته همساً عن بلاياي. لم يفس أسراري قط، وعندما أعود مسروراً من جديد يهزهز ذنبه ويعوي قليلاً كماً ليقول: «قلت لك إن الأمر لم يكن رديئاً جداً.» ثم أقهقه ويكون كل شيء حسناً.

كانت أوقات شعوري بالوحشة أو الملل نادرة حقاً. فداًماً تقريباً كان هنالك شخص ما يلعب معي أو يساعدي على قضاء الوقت. وكانت لينا على وجه الخصوص قريبة، وقد أشركتني دائماً في كل ما فعلته. فصرنا متلازمتين كل حين تقريباً. وإذا فعلت شيئاً ما وأنا أشاهد، تحكي دائماً قصته في ما بعد كما لو كنا فعلناه معاً. ولا شك في أن ذلك صحيح. فأنا إنما كنت أفعل ذلك في قلبي، فيما تُنفذه هي فعلاً.

كانت بعض اللحظات مع إخوتي وأخواتي أوقاتاً طائشة، مثل يوم أرسلتنا ماما إلى دكان على الطريق تحتنا تماماً للشراء خيوط. كان أفرد يدفعني في كرسي المدولب. وكانت توجد تلة صغيرة شديدة الانحدار ينبغي أن ننزل عليها لنصل إلى مقصدنا، وعند القمة قرر أفرد أنني سأستمتع بمغامرة. فدون أي تفكير في الخطر الذي يمكن أن ينطوي عليه ذلك، أفلتت كرسي المدولب. وركضت محاذاتي إذ كسبنا زحماً. وبدا أن الكرسي يجري أسرع فأسرع. فأحسست هواء الصيف الحار يوش عبث شعري، وبدل أفرد كل ما في وسعه لمنع الكرسي من الانقلاب، فيما هو يركض بجانبني. ولما وصلنا إلى أسفل التلة، شعرت بانقطاع النفس وأدركت أنني كنت أصرخ طول الطريق نرولاً.

ابتسم لي أفرد ابتسامه عريضة، مُحمرّ الوجهِ ومُتَنَفِّسًا بِشِدَّةٍ، فَرَدَدْتُ بِمِثْلِ  
ابتسامته. وقلْتُ ضاحكَةً: «كان أمرًا مُمتِعًا. أَحَسَسْتُ تقريبًا كأنني أركض!»

وفي يومٍ آخَرَ، قَرَّرْتُ أَنَّنِي أودُّ تجربةَ الرُّكُوبِ على حِصَانِنَا البُنِّي الصَّغِيرِ. وقد  
شَمَلَنِي إخوتي وأخواتي في كُلِّ شيءٍ دونِ جِدَالٍ، إذ كُنْتُ وَاحِدَةً مِنْهُمْ. وَإِذِ اقْتَادَ أَفْرَدُ  
الحِصَانَ إِلَى وَضْعِ مَأمُونٍ بِجَانِبِي، قَالَ: «على مهل!» ورفَعَتْنِي لِينَا لِأَتَمَكَّنَ مِنَ الرُّكُوبِ.  
فَأَمَسَكَ أَفْرَدُ الرُّمَامَ بِيَدٍ وَاحِدَةٍ، وَحَمَلَ جِسْمِي الصَّغِيرَ بِذِرَاعِهِ الأُخْرَى، وَإِذِ قُدِّفَتْ  
ساقاي فَوْقَ السَّرَجِ تَشَبَّهْتُ بِقُوَّةٍ بِوَاسِطَةِ رُكْبَتَيْ.

وسألني بِمَرَحٍ: «أَحَسَّنْتَ! مُسْتَعْدَّة؟»

فقلْتُ بِحِمَاسَةٍ شَدِيدَةٍ: «نَعَمْ. لِنَنْطَلِقِ.» وقد آتَانِي شعورًا رَائِعًا أَنْ أُجَرَّبَ أَشْيَاءَ  
كِهَذِهِ وَأَدْرِكُ الإِبْتِهَاجَ النَّاتِجَ مِنْ إِنْجَازِهَا.

بِوَكْرَةٍ مِنْ قَدَمِ أَفْرَدِ، أَطْلَقَ حَرَكَةَ الحِصَانِ، فَمَشَى بِنَا بِخِفَّةٍ وَنَشَاطٍ إِلَى خَارِجِ  
زُقَاقِ المَرْزَعَةِ.

وسألْتُ: «أَيَمَكِّنُ أَنْ يَعدُو بِنَا؟ أَحِبُّ إِحْسَاسَ الرِّيحِ فِي شعري.»

شعرتُ بِأَنَّ أَفْرَدَ أومأَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، وَسمَعْتُهُ يُقَرِّرُ للحِصَانِ. فأنخَضَ رَأْسُهُ  
وَزَادَتْ سُرْعَتُهُ. وَسُرْعَانِ مَا جَرَى بِنَا عَدْوًا تَامًا حَتَّى تَطَايَرَتِ الحِصَى وَرَاءَنَا. كُنْتُ أَكْثَرَ  
لَهَاتًا مِنْ أَنْ أَضْحَكَ، وَلَكِنْ قَلْبِي كَانَ يَتَفَجَّرُ فَرَحًا. وَقَدْ مَسَّتِ الرِّيحُ وَجْهِي وَجَاوَزَتْهُ،  
وَأَنْدَفَعَتْ رَوَائِحَ الصَّيْفِ الحَارِّ صَاعِدَةً لِيُثَلِّقِنَا مِنَ القَنَوَاتِ الجَارِيَةِ.

لمَّا تَوَقَّفْنَا أَمَامَ الحَظِيرَةِ مِنْ جَدِيدٍ، ضَحِكْتُ: «أَحَسَسْنَا كَأَنَّنا نَطِيرُ، أليسَ  
كَذَلِكَ يَا أَفْرَدُ؟»

ابتسم لي مِنْ عُلِّ ابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ، وَأومأَ بِرَأْسِهِ مُوَأَفِّقَةً. «أَكِيدُ، فَيِرا. أَنَا مَسْرُورٌ  
بِكَوْنِكَ قَدْ أَحْبَبْتَ هَذَا الأَمْرَ.» لَقَدْ شعرتُ دَائِمًا بِأَنَّني فِي أَمَانٍ مَعَ أَفْرَدِ.

حَتَّى إِنَّنِي لَمْ أَكُدْ أَدْرِكُ مَحْدُودِيَّاتِي أَغْلَبَ الأَوْقَاتِ. فَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُجَرَّبَ شَيْئًا مَا،  
أَقُولُ لِشَخِصٍ مَا مَاذَا يَفْعَلُ وَكَيْفَ يُسَاعِدُنِي، وَكُنْتُ دَائِمًا تَقْرِيْبًا أَحَقُّ هَدْيِي.

ذاتَ يَوْمٍ قُلْتُ لِينَا إِنَّنِي أريدُ تَسَلُّقَ صَوْمَعَةِ الحُبوبِ. فلمْ تَطْرَحْ أَسْئَلَةً. «حَسَنًا،  
فَلتَفْعَلْ ذَلِكَ!» فَشَقَّقْنَا، هِيَ وَأَنَا، طَرِيقَنَا عَبْرَ فِنَاءِ الحَظِيرَةِ المُعْبَرِ إِلَى الصُّومَعَةِ المَبْرُومَةِ  
الشَّاهِقَةِ. وَإِذِ حَدَّقْتُ عَالِيًا إِلَى شَمْسِ العَصْرِ الحَارَّةِ بِعَيْنَيْنِ نِصْفِ مُغْمَضَتَيْنِ، انْتظرتُ

حَتَّى أَمَسَكْتَ لِينَا بِكَتْفَيْ وَرَفَعْتَنِي كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ دَائِمًا. ثُمَّ اسْتَعْمَلْتُ قَدَمِي لِأَتَسَلَّقَ الدَّرَجَاتِ. وَقُلْتُ لِاهْتَهَ: «إِنَّهُ أَمْرٌ مُمْتَع!»

ضَحِكْتَ لِينَا وَرَائِي، لِاهْتَهَ وَدَافِعَةً. «عِنْدَمَا نَصِلُ إِلَى الْقِمَّةِ، فَمَاذَا سَتَرَى يَا تَرَى؟»  
كَافَحْنَا صَاعِدَتَيْنِ سَتَّ دَرَجَاتٍ مِنَ السُّلَّمِ الصَّيِّقَةِ، قَبْلَ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ عَالِقَتَانِ. «الْأَمْرُ صَعْبٌ، لِينَا. عَلَيْنَا أَنْ نَنْزِلَ.»

سَأَلْتُ بِوَأَقِعِيَّةَ: «كَيْفَ يُفْتَرَضُ أَنْ أَنْزِلَكَ؟ لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَدُورَ.»  
فَقُلْتُ لَهَا: «حَسَنًا، اطْلُبِي النَّجْدَةَ إِذَا!» وَقَدْ بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالْيَأْسِ.  
فَنَادَتْ بِصَوْتٍ عَالٍ: «النَّجْدَةُ!» وَمِمَّا يَدْعُو إِلَى الشُّكْرِ أَنْ أَفْرَدَ كَانَ فِي الْحَظِيرَةِ فِجَاءَ رَاكضًا عِنْدَ نِدَائِنَا.

نَادَى قَلْبًا: «مَاذَا تَفْعَلَانِ، يَا بِنْتَانِ؟»

فَقَالَتْ لِينَا شَارِحَةً: «نَتَسَلَّقُ فَقَط. وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَنْزِلَ.»  
وَسَاعَدْنَا عَلَى النُّزُولِ دُونَ أَنْ يُوبِخُنَا، إِمَّا كَانَ فِي وَسْعِي أَنْ أَحْزَرَ أَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ الْفِكْرَةَ كَانَتْ سَخِيفَةً قَلِيلًا. لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ آخِرَ مَشْرُوعٍ جُنُونِيٍّ جَرَّبْنَاهُ، وَلَكِنْ مَرَّاتٍ أُخْرَى اسْتَمْتَعْنَا بِمَزِيدٍ مِنَ النَّجَاحِ.

كُلَّمَا رَجَعْتُ إِلَى كِلْيَفْلَانْدَ لِأَجْلِ الْفُحُوصِ وَتَعْدِيلِ الْجَبَائِرِ، كَانَتْ لِينَا تُرَافِقُنِي أَغْلَبَ الْأَحْيَانِ. وَأَحْيَانًا يَقُولُ لِي اخْتِصَاصِي بِفَخْرٍ إِنَّنِي أَتَقَدَّمُ بِشَكْلِ عَجِيبٍ، وَفِي وَسْعِي أَنْ أَتَخَرَّجَ مِنْ جَبِيرَةٍ مُعَيَّنَةٍ. لَقَدْ اسْتَعْمَلْتُ بَعْضَ الْجَبَائِرِ بِانْتِظَامٍ، وَلَكِنْ جَبَائِرَ أُخْرَى بَعَثُوا بِهَا إِلَى الْبَيْتِ مَعِي تُرَكَّتْ غَيْرَ مَلْمُوسَةٍ تَقْرِيبًا. وَكَانَ عِنْدَمَا تَخَرَّجْتُ مِنْ هَذِهِ الْجَبَائِرِ غَيْرِ الْمُسْتَعْمَلَةِ «بِنَجَاحٍ» أَنَّنَا - لِينَا وَأَنَا - ضَحِكْنَا مَعًا بَعْدَ مُغَادَرَةِ الْاِخْتِصَاصِيِّ الْغُرْفَةِ.  
كَانَتْ لِينَا تُفْهِمُهُ وَرَاءَ يَدَيْهَا، قَائِلَةً: «لَمْ تَسْتَعْمِلِي حَتَّى تَلِكِ الْجَبِيرَةَ، وَهَمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا قَوْمَتُكَ!»

فَأَقْبَهَهُ فِي الْمُقَابِلِ، قَائِلَةً: «أَشْشُ، إِنَّهُ سِرُّنَا الصَّغِيرِ.»

وَإِذَا وَصَفُوا جَبِيرَةً جَدِيدَةً بَدَلًا مِنَ الْجَبِيرَةِ غَيْرِ الْمُسْتَعْمَلَةِ، تَبَادَلُ نَظَرَاتِ الْمَعْرِفَةِ وَنُقْهَقُهُ قَلِيلًا بَعْدَ. وَأَحْيَانًا كَانَتْ مَامَا تَنْظُرُ إِلَيْنَا وَتَتَسَاءَلُ عَمَّا اعْتَقَدْنَاهُ مُضْحِكًا جَدًّا. فَلَا يَكُونُ مَنَّا إِلَّا أَنْ نَهْزُرَ رَأْسِينَا وَنَقُولُ: «أَوْه، مُجَرَّدُ لُعْبَةٍ صَغِيرَةٍ نُحِبُّ أَنْ نَلْعِبَهَا مَعًا.»  
ثُمَّ تَبْتَسِمُ مَامَا وَتَكْفُفُ بِحِكْمَةٍ عَنِ طَرَحِ مَزِيدٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ.



## عَنِ النُّجُومِ وَكُرَاتِ التَّلْجِ

أَصْدَرَتْ سَكَّنَا عَرَبِيَّةَ الْجَلِيدِ صَلِيلًا فَوْقَ قَشْرَةِ التَّلْجِ الرَّقِيقَةِ.

وَحَشَحَشَتْ حَوَافِرُ الْحِصَانِ بَعْضَ الشَّيْءِ فِي هَوَاءِ اللَّيْلِ الْهَادِي، مُصْعِدَةً رَشَاشًا رَقِيقًا مِنَ التَّلْجِ، فِيمَا التَّهَمَّ حَبَبُ الْحِصَانِ أَرْضَ الْمَرَعَى. جَلَسْتُ دَافِنَةً مُتَكَوِّمَةً فِي مَهْدِ عَرَبِيَّةِ الْجَلِيدِ فَوْقَ الْقَشِّ، وَرَأْسِي مَائِلٌ إِلَى الْوَرَاءِ. وَقَدْ انْتَشَرَتْ فَوْقَنَا سَمَاءُ اللَّيْلِ الْمُخْمَلِيَّةِ، مُرْمَمَةٌ عَجَبًا صَامِتًا مِثْلَ مِثْلَةِ كَوْكَبَاتِ نُجُومِهَا وَكَوَاكِبِهَا الْمُتَلَالِئَةِ.

أَشَارَتْ لِينَا مَلُوحَةً بِيَدِهَا الْمَكْسُوءَةَ بِقَفَازٍ يَفْصِلُ الْإِبْهَامَ عَنِ الْأَصَابِعِ الْأَرْبَعِ: «انظري، هُنَاكَ الدُّبُّ الْأَكْبَرُ!»

«وَهُنَاكَ كَوْكَبَةُ الْأَخْوَابِ السَّبْعِ!» وَقَدْ حَدَقْتُ بِعَيْنَيْنِ نِصْفِ مُغْمَضَتَيْنِ لِأَرَى مَجْمُوعَةَ النُّجُومِ الْبَاهِتَةِ وَسَطَ جَارَاتِهَا الْأَكْثَرِ إِشْعَاعًا.

فَعَلَّقْتُ لِينَا: «مِثْلُنَا تَقْرِيبًا. مَا عَدَا أَنَّنَا نَحْتَاجُ إِلَى بِنْتٍ أُخْرَى لِتَجْعَلَنَا سَبْعًا.»

كَانَتْ جُودِي قَدِ انضَمَّتْ إِلَى الْعَائِلَةِ فِي مُنْتَصَفِ صَيْفِ السَّنَةِ الْأَخِيرَةِ، بُعِيدَ انْتِقَالِنَا الْكَبِيرِ إِلَى مَزْرَعَةٍ جَدِيدَةٍ فِي صَفِيلِدِ بُولَايَةِ أُوَهَايُو. وَقَدْ جَعَلْنَا ذَلِكَ ثَمَانِيَةَ أَوْلَادٍ فِي مَجْمُوعِنَا، فَتَكَاتَّرَ بِسُرْعَةٍ الصَّجِيحُ وَالْفَرِحُ فِي أُسْرَتِنَا. كَانَ بَابَا قَدْ صَنَعَ لَنَا عَرَبِيَّةَ الْجَلِيدِ لِنَسْتَعْمِلَهَا وَرَاءَ حِصَانِنَا الْبُئِيِّ. وَكَانَتْ صَنْدُوقًا خَشْبِيًّا كَبِيرًا مُزُودًا بِزُحْلُوفَتَيْنِ. وَمَلَأَ كَانَ ذَاكَ مَسَاءَ الْجُمُعَةِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا مَدْرَسَةٌ فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، فَقَدْ عَرَضَ أَفْرَدُ أَنْ يَأْخُذَ لِينَا

وإيَّايَ في جَوْلَةٍ بالعَرَبَةِ. وكانَ هُوَ على ظَهْرِ الحِصانِ، لأنَّ الحِصانَ كانَ يَنفادُ على أَفْضَلِ نَحْوِ بِهذه الطَّرِيقَةِ. وقد بَدَلَ بابا كَثِيرًا من الوَقْتِ والطَّاقَةِ لِتَرْوِيزِ حِصانِنا الصَّغِيرِ العَنِيدِ، ولكنَّ ما إنْ يُطَقِّمُ ويُهَدِّدُ حَتَّى يَصِيرَ حَيوانَ شُغْلٍ مُدَلِّلاً رائِعاً يُكِنُّنا نحنُ الأَوْلادُ أنْ نَسْتَمَنَعَ بِهِ.

أحببْتُ الهِواءَ الطَّلِقَ. كانَ في جِمالِ الطَّبِيعَةِ الواسِعِ شيءٌ ما يَجْعَلُنِي دائِماً أَشْعُرُ بأنَّني في الخارِجِ أَقْرَبُ إلى اللهِ ممَّا أَكونُ في أيِّ مَكانٍ آخَرَ. وتِلْكَ اللَّيْلَةَ، إذ رَفَعْتُ نَظْرِي إلى النُّجُومِ، تَساءَلْتُ ما إذا كانَ أيُّ شيءٍ يُمَكِّنُ أنْ يَكُونَ أَكثَرَ إِمْتاعاً من رُكُوبِ عَرَبَةِ الجَلِيدِ تحت سَماةِ لَيْلِ شِتائِيَّ.

اقتادَ أَفْرَدَ الحِصانَ في دائِرَةٍ واسِعَةٍ، وتوجَّهَ رَجوعاً نحوَ البَيتِ. فازدادَ صَوْتُ صَليْلِ الرُّحُلُوفَتَيْنِ حِدَّةً إذ وَسَّعَ الحِصانُ حُطاهُ. لَقَدْ عَلِمَ أَننا كُنَّا مُتوجِّهينَ نحوَ مَرَبِطِهِ الدَّافئِ وتِبْنِهِ الذي يَقْضِمُهُ مَسرُوراً. فَتَطايَرَ التَّلْجُ صَعُوداً من حِوافرِهِ وسَقَطَ على البَطانِيَّةِ في أَحْضانِنا كُتْلاً الآنَ. وسَقَطَتْ كُتْلَةٌ صَغيرةٌ على قُبْعَتِي، فَجَعَلَتْنِي أَضحُكُ من ذِكْرِي مُفاجِئَةً.

«لينا، هل تذكُرِين تِلْكَ المَرَّةَ في الشِّتاءِ الأَخِيرِ لَمَّا كانَ بابا آخِذاً إيَّايَ إلى المَدْرَسَةِ؟  
قِصَّةُ كُرَّةِ التَّلْجِ؟»

فَفَهَقَتْ لينا. «يَقِيناً أَذْكَرُ. لَقَدْ اغْتاظَ بابا كَثيراً! لِبِتْنِي كُنْتُ هُنَاكَ لِأرى ما جَرى.»  
كانَ ذلكَ كَأَيِّ يَومٍ آخَرَ. وكانَ بابا يَسوقُ بي إلى المَدْرَسَةِ الساعَةِ الواجِدَةَ بَعْدَ ظَهْرِ كُلِّ يَومٍ لِأجلِ ساعَتِي دَرسِي في الصَّفِّ الإِبْتدائِيِّ الثالِثِ عِنْدَ الأُختِ أَنّا. كانَ التَّلْجُ يَتساقَطُ بِشِدَّةٍ، نوَعُ التَّلْجِ الرُّطْبِ الذي يَلتصِقُ بِكُلِّ شيءٍ والمُمْتَازُ لِصُنْعِ كُرَاتِ التَّلْجِ، وَلكنَّهُ يَجْعَلُ السَّوقَ فِيهِ شاقًّا وبائِساً.

ما إنْ انْعَطَفْنَا إلى داخِلِ مَوقِفِ السَّيارَاتِ، حَتَّى أنزَلَ بابا رُجَاجَ نافِذَتِهِ لِيَكْشِطَ التَّلْجَ عَن مَراتِهِ. وبِلا إِنْذارِ، انْدَفَعَتْ كُرَّةُ تَلْجٍ مُكْتَنِرَةٌ بِقُوَّةٍ من خِلالِ النِّافِذَةِ. فَصَدَمَتْ بابا بِشِدَّةٍ في جانِبِ رَأْسِهِ، وَجَعَلَتْ قُبْعَتَهُ تَطيرُ، نائِرةً التَّلْجِ على جِسمِي كُلِّهِ حَيْثُ كُنْتُ جالِسةً بِجانِبِهِ.

ودونَ فِكْرَةٍ ثائِيَةِ، صارَ بابا خارِجَ الشَّاحِنَةِ وَسَقَقَ البابَ وِراءَهُ. فلَمَّا رَأهُ التَّلَامِيذُ مُقبِلاً، تَفَرَّقُوا... وَلكنَّ بابا كانَ مُسْتَعجِلاً. وقد رَأَيْتُهُ من خِلالِ النِّافِذَةِ المَفْتُوحَةِ. ثلاثُ

فشخاتٍ واسعة أوقعتِ المُتَّهمَ في قبضته. وسمعتُ صوتَهُ القويَّ مؤبَّبًا: «إيَّاكَ أن تفعل هذا ثانيةً أبدًا! لا أحبُّ أن يُضربَ وجهي بِكُرَّةِ ثلجٍ وأنا أسوق. وأنتِ ضربتِ فيرا أيضًا!» أجفَلتُ وقهقهتُ في الوقتِ نفسِه إذ غَسَل وجهَ الصَّبِيِّ جَيِّدًا بِكُرَّةِ الثَّلجِ الرُّطبة وأطلقَ سَراحه. وإذ احمرَّ وجهُ الصَّبِيِّ وأدبَ تمامًا من أجل طيشه، دارَ على عقبيه وفرَّ راکضًا إلى مبنى المدرسة. وانتشرَ الخَبْرُ في أنحاءِ المدرسة ذلكَ الأسبوع: «لا تعبتوا مع والدِ فيرا!» إمَّا رُغمَ شخصيَّةِ بابا الصَّارمة، لم أشعرَ قطُّ بالخوفِ منه. فبالنسبة إليَّ، كانَ هوَ حاميِّ الموثوقِ والقويِّ.

أحببتُ المدرسةَ في الصَّفِّ الثالثِ كثيرًا، بِقدْرِ ما أحببتُها في الصَّفِّ الأولِ بكليفلاندي. كان لي سريريُّ في مؤخَّرِ عُرْفَةِ الدَّرْسِ، حيثُ أمكنتني أن أستلقي وأدرس. وإذ كنتُ ألبسُ طِمَاقَ ساقين تحتِ فُستاني، استعملتُ قَدَمي كَيَد، وكنتُ أرفَعُها متى أردتُ أن أقولَ شيئًا ما أو أسألَ سؤالًا. وقد استعملتُ أصابعَ قَدَمي لِأَكْتُبَ وأُبيِّ كُتُبِي مُكَدَّسَةً بِترتيبِ ونظام. واستعملتُها لِأَقْلِبَ الصَّفحاتِ متى حانَ وقتُ الدَّرْسِ.

كان واحدًا من الأجزاء المُحبَّبةِ عندي في المدرسة أن أتعرَّفَ بِالبناتِ الأُخَرَ اللواتي في سِنِّي. وقد كانت صداقتي المُزهِرة مع كارين واغلرَ خُصوصًا مصدرَ فرحٍ عظيمًا لي. أحببتُ المُخالطةَ الاجتماعيَّةَ، ولكنني استمتعتُ بِدُروسي أيضًا. فتفوقتُ في اللُغةِ الإنكليزيَّةِ والتَّاريخِ، وتيسَّرَ لي الحِسابُ بِسهولة. غيرَ أنَّ مادَّةَ العُلومِ أبقَتني دائمًا أدرسُ بِاجتهادٍ لِأُجاري التَّلَاميدَ الأخرين. إمَّا جزءُ العُلومِ الذي أحببته فعلاً كان عِلْمَ الطَّبِّ. فإذا أُتيحت لي الفُرصة، ألتهمُ كُتُبًا كاملة في موضوعِ العالِمِ الطَّبِّيِّ وعِلْمِ الطَّبِّ. وقضائي في المُستشفى مُدَّةً طويلة في طُفولتي آتاني شغفًا مُستمرًا وتقديرًا ثابتًا لِدراسةِ المرَضِ وعِلاجِهِ وكيف يقومُ الجِسمُ بِوظائفِهِ.

عندَ نهايةِ كلِّ يومٍ مدرسيٍّ، كانت روثُ تُساعدني على ارتداءِ جَبيرتي التي تُغطي كَامِلَ جِسمي لِأجلِ الرُّحلةِ القصيرةِ في الحافلةِ إلى البيت. وقد كُنَّا نَسُكُنُ على بُعدِ أقلِّ من كيلومترٍ واحدٍ عن المدرسة. فهبنا لمُ أَقَاتِلْها بِشأنِ الجبائرِ كما كنتُ أفعلُ أحيانًا في البيت. لقد عَلِمْتُ أَنَّهُنَّ كُنَّ مَنَ حُرِّيَّتِي، وكنتُ عارِفَةٌ بِالجميلِ بِشأنِ مُساعدةِ روثِ لي. على الرُّغمِ من قضائي ساعتين في المدرسة كلَّ يوم، بَقِيَ لَدِيَّ كثيرٌ من الوقتِ لِأَتصورَ نشاطاتٍ لِتمضيةِ الوقت. وأكثرُ فأكثرَ الآن، باتت لينا رقيقةً لِعَبي الدَّائمة. وعندَ نُقطةٍ ما وسطَ جميعِ خِناقَاتنا حولَ الجبائرِ، قرَّرَ بابا وماما أَنَّهُ لم يَكُنْ ضروريًّا لي أن

أجلس إلى المائدة لتناول العشاء. إنّما بدلاً من ذلك، سُمِحَ لينا بأن تنضمَّ إليّ في حُجرة الجلوس في عالمنا الوهمي، حيثُ أستلقي أنا على الكنبَة وتقعُد لينا مُتبعَةً على الأرض، وصحُفها في حُضنها.

غالبًا ما شَمَلت أحاديثنا زوجينا الوهميين. فكنتُ أبدأ مُوجّهة سؤالًا إلى زوجي: «رتشرد، كنتُ سأسألك في وقتٍ أبكر اليومَ عن مشاكل طُومي في المدرسة، ولكنّ نسييتُ. لعلّ لدى لينا ودايل نصيحةٌ ما لنا.»

فتصنّع لينا هيئةَ شخصٍ حكيمٍ جدًّا، ومُميلٍ رأسها إلى جهةٍ واحدة، فيما زوجها دايل يتكلّم. ثمّ تقول، هازئةً رأسها قليلًا: «حسنًا، اعتقدُ أنّهُ سيخرجُ منها عندما يكبر قليلًا، على الأرجح. فهوَ ولدٌ ذكيٌّ للغاية نسبةً إلى سنّه. رُفما يضجُر بسهولة مُقارنَةً بالأولاد العاديين، بسببِ سرعةٍ تتعلّمه. لا تقلقي أكثرَ من اللازم، فيرا. ابنتنا استايسي كانت هكذا تقريبًا في عُمر طُومي.»

ناقشنا تقريبًا كلَّ شيءٍ يمكن أن يتناولهُ عالمٌ راشدين، في أحاديثنا المسائيّة بيننا نحنُ «الأربعة». وقضينا أوقاتًا حميمة، إذ ألهانا قليلًا فقط أولادنا الوهميون، بما أنّهم عادةً كانوا ينهمكون جدًّا في اللعِبِ بعضُ مع بعض.

وفي عصرٍ أيامٍ أُخرى، خصوصًا حينَ يكونُ الطّقسُ باردًا جدًّا، كُنّا نلعِبُ لعبةَ «مُمرّضة جيّدة/ مُمرّضة رديئة»، وكانت لعبةً من اختراعي. فأقومُ بتمثيلِ سلوكِ المُمرّضة الجيّدة لإخوتي وأخواتي الأصغر سنًا. ولكنّهم دائمًا أحبُّوا اللعبةَ على النّحو الأفضل عندما مثلتُ دورَ المُمرّضة الرديئة، كأنّ أُعلن: «انظروا، سأقلبُ مريضِي ظهرًا لِبطنٍ بخشونة!»

«هل لي أن أحصلَ على ملحٍ لِحَبّاتِ البطاطا هذه، رجاءً!»

«أه، لا! الملحُ غيرُ جيّدٍ لك. لا ملحَ لِحَبّاتِ البطاطا تلك. كُلها بِسرعة الآن!»

«ولكنّ، يا مُمرّضة، أنا عطشان. هل لي بِشُرْبَةٍ؟»

«ليسَ قبلَ أن تأكلَ طعامك كُله، يا ولد. كُل!» كان إخوتي وأخواتي الأصغرُ يفهقون عندَ هذا التّمثيل، وأسْتمتعُ أنا بالتّصوّر كثيرًا كما استمتعوا هم.

لمّا أقبَل الصّيفُ ثانية، وسَعنا - لينا وأنا - دائرةً استِكشافنا. فغالبًا ما كُنّا نتسكّعُ راجِعَتين إلى المرعى، حيثُ نقعدُ على العُشب ونحلّمُ معًا. وكُنّا يومًا نعتزُّ على عُشِّ لِعصفورِ أبي الجنِّ، أو نجدُ يومًا آخرَ أرنبًا مُختبئةً في الأعشاب الطويلة.

وذات يوم، بينما كُنَّا نتسكَّع على طولِ دُروبِ البَقَر، نظَّرتَ لينا فجأةً وراءنا وزعقت: «فيرا! فيرا، عجلي! هناك بقرةٌ آتيةٌ بسرعة، وهي تبدو غاضبة!» لم يكن لدي وقتٌ لأنظرُ إلى الورا قبلما حملتني لينا بذراعيها الصَّغِيرَتَيْن النَّحِيلَتَيْن ورمتني تقريبًا تحت السَّياج. فجاهدْتُ لاهِتَهُ لِأَتَنفَس، وانزلقتَ لينا ورائي حابسةً أنفاسها، زاحفةً على بطنها.

ثُمَّ جَلستُ وساعدتني لأجلس، ووجَّهها أحمرٌ وعيناها مَرعوبتان. نظرنا كلتانا إلى الورا، فرأينا البقرة تُراقِبُنَا على بُعدِ أقدامٍ قليلة، وعيناها الكبيرتان الدَّاكنتان مملوءتان فُضولًا، لكن ليس كُرهاً. «آه، لينا، أفزعتني للغاية! ماذا جعلكِ تظنِّين أنَّها كانت غاضبة؟» أزاحتَ لينا الشَّعرَ الشَّاردَ عن وجَّهها، وابتسمتَ ابتسامةً عريضة. «كانت تُهرولُ نحونا. والبقرات لا يركضن عادةً إلا إذا كُنَّ مُغتاضاتٍ، أليس كذلك؟»

«لستُ أدري، ولكن على الأقل لا تبدو مُغتاضةً الآن. فلنذهب وتناول شُرْبة. الطَّقْسُ حارٌّ هنا في الخارج.»

وفي يومٍ آخر قررنا أن نتسلَّقَ مبنى خَزِنِ الحِنطة. لم تكن مُحاولتُنَا السَّابِقة في تسلُّقِ صومعةِ الحبوب ناجحةً، ولكنَّ مبنى خَزِنِ الحِنطة بدا معقولاً أكثر. وبالْحَقِيقَةُ أنَّ تَسَلُّقَهُ كان أخطرَ من تسلُّقِ الصومعة. كُنَّا نقرأ عن تسلُّقِ الجبال في اليوم السَّابِقِ تمامًا، ورأت تَخِيلاتُنَا النَّاشِطَةُ مبنى خَزِنِ الحِنطة بديلاً مُمتازاً. فَبَهْمَتِنَا وَحَيَوِيتِنَا المُعتادَتَيْن، تسلَّقنا إلى القِمَّة. كانت لينا خلفي، رافعةً كِتْفِي حَتَّى أُمكِّنَ من الانتقال إلى المُسطَّحِ التَّالِي. وأخيراً بلَّغنا ارتفاعاً كافياً لِنتَمكَّنَ من الإشراف على فناء المزرعة.

سألَتَ لينا فجأةً: «ولكن كيف سننزل؟»

«لستُ أدري. لكن انظري إلى المشهد، لينا. أليس مُذهلاً؟»

«بلى... ولكني لا أعلم كيف سأُنزِّلُك.» كرَّرتَ لينا هذا، وقد بدت شاعرةً بالقلق إلى حدِّ بعيد، ونظرتُ أنا إلى وَضْعِنَا بِعَيْنِ نَافِذَةٍ.

ثُمَّ قلتُ بواقعية: «عليك أن تصيري ورائي حَتَّى أُمكِّنَ من أن أصيرَ قُدَّامَكِ. وسيكون عليَّ أن أستديرَ لأنزلَ حَتَّى أُمكِّنَ من أن أرى أين قَدَمَاي.»

«حسنًا، استلقي أنتِ، فأخطو أنا من فوقك. وإلا، فقد نَقَعُ إحدانا.» ووفِّقًا لِتَوجِيبِهَا إِيَّاي، أنامتني على المُسطَّحات. كانتِ الأرضُ بعيدةً تحتنا على نحوٍ يُسبِّبُ الدُّوار. وبعدما صارت فوقي، أدارتني على مَهَلٍ حَتَّى صارَ ظهري مُقابِلَ المُسطَّحات.

ثُمَّ غَرَزَتْ جِسْمَهَا بَيْنَ ظَهْرِي وَالْمُسَطَّحَاتِ حَتَّى تَمَكَّنْتُ مِنْ أَنْ تَصَعَ إِحْدَى ذِرَاعَيْهَا تَحْتَ ذِرَاعِي وَتَشْبِكَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَوْقَ صَدْرِي. وَإِذْ أَمْسَكْتَنِي بِأَمَانٍ عَلَى هَذَا النُّحُو، سَاعَدْتَنِي عَلَى تَوْجِيهِ قَدَمِي نَزُولًا.

وَعَلَى نَحْوِ مُجْهِدٍ وَحَذِرٍ، نَاوَرْنَا لِنَعُودَ أَدْرَاجَنَا نَزُولًا، مُسَطَّحًا فَمُسَطَّحًا، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى فِنَاءِ الْحِظْرَةِ تَحْتُمْ. وَمَلَأَ صِرْنَا فِي الْأَسْفَلِ سَالِمَتَيْنِ، تَنَفَّسَتْ لَيْنَا الصُّعْدَاءُ. وَقَالَتْ بِإِعْجَابٍ، وَهِيَ تَبْتَسِمُ بَارْتَبَاكِ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. «كَانَ ذَلِكَ مُمْتَعًا، وَلَكِنِّي ارْتَعَبْتُ فِعْلًا.»

كَانَتْ مَسْرَةً أُخْرَى مِنْ مَسَرَّاتِ الصَّيْفِ الْبُرْكَهُ الَّتِي حَفَرَهَا لَنَا بَابَا بِجَرَافَةٍ عَكْسِيَّةٍ مُسْتَأْجَرَةٍ. وَقَدْ بَنَاهَا كَبِيرَةً بَحِيثٌ تَكْفِي لَنَا جَمِيعًا حَتَّى نَسَبَحَ فِيهَا فِي أَثْنَاءِ الصَّيْفِ وَنَتَرَحَلَّقَ عَلَيْهَا فِي أَثْنَاءِ الشِّتَاءِ. فَفِي عَصْرِ كُلِّ نَهَارٍ حَارٌّ مِنْ شَهْرِ آبٍ، بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الشُّغْلِ فِي الْبُسْتَانِ وَالْبَيْتِ، كُنَّا نَحْنُ الْأَوْلَادَ جَمِيعًا نَمْشِي عَبْرَ الْمَرْعَى وَنَخْطِسُ فِي أَعْمَاقِ الْبُرْكَهِ.

كَانَ لِي طَوْفٌ مَطَّاطِيٌّ، بِمَا أَنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَسْبَحَ. وَقَدْ رَبَطُوهُ بِالْحَوْضِ، فَكُنْتُ أَحْرَكُهُ فِي أَنْحَاءِ الْبُرْكَهِ مُجَدِّفَةً بِرِجْلِي. وَأَحْبَبْتُ إِحْسَاسَ الشَّمْسِ الْحَارَّةِ عَلَى وَجْهِِي وَذِرَاعِي، فِيمَا الْمَاءُ الْبَارِدُ يَلَاطِمُ أَصَابِعَ قَدَمِي الْمُغْبَرَّةِ. وَقَدْ كَانَ ذَاكَ وَاحِدًا مِنْ نَشَاطَاتِي الصَّيْفِيَّةِ الْمُحِبَّةِ، فَضَلًّا عَنِ النَّزْهِ فِي الْحَقْلِ مَعَ بَابَا وَالصَّيِّينِ.

وَعِنْدَمَا كَانَ بَابَا يَحْصِدُ الْحِنِطَةَ أَوْ يَصْنَعُ التَّبْنَ، غَالِبًا مَا كَانَتْ مَامَا تُعَلِّنُ عَنِ نَزْهَةِ. وَكَانَتْ رُوْثٌ وَلَيْنَا تُسَاعِدُنَاهَا عَلَى صَرِّ كُلِّ شَيْءٍ فِي سَلَّةٍ بِتَرْتِيبٍ، ثُمَّ نَخْرُجُ كُلُّنَا إِلَى الْحَقْلِ حَيْثُ يَشْتَعِلُ بَابَا مَعَ أَفْرَدَ وَلِيُونَ. لَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَقْعُدَ عَلَى الْبِسَاطِ الْكَبِيرِ تَحْتَ الشَّمْسِ، فِيمَا أَفْرَادُ عَائِلَتِي يَأْكُلُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ وَيَضْحَكُونَ مَعًا. وَذَكَرْنِي ذَلِكَ دَائِمًا لُورَا نِغْلَزُ وَابِلَدَرُ وَالْقَصَصَ الَّتِي حَكَّتْهَا عَنِ مُسَاعَدَةِ أَبِيهَا فِي الْحِصَادِ.

بَدَأَ الصَّفُّ الرَّابِعُ فِي ذَلِكَ الْخَرِيفِ مِنْ سَنَةِ ١٩٥٨، وَقَرَّرَ وَالِدَايَ أَنَّنِي كُنْتُ قَوِيَّةً بَدَنِيًّا بِمَا يَكْفِي لِأَنْ أَحْضَرَ الْمَدْرَسَةَ بِدَوَامٍ كَامِلٍ مَعَ بَاقِي إِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي. وَأَوَّلَ يَوْمٍ فِي الْمَدْرَسَةِ بَلَغَ التَّأَثُّرُ وَالتَّشَوُّقُ أَوْجَهُمَا. إِذْ التَّقْتَنِي كَارِينُ فِي الرُّوَاقِ، وَعَيْنَاهَا تَتَأَلَّقَانِ: «فِيْرَا، يَنْبَغِي لِي أَنْ أَقْعُدَ بِجَانِبِكَ عِنْدَمَا تَقْعُدِينَ عَلَى طَبَقَتِكَ فِي أَثْنَاءِ فِتْرَةِ النَّعْبُدِ.»

ابْتَسَمْتُ لَهَا فِي الْمُقَابِلِ. كُنْتُ مُتَشَوِّقَةً لِأَنْ أَكُونَ جُزْءًا مِنَ الْمَدْرَسَةِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى. وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَبْقَى فِي جِبَائِرِي وَقْتًا طَوِيلًا. فَبَعْدَمَا فَرَعْتَ

الأختُ ماريان من إدارة التَّعبُدِ في ذلك الصَّباحِ الأوَّلِ، ذهبتِ كارين معي إلى المكتبة وساعدتني على نزعِ جبيري.

عندَ الغداءِ في ذلك اليومِ، تطرَّقنا إلى أحداثِ صيفنا، وتحدَّثنا عن أحلامنا بشأنِ المُستقبلِ. «ماذا تُريدِينَ أن تصيري يومًا ما، كارين؟»

صرَّحتِ كارين بابتهاجٍ: «أعتقدُ أنني سأصيرُ مُضيفةً.» فإذا كانت ذاتَ شخصيَّةٍ مَرحةً، كان لها أصدقاءُ كُثُرٌ.

فهتفتُ مُبتسمَةً: «ياي! سيناسيكُ ذلكَ جيِّدًا بالفعل.»

وسألتِ كارين، مُحمَّرةً الوجهَ قليلاً: «وأنتِ، ماذا ستكونين؟»

فأفصحتُ: «أريدُ أن أكونِ سكرتيرةً. أنا أحبُّ حفظَ الأشياءِ مُرتبةً.»

كان في وسعي أنذاك أن أكتبَ بيديّ، ولكنني ما أزالُ أدرسُ على سريرٍ في مؤخَّرِ الصَّفِّ وأستعملُ قَدَمي كيدي متى احتجتُ إلى رَفْعها لأحظى بانتباهِ المُعلِّمةِ.

أشركني رُفقاءُ صفيّ في ألعابهم، وصرْتُ قائدةً طبيعيَّةً بينهم. نادراً ما فُكِّرْتُ في إعاقتي أصلاً، إذ كنتُ أعيشُ حياةً حافلةً تاماً. إمَّا عندما كنتُ أضطُرُّ إلى ارتداءِ جبائري من جديدٍ لأجلِ رحلةِ العودةِ إلى البيتِ، أو عندما كنتُ لا أستطيعُ أن أركضَ لأشتركِ في لُعبةٍ بالكرةِ اللَّيِّنةِ، كنتُ أشعرُ فعلاً بشيءٍ من الحُزنِ لِكوني مُقيِّدةً.

ولكنني لم أسمحَ للآخرين بأن يتنمَّروا على ذوي الإعاقاتِ البدنيَّةِ. فذاتَ يومٍ في المدرسةِ سَمِعْتُ مُصادفةً بعضَ الصِّبيانِ الأكبرِ سنًا يهزأون بتلميذٍ آخرِ كانت تُصيبه نوباتُ صرَعٍ بينَ حينٍ وآخر. وقد كان وجهُ الصَّبِيِّ صورةً للبوَسِ المُربِكِ. إذ نكَّسَ رأسه وبدا مُشوَّشاً ومُتأدِّياً فيما ضحك الصَّبِيُّ الآخرون. فنار كلُّ ما في كياني دِفاعاً عنه، وتقدَّمتُ إلى أولئك الصِّبيانِ وحدَّقتُ إلى زعيمِ الفِتنَةِ عيناً بعينٍ. ثمَّ هزَّزتُ رأسي مُحمَلقةً، كما لو كنتُ أمًّا، وصرَّحتُ باتِّقاد: «إن لم تكفُّوا عن الهُزءِ به الآنَ الآنَ، فسأقولُ للمُعلِّمةِ!»

نظرَ الصِّبيانُ إليَّ مصدومين، بأفواهٍ مغمورةٍ وأعينٍ مفتوحةٍ تاماً. وقال زعيمُ الفِتنَةِ باختِلاطٍ واهتياجٍ: «حسنًا، لا بأسَ إذًا!» ثمَّ تلاشوا، ورمقني الصَّبِيُّ الذي كان يتعرَّضُ للهُزءِ بنظرةٍ سريعةٍ قبلَ أن يلحقَ بهم. وقد رأيتُ العِرفانَ بالجميلِ في عينيه، وابتسمتُ له، شاعرةً بالخجلِ فجأةً. ومن ثمَّ لم أرهمُ قطُّ يهزأون به ثانيةً.

سلوى أُخرى استمتعتنا بها، نحنُ الإخوة والأخوات، في أثناء صيفيّاتِ مدرستنا الابتدائيّة، كانت نادياً سَمِيناً «نادي تلّ الصّومعة». وفي اجتماعاتنا الأسبوعيّة، كنتُ أترأسُ بصفتي رئيسة النّادي.

«سنبداُ بقراءة القوانين كاملعتاد. تذكروا أنّ غاية نادينا هيّ التّشجيع على السُّلوك الحسن والنّهْي عن السُّلوك السيِّئ.»

فيومئُ كُلّ شخصٍ برأسه مُوافقةً، ثُمَّ أتابع: «القوانين هيّ كما يلي: (١) لا مُجاوبه للوالدين بِقِظاظه. (٢) لا مُقاتلة مع الإخوة والأخوات. (٣) لا إساءة مُعاملة للحيوانات الأليفة. (٤) تنظيف عُرفكم وترتيبها.»

بعدئذٍ نعترف من الأكبر إلى الأصغر بأيّ قواين خالفناها ذلك الأسبوع. كانتِ الغرامة على كلّ قانونٍ مُخالَف سنّتا واحداً، وقد حِفظنا المجموعَ كلّه في جرةٍ صغيرة. لم يبدُ قطُّ أنّ فرداً خالف أيّاً من القوانين. أمّا لينا وليون وأنا فقد أسهمنا تقريباً بسنّ لجرة العرامات. وحينَ نكونُ قد تخلّينا عن سنّاتنا، نكونُ دائماً على استعدادٍ لظهور أختنا الكبرى روث المرتقبِ بابتهاج، حاملةً مُنْعشاتٍ تبرّعت بها لاجتماعاتنا أغلب الأحيان. وكان نادينا يُحتمُّ بالضحكِ وبتصيحَةٍ مُرتجلة تُبيّنُ كيف بُليّ بلاءً أحسنَ في الأسبوع المُقبل.

## يَقْظَات

قالت كارين مُتْنَهْدَةً: «الجَوْ مُمْتَعٌ جَدًّا فِي بَيْتِكَ!»  
 ابْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. «حَسَنًا، أَعْتَقِدُ أَنَّ الْجَوْ فِي بَيْتِكَ مُمْتَعٌ، حَيْثُ يَعْمُ  
 الْهَدْوُ التَّامُّ وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَفْعَلَ مَهْمَا أَرَدْنَا.»  
 فَأَسْرَتُ قَائِلَةً: «نَعَمْ، إِلَّا أَنَّنِي أَحْيَانًا أَهْتَمُّ لَوْ كَانَتْ مَامَا هُنَا أَوْقَاتًا أَكْثَرَ.» وَتَنَاءَبَتْ  
 نُمَّ تَمَدَّدَتْ عَلَى السَّرِيرِ. فَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى أَنَّهَا كَانَتْ تَسْتَعِدُّ لَوَاحِدَةٍ مِنْ مُحَادَثَاتِنَا  
 اللَّيْلِيَّةِ الْمُتَأَخَّرَةِ. لَقَدْ كَانَ مَبِينُنَا مَعًا لِيَالِي السَّبْتِ جُزْءًا مُعْتَادًا مِنْ صِدَاقَتِنَا، وَالصُّحْبَةُ  
 الْحَمِيمَةُ الَّتِي وُلِدَتْ قَدِيمًا فِي الصُّفُوفِ الْمَدْرَسِيَّةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ الْبَاكِرَةِ مَا زَادَتْهَا السُّنُونَ إِلَّا  
 مُوًّا. فَالآن فِي الصَّفِّ السَّادِسِ، كَانَتْ آخِذَةً فِي اكْتِسَابِ بُعْدٍ جَدِيدٍ، إِذْ تَيَقَّنُنَا إِلَى الْعَالَمِ  
 حَوْلَنَا بِطَرُقٍ جَدِيدَةٍ.

سَأَلْتُ بِفُضُولٍ: «مَاذَا بَرَأِيكَ يَجْعَلُ بَيْنَنَا مُمْتَعًا جَدًّا؟»

«حَسَنًا، لَدَيْكَ دَائِمًا شَخْصٌ مَا تَتَحَدَّثِينَ إِلَيْهِ، فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ. وَأَوْقَاتُ تَنَاوُلِكُمُ الطَّعَامِ  
 مَعًا كَعَائِلَةٍ تُشْبِهُ مُنَاقَشَةَ فِي الصَّفِّ لِلْأَحْدَاثِ الْعَالَمِيَّةِ، مُمْتَزِجَةً بِمَسْرَحِيَّةٍ كَوْمِيدِيَّةٍ  
 يُوَدِّي بِهَا عَشْرَةُ مُمَثِّلِينَ مُخْتَلِفِينَ.»

فَقَهَقْتُ وَقَلْتُ مُوَافِقَةً: «نَحْنُ نَتَحَدَّثُ فِعْلًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَعًا.»

هزّت كارين رأسها باشمزازٍ مُصطنع. وبعدَ ثانيةٍ أُخرى صارت رزينة. «لكنّ والدِيك يبدوانِ فعلاً كثيرَي...» وتوقّفت كما لو كانت تُفتش عن كلمات: «الاهتمام، كما أُخمن. أعني أنّكم جميعاً تبوسونَ ماماكم وباباكم مُتمنّينَ ليلَةً سعيدة كلِّ ليل. وعائلاتٌ كثيرة ليس لها ذلك النّوع من المحبّة. وباباكم دائماً يُخططُ أشياء مُمتعةً جديدةً لك وإخوتك وأخواتك.»

نظرتُ إلى صديقتي الفضلى مُستغرِفةً في التّفكير. كانت لها عائلةٌ صالحة، ولكنّها كانت الصّغرى، وكان باقي إخوتها وأخواتها في الجامعة. ثمَّ إنّ أمّها رجعت إلى الدّرس أيضاً، فكانت هي تقضي كثيراً من الوقت وحدها.

طمأنتها بإخلاص: «ما زلتُ أقولُ إنني أُحبُّ البيتَ الهادئَ أحياناً، ولكن في أيّ وقتٍ فيه تشعُرين بالوحدة والوحشة اعلمي أنّ في وسعك أن تأتي وتمكثي معنا. تخميني أنّي بالفعل أحسبُ عائلتنا طبيعيّة. فما فكّرتُ قطُّ بشأنِ مقدارِ المرحِ الذي يكون لنا بالحقيقة معاً.»

واستفسرتُ كارين: «بالحديثِ عن المرحِ معاً، هل فكّرتِ أكثرَ بعدُ بشأنِ نادِي الفتياتِ الدائمِ الذي يخضنا؟ خطرت لي أفكارٌ كثيرة منذُ تحدّثنا عنه يومَ الخميس.»

فأجبتُ توّاً: «أعتقدُ أنّ الفكرةَ تروفي. لينا تُريدُ أن تنضمَّ إليه أيضاً.»

«لا بأس! حسناً، أعتقدُ أنّ علينا أن نُخططَ لاجتماعنا الأوّلِ على الأقلِّ. ثمَّ في الأسبوعِ التالي سنكون على استعدادٍ للبدء. كنتُ أفكّرُ أنّ في وسعنا أن نذهبَ ونُرثمَ لجدّتي. ورُبّما لجاترتنا. فهي مُصابة بالسّرطان، وأعتقدُ أنّ زيارتنا لها ستُبهجها.»

«إدّاً في الأساس تُريدُ أن نعملَ أعمالاً حسنةً ونُبهجِ الناسَ.»

«نعم! أتريدين أن تكوني نائبةَ الرّئيسة، ومُمكنُ أن تكون لينا السّكرتيرة؟»

«فكرةٌ جيّدة. ها هي لينا آتية. فلنسألها.»

وافقتُ لينا توّاً على حُططنا الجديدة، وأطلقِ النّادي في الأسابيعِ التّالية. صنّعا شَيالاتٍ للمطبخِ وزرنا سيّداتٍ مُسنّاتٍ مُختلفات. ولمّا زرنا جارة كارين، تلتكأتُ قليلاً. إذ كان نصفُ أنفها قد تآكل من سرطانها، وأفزعتني نظراتها، ولكنها بدت مسرورةً جدّاً لأننا جننا نرورها.

فضلاً عن نادينا، ملأت نشاطاتُ الشتاءِ وحَفَلَاتُهُ الأشهُرَ الباردةَ بِالمرحِ. فعندما يتجلَّد الثلجُ كفايَةً، كان بابا دائماً يُخرِجُ عَصاً وَيَقِيسُ ثخانتَهُ. وكُنَّا ننتَظِرُ مُتلهِّفِينَ أن يَرجِعَ إلى البيتِ وَيُعلِنَ أنَّ الجليدَ بات «أَمناً لِلتَّرحُلِ». وعندئذٍ نُخطِطُ لِحفلةِ التَّرحُلِ الأولى في السَّنة. وقد كانت تلك مُناسِبَةً عظيمةً دائماً. إذ ينزلُ إخوتي وأخواتي وأصدِقاؤهم جميعاً ويرتدونَ مَرَجَهُم في بيتِ الاستِدفاء، حيثُ يكونُ أفردٌ قد أشعلَ ناراً صغيرةً في الموقِدِ الصَّغيرِ استِعداداً لِلحدَثِ.

كُنَّا، ماما وأنا، نذهبُ بالشَّاحنة لِتَقْعَدَ ونُشاهد. وفي صَوِّ النُّورينِ الأماميينِ، يودِّي كُلُّ شخصٍ عَرَضَ تَرحُلِي لِنَا. إذ تقومُ لينا بِدورةٍ سريعة، ثُمَّ يَركُزُ أفردٌ حركتَهُ راسماً بها رمزَ اللانهاية (∞) وراءَ لينا، ويَلي ذلك ففراةٌ وعَزَلاتٌ وانِعِطافاتٌ من جميعِ المُتَرحِلينِ الأخرين. وكُنَّا نُعلِّمهم كم نحن مسرورتانِ بِأداءٍ مُعيَّنٍ بواسطةِ إِماضِ النُّورينِ إضاءةً وإطفاءً.

وكان رُكوبُ المزالقي مَسْرَةً فَرِحَةً أُخرى من مَسَرَّاتِ الشتاء. إذ يحمِلني أفردٌ صُعوداً إلى أعلى التَّلِّ بِذراعِيهِ القويَّتَيْنِ. كان تَلًّا شديداً الانجدار، ولم أكن أُطيقُ الانتِظارَ حتَّى أُحسَّ صَليلاً المزلجةِ المُتسارِعةَ تحتنا. وكان لَدِينَا قطعُهُ صَفيحٍ مُمَوَّجٍ نَسْتَعْمِلُهَا، وقد صَمَّمَهَا أفردٌ بِبَدِيلِ مَكابِحٍ وِقتيِّ بدائيٍّ.

«مُسْتَعِدَّة؟» وابتسم لي ابتسامَةً عريضةً، فَضَحِكْتُ.

«بالتَّأكيد!»

جَرَى التَّلُّ مُتوارِياً في رَشاشِ سُرْعَةٍ خَظِرَةٍ جَدًّا من مسحوقِ الثلجِ، وَجَلَدَ البَرْدُ وجهي حتَّى كَرَّتْ دُموعُ الرِّيحِ على خَدَيَّ. وقد تضاعفتِ السُّرْعَةُ كثيراً عَمَّا كانت عندَ الانبِطَاقِ. وفي الأسفل، شدَّ أفردُ المِكبَحِ بِقُوَّةٍ حتَّى نَقِفَ قَبْلَ أن نرتطمَ بالسِّيَاحِ.

«أوه، أفرد، كانَ ذلك مُبهجاً!»

فابتسمَ ابتسامَةً عريضةً: «أُترِيدينَ أن تُعيدِي الكَرَّةَ؟»

ثُمَّ كانَ هُنَاكَ صيدِ السَّمكِ في الجليدِ على بُحيرةِ بَرلِن. إذ كان بابا يصطَحِبُ لينا وليون وإيَّايَ لِتَقْعَدَ في كُوخِ الجليدِ معه عصرَ يومِ سبتِ.

وكان ليون يقول: «أشش... إن لم تكونا هادئتين، لا يلتقطُ السَّمكُ الطُّعمَ!»

فَرُكِّرُ عَلَى السُّكُوتِ، لِينَا وَأَنَا، بَضَعُ لَحَظَاتٍ. ثُمَّ تَضَجُّرُ لِينَا وَتَبْتَسِمُ لِي ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. فَأَبَادِلُهَا بِابْتِسَامَةٍ مُمَائِلَةٍ، وَسُرْعَانَ مَا نَأْخُذُ فِي الْقَهْقَهَةِ وَالتَّحَدُّثِ. وَلَا يَسْتَعْرِقُ تَكْيِيفُنَا وَقْتًا طَوِيلًا. وَلَكِنَّا مُمَسِّكٌ سَمَكًا رُغْمَ ذَلِكَ.

«إِنَّهَا زَرْقَاءُ الْخَيْشُومِ!» أَهْتَفْتُ وَأَنَا أُسْحَبُ السَّمَكَةَ إِلَى فَوْقِ عِبْرَةِ ثَقْبِ الْجَلِيدِ وَأُمْدُ يَدِي بِهَا لِأَخِي حَتَّى يَنْزِعَ الصَّنَّارَةَ. وَمَنْ ثُمَّ يَحْسُبُ لِيُون: «الآنَ يَصِيرُ عِنْدَنَا ثَلَاثُ سَمَكَاتٍ قَرُخٍ وَأَرْبَعُ سَمَكَاتٍ رَزُقِ الْخَيْاشِيمِ. إِذَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُمْسِكَ اثْنَتَيْنِ بَعْدَ مَنْ كَلَّا التَّوَعِينَ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ بَابَا مِنْ سَنْدُوِشَاتِ الْبَرْعَرِ تَلَكْ، فَسَيَكُونُ عِنْدَنَا مَا يَكْفِي لِأَنْ تَقْلِيَهُ مَامَا لِلْعِشَاءِ هَذَا الْمَسَاءِ.»

كَانَ بَابَا يَكْتَفِي بِأَنْ يُصْغِيَ بِابْتِسَامَةٍ هَادِئَةٍ عَلَى وَجْهِهِ نِصْفِ الْمَخْبُوءِ فِي الدُّخَانِ الْأَزْرَقِ، وَهُوَ يَقْلِي الْبَرْعَرَ وَقَدِيدَ اللَّحْمِ عَلَى وُجَاقِ الْحَطْبِ الصَّغِيرِ الَّذِي ابْتَكَّرَهُ لِلْكُؤُخِ. وَعِنْدَمَا يَنْضَجُ اللَّحْمُ، نَقْضُمُ لُقْمَهُ الطَّيِّبَةَ الْعَصَارَةَ وَنَتَنَهَّدُ بِبَهْجَةٍ غَامِرَةٍ. «يَمُّ... مَا أَطْيَبُهَا!»

مَتَى رَجَعْنَا إِلَى الْبَيْتِ حَامِلِينَ السَّمَكِ، نَظَّفَهَا بَابَا. وَمُسَاعَدَةً رُوثَ الْمُخْلِصَةِ، غَمَسَتْ مَامَا كُلَّ شَرِيحَةٍ فِي طَحِينِ الدُّرَّةِ وَالْمُنْكُهَاتِ وَقَلَّتْهَا حَتَّى صَارَتْ بُنْيَةً ذَهَبِيَّةً. تُنَادِي مَامَا الْبِنْتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ: «جُؤَانَ وَدَلِيلَةَ، حَانَ وَقْتُ تَرْتِيبِ الْمَائِدَةِ.» وَأَحْمِلُ أَنَا دَائِقِدَ الطُّفْلِ لِأَبِيهِ سَعِيدًا فِي أَثْنَاءِ إِعْدَادِ الْوَجْبَةِ. وَكَانَ قَدْ انْضَمَّ إِلَى أُسْرَتِنَا السَّنَةَ السَّابِقَةَ فَأَحَبَّبَتْهُ وَفَتِنَتْ بِهِ أَخَوَاتُهُ الْأَكْبَرَ سِنًا كُلَّهُنَّ.

وَمَتَى حَسِنَا كُلْنَا أَنَّهُ لَمْ يُعِدْ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَحْتَمِلَ الرُّوَانِحَ الْمُعَدَّبَةَ بَعْدَ، دَعَتْنَا مَامَا فَجَلَسْنَا حَوْلَ الطَّائِلَةِ الطَّوِيلَةِ. وَقَالَتْ لَنَا سَاعَةُ الْجِدَارِ إِنَّهُ وَقْتُ الْعِشَاءِ الدَّقِيقِ الْمُعْتَادِ: السَّادِسَةِ مَسَاءً. وَقَدْ بَاتَتْ بَطُونُنَا الْمُقَرَّرَةُ أَقَلَّ صَبْرًا مِنَ الْمُعْتَادِ لَمَّا رَأَيْنَا طَبَقَاتِ السَّمَكِ الْمُبْجَرِّ مُكَدَّسَةً حَوْلَ تَلِّ مُكُومٍ مِنْ شَرَائِحِ الْبَطَاطَا الْمَقْلِيَّةِ السَّاخِنَةِ الْهَشَّةِ عَلَى طَبَقِ مَامَا الْكَبِيرِ الْأَخْضَرِ الْمُمَيِّزِ.

بَعْدَ صَلَاةِ الشُّكْرِ، تَلِي الْأَحَادِيثُ الْعَادِيَّةَ. وَقَدْ سَأَلَ بَابَا: «هَلْ سَمِعْتُمْ آخِرَ الْأَخْبَارِ عَنِ مُرَشَّحِي الرِّئَاسَةِ؟» فَإِذَا بَاتَ بَعْضُ مَنْنَا الْآنَ أَكْبَرَ سِنًا، أَبَدِينَا اهْتِمَامًا أَكْثَرَ قَلِيلًا بِالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ.

«هَلْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ جَانَ أَفَ كَنِيدِي سَيَفُوزُ فِي الْإِنْتِخَابَاتِ.»

وبعدَ التَّحْزُرِ بِشَأْنِ التَّنْبُؤَاتِ الرَّاهِنَةِ بَأَنَّ أزمَنَةَ النَّهْيَةِ بَاتَتْ قَرِيبَةً، تَنَاقَشْنَا فِي السَّبَاقِ بَيْنَ الْإِتِّحَادِ السُّوْفِيَّاتِيِّ وَالْوَالِيَّاتِ الْمُتَّحِدَةِ لِإِنزَالِ إِنْسَانٍ عَلَى الْقَمَرِ.  
قُلْنَا، لِينَا وَأَنَا مَعًا: «كَيْفَ هُوَ الْوَضْعُ عَلَى الْقَمَرِ، يَا تُرَى؟» وَغَالِبًا مَا تَشَارَكْنَا فِي الْأَفْكَارِ نَفْسِهَا.

وَسَأَلْتُ دَلِيلَةً: «أَتَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يُوجَدُ نَاسٌ عَلَى الْقَمَرِ؟»  
فَقَالَتْ جَوَّانٌ مُصَوَّبَةٌ: «لَا، لَيْلَةً، طَبَعًا لَا. تِلْكَ فِكْرَةٌ سَخِيفَةٌ!»  
وَدَافَعْتُ عَنْ أُخْتِي الصَّغِيرَةِ: «لَا، لَيْسَتْ كَذَلِكَ. فَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَتِي أَنْ أَنْسَاءَلَ بِشَأْنِ الْأُمُورِ نَفْسِهَا أحيانًا.»

وَارْتَأَتْ لِينَا: «حَسَنًا، أَعْتَقِدُ أَنَّ الْجَوَّ بَارِدٌ عَلَى الْقَمَرِ.»  
فَقُلْتُ حَالِمَةً: «لَيْتَنِي أَمْكَنُ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى الْقَمَرِ. أَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُدْهِشًا؟  
سَيَكُونُ ذَلِكَ مِثْلَ الْوُجُودِ فِي عَالَمٍ جَدِيدٍ تَمَامًا!»

وَصَرَّحَتْ رُوثٌ بِطَرِيقَةٍ عَمَلِيَّةٍ: «يَقُولُونَ إِنَّ الْأَمْرَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْمَلَ.»  
فَقَالَ بَابَا مُبْتَسِمًا: «لَقَدْ أَنْجَزَ الْعُلَمَاءُ أَصْلًا أَشْيَاءَ كُنَّا نَحْسَبُهَا مُسْتَحِيلَةً. فَلَا يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا أَبَدًا مَا قَدْ يُنْجِزُونَ، إِذَا مَا أُتِيحَ لَهُمُ الْوَقْتُ الْكَافِي!»  
أَمَرْتُ مَامَا الطَّبَقِ الْكَبِيرَ مَرَّةً ثَالِثَةً، وَسُرْعَانَ مَا لَمْ تَبَقْ شَرِيحُهُ بِطَاطَا مَقْلِيَّةٍ وَاحِدَةً، أَوْ شَرِيحُهُ سَمَكٍ. ثُمَّ فَمْنَا جَمِيعًا مُبْتَعِدِينَ عَنِ الطَّوَالَةِ بِتَنْهَدَاتِ الْقِنَاعَةِ، وَشَكَرْنَا أُمَّنَا عَلَى الْعِشَاءِ اللَّذِيذِ.



حَضَرْتُ اجْتِمَاعَاتِ الْكَنِيسَةِ عَادَةً، لَكِنْ لَيْسَ دَائِمًا، فِي أَثْنَاءِ مَرِحَلَةِ الدَّرْسِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ.  
وَأَغْلَبَ الْأَحْيَانِ لَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ الْجُلُوسَ طَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ. فَكُنَّا، لِينَا وَأَنَا، نَخْرُجُ إِلَى السَّيَّارَةِ مَعًا وَنَنْتَظِرُ بَاقِيَ الْعَائِلَةِ. وَأحيانًا كَانَتْ إِحْدَى الْأُمَّهَاتِ فِي الْكَنِيسَةِ تَدْعُنَا نَهْتُمُ بِطِفْلِ ضَاجٍّ دَاخِلٍ سَيَّارَتِنَا لَيْتَسُنَى لَهَا أَنْ تَتَمَتَّعَ بِالْخِدْمَةِ دُونَ الْإِهَاءِ.

نَشَأْتُ وَأَنَا أَسْمَعُ دَائِمًا حَقَائِقَ الْكَلِمَةِ الْمُقَدَّسَةِ، إِذْ تَقْرَأُ مَامَا فِصَصَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَيَتَقَدَّمُنَا بَابَا فِي التَّعْبُدِ، وَتُرْتَلُّ التَّرَانِيمُ الرُّوحِيَّةُ فِي الْمَدْرَسَةِ، وَتَدُورُ فِي رَأْسِي نُتْفٌ وَأَجْزَاءُ

من المواقف. ولكن لما صرْتُ أكبرَ سنًا، بتُّ مُدركَةً على نحوٍ مُتزايدٍ وجودَ شيءٍ ما لم أملكه بعد.

كان لي دائمًا إيمانٌ بسيطٌ بالله، تمامًا كالذي لي بأبي الأرضي. وقد نظرتُ إلى الله باعتباره شخصًا لطيفًا وحاميًا، لكن بعيدًا بعض الشيء على وجه الاحتمال. وأوّلُ ذكرى جليّةٍ لي عن الانطباعات الشخصية بشأن الله كانت في أثناء زيارةٍ لي إلى البيت من المستشفى. إذ كنتُ جالسةً في الخارج على الشرفة الخلفية بقُرب شجيرة صريمة الجدي ذات الأزهار الفوّاحة الغنيّة بالرحيق. كانت السماء قد أمطرت نواً، وفاحت فوقني بلُطفٍ الرائحة المنعشة من التربة النّظيفة وشجيرة صريمة الجدي. وبوضوحٍ مُفاجئٍ، تساءلتُ هل توجدُ أيّة رائحةٍ أكملَ من هذا الهواء النقيّ المنعش المغسول حديثًا. ثمّ علمتُ أنّ الله لا بدّ أن يكونَ كاملاً أيضًا، لأنّه قد خلَقَ تلك الرائحة.

وقد باتَ اللهُ الآن يُحرِّكُ قلبي بتوقٍ إلى معرفة ذلك الكمال شخصيًا. وفي خريف ١٩٦٠، جاءَ مُبشّرٌ اسمه مايرن أوغسبرغر إلى هارتفل لإقامة اجتماعٍ في خيمة كبيرة. فحضرتُ العائلةَ كلّها، ومع أيّ لم أكن أستطيع الجلوس طوَال وقتِ الخدمة في الخيمة، وجدّ بابا طريقة لركنِ السيّارة على قُرب كافٍ من الخيمة لأتمكّن من سماع العظة من خلال نافذة السيّارة المفتوحة.

حلَّ آخرُ الأسبوع دون أيّ شيءٍ مهمٍّ حقًا بارزٍ بالنسبة إليّ. ولكن في واحدةٍ من آخر الليالي، رأيتُ بابا شاقًا طريقه نحو السيّارة وذراعُه على كَنيفِ افرْد. فتساءلتُ مُجفلةً عمّا جرى. إذ نادراً ما أبدى بابا عاطفةً لأولاده علنًا.

وصلتُ ماما إلى السيّارة أوّلًا. وإذ صعدت وأجلست ديفد في حِضنها، سألتها: «لماذا يُطوّقُ بابا افرْد بذراعه؟ هل فعَلَ شيئًا ما؟»

أشرفَ وجهُ ماما اللطيفُ بابتسامةٍ إذ التفتتُ ناظرةً إليّ، والدُموعُ في عينيها. «سَلِّمْ افرْد المسيحَ حياته الليلة، فيرا.»

«أوه... ذلك رائع. ولكن، ماما، ماذا يعني ذلك؟» لقد أدركتُ فجأةً أنّي لم أعلم تمامًا ما يعنيه النَّاسُ عندما يقولون ذلك.

«فيرا.» وكان في نبرتها عتابٌ صامت. «ينبغي لك أن تُصغي إلى المواقفِ إصغاءً أفضل. إنّ تصميمَ افرْد الشخصي أن يتبع المسيحَ الليلة يعني أنّه سلّمَ حياته لله. فلمّا

أَلْفَيْتِ الدَّعْوَةَ لِلتَّقْدُمِ إِلَى الأَمَامِ، طَلَبَ أَفْرَدَ مِنْ أَحَدِ الأَشْخَاصِ أَنْ يُصَلِّيَ مَعَهُ. وَقَدْ وَعَدَ  
بأن يَتَّبَعَ اللهُ بِحَيَاتِهِ مَهْمَا كَانَ التَّمَنُّ.»

صَعِدَتْ لِينَا إِلَى السَّيَّارَةِ وَجَلَسَتْ بِجَانِبِي، وَوَصَلَ بَابَا وَأَفْرَدَ إِلَى السَّيَّارَةِ فِي الْوَقْتِ  
نَفْسِهِ تَقْرِيْبًا. وَنَظَرَتْ بِتَدْقِيقٍ إِلَى أَخِي الأَكْبَرِ، مُتَفَحِّصَةً وَجْهَهُ. لَقَدْ بَدَأَ أَقْوَى بِطَرِيقَةٍ  
مَا، وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى وَجْهِهِ سَعَادَةٌ هَادِئَةٌ.

لَا حِقًّا فِي السَّرِيرِ، نَاقَشْنَا لِينَا وَأَنَا الْمَسْأَلَةَ. وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كُنْتُ قَدْ تَخَرَّجْتُ مِنْ  
الرِّئَةِ الْحَدِيدِيَّةِ إِلَى آلَةٍ تَنْفُسِ صَدْرِيَّةٍ تَسْمَحُ لِي بِأَنْ أُنَامَ فِي سَرِيرٍ عَادِيٍّ. «لِينَا، هَلْ  
سَمِعْتِ مِمَّا جَرَى لِأَفْرَدَ؟»

«طَبْعًا.» وَقَدْ بَدَأَ مِنْ صَوْتِهَا أَنَّهَا نَعْسَانَةٌ.

«حَسَنًا، أَلَمْ نُسَلِّمِ الْمَسِيحَ حَيَاتِنَا نَحْنُ أَيْضًا؟ أَعْنِي أَنَّنَا نُصَلِّيُ وَنَعْتَذِرُ وَنُسَوِّي  
الْأَمْرَ حِينَ نُخْطِئُ.»  
«أَعْتَقِدُ ذَلِكَ.»

«لِينَا، أَنَا جَادَّةٌ. أَهْمَنِي حَقًّا لَوْ أَعْرِفُ أَكْثَرَ. فَبَطَرِيقَةٍ مَّا، يَبْدُو مَا حَدَّثَ اللَّيْلَةَ مُخْتَلِفًا  
عَنْ أَيِّ شَيْءٍ فَكَّرْتُ فِيهِ حَقًّا قَبْلَ الْآنِ.»

«أَحْيَانًا، أَطْرَحُ أَنَا الأَسْئَلَةَ نَفْسَهَا.» وَكَانَ صَوْتُ لِينَا حَافِلًا بِالتَّفْكِيرِ وَالاِهْتِمَامِ.

«هَلْ لِي أَنْ أُنَامَ بِقُرْبِكُمَا؟» قَاطَعَ حَدِيثِنَا صَوْتُ صَغِيرٍ عِنْدَ أَسْفَلِ سَرِيرِنَا.

فَسَأَلْتُ لِينَا: «جُؤَانُ، مَاذَا أَنْتِ فَاعِلَةٌ؟»

«أُرِيدُ أَنْ أُنَامَ بِقُرْبِكُمَا. رَجَاءً؟»

قُلْتُ هَمَسًا: «لَا تَنْظُرِي إِلَيْهَا. سَتَذْهَبُ إِذَا تَجَاهَلْتِهَا.»

كَانَ قَلْبُ لِينَا أَرْقَى مِنْ قَلْبِي فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورٍ كَهَذِهِ.

«يُمْكِنُنَا أَنْ نَدْعَاهَا تَنَامَ فِي طَرَفِ السَّرِيرِ الأَسْفَلِ.»

فَتَنَهَّدْتُ قَائِلَةً: «لَا بِأَس. إِنَّهَا لَا تُحَسِّنُ التَّصَرُّفَ حَقًّا بِدُخُولِهَا إِلَى هُنَا، وَلَكِنِّي أُخَمِّنُ

أَنْ ذَلِكَ لَنْ يُوْذِي.»

وَقَالَتْ لِينَا بِصَوْتٍ عَالٍ: «يُمْكِنُكَ أَنْ تَنَامِي عِنْدَ أَقْدَامِنَا.»

فَقَرَزْتُ أُخْتُنَا ابْنَةَ السَّنِينِ السَّتِّ بِلِيَاقَةٍ إِلَى السَّرِيرِ بِسُرُورٍ. وَإِذِ اسْتَلَقْتُ مُصْعَرَةً  
نَفْسَهَا بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ، فَهَقَّهَتْ. «لَيْلَةٌ سَعِيدَةٌ، فَيَا. لَيْلَةٌ سَعِيدَةٌ، لِينَا.»  
قَلْتُ مُصَدِّرَةً التَّعْلِيمَاتِ بِحَرَمٍ: «عَلَيْكَ أَنْ تَكُونِي هَادِنَةً إِذَا مِمَّتْ عِنْدَنَا.»  
«طَيِّبُ!» وَبِقَهْقَهَةٍ أُخْرَى، أَعْمَضَتْ عَيْنَيْهَا بِأَحْكَامٍ وَتَظَاهَرَتْ بِأَنَّهَا نَائِمَةٌ، فِيمَا  
رَجَعْنَا نَحْنُ إِلَى مُحَادَثَتِنَا.

سَمَضِي سَنَةٌ قَبْلَ أَنْ تُجَابَ أَسْئَلَتِي الدَّقِيقَةَ. فَمِنِ أَنْعَاءِ اجْتِمَاعَاتِ انْتِعَاشِيَّةٍ فِي  
الصَّفِّ السَّابِعِ، صَمَمْتُ صَدِيقَتِي الْفُضْلَى كَارِينِ عَلَى اتِّبَاعِ الْمَسِيحِ.  
وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ قَدْ آتَى الْأَوَانُ لِأَنَّ أُتْخِذَ تَصْمِيمًا أَنَا أَيْضًا، تَصْمِيمًا  
عَلَيْنِيًّا عَلَى اتِّبَاعِ الْمَسِيحِ. فَبَيْنَمَا جَمَاعَةُ الْمُؤْمِنِينَ يُرْتَمُونَ «كَمَا أَنَا آتِي إِلَى / فَادِي الْوَرَى  
مُسْتَعْجَلًا» وَقَفْتُ عَلَى قَدَمِي بِقَلْبِي بِدَقِّ بَصْرَاوَةٍ. وَقَدْ كَانَتْ يَدَايَ مُبَلَّلَتَيْنِ بِالْعَرَقِ،  
وَكُنْتُ أَرْتَجِفُ فِي دَاخِلِي، إِلَّا أَنَّنِي عَقَدْتُ عَزْمِي عَلَى التَّقَدُّمِ إِلَى الْأَمَامِ.  
تَنَفَّسْتُ بِهَدْوٍ: «سَاعِدْنِي كَيْ أَفْعَلَ هَذَا، يَا رَبُّ!»

وَجَرَّتِ الدَّمُوعُ عَلَى خَدَّيْ إِذْ شَقَّقْتُ طَرِيقِي إِلَى قُدَّامِ الْمَنَبَرِ.  
صَلَّتُ مَعِي فِي الْعُرْفَةِ الْخَلْفِيَّةِ أُخْتُ مِنَ الْكَنِيسَةِ اسْمُهَا مَعْدَالِينَا دَتَوَايَلَر. وَكَانَتْ  
تِلْكَ لِحِظَةً قَرَارِ سَتْعِيْرٍ حَيَاتِي بِكَامِلِهَا. فَقَدْ صَلَّيْتُ بِبَسَاطَةٍ: «يَا رَبُّ، أَنَا آتِيَةٌ إِلَيْكَ كَمَا أَنَا  
تَمَامًا، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ لَكَ إِلَى الْأَبَدِ. اغْسِلْنِي وَطَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ. رَبِّي يَسُوعُ، شُكْرًا  
لَكَ عَلَى مَوْتِكَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَايَ. رَجَاءً، ادْخُلْ حَيَاتِي وَاجْعَلْنِي جَدِيدَةً، مِثْلَكَ أَنْتَ. أَنَا  
أُسَلِّمُكَ حَيَاتِي.»

لَمَّا عَانَقْتَنِي تِلْكَ الْأُخْتُ مِنَ الْكَنِيسَةِ بِفَرَحٍ وَرَحَبَتٍ بِي فِي عَائِلَةِ اللَّهِ، تَرَنَّمَ قَلْبِي. لَقَدْ  
شَعَرْتُ بِأَنَّ نِظِيفَةً جَدًّا وَحَيَّةً حَقًّا! تَمَامًا كَعَبِيرِ عَالَمٍ غَسَلَهُ الْمَطَرُ وَكَرَائِحَتِهِ الْكَامِلَةَ.

## عصاك وعُكَارَكَ يُعَزِّيانِي

مَسَّ هِوَاءُ الصَّيْفِ الحارُّ وَجْهِنَا إِذْ تَسارَعْنَا أَكْثَرَ فأكثر. وَزادَتْ سُرْعَةُ الدَّرَاجَةِ نُزولًا عن تَلِّ آخرَ بَعْدَ. فزَعَقَتْ لينا: «تَمَسِّكي!» وَعوى كَلِبي الصَّغِيرُ بِحِدَّةٍ في سَلْتِهِ أَمَامَ المِقْوَدِ، فِيمَا خَفَقَتْ أُذُنَاهُ إِلى الوِراءِ في الرِّيحِ. وَقد جَلَسْتُ مُنْفَرِجَةَ السَّاقَيْنِ عَلى وِسادَةِ سَرَجِي الجانِبِيِّ، وَتَشَبَّهْتُ بِمِقْوَدِ قَدَمِي لِأَبْتَعُدُّ عن جَنْزِيرِ الدَّرَاجَةِ أَكْثَرَ من سَنَتِيمَتَيْنِ وَنِصْفِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَفَكِّرْ في الخَطَرِ. فَهَكَذا كَانت طَريقَةُ الرُّكوبِ!

كُنَّا، لينا وَأنا، قَدِ اشْتغَلْنَا بِكَدِّ لِأَجْلِ دَرَّاجَةِ الصَّبِيانِ هَذِهِ من مارَكَةِ اشُونِ، وَقد أَحَببناها كِلتانا. وَهِيَ جَاءت من مالِ البَيْضِ الَّذِي حَصَلْناهُ. فَتِلْكَ الثَّلَاثُونَ دُولارًا جَاءت من عَرَقِ شَريفِ صالِحِ.

كانَ بابا قَدِ اشترى ثَلاثينَ دِجاجةً بِياضَةً، وَسَمَحَ لينا بِأَنْ نَدْخَرَ مالَ بَيْعِ البَيْضِ إِذا كُنَّا عَلى اسْتِعدادٍ لِتنظِيفِهِ. وَقامت لينا بِالعَمَلِ دائِمًا. إِمَّا بِطَريقَتنا المَعْتادَةِ، بِقِيَّتِ دائِمًا في رِفقَتِها كَما لو كُنْتُ مُشارِكَةً لَها في الشُّغْلِ.

عَلَيَّ الآنَ أَنِ أَبْتَسِمَ حِيالَ الذُّكُرياتِ العَديدةِ عَن تِلْكَ السَّاعاتِ الَّتِي قَضَيْتُها مُشاهِدَةً أُختي الرِّشيقَةَ تَشْتَغَلُ بِكَدِّ وَجِدِّ، وَعَيناها البُنِّيَّتَانِ تَنْظُرانِ إِلى فِوقِ لِتَضْحَكَ أَمامَ عَينِي كُلِّ لِحِيظَةٍ. فَمتى التَّقَطَّتْ بَيبضَةً وَسِخَةً بِشَكلٍ خَاصٍّ، أَهْتِفُ: «أَفِ، هَسْمِياها، لينا!» وَبِصَريَةٍ سَريعَةٍ وَاحِدَةٍ، تُلَطِّحُ البَيبضَةَ الحائِطِ. فَتَتَدَرَّرُ أَصداءُ الضَّحْكِ، ثُمَّ تَغَسِلُ لينا أَصابعَها قَبْلَ أَنْ تَمُدَّ يَدَها لِالتقاطِ بَيبضَةٍ أُخرى. وَاستمرَّ هَذا حَتَّى سَمِعْتِ ماما

عنه. فبعدَ مَنَعِهَا تَبْدِيدَ البَيْضِ الجَيِّدِ، عَوَّضْنَا عن عَادَةِ التَّهْشِيمِ بِهِنَاتِ حَمَاسِيَّةٍ:  
«أوف... فظيعة!»

لم تَكُنْ دَرَاخِنًا هِيَ الشَّيْءَ الوَحِيدَ الذي سُقِنَاهُ. فذاتَ يَوْمٍ، إذ كان أبَا ومَما غَائِبِينَ، تيسَّرتَ لَنَا، لينا وأنا، سَاعَةٌ فَرَاغٍ، ففَرَّرْنَا أن نُجَرِّبَ شَيْئًا جَدِيدًا. وكانت شَاحِنَتُنَا السَّوَدَاءُ القَدِيمَةَ، والتي لها مُعَيَّرٌ سُرْعَاتٍ يَدَوِيٍّ، مَرَكُونَةٌ في مَكَانِهَا المَأْلُوفِ مُحَاذَاةَ الطَّرِيقِ الخَاصَّةِ. فَبَابَتِهَاجٍ وَخَوْفٍ مَعًا، صَعَدْنَا إِلَيْهَا، لينا وأنا.  
قالت لينا مُفْهَمَةً: «كيف سَتَوَلَّى هذا الأمر؟»

فطَمَأْنَتْهَا: «أنا سَأَقُولُ لِكَ كيف. سأدوسُ أنا على دَوَاسَةِ البَنَزِينِ، وَأَنْتِ تَقومِينَ بالبَاقِي.» وَأَضْفُتُ بابتِسامَةٍ عَرِيضَةٍ: «بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ يُمَكِّنُنَا أن نَقولَ إِنِّي سَقْتُ الشَّاحِنَةَ، وسَيَتَسَاءَلُ الجَمِيعُ كيف اسْتَطَعْنَا تَوَلَّى هذا الأمر.»

لَمَّا دَخَلْتُ المُرَاهِقَةَ، بَتُّ أَكْثَرَ إِدْرَاكًا لِقِيُودِي. وَلَكِنِّي لم أَكُنْ أَنوِي التَّوَقُّفَ عن تَجْرِبِ أَيْ شَيْءٍ يَخْطُرُ في بَالِي. ومَتَى تيسَّرتَ لي سَاعَاتُ فَرَاغٍ لِلاِسْتِراحةِ، أُشْغِلُ فِكْرِي بِالكَيفِيَّةِ التي بها نَسْتَطِيعُ أن نُحَقِّقَ الأَهْدَافَ التي تَحَدَّثْنَا عنها في وَقْتٍ مُتَأَخَّرٍ مِنَ اللَّيْلِ تَحْتَ أَغْطِيَتِنَا.

«طَيِّبٌ، لينا، سأجِلِسُ هُنَا وَأَسْتَعْمِلُ رِجْلِي الجَيِّدَةَ على دَوَاسَةِ البَنَزِينِ.» كُنْتُ مُسْتَلْقِيَةً تَقْرِيبًا وَلَا أَكَادُ اسْتَطِيعُ أن أَنْظُرَ إلى الخَارِجِ عِبرَ النَّافِذَةِ من مَوْعِي، وَلَكِنْ كانَ في وُسْعِي أن أَتَمَطَّى وَأَسِيطِرَ على سُرْعَةِ الشَّاحِنَةِ.

أَدَارَتْ لينا المُشْعَلَةَ، فَهَدَرَ المَحْرُكُ دائِرًا. وَإِذْ أَمْسَكْتُ المِقْوَدَ بِكِلْتَا يَدَيْهَا، نَظَرْتُ إِلَيَّ وَقَالَتْ مُبْتَسِمَةً ابْتِسامَةً عَرِيضَةً: «نَحْنُ مَجْنُونَتَانِ!»  
«أَعْرِفُ. مُسْتَعِدَّةٌ؟ هَيَّا، دُوسِي الدَّبْرِياجِ!»

وَبِنَخَعَةٍ، دَاسَتِ الدَّبْرِياجِ وَحَرَّكَتْ مُعَيَّرَ السَّرْعَاتِ. فَتَرَنَّتِ الشَّاحِنَةُ مُتَقَدِّمَةً، نُمُّ تَلاشَى تَحْرُكُهَا وَتَوَقَّفَتْ.

فَقُلْتُ مُحَمَّسَةً: «جَرِّبِي ثَانِيَةً!»

وبعدَ سَاعَةٍ مِنَ التَّمَرُّنِ، تَسَكَّعْنَا خَارِجَتَيْنِ مِنَ الطَّرِيقِ الخَاصَّةِ، وَلينا تُوجِّهُنِي مَتَى أَدوسُ بِقُوَّةِ أَكْبَرِ، وَمَتَى أُخَفِّفُ عن دَوَاسَةِ البَنَزِينِ. «الآنَ أَسْرَع!»

انعطفنا إلى اليسار على الطريق العام، وزدنا السرعة حتى وصلنا إلى الطريق الخاصة الثانية. وهنا انعطفنا مجددًا ورَجَعْنَا بِهَدِيرٍ إلى فِئَاتِنَا. ولَمَّا قُمْنَا بِبِضْعِ جَوَلَاتٍ، أَرْهَفْنَا كِلْتَانَا مِنْ جَرَاءِ الْجَهْدِ الْمَبْذُولِ. فَابْتَسَمَتْ لِيْنَا ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً بَانْتِصَارٍ. «لقد قُمْنَا بِالْأَمْرِ!»

فَضَحِكْتَ ضِحْكَةً خَافِتَةً. «قُمْنَا بِهِ! مُمَكِّنْنَا الْآنَ أَنْ نَقُولَ رَسْمِيًّا إِنَّنَا نَعْرِفُ كَيْفَ نَسُوقُ.»

شَمَلَنِي إِخْوَتِي أَيْضًا بِنَشَاطَاتِهِمْ. فَلَمَّا حَكَى أَفْرَدَ قِصَّةَ صَيْدِ ذَاتِ مَسَاءٍ عِنْدَ الْعِشَاءِ، خَطَرَ فِي بَالِي أَنَّنِي لَمْ أُطَلِّقْ بُنْدُقِيَّةً قَطُّ. وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ قِصَّتِهِ، رَفَعْتُ نَظْرِي عَنْ وَجْهَتِي وَسَأَلْتُهُ: «هل تعتقد أنني أستطيع أن أطلق النار، أفرد؟»

بدا مُسْتَعْرِقًا فِي التَّفَكِيرِ لِحِطَّةٍ قَبْلَمَا أَجَابَ: «حَسَنًا، تَخْمِينِي أَنَّنِي لَا أَرَى مَانِعًا لِذَلِكَ.» وَهَكَذَا، فِي عَصْرِ الْيَوْمِ التَّالِيِ خَرَجْنَا مَعًا إِلَى الْحَقْلِ. وَإِذْ وَارَزَ الْبُنْدُقِيَّةَ عَلَى عَمُودِ سِيَاجٍ، عَلَّمَنِي كَيْفَ وَمَتَى أَقْدَحُ زِنَادَهَا. ثُمَّ تَرَدَّدَ صَدَى الصَّوْتِ الْعَالِي فِي التَّلَالِ حَوَالَيْنَا وَأَذَى أَدْنَى. وَلَكِنِّي كُنْتُ قَدْ أَنْجَزْتُ أَمْرًا إِضَافِيًّا بَعْدَ لَمْ أَكُنْ أَحْسَبُ قَادِرَةً عَلَى الْقِيَامِ بِهِ. وَقَدْ خَلَّفَ ذَلِكَ تَوْفِدًا حَارًّا مُعَيَّنًا فِي دَاخِلِي، شُعُورًا عَوَّضَ جِزئيًّا عَنِ الصَّرَاحِ لِقَبُولِ قُيُودِي.

مَا عَامَلْتَنِي عَائِلَتِي قَطُّ بِاعْتِبَارِي مُخْتَلِفَةً. وَوَلَا حِظُّ ذَلِكَ أَكْثَرَ فِي الْعَلَنِ إِذْ حَدَّقَ الْآخَرُونَ إِلَيَّ، أَوْ طَرَحُوا أَسْئَلَةً، أَوْ أَشْفَقُوا عَلَيَّ. وَقَدْ اشْتَغَلَتْ جِيدًا الْجَبَائِرُ الَّتِي اسْتَعْمَلْتُهَا لِأَمْشِي، وَلَكِنْ لَمَّا مَشَيْتُ إِلَى صَدْرِ قَاعَةِ الْكَنِيسَةِ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُسْحَبَ مَرْفَاعًا لِأَجْعَلَ الْجَبَائِرَ تَنْتَنِي. وَكَانَ الْمَرْفَاعُ دَائِمًا يُطَقِّطِقُ فَأَشْعُرُ بِالْإِحْرَاجِ حِيَالِ ذَلِكَ الصَّوْتِ الَّذِي يَجْذِبُ إِلَيَّ ابْتِهَاشًا غَيْرَ مَوَاتٍ.

وَفِي سَبِيلِ التَّعْوِيضِ عَنْ هَذَا، صِرْتُ وَاعِيَةً بِكُلِّ حَرِيصٍ كَيْفَ بَدَوْتُ وَمَاذَا لَبِسْتُ. كَذَلِكَ أَيْضًا صِرْتُ أَكْثَرَ تَنْبَهًا إِلَى الْفِتْيَانِ حَوْلِي. فَتَسَاءَلْتُ: «مَا رَأَيْتُمْ فِي؟» وَقَدْ أَعْجَبَنِي عَدَدٌ مُعَيَّنٌ مِنْهُمْ دُونَ الْآخَرِينَ، تَمَامًا كَالْفَتَيَاتِ الْآخَرَ اللَّوَاتِي فِي سِنِّي. وَكَانَ مُعْظَمُ زُمَلَائِي الطُّلَّابِ وَأَصْدِقَائِي مُتَفَهِّمِينَ جَدًّا، وَقَدْ عَامَلُونِي كَوَاحِدَةٍ مِنْهُمْ. إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَنُونَ بِي أَيْضًا.

ذات يوم في أروقة المدرسة، تعرّثتُ بمكتسه طالبٍ زميل. ودون استعمال يديّ، كنتُ عاجزةً عن إمساك نفسي. وكان ممكناً أن تكون سقطتي مُصيبة، غير أنّ زميلي الطّالب السّريع التّفكير أمسكني بذراعيه قبل ارتطامي بالأرض. وإذ ارتبكتُ تماماً، احمرّ وجهي وتلفّظ لساني السّريع بأول كلماتٍ خطرت في بالي: «أوه، إلى الأبد!»

فابتسم ابتسامَةً عريضةً مودّدة، وتدارك الموقف بعبارَةٍ سريعة: «أوه، لا! ليس إلى الأبد... بل الآن فقط.»

عندما وُلد أخي الطّفّل مايكل، كنّا كلُّنا شاكرين لأنّه عاش. فقد كانت الولادةُ كثيرة المضاعفات، ولم يمض وقتٌ طويل قبلما أدركنا أنّ مايكل أُصيب بِضَرَرٍ في دماغه بسبب الصّدمة عند الولادة. وقد خاضَ بابا خصوصاً صراعاً مع الوضخ. كان قد تعلّم منذ زمانٍ أن يقبل مشيئة الله، ولكنّ الشّلل الدّماعيّ في هذا الوضع سبّبهُ طبيبٌ توليدٍ مخمورٌ قليلاً أساء استعمال مِلَقَطِ الولادة. فكيفَ أمكّن أن تكون هذه مشيئة الله؟

وذات صباح في التّعبّد العائليّ، قرأ بابا لنا عبرانيّين ١٢. ولما وصل إلى الآيات ٥-٨، توقّف قليلاً بعد كلّ آية كما لو كان يبحث عن معنى أعمق:

وَقَدْ نَسِيتُمْ الْوَعْدَ الَّذِي يُخَاطِبُكُمْ كَثِيرِينَ: «يَا ابْنِي لَا تَحْتَقِرْ تَأْدِيبَ الرَّبِّ، وَلَا تَحْزَنْ إِذَا وَبَحَكَ. لِأَنَّ الَّذِي يُحِبُّهُ الرَّبُّ يُؤَدِّبُهُ، وَيَجْلِدُ كُلَّ ابْنٍ يُقْبَلُهُ». إِنْ كُنْتُمْ تَحْتَمِلُونَ التَّأْدِيبَ يُعَامِلُكُمْ اللهُ كَالْبَنِينَ. فَأَيُّ ابْنٍ لَا يُؤَدِّبُهُ أَبُوهُ؟ وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِلَا تَأْدِيبٍ، قَدْ صَارَ الْجَمِيعُ شُرَكَاءَ فِيهِ، فَأَنْتُمْ نُغُولٌ لَا بَنُونَ.

لقد كان مُستغرباً في التّفكير إذ أجال نظره في أنحاء الغرفة. «إنّ عصا الأب وعكازه هُما جزءٌ من الطّريقة التي بها يأتي بالتّعزية إلى حياتنا، يا أولاد. ينبغي لنا أن نتذكّر ذلك، مهما واجهنا. ينبغي أن نثق بحكمته، حتّى حين لا نفهم، ونَدَعُ تَأْدِيبَهُ يُعَلِّمُنَا ما يُريدُ لنا أن نعرفه.»

أحبّبتنا مايكل كلُّنا أكثرَ بعدُ من أجل إعاقته. ولكن كان على كلّ منّا أن يخوض صراعاً عبّر مرارة الاختبار، خصوصاً نحن الأكبر سنّاً والذين كنّا نفهم. إنّما فطره بابا الجمائيّة القويّة جعلته يُعبر عن تأذّيه. أمّا ماما فلم تقل الكثير قط، ولكنني رأيت الأمّ

في عينيها الرقيقتين عندما نظرتُ إلى ما يكل أحياناً. ولكن ما كان الوقتُ ليطول كثيراً قبلما تكيّفنا مع حالته كما سبق أن تكيّفنا مع حالتي. وعاجلاً أو آجلاً، سيكون طبيعياً لنا تماماً أن نمثلك هذا البعد الأجدد في ديناميات عائلتنا.

بينما فكرتُ عبر إدراكاتي الشخصية في ما قد تحمله الحياة لي وكيف ستؤثر قيودي فيّ، كان أفرد هو من ساعدني أكثر الكل. وقد كنتُ بعض الأحيان أستيقظ في أثناء الليل وأستلقي مُفكّرةً، تواقّةً إلى جسمٍ يشتغل بسهولة. لم أتكلّم عن ذلك، ولكن عمودي الفقري المتقوس وعضلي الضامر سببا لي ألماً دائماً، خصوصاً بما أنني أصررتُ على أن أعيش حياةً مُفعمّةً بالنشاط. وإذ تصارعتُ مع الله، تساءلتُ عما كانت الأجوبة.

حوالي ذلك الوقت، عرفني أفرد بقصة جوني إيريكسن تادا. فالتهمتُ كتابها «جوني». وحبستُ نفسي لما ارتطمتُ بقعر البحيرة في يومٍ حارٍّ من شهر تمّوز وكسرتُ عنقها. وبكيّتُ معها لما أدركتُ أنها لن تمشي أبداً من جديد. وهتفتُ لها محييةً لما اختارتُ الانتصارَ بدّل الانكسار، حتّى حينَ عني ذلك قضاء الحياة في كرسيٍّ مُدولّب. وفوق كل شيء، أنزلتُ رسالتها في صميم قلبي.

لم أكن ضحيةً للصدفة. إذ كان لدى الله خطةٌ لحياتي، وقد دُعيتُ كي أقهر التحديات بالنعمة والمرح. فأردتُ أن أحسن القيام بهذا. فالنصرُ يُمْكِنُ أن يَنبُتَ من المأساة حين يختارُ الشخصُ أن يستجيب بروحٍ مُنتصرةٍ ومُبتهجة. ثم إن جوني لم تعش كناسكة، بل عاشت حياةً مُساعداً وإلهاماً للآخرين. فعقدتُ عزمي على أن أحذو حذوها، وأصبحتُ هي بطلتي الحيةً وقُدوتي للسنين الآتية. ورجوتُ أن تتاح لي يوماً ما مُقابله هذه المرأة المُدهلة.

لما كنتُ في السادسة عشرة، تذوّقتُ معنى تخطّي قيودي إلى حياة الآخرين. فإنّ سلسلةً من واحدٍ وخمسين إحصاراً في يومٍ واحدٍ دمّرتُ بيوتاً في ولايات أيوا وإنديانا ومشيغن وأوهايو. وقد قُتِلَ مئتان وستون شخصاً، وترك الآلاف بلا بيوت. فكانت مجموعة الشبيبة عندنا جزءاً من مجموعة شبيبة ذهبت لتقديم المساعدة. ولما قرّرتُ روث أن تذهب، نظرتُ إليّ وأعلنت: «أنت في السادسة عشرة، فيرا. ستذهبن معنا.»

«روث، لا أستطيع أن أرفع الأنقاض. لن أتمكّن من المساعدة. فيم تُفكرين؟»

فهزّتُ رأسها بحزم. «توجد طرقٌ أخرى للمساعدة، فيرا. سوف ترين.»

وافقتُ على مَض. وفوجئتُ في الأيامِ التَّاليةِ بأنَّ أجدَ أنَّ الأذنَّ المُصغِيةَ والرَّحمةَ مُهْمَتانِ تامَّامًا بِقَدْرِ العَمَلِ اليَدويِّ في أعقابِ المأساة. وقد رجعتُ بِفَهْمٍ مَعَمَّقٍ لِمَا يعنيه أن نعيشَ لأجلِ الآخرينِ وألَّا نُقَيِّدَ اللهَ في كِيفِيَّةِ استخدامهِ لِحياتنا.

اشتَمَلتْ تأثيراتُ فَعَّالَةٍ أُخرى في هذه المرحلة من حياتي على آلفِن كُبلنتر، وقد كان مُديرَ مدرسة هارتفلِ المسيحيَّة. كان رجلاً ذا بِنِيَّةٍ قَوِيَّة، وحَسَّ دُعَايَةَ مُبهِج، وثُرُوقَ هائلة من المعرفة. لقد أَحَبَّته واحترمته في آنٍ واحد، وكُلِّمًا نزلَ في مُنحدراتِ التَّلالِ مُتَرَجِّحًا على عُكَّازتَيْهِ راقِبتهُ دائماً بشيءٍ أشبهَ بالرَّهبة.

أصيبَ بالشَّلَلِ في النِّصْفِ السُّفليِّ من جِسْمِهِ بِحادِثٍ جرى في أثناءِ مُراهقَتِهِ. ولكنَّهُ أبى أن يستخدِمَ كُرْسِيًّا مُدَوِّلبًا، بل بالأحرى لَبَسَ مِشَدًّا واستخدِمَ عُكَّازينِ عِوَضًا عن طرفيه السُّفليِّينِ المُعَطَّلين. وقد وَطَّدتْ قُدُوتُهُ عزمي على أن أعيشَ عيشَةً طَبِيعِيَّةً ومُنْتَجَةً بِقَدْرِ الإمكانِ في هذه المرحلة التَّكوينيَّة من حياتي.

أتتْ سِنو المراهقةِ هذه بتغيّراتٍ أُخرى أيضًا. إذ انتقلتْ عائلتي إلى مزرعةٍ مِساحتِها نِصْفُ كيلومترٍ مُرَبَّعٍ تقريبًا في إيست رُوشستر بِقُرْبِ مِنيشوتا في ولاية أوهايو، على بُعْدٍ نَحوِ أربعينَ كيلومترًا عن هارتفلِ، للانضمامِ إلى كنيسةٍ أُخرى كانت تُوَسَّسُ هُنَاكَ. هذا الانتقالُ، فضلًا عن تغييرِ صديقتي المُفضلي كارين مدرستها في الصَّفِّ الثَّامن، جَعَلَنِي أَتَفَرَّعُ في صداقاتي. وقد اشتَمَلتْ هذه على مُعَلِّمي في الصَّفِّ الثَّامن، جيمس لُووري. وكانَ مُفَكِّرًا عميقًا، وقد دَفَعَنَا لَأَنَّ نَفْهَمَ عَالَمَنَا وإِلَهنا خارجَ الحُدُودِ العاديَّة.

ما بَرَحَتْ علاقتي بالله منذُ اعترافي العَلَنِيِّ حَسَنَةً، ولكنني ما زلتُ أحيانًا أتساءلُ عَمَّا إذا كان يَنْقُصُنِي شيءٌ إضافيٌّ بَعْد. وفي الصِّيفِ الفاصِلِ بين الصِّفِّينِ التاسعِ والعاشرِ، أُعْطِيتُ الكِتَابَ التَّعْبُدِيَّ «ينابيع في الصَّحراء». وبوجودِ قَلَمٍ وكتابي المقدَّس، أخذتُ أَقْرَأُ وأتأمَّلُ المُقتطفاتِ المُلهِمةَ كُلَّ صباح. وعلى مَهَل، سُلِّطَ التَّرْكِيزُ على شيءٍ مُعَيَّن. لقد احتجتُ فِعْلاً إلى شيءٍ إضافيٍّ بَعْد... إلى المزيد من بَرِّ الله.

جاءتِ اللَّحظةُ الحَرِجَةُ عَصَرَ ذَاتِ يَوْمٍ، إذ كنتُ واقِفَةً في الطَّابِقِ العُلويِّ عندَ الدَّرابزينِ خارجِ غُرْفَةِ نومي. فيوُضُوحٍ مُفاجئٍ، تَكَ شيءٌ ما داخلَ قلبي. لقد رأيتُ قِداسَةَ الله على حقيقتها، ورأيتُ خاطِئَتِي الشَّخصيَّةَ بِكُلِّ حقيقتها السَّاحقة. ما كنتُ قَطُّ قد أدركتُ مجالَ التَّسليمِ الكَامِلِ. فكيفٍ يُكِنُّني أن أخدمَ إِلَهًا قُدُوسًا إلى التَّمامِ دونَ تسليمي الكُلِّيِّ لروحهِ القُدُوسِ العامِلِ في داخلي؟

وإذا بِالْقَوْلِ الْمُقْتَبَسِ من إغناطيوس، والذي كان جُزءًا من وقتِ قراءتي الهادئِ ذلك الصَّباحِ، يدوي كصوتِ بُوقٍ في أنحاءِ قلبي. «لقد جعلني اللهُ خُبرًا لِمُختاربه، وإذا استدعى الأمرُ أن يُطحنَ الحُبُّ بين أسنانِ الأسدِ لإطعامِ أولادِ اللهِ، فليكنِ اسمُ الرَّبِّ مُبارَكًا.»

وافتنى الدُّموعُ سريعةً وسَّخينةً، وأحسستُ كأني لا أكاد أتَنفَسُ. وبدا أن العالمَ يترنَّحُ من تأثيرِ اكتِشافِي. فشعرتُ، وأنا أبكي مُتنهدةً، كما لو كنتُ مُنبطِحةً في التُّرابِ أمامَ عرشِ الرَّحمةِ. وأحسستُ حركةً ضئيلةً تدفعُني لأن أصرُخَ إلى اللهُ كما لم أفعل قطُّ من قبل: وبدا أنني أفهمُ حقائقَ رُوحيةً ما رأيتها قبلاً قطُّ.

وفي كَرْبٍ شديدٍ، صرختُ قائلةً: «اللَّهُمَّ، أنتَ جعلتني خُبرًا لإطعامِ الآخرين. أدركُ أنني حاولتُ وقتًا أطولَ من اللازمِ بقوَّتي الذاتية. أنا لا أستطيع، ولكنك أنتَ تستطيعُ فيّ. لقد اعترفتُ بك، ولكني أريدُ لك أن تحوزَ كلَّ شيءٍ، يا ربُّ. أريدُ لك أن تمتلِكَ حياتي. إذا كان هذا يعني مُعانةَ الألمِ، إلهي، فليكنِ مُبارَكًا اسمُكَ إذًا. أريدُ لك أن تكونِ أنتَ حياتي. اجعلني مثلك، ربِّي يسوع. ألسني بِرُكِّ. يا ربُّ، أنا جوعانةٌ وعطشانةٌ إليك. رجاءً، املاني بِحُضورِكَ وبِسَلامِكَ.»

في تلك اللِّحظة ارتفعَ شيءٌ ما. وكانَ كأنَّ مُخلَّصِي اقتربَ مِنِّي وبَتَّ في داخلي حياةً جديدةً... كأنَّما الرَّاعي الصَّالحُ قد ألقى عصاهُ جانبًا ورفَعني بِذراعيِ محبَّته الحانيتينِ بابتسامةٍ ابتهاجٍ. وفجأةً باتَ في وُسعي أن أتَنفَسَ من جديدٍ. وقد تدفَّقتُ أشعَّةُ شَمسِ العَصْرِ من النَّافذةِ، وبدا أن الصُّوءَ الدَّافئَ يردُّ صدىً بهاءِ المجدِ الذي شعرتُ به في داخلي.

سَمعتُ تحتي أصواتَ إخوتي وأخواتي البهيجةِ. نادى دايفد ابنُ السَّنِينِ السَّتِّ جُوآن وتضاحكا. وضجتُ الطُّفلةُ ديوين في المطبخِ، وسَمعتُ صوتَ جودي ابنةِ التَّسعِ هادلاً مَرِحٍ لتهدئته. فَبَقِيَ الفَرخُ في داخلي كما لم أختبره قطُّ قبلاً، وأحسستُ مَبالًا إلى الصَّحاحِ بِصوتِ عالٍ.

وفجأةً حصرني مَقطَعٌ من إنجيلِ يوحنا كنتُ قد قرأته في وقتِ مُبكرٍ من ذلك الأسبوعِ، مصحوبًا بِوضوحٍ مُذهِلٍ، وكأنَّما المسيحُ كان يتكلَّمُ به إلى قلبي تقريبًا.

«إِنْ تَبْتُمُ فِي وَتَبَّتْ كَلَامِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَا تَرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ. بِهَذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي أَنْ تَأْتُوا بِثَمَرٍ كَثِيرٍ فَتَكُونُونَ تَلَامِيذِي. كَمَا أَحَبَّنِي الْآبُ كَذَلِكَ أَحَبُّنُكُمْ أَنَا. أُبْنُوا

فِي مَحَبَّتِي. إِنَّ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا  
أَبِي وَأَنْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ. كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ.»

كان فرحي كاملاً وفاقاً. ويومَ الأحدِ التّالي قُلْتُ لخدامِ كنيسةِنا، ليونارد أوفرهلت،  
إنّني أودُّ الالتحاقَ بصفِّ تلمذة استعداداً للمعمودية.

نَمَّ في يومِ مُعتدِلِ البرودة، مُنتصفَ شهرِ نَيْسان، ارتديتُ ثَوْبَ المعموديةِ الأسودِ  
التقليديّ لأقدِّمَ شهادةً علنيّةً عن التّزامي نحوَ الرَّبِّ وجَسَدِهِ (الكنيسة). وقد عَلِمْتُ  
من صفِّ تلمذتنا أنّ المعمودية كانت رمزاً. ولكنْ شأنها شأنَ عهودِ الزّواجِ تماماً، كانت  
رمزاً مهمّاً.

حَمَلْتُ منديلي الأبيضِ المُخَرَّمِ ونُسخةً صغيرةً من الكتابِ المقدّس، وانتظرتُ دورِي  
بوقار. وقد كان شخصانِ آخرانِ في الصّفِّ المَعموديِّ معي.

ما بَرِحْتُ مُتوتّرةً حيالَ فِكْرَةِ مُحاولَةِ الرُّكُوع، إذ كان ذلك صعباً عليّ. إنّما الأسقفُ  
يوسُت مَلَر كان قد فَهَمَ الأمر، وبابتسامتهِ المؤنسةِ طَلَبَ مِنِّي أن أبقى قاعِدةً. وبرأسِ  
مَحْنِي، أَحَسَسْتُ الماءَ عَبرَ يَدَيِ الأسقفِ يوسُتِ يُسَكِّبُ على رأسي. ففكّرتُ في دَمِ  
الجلجثةِ المُطَهَّرِ، وأحَسَسْتُ الدُمُوعَ تُوافي عينيّ. لقد ماتَ المسيحُ من أجلي! إنّ دَمَهُ  
طَهَّرَنِي وجعلني خليفةً جديدةً. وقد كانت تلكَ لحظةً مُقدّسةً مُفعمةً بالفرحِ.

وفي ما بعد، كتبتُ قصيدةً عن تضحيةِ المسيح، عَنونْتُها «ثلاثةُ صُلبانِ.»

فِي العَرَبِ كَانَتِ الشَّمْسُ تَغِيبُ

فِي كُرّةِ هَائِلَةٍ مِنْ ذَهَبِ.

لَقَدْ مَسَّ الأَحْمَرُ الظِّلَّ الأَرْجَوَانِيَّ،

وَبَدَأَ أَنَّ الرِّمَمَ لَمْ تَكُنْ لَهُ سَطَوَةٌ.

ارْتَفَعَتْ فِي البَعِيدِ ثَلَاثَةُ صُلبانِ كَثِيبَةٍ،

حَسَنَةُ البِنِيَّةِ، غَلِيظَةُ الهَيْئَةِ.

قَدْ بَدَّلَ البَشَرُ أَقْصَى جَهْدِهِمْ؛

فَهَلْ كَانَ فِي هَذَا خُطَّةٌ إلهيَّةٌ؟

وَقَوْفًا تَحْتَ الصليبِ الأَوْسَطِ،

لَمَسْتُ الْعُودَ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ.

بدا أَنَّهُ يَنْحَنِي بِاتِّضَاعِ أَمَامِي،

أَه، مَا أَكْرَبَ حَالَتَهُ!

وَاتَّفَقَ أَنْ رَأَيْتُ دَمَ الْمَصْلُوبِ الْخَالِدِ

يَجِفُّ فِي بُقْعَةٍ تَلَوَّنَتْ بِلَوْنِ النُّحَاسِ.

يَسُوعُ مَاتَ عَلَى هَذَا الصَّلِيبِ؛

فَلتَشْكُرُهُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ جَدِيدٍ.

وقدِ اخْتَرَنَ الْمَقْطَعُ الْأَخِيرُ كَامِلَ الرَّجَاءِ الَّذِي شَعَرْتُ بِهِ إِذْ فَكَّرْتُ فِي قُوَّةِ قِيَامَتِهِ:

وَلَكِنَّهُ قَامَ لِيَحْيَا، مُخْلِصًا مَجِيدًا،

فِي بَهَاءٍ وَسَنَاءٍ كَالْتَّاجِ الَّذِي عَلَى رَأْسِهِ.

لَيْتَ هَذَا الْمَلِكُ الْجَلِيلَ يَمْلِكُ فِي كِيَانِكَ!

إِنَّا سَنَمْلِكُ مَعَ الرَّبِّ يَسُوعَ إِلَى الْأَبَدِ.



## تَعَلُّمُ الْإِتِّكَالِ

شَعَرْتُ بِالتَّوَتُّرِ وَالتَّحْمُّسِ مَعًا عِنْدَمَا انْفَتَحَ الْبَابُ. دَخَلْنَا، وَالِدَايَ وَأَنَا، مَكْتَبَ الْمَدِيرِ وَتَلَقَّيْنَا تَرْحِيبًا حَارًّا. «مرحبًا، فيرا، اسمي مِسْتَرِ إِدْنُغْز.» وَإِذْ مَدَّ يَدَهُ لِمُصَافِحَتِي، أَدْرَكَ فِجَاءَةً أَنَّنِي لَا أُسْتَطِيعُ رَفْعَ يَدِي. فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَأَمْسَكَ يَدِي الْمُرْتَهِّلَةَ بِيَدِهِ، ثُمَّ التَفَتَ لِيُصَافِحَ الْوَالِدِيَّ أَيْضًا. «يَسْرُنَا أَنْ نَسْتَقْبَلَكُمْ هُنَا الْيَوْمَ. كَمَا تَعْرِفُونَ أَصْلًا عَلَى وَجْهِ الْإِحْتِمَالِ، أَنَا الْمُدِيرُ هُنَا فِي ثَانَوِيَّةٍ مَنِيرْفَا.» وَالتَفَتَ الرَّجُلُ النَّحِيلُ الْبِنِيَّةَ إِلَى رَجُلٍ أَطْوَلَ قَامَةً وَاقِفٍ بَهْدُوٍ إِلَى جَانِبِهِ: «وَهَذَا مِسْتَرُ كَاسِيدِي، نَاطِرُنَا الْبَارِعَ.» فَابْتَسَمْتُ لِمِسْتَرِ كَاسِيدِي، وَصَافِحَنَا هُوَ أَيْضًا قَبْلَمَا قَعَدْنَا وَبَدَأْنَا نُنَاقِشُ غَايَةَ زِيَارَتِنَا.

وَبَعْدَمَا عَبَّرْنَا عَنِ رَغْبَتِي بِأَنْ أُتَسَجَّلَ فِي صُفُوفِ الدَّرْسِ، أَوْضَحَ مِسْتَرُ كَاسِيدِي قَائِلًا: «نُحِبُّ أَنْ نُسَاعِدَ فِيْرَا عَلَى تَلْقَى أَفْضَلَ تَعْلِيمٍ مُمَكِّنٍ. وَلَكِنَّا قَلِقُونَ بِشَأْنِ قُدْرَتِهَا عَلَى اجْتِيَازِ الدَّرَجِ.»

فَأَفْصَحْتُ قَائِلَةً: «أه، لَنْ يُشْكَلَ ذَلِكَ مُشْكَلَةً. أَنَا مُسْتَعِدَّةٌ لِتَجْرِبِ أَيِّ شَيْءٍ تَقْرِبًا. إِنَّنِي أُدَبِّرُ أَمْرِي جَيِّدًا فِي أَيِّ شَيْءٍ أَضَعُهُ فِي فِكْرِي.»

وَأَوْضَحَ بَابَا: «نَعْرِفُ عَلَى الْأَقْلِ طَالِبًا وَاحِدًا عَرَضَ تَقْدِيمَ الْمُسَاعَدَةِ حَيْثُ تَدْعُو الْحَاجَةَ. قَدْ تَجِدُ فِيْرَا الدَّرَجَ شَاقًّا جَدًّا، وَلَكِنَّهَا سَتُحِبُّ عَلَى الْأَقْلِ أَنْ تُجَرِّبَ حُضُورَ الصُّفُوفِ قَبْلَ أَنْ نَضَعَ تَرْتِيبًا لَشَيْءٍ آخَرَ.»

فقال مِسْتَرُ إِدْنَعَزْ، مُومئًا برأسه في تفهّم: «أعتقدُ أننا نستطيع أن نعملَ بهذا.»  
«أَتودّيَنَ أن تكوني جزءًا من صفِّ الاقتصادِ المنزليِّ، فيرا؟» كان في وسعي أن أحزُرَ  
أنَّهُ كان ينظُرُ إلى غِطائي وثوبي البسيط ويُفكِّرُ في خَلقِتي المينونيَّة.  
ابتسمتُ ابتسامَةً عريضةً بِسرور. «نعم، أعتقدُ أنني قد أجدُ ذلك مُشوقًا، مِسْتَرُ  
إدْنَعَزْ. سُكرًا جزيلاً لك.»

«طبعًا، فيرا. كان من دواعي سُروري أن أقابلَكَ. إنَّ شجاعتكِ وتماسككِ يُلهمانيني.»  
قبلُ مغادرتنا الثانويَّة، تسجَلتُ في صُفوفِ ستبدأُ اليومِ التَّالي. وتلكَ اللَّيلةُ لم أكدُ  
أستطيعُ النَّوم. كيف سيكونُ حالُ التَّعلُّمِ في بيئَةِ ثانويَّةٍ رسميَّة، حيثُ يُحيطُ بي أشخاصُ  
جُدُّ كثيرين جدًّا؟ هل أتمكُنُ من تدبيرِ أمرِ الدَّرَجِ والإجهاذِ البَدْيِيِّ على مدى أَيَّامٍ كاملةٍ  
من الصُّفوفِ؟ وإذ تنهَّدتُ، صليتُ ووضعتُ المسألةَ في عهدَةِ اللهِ. لقد كنتُ مُتعلِّمةً أن  
مهما واجهتُ في الحياة، فإلى حدِّ بعيدٍ أهُمُّ أمرٍ في وسعي أن أعملَه - سواءً أخفقتُ أو  
نجحتُ - كانَ أن أتكلَّ على اللهِ.

وإذ تعلَّمتُ أن أعرفَ الرَّبَّ في كُلِّ طُرُقِي، وليس في بَعْضِ منها فقط، بدأتُ أرى أنَّ  
لَهُ اهتمامًا حيويًّا بِكُلِّ تفصيلاً من تفاصيلِ حياتي. لقد وعدَ بأنَّهُ سيرشُدني السَّبيل. وبعدَ  
التَّخطيطِ لبُضعِ تفاصيلِ اليومِ التَّالي، سلَّمتُهُ الوضعَ وأخلدتُ إلى النَّومِ.



«مرحبا، فيرا! حسنٌ أن أراك!» كانتُ جوانيتا موريصُن طالبةً مُفجَمَةً بالحيويَّة في  
الصَّفِّ الأخيرِ بثانويَّةٍ منيرفاً وجارةً لنا. سلَّمتُ عليَّ بحرارةٍ ونحنُ داخلتانِ إلى المدرسة،  
وعرضتُ أن تُساعدني بِحملِ كُتبي. فقبلتُ مُمتنَّةً، ولما افترقنا بعدَ لحظات، شكرتُها على  
مُساعدتِها لي.

إلَّا أنني كنتُ عازمةً على صُعودِ الدَّرَجِ وحدي، وهذه مهمَّةٌ أصعبُ بكثيرٍ ممَّا  
تصوَّرتُ. كانتُ لينا في البيتِ تحمِلُني على الدَّرَجِ صُعودًا إلى غُرْفَةِ نومنا ونزولًا منها.  
أمَّا هنا، فلم تُكنَ لينا معي. وإذ جرَّرتُ قَدَمَيَّ مُتسلِّقةً ما بدا كأنَّهُ جبلٌ لا ينتهي من  
الدَّرَجِ، تنفَّستُ بصعوبةٍ شديدةٍ من الجهدِ المبذول. ولدى سَماعي وفعَّ خطي مُتسارِعَةٍ  
ورائي، توقَّفتُ مُتوكِّئَةً على دَرابزينِ الدَّرَجِ.

«فيرا، هل لي أن أسأذكِ؟» كانت تلك برنادين راى، من عائلة صديقة تحضُرُ في كنيستنا.

قلتُ لاهِنَّةً: «أظنُّ أنني بخير.»

فقالَت مُعَلِّلةً بلُطفٍ: «فيرا، أنتِ مُرهقة. سأحمِلُكِ بِسرور.»

ولكنِّي كنتُ أكثرَ إحراجًا من أن أدعها تحمِلني، وأكثرَ تصميمًا على قهرِ الدَّرَجَاتِ الباقيةِ فوقِي. «شكرًا، برنادين. سأكونُ بخير.» وابتسمتُ لها أملهً أن أقنعها.

«لا بأس!» رمقتني بنظرةِ قلقٍ، وانتظرتني ريثما صعدتُ آخرَ حَمَسِ دَرَجَات. ولمَّا وصلتُ إلى القِمةِ أخيرًا، توقفتُ لأنفَس. كنتُ قد تساءلتُ هل أمكُنُّ من القيام بالأمر. وقد ارتجَفَ جِسمي كُلُّه من الإجهاد.

عرَضتُ برنادين المُساعدةَ من جديدٍ: «عليَّ أن أركُضَ إلى الصَّفِّ، ولكن في أيِّ وقتٍ تحتاجين فيه إلى مساعدة، دَعيني أعلمُ فأعمَلُ لكِ أيَّ شيءٍ بسرور.»

«شكرًا جزيلاً لكِ، برنادين. أنتِ صديقةٌ طيِّبة.» وابتسمتُ لها بحرارة. لقد أثرَ فيَّ اهتمامها المُخلص، رُغمَ معرفةِ احتياجي لأنَّ أتغلبَ على الصُّعابِ وحدي.

بادلتني بابتسامة. «أوه، لا مُشكلة!» ووراءَ ابتسامتها، رأيتُ ألمًا وشكًّا، وصليتُ كي أمكُنَّ بطريقةٍ ما من أن أكونَ صديقةً لها بالمقابل من أجل لُطفها معي.

كان الغداءُ بُقعةَ الضَّوءِ الأكثرَ إشراقًا في نهاري. أصرتُ جُونيتا على أن أقعدَ معها. وعرفنتني إلى جميع صديقاتها. كُنَّ ودوداتٍ ومُرحباتٍ، وفكرتُ بِسرورٍ في توطيدِ علاقاتٍ معهنَّ طوالَ السَّنَةِ المُقبِلة.

لم يكن صفُّ الاقتصادِ المنزليِّ واعدًا بالنَّجاحِ كثيرًا. فلما رأيتُ أنَّ المشروعَ يتطلَّبُ استعمَالَ اليدينِ بِمهارة، جلسْتُ وراقبتُ. وتساءلتُ مُحبطةً: لماذا أنا هنا؟ لا أستطيعُ حتَّى المشاركة. لا يمكُنني أن أرفعَ ذراعِي، وأبدو كبلهاءٍ إذ أقعدُ هنا فحسبُ مُتبسِّمةً لكلِّ شخصٍ! فقررتُ أنني غيرُ معنيَّةٍ بِصفِّ الاقتصادِ المنزليِّ رُغمَ كلِّ شيءٍ.

شكَّلَ شقُّ طريقي إلى المُستراحِ تحدِّيًا آخرٍ: فقد كان أبعدَ من أن أمشيَ إليه بِارتياحٍ، وشعرتُ بالإرهاقِ لما فكرتُ في اضطراري إلى قطعِ تلكِ المسافةِ المُجهدةِ كلِّ يومٍ مدرسيِّ.

لما وصلتُ إلى البيتِ أخيرًا، أصابني صُداغٌ شديدٌ جدًّا، ووَجَعني جِسمي كُلُّه من الإرهاقِ والتَّوتُّر. «ماما، لا أقدرُ أن أرجعَ. كدتُ أنهارُ قبلَ انتهاءِ النَّهارِ!»

نظرت إليّ ماما بهُدوء: «لا بأس، فإِرا. سُرْتُبُ أَنْ يَأْتِيَ مُعْلَمُونَ حُصُوصِيُونَ إِلَى هُنَا وَيُعَلِّمُونَكَ. سَنَهْتَمُّ بِالتَّفَاصِيلِ لِاحْتِقَاءٍ.» ثُمَّ عَانَقْتَنِي بِلُطْفٍ، فَشَعَرْتُ بِشَيْءٍ مِنَ السَّكِينَةِ يَرْجِعُ إِلَى أَعْصَابِي الْمُتَوَثِّرَةِ. وَلَكِنِّي لِاحْتِقَاءٍ فِي السَّرِّ بَكَيْتُ. لَقَدْ أَحْسَسْتُ خَيْبَةَ الْأَمَلِ بِنَفْسِي. ذَهَبَ وَالِدَايَ لِرُؤْيَةِ الْمُدِيرِ الْمُعَاوِنِ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، فَزَيْتَبَ لِي مَسْؤُولُو الْمَدْرَسَةِ فِي الْحَالِ أَنْ يَأْتِيَ مُعْلَمُونَ إِلَى بَيْتِي. ثُمَّ وَصَلَ أَوَّلُ مُعَلِّمٍ حُصُوصِيٍّ فِي الْأُسْبُوعِ التَّالِيِ، وَسُرْعَانَ مَا صَرْنَا صَدِيقَيْنِ أَنَا وَمِسْتَرُ دَايْفِسُ.

كَانَ مِسْتَرُ دَايْفِسُ طَوِيلَ الْقَامَةِ وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ، ذَا عَيْنَيْنِ دَاكِنَتَيْنِ وَابْتِسَامَةٍ رَقِيقَةٍ. وَلَكِنْ تَحْتَ حُسْنِ تَصَرُّفِهِ، كَانَ مُدْرِكَاً جَدّاً وَذَكِيّاً عَلَى نَحْوِ لَا يُصَدَّقُ. فَبَعْدَ أَقَلِّ مِنْ أُسْبُوعَيْنِ بَادَرَنِي مُعَلِّباً: «فِإِرا، هَذَا الْمِنْهَاجُ التَّانَوِيُّ الْعَامُّ سَهْلٌ جَدّاً عَلَيْكَ. لَقَدْ تَقَدَّمْتِ فِعْلاً إِلَى مَا بَعْدَهُ. مَا رَأَيْكَ لَوْ طَلَبْتُ مِنَ الْمُدِيرِ أَنْ يُرْفَعَكَ إِلَى مِْنْهَاجِ جَامِعِيّ إِعْدَادِيّ بَدَلاً مِنْهُ؟»

سَأَلْتُهُ: «مَاذَا سَيَتَضَمَّنُ الْمِنْهَاجُ؟» كُنْتُ تَوَاقِئَةً إِلَى التَّعَلُّمِ، وَأَيْ تَحَدُّ كَانَ دَائِماً شَيْئاً سَرَّيْ أَنْ أَقْبَلَهُ. وَقَدْ شَعَرْتُ أَحْيَاناً بِأَنَّ مَا أَنْجَزْتَهُ بِعَقْلِي عَوْضٌ عَنِ فَيُودِي الْبَدَنِيَّةِ. «سَيَتَضَمَّنُ الْجَبْرَ وَالْأَدَبَ الْإِنْكَلِيزِيَّ وَعِلْمَ السِّيَاسَةِ، فَضْلاً عَنِ أَرْبَعِ سِنِينَ مِنَ اللُّغَةِ الْأَجْنِبِيَّةِ، وَيُفَضَّلُ أَنْ تَكُونَ اللَّاتِينِيَّةَ أَوْ الْإِفْرَنْسِيَّةَ، رُغْمَ وَجُودِ بَعْضَةِ خِيَارَاتٍ أُخْرَى أَيْضاً.» أَوْمَأْتُ بِرَأْسِي إِجَابَةً عَلَى مَهْلِ. «أَنْتِ بِحُكْمِكَ فِي الْأَمْرِ، مِسْتَرُ دَايْفِسُ. إِذَا اعْتَقَدْتِ أَنَّيَ اسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ، فَسَأَبْذُلُ قُصَارَى جُهْدِي.» «لَسْتُ قَلِقاً بِشَأْنِ قُدْرَتِكَ عَلَى الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ. إِمَّا سَيَكُونُ عَلَيَّ أَنْ أَنْالَ إِذْنًا مِنْ مِسْتَرِ پَرِي، قَبْلَ أَنْ أَنْفُذَكَ.»

فِي أَقَلِّ مِنْ أُسْبُوعٍ تَحَوَّلْنَا إِلَى الْمِنْهَاجِ الْآخَرَ. وَقَدْ نَجَحْتُ فِي مِواجهَةِ التَّحَدِّيِ، وَكَمَا أَوْصَى مِسْتَرُ دَايْفِسُ اخْتَرْتُ اللَّاتِينِيَّةَ وَالْإِفْرَنْسِيَّةَ لِعَتَيْنِ أَجْنِبِيَّتَيْنِ لِي. عَصَرَ ذَاتِ يَوْمٍ، بَيْنَمَا كُنَّا نَدْرُسُ، وَاحْتِاجَ مِسْتَرُ دَايْفِسُ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ مَعْنَى كَلِمَةٍ، سَأَلْتَنِي أَيْنَ يُمَكِّنُ أَنْ يَجِدَ قَامُوساً. فَسَقَطْتُ إِلَى حِينٍ فِي وَرْطَةٍ. إِذْ كَانَ الْقَامُوسُ حَالِيّاً يُسْتَعْمَلُ كَجُزٍّ مِنْ رَجُلٍ لِلصُّوفا عِنْدَنَا، بِمَا أَنَّ الرَّجُلَ الْحَقِيقِيَّةَ انْكَسَرَتْ فِي وَقْتِ سَابِقٍ وَلمْ يَتَوَافَرَ لِابَابَا بَعْدُ وَقْتُ لِتَصْلِحِهَا.

شعرتُ بالارتباك من جهة الاعتراف بمكان القاموس. ولكن في الوقت عينه عَلِمْتُ أنَّي سأكذبُ إذا قلتُ إنني لا أعرفُ مكانهُ حقًّا. وهكذا، مُتَوَرِّدَةً الخَدِينِ قَلِيلًا، قلتُ: «هُوَ تَحْتَ الصُّوفَا هُنَاكَ، مِسْتَر دَايْفِس.»

ودونُ أيِّ إبطاء، انحنى وسحبَ الكِتَابَ من عَمُودِ الكُتُبِ. «حَسَنًا، شُكْرًا لِكَ: فلنَنْظُرِ الآنَ. لقد كانت الكلمةُ هي التَّقْمُصُ.» وقلَّبتُ بإبهامِهِ صَفْحَاتِ الكِتَابِ بِسُرْعَةٍ، وأنا أراقبُ وجهَهُ بِتَقْدِيرِ. حتَّى إنَّه لم يتصرَّفْ وكأَنَّ شَيْئًا كَانَ غَيْرَ مُعْتَادٍ! ولمَّا فَرَعُ من تعريفِ الكلمة، رَدَّ الكِتَابَ إلى مكانه بِطَبْعِيَّةٍ تَامَّةٍ كما استخرجه، وعادَ إلى الدَّرْسِ بلا تعليق. وقد احتزمتُهُ احترامًا جَمًّا من أجلِ رِقَّةِ شُعُورِهِ وحُسْنِ تَمْيِيزِهِ.

استقبلتُ ماما دَائِمًا مِسْتَر دَايْفِسَ عند البابِ بِنوعٍ ما من المُنْعِشَاتِ وبابتسامَةٍ تقدير. وكان جميعُ مُعَلِّمِي الخُصُوصِيِّينَ طَوَالَ سِنِي مرحلَةِ دراسَتِي الثانويَّةِ يتلقَّونَ الاستِقبالَ الاحترامِيَّ نفسَه. وقد أصبَحَ أغلبُهُم جُزْءًا من عائلتي بطريقتِهِ ما. ووصلَ الأمرُ إلى الحدِّ الذي عندهُ تلقتُ مِسْرَ فَيولا اثرويَّ مَرَحَاتِ أخواتي فضلًا عن محبَّتِهِنَّ.

ذاتَ يومٍ، بيئنا كُنَّا ندرسُ مسألةً هندسيَّةً صعبةً بصورةٍ خاصَّة، انطلقَ مُنْبَهُ رَنَّا عند أقدامنا. فأجفلتُ مِسْرَ اثرويَّ كثيرًا حتَّى قفرتُ في كُرْسِيَّهَا. وصرختُ مذعورةً: «رَحِمَتَكَ يَا رَبُّ! ما هذا؟» إذ ذاكَ لمحتُ وجهَ دليمة الصَّاحِكِ يظهرُ فجأةً حولَ زاويةِ البابِ وحدقتُ إليها، إمَّا لحظةً فقط. لقد كان الوضعُ مُضحكًا تمامًا. ولمَّا عادتُ مِسْرَ اثرويَّ إلى صوابها، ضحكتُ ضحكةً خافتةً وقهقهتُ أنا معها.

لم تكنُ حياتي وحدها أَحَدَةً في التغيُّرِ، بل كانت حياةُ إخوتي وأخواتي مُتغيِّرةً أيضًا. باتت برنادين الآن تحضُرُ في كنيستنا دَائِمًا، ولاحظتُ أنَّ أخي الهاديَّ المُستَقَرَّ افْرَدَ يدي اهتِمامًا بهذه الفتاة. فانتظرتُ لأرى كيف ستَنجَلِي الأمورَ.

ولم يكنِ افْرَدَ هُوَ الوحيدَ المعنِيَّ بِالْعَلاقَةِ الرُّومَنسيَّةِ. إذ بدأتُ روثُ تتحدَّثُ عن جوني ملر. وكنتُ قد التقيتُ جوني أوَّلَ مرَّةٍ في عُرْسِ بفرجينيا بيتش في ولاية فرجينيا الجَنُوبيَّةِ. وقد اقتضى الأمرُ بعضَ الوقتِ والجهدِ لأصيرُ مُقتنِعَةً به.

كلِّمًا تذكَّرتُ ذلكَ اللقَاءَ الأوَّلَ مع جوني، كان لا بُدَّ لي من أن أضحك. كنتُ واقفةً بعيدًا بعضَ الشيء عن حَشْدِ النَّاسِ المُتحرِّكِينَ هُنَا وهُنَاكَ، بعد مراسمِ الزَّواجِ. وكان واحدًا من الأشياءِ التي أُحِبُّ القيامَ بها أكثرَ الكلِّ أن أشاهدَ النَّاسِ. فلاحظتُني جوني وأقبلَ ليَتحدَّثَ إليَّ. وتظاهرتُ بأنني لم أعلمُ أنَّه بسببِ جَبِيْرَةِ عُنُقِي وعَرَجِي الشَّدِيدِ

وقامتي الضئيلة قد انتقاني من بين الحشد. وكنْتُ دائماً أفعلُ هذا حين ألتقي ناساً جُداً. إذ أتصرّف على نحوٍ طبيعيٍّ بقدر الإمكان لأبرهنَ لهم أنّني كذلك تماماً، أي طبيعيّة. برّقت عينا جوني في وجهٍ ودودٍ إذ عرفَ بنفسه. «مرحبا، أنا جوني مِلر. وأنتِ؟» ابتسمتُ له بتهذيب، وأجبت: «فيرا أوفرهلت». ولم أشعر بأدنى خجلٍ رُغمَ كوني لم أره قطُّ من قبل. لقد كان عفوياً وأنيباً.

ابتسمَ ابتسامَةً عريضة. لم أكن مُتيقّنةً بكلِّ ما كان وراء تلك الابتسامه، ولكنني علمتُ أنّه كان هناك أكثرُ ممّا يقوله. إذ مال نحوِي عرصاً، قائلاً: «أنتِ تعلمين أنّه لن يُسمحَ لكِ بدخولِ منطقة الاحتفالِ إلّا إذا كنتِ متزوّجة، صحيح؟» أربكني هذا التّصريح. «ماذا؟ أنتِ على يقين؟ ولكنني ظننتُ... لم أعلم ذلك؛ ولكنّ حالما خرجتِ الكلماتُ من فمي، فهيمتُ ظلّ الأذى الكامِنَ وراءَ ابتسامته.

«لا، ليس هذا هو الواقعُ حقاً. أنتِ بخير.» كان ضاحكاً، ولم أملك نفسي عن الضحكِ معه. وذكّرني ذلك بمزحةٍ كان ممكناً أن تعملها أخواتي، أو أعملها أنا، مع شخصٍ آخر. ثمّ تحدّثنا قليلاً قبل أن يرحلَ ليتسامرَ مع الآخرين، ولكنني لم أنسه بسرعة. فلما التقتهُ روثُ وبدأت يتحدثان عن علاقة، تراجعْتُ حاسبةً أن لا أحدَ كان صالحاً كفايةً لأختي الكبرى.

ولكنّ كان لجوني طريقته الخاصّة. فقد عرفَ كيف يلقى حُطوةً عندي دون أن أعلم كيف. ولما قرّرتُ أخيراً أن لا بأسَ به، بدّلَ جهداً إضافياً فاشترى لي ببغاءَ زرقاء. فأغرمتُ بالببغاءِ وقلْتُ لروث إن جوني بالحقيقة سيُلي حسناً.

في خريف صفي الأخير في المرحلة الثّانويّة، تزوّجَ أفردَ وبرنادين. فأثار ذلك لديّ خليطاً من المشاعرِ الحلوة المرّة. لقد بُوركْتُ لأنّ أفردَ تكرّسَ لله وبرنادين انضمتُ إلى عائلتنا، ولكن بطرقيّ ما شعرتُ كما لو كنتُ قد خسرتُ واحداً من أفراد العائلة لما انتقلا إلى اثري ريفرزي في ميشيغن، حيثُ سيشتغلُ أفردُ بالخدمة المدنيّة في دارِ تمرّيز. كان أفردُ كلَّ حينٍ هادئاً، ولكنّه - بطرقيّ لم يكن ممكناً أن يُتِمّها أيُّ أخٍ آخر أو أيّة أُختٍ أُخرى - كان مرساةً لي. فآنذاك، أكثرُ من أي وقتٍ مضى، بدأتُ أتعلّمُ أن أتكلّ بهدوءٍ على الرّبِّ لأجلِ القوّة والعزم.

وَسَطَ هَذَا التَّغْيِيرِ كُلَّهُ، بَقِيَ حُبْنَا لِلْمُغَامَرَةِ غَيْرِ مُتَغَيِّرٍ فَبَعَدَ تَعْلَمُ السُّوقِ بِالشَّاحِنَةِ، قَرَّرْتُ أَنَّنِي سَأَعْلَمُ أَخَوَاتِي الْأَصْغَرَ كَيْفَ يَسْقَنَ أَيْضًا. وَقَدْ كَانَتْ جُوَّانُ شَرِيكْتِي فِي «الْجَرِيمَةِ» ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّبِيعِيِّ الْمُشْرِقِ لَمَّا صَعِدْنَا إِلَى السَّيَّارَةِ. كَانَتْ مَامَا فِي الْبَيْتِ تَشْتَغِلُ فِي الْمَطْبَخِ مَعَ لِينَا لَمَّا سَمِعْنَا الْارْتِطَامَ. وَبَعْدَمَا قَابَلَتِ السَّيَّارَةُ وَطَاوَلَهُ النُّزْهَةُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُلَامَةٍ، قَرَّرْتُ أَنْ أَتْرُكَ إِرْشَادَاتِ السُّوقِ لِشَخْصٍ آخَرَ فِي الْعَائِلَةِ. وَقَدْ تَغَاضَى وَالِدَايَ كِلَاهُمَا عَنِ تِلْكَ الْفِعْلَةِ مِنْ بَابِ الْحِكْمَةِ، وَتَخَلَّيْتُ أَنَا عَنِ السُّوقِ نِهَائِيًّا.

حَادِثٌ مُؤَسِّفٌ آخَرَ ظَلَّ يَنْتَابُنِي مُزَعَجًا عَلَى مَدَى سِنِينَ اشْتَمَلَ عَلَى مَايْكَلِ. كُنَّا جَمِيعًا مُضِي كُلِّ أَسْبُوعٍ عَصْرَ بَضْعَةِ أَيَّامٍ تَحْتَ عِنْدَ الْبِرْكََةِ طَوَالَ شَهْرِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ الْحَارَّةِ. وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَمَا كُنَّا نَسْتَمْتَعُ بِاللَّيْمُونَاضَةِ الَّتِي أَحْضَرْتَهَا جُوَّانُ تَوًّا مِنَ الْبَيْتِ، أُخِذْنَا جَمِيعًا مَرَحَ اللَّحْظَةِ وَحِمَاسَتِهَا، وَنَسِينَا أَنْ نُبْقِيَ عَيْنًا عَلَى مَايْكَلِ الصَّغِيرِ. كَانِ يَلْعَبُ مَسْرُورًا فِي الرَّمْلِ عِنْدَ طَرَفِ الْبِرْكََةِ. وَدُونَ تَفْكِيرٍ أَوْ إِدْرَاكِ لِلْخَطَرِ الْمُحِيطِ بِهِ، دَبَّ إِلَى دَاخِلِ الْمِيَاهِ، هَاتِفًا بِفَرَحٍ مِنْ بُرُودَتِهَا. فَإِذَا كَانَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى السُّبْحَةِ، غَرِقَ تَحْتَ الْمَاءِ لِيَطْفُوَ مِنْ جَدِيدٍ فَقَطْ، وَهُوَ يَخْتَنِقُ طَلَبًا لِلهَوَاءِ. وَلَكِنْ لَمْ يَسْمَعُهُ أَوْ يَرَهُ أَحَدٌ. ثُمَّ بَعْدَ لِحْظَةٍ، إِذْ رَفَعْتُ نَظْرِي عَنِ كَأْسِ اللَّيْمُونَاضَةِ الْمُتَلَبَّجَةِ، لَاحِظْتُ الشَّطَّ الْخَالِي فَصَرَخْتُ: «أَيْنَ مَايْكَلِ؟»

أَلْقَتْ لِينَا كَأْسَهَا أَرْضًا، مُطْرِطِشَةً اللَّيْمُونَاضَةَ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَإِذْ رَكَضَتْ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ تُبَسِّرُهَا رِجْلَاهَا الرَّشِيقَتَانِ، صَرَخَتْ وَبَعْدَ لِحْظَةٍ رَأَيْتُ مَا سَبَقَ أَنْ رَأَتْهُ هِيَ: جِسْمًا صَغِيرًا طَافِيًا وَوَجْهَهُ إِلَى تَحْتِ، غَيْرَ مُتَحَرِّكٍ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ!

بَدَأْتُ يَائِسَةً أَصْلِي بِصَمْتٍ إِذْ انْدَفَعَتْ لِينَا إِلَى الْمَاءِ، فَالْتَقَطْتُ جِسْمَ مَايْكَلِ وَسَحَبْتُهُ إِلَى الشَّطِّ. وَزَعَقْتُ جُوَّانَ، وَقَدْ شُجِبَ وَجْهَهَا، مُغْطِيَةً عَيْنَيْهَا بِيَدَيْهَا. وَبَدَتْ دَلِيلَةً مُجَمَّدَةً، لَا تَتَحَرَّكُ، وَالرُّعْبُ مَكْتُوبٌ عَلَى قَسَمَاتِ وَجْهِهَا كُلِّهِ.

رَأَيْتُ وَجْهَهُ الصَّغِيرِ، عَدِيمَ الْحَيَاةِ كَمَا يَبْدُو، مُغْمَضَ الْعَيْنَيْنِ، فَقُلْتُ أَمْرَةً: «لِينَا، دُفِّي عَلَى ظَهْرِهِ!»

فَعَلْتُ فِي الْحَالِ مَا طَلَبْتُهُ مِنْهَا. وَلَا عِلَامَاتٍ حَيَاةٍ بَعْدَ فَوْجْهَتِهَا قَائِلَةً: «أَقْلِبِيهِ رَأْسًا عَلَى عَقَبِ وَحَاوِلِي ثَانِيَةً!»

تَدَلَّى جِسْمُهُ الصَّغِيرُ ثَقِيلًا عَلَى ثَوْبٍ لَنَا الْمُبَلَّلِ. بَاتَ جُورَانِ تَبْكِي الْآنَ وَدَلِيلَةٌ تُسَاعِدُ  
كَأَفْضَلِ مَا تَسْتَطِيعُهُ. فَبَيْنَمَا حَمَلْتِ لَنَا مَايْكَلَ بِقَدَمَيْهِ، دَقَّتْ دَلِيلَةٌ بِصَرَوَةٍ عَلَى ظَهْرِهِ.  
وَفَجْأَةً انْخَنَقَ وَتَقَيَّأَ. تَدَفَّقَ الْمَاءُ خَارِجًا مِنْ فَمِهِ وَتَقَيَّأَ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا. ثُمَّ انْفَتَحَتْ  
عَيْنَاهُ وَنَظَرَ نَظْرَاتٍ غَائِمَةً. وَمَا هَمَدَ التَّقْيُؤَ، حَمَلْتَهُ لَنَا ضَمًّا عَلَى كَتِفِهَا. فَبَكَيْنَا كُلُّنَا  
قَلِيلًا، وَقَلْتُ بِهِدْوٍ: «لَقَدْ أَنْقَذَ اللَّهُ حَيَاتَهُ.»

تَوَجَّهْنَا كُلُّنَا مُتَّجِهَيْنَ إِلَى الْبَيْتِ. وَكَفَانَا مَا سَبَّحْنَاهُ يَوْمَ ذَلِكَ بَاقِيَ الْأُسْبُوعِ. بَدَأَ أَنَّ  
مَايْكَلَ لَمْ يَتَأَذَّ مِنْ الْحَادِثِ، وَلَكِنْ سَيَّمَرُ وَقْتُ طَوِيلٍ قَبْلَ أَنْ أُمَكِّنَ مِنَ الْاِسْتِمْتَاعِ بِالْبِرْكَاتِ  
دُونَ التَّفَكِيرِ بِتِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْمَهُولَةِ مِنَ التَّخَوُّفِ وَالتَّرْقُبِ عِنْدَ حَافَةِ الْمَاءِ.

## ماذا سيَكُونُ مُستقبلي؟

تسرَّبَ صَوُّ شمسِ الرَّبِيعِ من خِلالِ غِيمَةِ زَهْرِ الكَرَزِ القَرَنفُليِّ فوقنا. وقد جَنَّمَ حَسَوْنُ بَيْتِي ذَكَرٌ على عُصْنِ من شَجَرَةِ الكَرَزِ، رافعًا رَأْسَهُ الأَحْمَرَ إلى الِوراءِ تحتَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ فوقَهُ، مُسَقِّسًا من قَلْبِهِ بِخَلِيطٍ من النُّبْرَاتِ القَصِيرَةِ المَوْقَعَةِ. كانتِ ماما قد جاءتِ تَوًّا من البيتِ حَامِلَةً شَايًّا مَثَلِوجًا لِمِسِ هازِنِ ولي، فَكُنَّا في استِراحَةٍ من دَرَسِنَا لِلُّغَةِ اللاتِينِيَّةِ.

قلتُ بائِحَةً: «لَهُ شريكٌ في مَكانٍ ما بينَ الشُّجيراتِ بِقُربِ البيتِ. رأيتُهما بَيْنَنا عَشْهُما الشَّهْرَ المَاضِي.»

فابتَسَمَتِ مِسِ هازِنِ. «أه، أسرارُ الرَّبِيعِ! ولكنْ لَيسَ كُلُّ شَخْصٍ يُراعي وَقْتًا لِمَلاحَظَتِها، فَيَرا. إِنَّ جَمالَ الحِياةِ غالِبًا ما يَنسابُ مُبتَعَدًا دونَ أنْ نُلَاحِظَهُ.»

تَدَبَّرْتُ هذِهِ الفِكرَةَ مُتَأَمِّلَةً وأنا أَرشُفُ شايي. بَدَتِ مِسِ هازِنِ دائِمًا حائِزَةً حِكْمَةً جَديدةً تُدلي بِها. كانتِ قد عَلِمَتِ في مَدْرَسَةِ مِنيِرِفا التَّانَوِيَّةِ مُدَّةً فَاقَتِ ثَلاثينَ سَنَةً، وَأَصْبَحَتِ أُسْطُورِيَّةً تَقْرِيبًا في المُجْتَمَعِ بِسَبَبِ مَسِيرِها التَّعْلِيمِيَّةِ الأَلامِعَةِ. فَبِحِيازَتِها شَهادَةَ ماجستيرِ في اللاتِينِيَّةِ من جامِعَةِ كاليفورنيا في بِيركلي ودراسَةِ صَيفٍ في هارْفَرْدِ، باتتِ بَينَ النُّخبَةِ في مِيدانِ التَّعْلِيمِ حَوالِينا.

ولكنّ ما جعلني أُعجبُ بها أكثرُ الكلُّ هو روحها الوديعة المتواضعة، رُغمَ التهابِ مفاصلها المتفاقم الذي كان مُعطلًا يديها ورُكبتيها بشكلٍ مؤلم. فقد كان تعلُّمُ اللاتينية معها بعدَ الظُّهر بُقعةً مُشرقةً كلَّ حين.

في تلكِ السنينِ الأخيرةِ من المرحلةِ الثَّانويّةِ، كنتُ أفكرُ بتَمعُّنٍ في مستقبلِي أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى. فقد كانتِ الحياةُ فجأةً آخذةً في التَّكشُّفِ أمامي، وتساءلتُ عمّا سأفعله بعد انتهاءِ دراستي.

كانت مُعلّمتي مادّةَ الأدبِ الإنكليزيّ، مس جورج، هي التي أحدثتِ التأثيرَ الأكبرَ في ما يتعلّق بتشجيعي على سلوكِ سبيلٍ مهنيٍّ مخصوص. كانت شابةً لا تكبرني بكثيرٍ على ما بدا، ومع ذلك أعطتني دِقَّتُها الاحترافيّةُ في التَّعليمِ تقديرًا ربيعًا لها. وقد تشاركتنا في رباطٍ خاصٍّ. فكلّما برزَ موضوعُ مُستقبليِ أغلبِ الأحيان في تلكِ السَّنةِ الدَّراسيّةِ الأخيرةِ، حثّني على النَّظرِ إلى التَّعليمِ بعينِ الاعتبار. «فيرا، أنتِ بارعةٌ في التَّواصلِ وتُحبِّبُ النَّاسَ. سوف تكونين مُربيّةً مُمْتَازةً. اعتقدُ أنّ عليكِ أن تُفكرِي في أن تصيري مُعلّمةً!» هكذا كانت تقولُ لي.

كانت تلكِ فكرةٌ جديدةٌ عليّ نوعًا ما. فأصغيتُ وشكرتُها على ثِقَّتِها بي. ولكنني بَقِيتُ غيرَ مُتَيَقِّنةٍ بما أردتُه أو ما قد رسمَه اللهُ لحياتي.

في شهرِ أيَّارٍ من سنّتي الأخيرةِ، تزوّجَ جوني وروث. وقد طلبتِ روثُ منِّي أن أكونَ إشبينتها، فوافقتُ حالًا بِسُرور. كان ذلكَ يومًا جميلًا، وأنا ابتهجتُ بفرحٍ أُختي. وما كنتُ قد رأيتُ جوني قطُّ سعيدًا تمامًا كذلك أيضًا. ولكنّ لما عانقتُ روثَ مُودعةً، وَجَعَنِي قلبي.

رُغمَ أن زواجَ أفردَ بدا لي أشبهَ بتَّعديلٍ، علِمْتُ أنّي كنتُ رابحةً أختًا. أمّا الآنَ لدى تزوّجِ روث، فقد شعرتُ كما لو كنتُ خاسرةً أختًا، حتّى لو أحببتُ جوني واحترمتُه احترامًا عميقًا. كانا سيَتَقِلانِ إلى زانزفِل، بولايةِ أوهايو، وعلِمْتُ أنّي سأفتقدُ على نحوٍ رهيبٍ أختًا مرحّةً، مُفعمّةً بالحيويّةِ، جديرةً بالثِّقة. وفي السَّريرِ تلكِ اللَّيلةِ، بَحْتُ بمشاعرِ الحُسرانِ لديّ لأختي لينا. فأصغَتِ بهدوءٍ ووافقت، ثمّ قالت لي همسًا: «ولكنّ يوجدُ مزيدٌ من المُغامراتِ بالانتظارِ، فيرا. فكري فقط في كلِّ ما نريدُ أن نفعلهُ مُستقبليًا، فلا تشعري بالحُزنِ طويلًا!»

عَلِمْتُ أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى حَقٍّ. فَكَّرْتُ فِي سِنِي مَرَحَلَةِ دِرَاسَتِي الثَّانَوِيَّةِ، وَجَمِيعِ التَّغْيِيرَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا. لَقَدْ حَدَثَتْ تَغْيِيرَاتٌ كَثِيرَةٌ، لَيْسَ فَقَطْ فِي عَائِلَتِي، وَفِي قَلْبِي بِالذَّاتِ، بَلْ أَيْضًا فِي الْعَالَمِ حَوَالِيَّ.

رَجَعْتُ بِتَفْكِيرِي إِلَى مُنَاقَشَاتِي الْحَيَوِيَّةِ الْكَثِيرَةِ مَعَ مِيسِرِ أَرْوَبِي، وَكَانَتْ قَدْ شَجَّعَتْنِي عَلَى التَّفَكُّيرِ مَلِيًّا فِي نِظَامِ الْقِيَمِ لَدَيَّ، وَعَلَى قُبُولِ النَّاسِ بَعْدُ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ. فَمِنْهَا تَعَلَّمْتُ أَنْ أَفُكِّرَ تَفَكِيرًا نَقْدِيًّا بِشَأْنِ رُؤْيَتِي إِلَى الْعَالَمِ وَرُؤْيَةِ الَّذِينَ حَوَالِيَّ إِلَى الْعَالَمِ، أَنْ أُؤَيِّدَ الْحَقِيقَةَ فَقَطْ بَعْدَ طَرَحِ أَسْئَلَةٍ صَعْبَةٍ وَالتَّنْقِيبِ عَنِ الْأَجْوِبَةِ بِوَسْطَةِ الْبَحْثِ وَالنَّقَاشِ، بَدَلًا مِنْ أَنْ أَقْبَلَ كُلَّ شَيْءٍ مِثْلَمَا سَلَّمْتُ إِلَيَّ.

تَنَاقَشْنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ، مِنْ التَّرَاثِ الْمِينُونِيِّ إِلَى هَوَسِ الْبَيْتِلزِ إِلَى حَرْبِ فَيْتِنَامِ. وَقَدْ صَحَّبَتْنِي مِيسِرِ أَرْوَبِي أَيْضًا إِلَى غَدَائِي التَّكْرِيمِيِّ وَمَرَامِسِ انْتِسَابِي إِلَى جَمْعِيَّةِ الشَّرَفِ الْوَطْنِيِّ. وَمَا تَلَقَّيْتُ بِرِيدِيًّا إِعْلَامِيًّا بِاخْتِيَارِي لِلانْتِسَابِ إِلَى الْجَمْعِيَّةِ، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ. اتَّصَلْتُ بِبِرْنَادِينِ وَطَلَبْتُ مِنْهَا تَفْسِيرًا لِلأَمْرِ. فَكَانَتْ رَدَّهُ فَعَلَهَا حِمَاسَةً خَالِصَةً. «أُوهِ، فَيْرَا، ذَلِكَ وَاحِدٌ مِنْ أَرْفَعِ التَّكْرِيمَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَتَلَقَّيْهَا فِي مَرَحَلَةِ الدَّرَاسَةِ الثَّانَوِيَّةِ! فَأَنْتِ لَا تَحْظِينَ بِهَذَا التَّكْرِيمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُعَدَّلٌ عِلْمَاتِكَ الْعَامِ ٣,٥ عَلَى الْأَقْلَى. وَلَيْسَ ذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ، بَلْ يَنْبَغِي أَيْضًا أَنْ تَسْتَوْفِي مَعَايِيرَ مَوْسَسَةٍ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ وَقُدْرَةِ الْفِيَادَةِ. أَنَا فَخُورَةٌ بِكَ، فَيْرَا!»

بِوُجُودِ شَعْفِي بِالرَّبِّيَّةِ وَالتَّعَلُّمِ، شَعُرْتُ بِالانْتِضَاعِ وَالِابْتِهَاجِ فِي آنٍ مَعًا لِنَوَالِي هَذَا التَّقْدِيرِ غَيْرِ الْمُتَوَقَّعِ، رُغْمَ حَقِيقَةِ كَوْنِي قَدْ دَرَسْتُ فِي الْبَيْتِ.

كَانَ يَوْمٌ تَخْرُجِي حَارًّا. وَقَدْ وَسَمَ النَّاسُ مِنْ حَزِيرَانَ، سَنَةَ ١٩٦٧، انْتِقَالِي مِنْ مَوْسِمِ إِلَى التَّالِي. عُرِّقَتِ الْمَوْسِيقَى الْمَهِيْبَةُ الْخَاصَّةُ بِاحْتِفَالِ التَّخْرُجِ فِيمَا اصْطَفَى جَمِيعُ الطَّلَبَةِ الْآخَرِينَ. أَمَّا أَنَا وَخَرِيْجٌ آخَرٌ سَبَقَ أَنْ أُصِيبَ بِحَادِثِ كُرَّةِ قَدَمٍ، فَقَدْ أُدْخِلْنَا قَبْلَ بَدَأِ الْاحْتِفَالِ أَصْلًا. وَقَدْ نَزَلَ النَّاطِرُ الْعَامُّ عَنِ الْمَسْرَحِ لِيُعْطِيَنِي شَهَادَتِي وَوَرْدَةً. فَحَمَلْتُ الْوَرْدَةَ بِرَفْقٍ بَيْنَ أَصَابِعِي وَقَدَّمْتُ تَشْكُرَاتِي هَمَسًا.

عِنْدَ انْتِهَاءِ الْاحْتِفَالِ، كَانَ مُفْتَرَضًا أَنْ يَنْقَلَ جَمِيعُ الْمُتَخَرِّجِينَ شُرَابَاتٍ فَلَانِسِهِمْ مِنْ جِهَةٍ إِلَى الْآخَرَى، إِشَارَةً إِلَى مَنْزِلَتِهِمْ الْجَدِيدَةِ. فَتَسَاءَلْتُ كَيْفَ سَأَنْقُلُ شُرَابَتِي، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَيُّ دَاعٍ لِأَنْ أَقْلُقَ. إِذْ فِي اللَّحْظَةِ الْمُنَاسِبَةِ تَمَامًا، هَمَسَتِ الْفَتَاةُ الَّتِي وَرَائِي فِي أُذُنِي: «سَأَنْقُلُ لِكَ شُرَابَتِكَ.» فَعَبَّرْتُ بِالِابْتِسَامِ عَنِ عِرْفَانِي لَهَا بِالْجَمِيلِ. وَبَعْدَ التَّهَانِي

والتشكُّرات للمُعَلِّمين الذين قدّموا لي الكثيرَ جدًّا على مدى السنينَ الأربعِ الأخيرة، غادرتُ مع والديّ، مرهفةً بدنيًّا من المحنة. لقد كنتُ على استعدادٍ للذهابِ إلى البيتِ والاستراحة.

إنّما ليس مُدَّةً طويلة. فقد تعودتُ جدًّا أن أكون مشغولةً بالدرسِ والكُتُبِ حتّى قرّرتُ أن أستمرّ بقدرِ الإمكان. كانت لَدَيَّ لائحةٌ ضخمةٌ بالكُتُبِ التي أردتُ أن أقرأها، فأبقى هذا ذهني مُنْشَغَلًا بالنسبةِ إلى التعلُّمِ المُستمرِّ. ولكنّ على الرُغمِ من هذا الجهدِ للحفاظِ على الشعورِ بالحالةِ السويّةِ، أحسستُ تلهفًا مُتزايدًا بِبطءٍ إلى شيءٍ ما أكبر: لقد آن الأوانُ لِلتَمُدُّدِ إلى قَلْبِ العالَمِ الأوسعِ، وللقيامِ بشيءٍ ما نافعٍ بخدمةِ الآخرين، ولتحديدِ ما كنتُ قادرةً عليه تمامًا في عالمِ الواقعِ.

على الرُغمِ من هذا القلقِ الأساسي، حفَلتِ الحياةُ بالكثيرِ لإيقائي مشغولة. فقد قرّنا، لينا وأنا، أن نقومَ بالسفرِ برًّا إلى ميشيغنَ ذلكَ الصيفِ لرؤيةِ أوّلِ ابنِ أخِ لنا. لقد سمّاهُ أفردَ وبرنادينِ أفردَي على اسمِ أبيه، وأغرِمَ قلبي به في الحال. فرأسه الطريُّ ذو الشعرِ الجعدِ استكنَّ على خدي، وابتهجتُ بأصابعِهِ الصغيرةِ مُلتَقِّةً حولِ أصابعي. قلتُ مُتَعَجِّبَةً لأختي ابنةِ السّتِّ عشرةِ سنه: «أوه، لينا، ألا تعتقدينَ أنّه أبدعُ طفلٍ وُلِدَ على الإطلاق؟»

فأبدتُ موافقتها القلبيةّة: «لا شكَّ في ذلك.» ثمَّ فههّمت. «نبدو مثلَ جدّتينِ مُسنّتينِ مشغوفتينِ، فيرا!»

عندئذٍ تمامًا دخلتِ برنادينِ ضاحكةً. «العمّاتُ المشغوفاتُ رُجْمًا كُنَّ الشّيءَ نفسَه تقريبًا. أنا مسرورةٌ لأنّكم، يا فتاتان، استطعتُما أن تأتيا وتزورانا. لقد كانت زيارتُكما سلوى عظيمةً لأفردَ ولي كَلِينا.»

فأجبنا في اللحظةِ نفسها: «نحنُ مسرورتانِ لأننا تمكّنا من المجيء. لن نستبدلَ بالوقتِ مع ابنِ أختينا أيّ شيء.» كنتُ مُستمتعةً بتذوّقي الأوّلِ لِمَا يعنيه أن أحبَّ أبناءَ إخوتي وأخواتي وبناتهم في السنينِ الآتية، وأنا قلّما أدركُ أنّ البهجةِ الغامرةِ التي كنتُ أتذوّقُها الآنَ ستصيرُ واحدًا من أعظمِ أفراحي بمعنى مُوسّعٍ جدًّا.

بعدما رجعنا إلى البيتِ، قرّرتُ أن نُخيمَ على التلِّ وراءَ المنزلِ، كما فعلنا معًا بعضَ الأحيان. كانت لينا قد أنجزتِ التّخيطَ لذلكِ الأسبوعِ، وجوّانُ قد خبزتِ فطائرَ وكعبيكاتٍ محلّاة. وقد تألّقَ البيئُ حيثُ وظّفتِ دليله خبزها بالتّنظيفِ والتّلميعِ على

كُلُّ نافذةٍ وأرضيَّةٍ وِعِطَاءٍ مِصباح. وكانت جودي قد أُنْجَزَتْ شُغْلَهَا فِي الحظيرة، وقمْتُ أَنَا بِمَا اسْتَطَعْتُهُ حَيْثُمَا دَعَتِ الحَاجَةُ إِلَيَّ. آنَذَاكَ بِنْتَا فِي احتياجٍ إِلَى حفلة.

«علينا أن ندعو صديقاتٍ!» هكذا قَرَرْنَا. وتلك اللَّيْلَة، بعدَ حُلُولِ الظَّلامِ، مِنَّا كُنَّا على قُرُشٍ تحتِ النُّجوم. وقد تطايرت حَشْرَاتُ سراجِ اللَّيْلِ بِسرعةٍ هُنَا وهُنَا فِي الظُّلْمَة المُتَجَمِّعَة، وفي مكانٍ ما من الغاباتِ وراءنا نَعَبَتِ بومة. ثُمَّ قَهَقَهْنَا وخشخشنا إِذِ اسْتَقَرَرْنَا فِي عُنْشَا المَكُونِ من بَطَانِيَّات. وكان بابا قد مدَّ الأَسلاكَ لِإِلَة تَنفُسي إِلَى حيثُ سَبَّيْتُ ليلتنا. وقد كان، دائماً تقريباً، داعماً لنا فِي أَيَّةِ مُغامراتٍ جَرَبْنَاهَا، مِثْلَمَا كان كُلُّ حين.

أشارت لينا قائلةً: «انظُرْنَ، هُنَاكَ الأَخَوَاتُ السَّبْعُ!»

فصَحِكتُ: «والآنَ نحنُ أخواتُ سَبْعٍ. فَبِرنادينِ أوصَلتِ عَدَدنا إِلَى الكمالِ.»

وانضَمَّت إِلَيْنَا البَنَاتُ الأُخْرُ إِذِ تابَعْنَا تحديداً مجموعاتٍ نَجْمِيَّةٍ أُخْرَى.

كذلك كانت لي مُغامراتٌ مع إِخوتي أيضاً. وذاتَ مَرَّةٍ فِي رِحْلَةٍ إِلَى واحدٍ من أنشِطَتِنَا الشَّبَابِيَّةِ الكَثِيرَة، كان لِيُونُ يسوقُ بنا. وكان قد بدأ حديثاً يتعلَّمُ السَّوْقَ فِي سيارتنا الپونتيك العتيقة، فزادَ سُرْعَتَها قليلاً فوقَ واحدٍ من جبالِ أوهايو. وقد ارتفعتِ السَّيَّارَةُ فِعْلاً عن الأرض، ونحنُ الرُّكَّابُ جميعاً صَدْمًا رُووسنا بِسَقْفِ السَّيَّارَة. إِمَّا الشَّخْصُ الوحيدُ الذي لم يَصْدَمْ رأسُه كان ليون. فنظَرَ حَوَالِيهِ إِلَيْنَا كُنَّا نَظْرَةً اعتذارٍ لِمَا حَطَّتْ دواليبُ السَّيَّارَة على الأرض من جديد. وانفَجَرْنَا كُلُّنا ضاحكين. ثُمَّ لاحظت لينا وجودَ دُبَابَةٍ مَيِّتَة على السَّقْفِ فوقِي تماماً.

«أه، انظروا! لقد قتلت فيرا دُبَابَةً! أَيُّ راميَّةٍ بارعةٍ أنتِ، يا فيرا!»

رفعتُ نظري مُتَعَجِّبَةً، لِأَدْرَكَ فَحَسْبُ أَنَّها كانت على حقِّ. كنتُ أنشُ الدُّبَابَةَ بِيَدِي تماماً عندما قَفَرَ ليون بِالسَّيَّارَة فوقَ التَّلِّ. فمن الواضح أَنَّ الدُّبَابَةَ ارتفعت عالياً مع الباقينَ مِنَّا. وقد اكتسبَ وزني البالغُ ثلاثينَ كيلوغراماً تقريباً ما يكفي من قُوَّةِ الدَّفْعِ لِسَحْقِ الدُّبَابَة. وانفَجَرَ جميعُ إِخوتي وأخواتي فِي صَحِكٍ صاخِب. غيرَ أَنني أَنَا لم أَنَأَثِرُ.

«هل خَلَّفْتَ لُطْخَةً على غِطَاءِ رَاسِي، لينا؟ كُفِّي عَنِ الصَّحِكِ عَلَيَّ وساعديني!» لقد اغتَطَّتْ من ليون بسببِ تَهَوُّرِهِ، وأحدتتِ السَّوْقَةُ الهَوَاجُءُ فِي أَكْثَرِ قَلِيلًا من مُجَرَّدِ خِصَّة. ولكن ما لَبِثَ الوائِمُ أَن عادَ بعدَ لَحْظَاتٍ قَلِيلَة، كما هي الحالُ فِي عائلتنا عادةً. فلا أَحَدٌ بَوَزَ وَقْتًا طَوِيلًا، وكانَ المَرَحُ الطَّيِّبُ أَكْثَرَ من أَن يُمَوَّت.

وذاتِ يَوْمٍ خريفِيٍّ آخر، شوَّقْتَنِي وحمَّسْتَنِي دعوةً أُخرى. «أترِيدِينَ الذَّهابَ معي لصِيدِ السَّنَاجِبِ؟» وقد ارتسمت على وجه دايفد الفتى ابتسامته تَرَجُّ عريضة.  
فوافقتُ على الفور: «طبعا، أريدُ الذَّهاب!»

«ولكن عليك أن تبقي هادئةً فعلاً.» كان يهوى إطلاق النَّارِ على السَّنَاجِبِ من بُندُقيَّةِ الخُرْدُقيِّ التي له. وكما كان مَودجياً من قِبَلِ أفرادِ أَسْرَتِنَا، كان دايفد سريعاً في إدخاله إلى عالمه. ومنذُ انْتِقَالِنَا إلى المزرعة في إيست روتشستر، استمتع إخوتي بالغابات الكثيفة هناك. إذ وفرت تلك الغابات أراضِي صِيدٍ وافرةً لِقَلْبِ أَخِي الصَّغِيرِ التَّوَاقِي، المَشْغُوفِ بالطَّبِيعَةِ.

كان اليوم دافئاً على نحوٍ مُبهجٍ لما انطلقنا إلى الغابات. غنَّتِ الطُّيورُ على الشَّجَرِ، وتسرَّبت أشعةُ شمسِ العصر من خلال الأغصان الطويلة المنتشرة فوقنا. كان دايفد قوياً رُغمَ كونه صغير السن، وكنتُ أنا خفيفةً جداً. فحملني إلى بُقْعَتِهِ المُختارة وأنزلني مُسنداً ظهري إلى جذعِ شجرة.

«لا ينبغي أن نتكلّم أبداً. أتسمعين تلك الرِّقْزقة؟»

شاهدتُ العصافير تطيرُ بِسرعةٍ من عُصْنِ إلى آخَرَ فوقنا. وتبَّعتُ أشكالَ العُشبِ والورقِ عندَ قَدَمِي. وراقبتُ وجهَ دايفد الجادِّ وهو يتقصصُ الأشجارَ فوقنا، وجسمه في وضعيةٍ استعداد. كان يبتسم لي بين الحين والحين، وعيناه حائيتان وحائيتان في الوقت عينه. لقد كانت تلك واحدةً من اللحظاتِ الموحَّدة التي لا تنساها.

اصطادَ سنجابين، ومأً بدأتِ الظلالُ تطولُ وأخذتُ أشعرُ بتصلُّبِ أطرافي، قرَّرَ أن وقتَ الرجوعِ إلى البيتِ قد حان. وإذ حملني إلى خارجِ الغاباتِ نحوَ البيتِ، سألتُهُ: «هل كنتُ هادئةً بما يكفي لأجلِك، دايفد؟»

«كنتُ عظيمة، فيرا. سأصطحبُك من جديدٍ ذاتَ وقتٍ إذا أحببت.»

ابتسمتُ ابتسامَةً عريضة. لقد صادفَ بعضٌ من لحظاتي الأبرز والأروع عندما كان أحدُ إخوتي أو أخواتي يحملني، كهذه اللحظة مع دايفد، ولكنَّ اللحظاتِ المرحَّة الصَّاخبةَ أغلبَ الأحيان صادقت مع لنا.

ذاتَ يومٍ كُنَّا نَحِيْطُ مع صديقاتٍ في إيست روتشستر. فاكشَفَتْ لينا وكشَفَتْ: «يا إلهي، لقد نَفِدَتْ عندي الخيوطُ الرَّقَاءُ! سأضطرُّ أن أجريَ إلى المتجرِ وأحضِرَ بعضَ الخيوطِ الإضافيةِ. كنتُ أرجو جدًّا أن أنجزَ هذا المُستأنَ عَصْرَ اليومِ.» فأردفتُ على عَجَلٍ: «أنا ذاهبةٌ معَكَ.» ونادراً ما ذهبنا، لينا وأنا، إلى أيِّ مكانٍ إحدانا دونَ الأخرى.

«بالتأكيد!» وشالت لينا هيكلي الصَّيْلَ على ذراعيها القويَّتين، ثُمَّ حملتني نزولاً على الدَّرَجِ الأماميِّ. ولما وصلنا إلى الطَّرِيقِ، نظرتُ إليَّ وقالت بابتسامةٍ عريضة: «أظنُّ أنَّني سأركضُ. أنا بالحقيقة مُستعجِلةٌ لإنجازِ ذلك المُستأنِ.» ثُمَّ ركضتُ بطريقةٍ خرقاءَ، مَوْسَدَةً إِيَّاي على يديها المشبوكتين. كانت عداءةً، ولكنَّ بوزني المُضَافِ لم تستطع أن تجريَ بسرعتها المعتادة تقريباً. غيرَ أنَّها كانت ما تزال تُحرزُ تقدماً جيِّداً. وقد صَحِكْتُ في قلبِ الرِّيحِ، وتساءلتُ كيفَ يكونُ شعوري إذا ركضتُ وحدي.

فجأةً نُخِعتُ خارجَ مَرَحِي إذ قُذِفْتُ إلى الأرضِ الصُّلبةِ. وتطايرَ الغبارُ حَولي إذ هَبَطْتُ قاعِدَةً ومِرْفَقِي ممدود. فسَعَلْتُ وحاولتُ أن أتَنفَسَ. وتَدَحرجتُ لينا فوقِي ثُمَّ جَلَسَتْ وسألتُ بلهْفَةٍ «أأنتِ بخيرِ، فيرا؟»  
قلتُ لاهتئةً: «أظنُّ ذلك.»

فتنفَّستِ الصُّعداءَ وقامت، نافضةً التُّرابَ عن ثُنُورتها. وإذ شالتني، هزَّتْ رأسها: «تخميني أنه أحسنُّ لي أن أمشيَ فحسب. في العجالةِ الندامةُ أحياناً.» وافقتُ في الحال، مَخضوضَةً من سقطتي، ولكنَّ ليس أسوأَ من رَصَّةٍ أو رَصَّتَيْن. وبعدَ لحِيظَاتٍ، طَفَّتْ فُكاهةُ الموقفِ، فقلتُ ضاحكةً «على الأقلِّ لم تُوقِعي على الدَّرَجِ.» فهتفتُ لينا بقسوةٍ مُصطنعة. «مهلاً الآن، لينا! أنا لا أُوقِعُك أبداً على الدَّرَجِ، حتَّى لو كِدتِ تدفعينني إلى ذلك!» كانت تحملني صعوداً على الدَّرَجِ كلَّ ليلةٍ تقريباً إلى غرفةِ نومنا في الطَّابقِ الفوقانيِّ. وقد وجدتُ عادةً ملاحظَةً ساخرةً أو نُكتةً مُضحكةً من نوعٍ ما أحكيها في مُنتصفِ صعودنا تماماً. فوقتُما نكونُ في مُنتصفِ المسافةِ، تصيرُ لينا في حالةٍ ضحكٍ لا يُقاومُ، وتضطرُّ إلى التَّوقُّفِ على الدَّرَجِ لتعودَ إلى حالتها السَّويَّةِ قبلَ التَّمكُّنِ من إكمالِ الصُّعودِ. وكانت تقولُ لاهتئةً بين نوباتِ الضَّحِكِ: «فيرا! كفى! ستجعليني أُوقِعُك.» فأضحكُ أنا أيضاً، ثُمَّ نضحكُ كلتانا قليلاً بعد. إلَّا أنَّها لم تُوقِعي قَطُّ على الدَّرَجِ.



## هَمَّةٌ عَالِيَةٌ

صرّحت ليّنا مُربكةً: «لا أستطيعُ أن أرى أيّ شيءٍ عبّرَ هذا الرُّجاجُ الأماميّ! هذه العاصفةُ تكادُ أن تكونَ ثقيلةً كعاصفةٍ ثلجيّةٍ عنيفة!»

حدّقتُ خارجًا عبّرَ الرُّجاجُ الأماميّ من جانبِ الرّكابِ في سيّارةِ الكوميتِ السّوداءِ، وهيّ تتقدّمُ بنا بِبطءٍ على الطُّرُقِ المُغطّاةِ بالجليدِ. وفُلتُ مُحدّرةً: «لا يفتكُ مُنعطفُنا فحسب!»

فصرّحتُ رُوئي من المقعدِ الخلفيّ: «أعتقدُ أنّنا نَهاها فعلاً.»

«رُبّما ينبغي لنا أن نُصلي.» كان اقتراحُ باتريشا هوَ الأفضلَ بعد. فتوقّفنا جميعًا لنطلبَ من الله أن يحمينا ويوصلنا سالماتٍ إلى مقصدنا.

كُنّا في طريقنا إلى معهدِ المسيح للكتاب المقدّس في كاربن هل بولاية أوهايو، لأجلِ فصلِ دراسيّ. فما برحتُ رُوئي وباتريشا أوقرهُما، ابتنا عمًّا لنا، نُخطّطان بحماسةٍ للدّهَابِ مع ليّنا. وكعادةِ ليّنا دائمًا، أصرتُ على أنّه ينبغي لي التّفكيرُ جدّيًّا في مُرافقتِهينَّ أيضًا. فلمَ أُولِ الأمرِ فكرةً ثانية. إذا استطاعت ليّنا أن تذهب، كنتُ على يقينٍ بأنني سأستطيعُ ذلكَ أنا أيضًا. ومن ثمّ خطّطنا وخيطنا وتوقّعنا على مدى بضعةِ أشهرٍ ذلكَ الخريف، مُنتظراتٍ بَدَايةِ الفصلِ الدّراسي لِتَقومَ بِرحلةِ الأربَعِ ساعاتِ نحوَ الجَنوبِ. وقد كان مُعظَمُ السّفرةِ مُريحًا ومُمتعًا، إذ رَمّنا وضحكنا وتحَدّثنا معًا. ولكنّ لما هبّت

العاصفة، أصبحت الأمور مرهقةً للأعصاب. إنّما لم يكن ضمن مخطّطاتنا أن نضلّ في عاصفة ثلجية!

قالت لنا بعصبية: «أعتقد أنّه أحسن لنا أن نعود أدرجنا». ولكننا، نحن الباقيات، شجّعناها على التقدّم إلى الأمام، مهما كان بطيء.

أخيراً تنبّهنا إلى أنّ الثلج كان آخذًا في التناقص قليلًا. فقالت لنا متأمّلةً، وهي متعجّبةٌ بسرور: «أظنّ أنّي أستطيع رؤية الطريق من جديد.»

في آخر الأمر وجدنا طريقنا، ومع تنهدات الفرج دخلنا موقف السيّارات في المعهد وأزلنا أمتعتنا، وسرنا أن نستقرّ.

كان أوّل يومٍ من صفوف الدّرس رائعًا. فقد تشرّبت تصميم دراست حَيمة الاجتماع المُجسّمة من صنّع دان بايلر. وأحببت فكرة أنّ المسيح كان مرموزًا إليه ومُصورًا مُسبقًا في تصاميم مكان العبادة في العهد القديم، وفي تفاصيله. وفكرت طويلاً في حقيقة كون المسيح هو الكاهن الأعلى الذي دخل الأقداس السماوية وكرس لنا طريقًا إلى حضرة الله. واستمتعتُ مُبتهجةً بواقع كوننا نستطيع أن نتقدّم بثقة إلى عرش النعمة لنجد نعمةً وعودًا عند الحاجة، كما نستطيع أن نتمتع بشركة وثيقة مع الله عبر العهد الجديد. لقد كان تابوت العهد خلابًا، ولكنّ انشقاق الحجاب من الوسط كي يتاح لنا الدخول كان عجبًا أكثر بعد.

ولكن قبل نهاية اليوم الثّاني، كان ألمي البدني قد بدأ يطغى على استمتاعي بالطعام الرّوحاني السّخي والشّركة المُشبعة. «لينا، القُروح على دقني تُعدّني! جدّيًا، بدأت أتساءل عمّا إذا كنت سأتمكّن من المُضيّ قُدّمًا.»

«ألا تُساعد الضّمادات أبدًا؟» تفحصت لينا قُروحي بقلق.

«لا، لا تبدو محدّثة أيّ فرق. إنّ جيرة الدّقة هذه والمشدّد ينفعان مددًا من الوقت قصيرةً، ولكنّي لا أظنّ أنّه سينفع أن أجلس ساعاتٍ على هذه الحال كلّ يوم.»

شجّعني لينا متوجّسةً: «أمهليها يومًا أو يومين، عسى أن تتقسي البُقعة وتُنشئ نسيجًا خفيًا.»

شعرت بالتردد، ولكنني لم أكن سريعة الاستسلام. إنّما تبين أنّ هواجسي كانت راسخة الأساس لما نشأت قُروح على ظهري من المشدّد أيضًا. وفي الصّباح الخامس، فيما

كانت لينا تُصَفِّفُ شَعْرِي لِلنَّهَارِ، نظرتُ إليها وَعَيْنَاي مُغْرَوْرِقَتَانِ. «أنا آسِفةٌ، لينا. لا أستطيعُ أن أقومَ بهذا فعلاً. عليَّ أن أذهبَ إلى البيتِ.»

توقَّفتُ لينا قليلاً عن تثبيتِ غطاءِ رأسي بالدَّبَابِيسِ، كي تُجِيبَنِي: «رُبَّمَا كنتِ على حقٍّ، فيرا. ولكنْ لماذا لا تتمهلين يوماً بعدُ؟ فإذا كُنْتَ ما تزالين مُتَيَقِّنَةً اللَّيْلَةَ، مُجَكِّنُكَ أَنْ تُخَابِرِي ماما وبابا ليأتيا ويأخذاكِ في نهايةِ هذا الأسبوعِ.»

وافقتُ مُتَنَهِّدَةً. «تلكِ فِكْرَةٌ جيِّدةٌ. أتمنَّى لو أستطيعُ أن أبقى. إنَّما لا أعتقدُ أنني سأستطيعُ. ولكنني على الأقلِّ جَرَبْتُ.»

«ذلك صحيح. أنتِ تُولِينِ الأمرَ أَفْضَلَ جَهْدِكِ، وهذا هو ما يهَمُّ.» وكان في وُسْعِي أَنْ أدركَ من نَبْرَاتِ لينا أَنَّهَا شعرتْ بِخَبِيَّةِ الأملِ، حِيَالِي وَحِيَالِ نَفْسِهَا على السَّوَاءِ. فمُغَادِرَتِي بأكراً هكذا عَنَّتْ أَنَّهَا سَتُضْطَرُّ إلى إكمالِ الفصلِ الدَّرَاسِي دُونَ رِفْقَتِي.

ذَلِكَ الأَحَدَ جَاءَ والدَي وأخذاني. ودَعَتْ لينا ودَاعًا دَامِعًا، وتمنَّيتُ لها الأفضَلَ. ثُمَّ قلتُ، مُبْتَسِمَةً من خلالِ دُمُوعِي: «دَوِّنِي مَلاحِظَاتٍ جيِّدةً حَتَّى تستطيعي أن تحكي لي كلَّ شيءٍ عندما ترجعين إلى البيتِ.»

«لا تقلقي، فيرا. سأفعلُ ذلك!» وعانقتني عِنَاقًا أخيراً، ثُمَّ وقفتُ ولوَّحت بيديها إِذِ انطلقْنَا بِالسَّيَّارَةِ على الرُّفَاقِ. فتنهَّدتُ بِعمقٍ واسترخيتُ على المقعدِ. ورُغِمَ حَزْنِ الرِّحِيلِ، وَجَدَّ أَيضًا فرجٌ جَزِيلٌ. ما كنتُ قد أدركتُ كم باتَ الأَلَمُ والجَهْدُ مُضَيِّبَيْنِ. ولكنْ لم يَمِضْ على رُجُوعِي إلى البيتِ زَمَنٌ طَوِيلٌ قَبْلَ أَنْ أبدأ العَصْفَ الذَّهْنِيَّ بِشأنِ اختياري التَّالِي. فمُجَرَّدُ كَوْنِ معهدِ الكِتَابِ المُقدَّسِ قد شكَّلَ تحديًا هائلًا لم يَخِنِ قلبي المُستَبشِرَ بِإفراطٍ عن أَنْ يَحْلِمَ بِأفاقٍ جديدةٍ.

كان ما وافاني ذاتَ صباحِ مقالَةٌ في مجلَّةِ «ريدرز دايجست». فما بَرَحْتُ أسمعُ عن الحَسَابَاتِ على مدى سنينِ، وَعَلِمْتُ أَنَّهَا كانت شائعةً الاستِعمالِ كثيرًا. وباعتبارها سابقَاتِ الآلاتِ الحاسِبةِ المُكْتَبِيَّةِ، جرى استعمالُها على نطاقٍ واسعٍ، حَتَّى كَادَ كُلُّ مَنْ لَهُ خُلاصَةٌ خُبْرَةٍ تَذَكُّرُ القُدْرَةَ على استعمالِ حَسَابَةٍ يتمكَّنُ من الظَّفَرِ بِوِظِيفَةِ مَكْتَبٍ جيِّدةٍ. وهكذا قرأتُ المُقالَةَ بِنَهَمٍ وقررتُ أَنَّهُ ينبغي لي أن أتعلمَ استعمالَ حَسَابَةٍ.

لاحقًا في ذلك الأسبوعِ عينه، رأيتُ في صحيفةٍ محلِّيَّةٍ إعلانًا يعرِّضُ صُفُوفَ تدرِيبٍ على استعمالِ الحَسَابَاتِ. وإذ رفعتُ نظري صوبَ ماما، وكانت قد دخلتْ نَوًّا إلى حُجْرَةٍ

الجلوس، أعلنتُ قائلةً: «ماما، أريدُ أن أتعلّم استعمالَ حَسّابة. توجدُ حلقةُ تدريب مُتاحةٌ هذا الشّهر. أعتقدين أنّي أستطيع؟»

«لستُ أدري، فيرا. أنا أقولُ لكِ دائماً إنّه حيثُ يستعملُ الآخرونَ أيديهم، ينبغي لكِ أنتِ أن تستعملي عقلك. لستُ على يقين بأنّ الأمر سيستحقُّ أن تُجهدي نفسكِ على ذلك النّحو. فلماذا تُريدين أن تُجرّبي؟»

أصررتُ متحمّسةً: «سيفتحُ ذلك لي بابَ جَمهرةٍ من فُرصِ العمل». «يُمكنك أن تتحدّتي مع بابا بشأن ذلك.» بدت ماما غيرَ مُقتنعة.

لم يكن بابا مُقتنعاً أكثرَ منها قطعاً. حتّى إخوتي وأخواتي كانوا غيرَ واثقين بأنّه ينبغي لي أو يُمكنني أن أقومَ بذلك. ولكنني أصررتُ. فما كُنْتُ لأثنى عن قناعتِي، فقط لأنّ شخصاً ما اعتقد أنّني كنتُ غيرَ قادرةٍ على أمرٍ ما. حتّى لو أخفقتُ، علمتُ أنّ عليّ أن أُجرب.

لأنّ والدَيَّ وعيّنْتُ مُقابلهً معَ المُعلّمين في كائنن.

وبعدما قابلونا، شجّعوني قائلين: «نعتقد أنّنا نستطيع أن نُعلّمك لتصيري ماهرةً في استعمالِ الحسّابة.» فابتهجتُ جدّاً. لعلّ هذا كان الجوابَ لِملّطي الذي استمرّ على مدى سنين بشأنِ دعوتي المُستقبلية!

وفي غضونِ لحظات، تحوّلَ ابتهاجي إلى يأس. لقد أدركتُ أن وضعيّةَ الجلوس كانت بالفعل صعبةً على جسمي فوقَ الطّاقة. فالأمورُ التي أعاقنتي في معهدِ الكتاب المقدّس أخذت تَبْرُرُ إلى المُقدّمة من جديد. أيُّ نفعٍ لي؟ فكّرتُ بِصراوةٍ ونحنُ راجعون في السيّارة إلى البيت. وكان والدَيَّ ساكّنين، تاركين لي أن أتعاملَ مع بليّتي سرّاً.

توجّهتُ أفكاري إلى الصّلاة فيما مرّت الكيلومترات. «يا الله، لا أستطيع أن أعملَ أيّ شيءٍ لِنفسي. حتّى إنني لا أستطيع أن أغسلَ شعري وأرتدي ثيابي وحدي. ماذا أظنّني فاعلةً، مُحاولَةً أن أسعى إلى وظيفةٍ؟ ولكن، يا الله، أحتاجُ إلى عزمٍ وقصد. أنت وعدت أن تستخدمَ حياتي. أريدُ أن أكونَ نافعة، ولكن لا بدّ من أن تُعطيني شيئاً ما أفعله، أستطيع أن أنجزه داخلَ الجِسمِ الذي سمحت لي بأن أملكه. اللهم، لماذا هذا صعبٌ جدّاً؟»

أَحْسَسْتُ التَّبْتُطَ يَنزَاحٌ قَلِيلًا إِذْ سَكَبْتُ حُزَنِي وَشَوْقِي أَمَامَ اللَّهِ. فَكَانَ كَأَنَّمَا نَظَرَ مِن  
عَلِّ بِحُنُوٍّ وَهَمَسَ: «أَنَا أَعْرِفُ الْخُطَطَ الَّتِي عِنْدِي لَكَ، فِيرَا. ثِقِي بِي. إِنَّهَا خُطَطٌ صَالِحَةٌ  
لِإِنجَاحِكَ وَلَيْسَ لِإِيذَانِكَ، لِإِعْطَائِكَ مُسْتَقْبَلًا وَرَجَاءً. اسْتَرِيحِي عَلَى ذَلِكَ. سَأُيَسِّرُهُ فِي  
حِينِهِ. تَذَكَّرِي أَنَّ مَدَارَ الْحَيَاةِ هُوَ أَنْ تَعْرِفِينِي. وَفِي وَسْعِكَ أَنْ تَفْعَلِي ذَلِكَ الْآنَ تَمَامًا،  
وَأَنْتِ تَنْتَظِرِينَ.»

«جَيِّدٌ، يَا رَبُّ، سَأُثِقُ بِكَ. لَكُنْ مِنْ فَضْلِكَ أَعْطِنِي رَجَاءً. لَا أُرِيدُ أَنْ أُسْتَسْلِمَ، بَلْ  
أَحْتَاجُ إِلَى قُوَّةٍ لِلْمُضِيِّ قُدَمًا.

عَبَّرَ هَذِهِ الْاِخْتِبَارَاتِ لِخَوْضِ الصَّرَاعِ مَعَ صَعْفِي الدَّائِيَّ، وَالتَّفَكِيرِ فِي خُطَّةِ اللَّهِ الْمُمْتَازَةِ،  
وَالنَّظَرِ بِعَيْنِ الْاِعْتِبَارِ إِلَى قُدُوتِ أَشْخَاصٍ قَرَأْتُ عَنْهُمْ فِي سِيرِ حَيَاةٍ عَدِيدَةٍ، كَتَبْتُ مَقَالَةً  
قَصِيرَةً لِمَجَلَّةِ الشَّيْبَةِ الدُّورِيَّةِ فِي كَنِيسَتِنَا، مُعَبَّرَةً عَنْ أَفْكَارِي. وَقَدْ عَنَوْنْتُهَا «هَلِ الْأَمْرُ  
مُسْتَحِيلٌ؟» وَكَانَ الْعُنْوَانُ الْفَرَعِيُّ آيَةً مِنْ ٢ كُورِنْثُوسِ ١٢: ٩ «تَكْفِيكَ نِعْمَتِي.»

لَوْ أَنَّ الْبَهَاءَ الَّذِي كَانَ شَدِيدَ التَّأَلُّقِ فِي الْمَاضِي

انْتَزَعَ الْآنَ مِنْ نَظْرِي إِلَى الْأَبَدِ،

فَمَعَ أَنْ لَا شَيْءَ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيَّ مِنْ جَدِيدٍ

بِسَاعَةِ الرُّوعَةِ فِي الْعُشْبِ وَالتَّهَاءِ فِي الرَّهْرِ،

فَلَنْ نَحْزَنَ، بَلْ بِالْأُخْرَى نَجِدُ الْقُوَّةَ

فِي مَا يَتَبَقَّى بَعْدُ.

هَذِهِ الْأَبْيَاتُ الَّتِي نَظَمَهَا وَوَلِيَمُ وَرُدْزُورْثُ تَصِفُ بِدِقَّةٍ خُلِقَ الشَّاعِرُ الْإِنْكَلِيزِيُّ  
جَان كَيْتِسُ الَّذِي نَقَرْنَا عَنْهُ أَنَّهُ وَجَدَ جَمَالًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، فِي حَبَّةِ رَمَلٍ وَنُقْطَةِ مَاءٍ.  
صَعِبَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَجِدُوا «الْبِطَانَةَ الْفِضِّيَّةَ» فِي وَضْعٍ مَا، وَلَكِنْ هُنَا نَرَى أَنَّ  
كَيْتِسَ أُصِيبَ بِالسُّلِّ وَمَاتَ مَيِّتَةً بَاكِرَةً، بَعْدَمَا اجْتَاخَتْ مَاسٍ أُخْرَى كَثِيرَةً حَيَاتُهُ  
الْقَصِيرَةَ. وَيَقُولُ لَنَا الْمَوْزُونُ إِنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْعَقَبَاتِ فِي الْحَيَاةِ أَسْهَمَتْ فِي دَفْعِ  
مَسِيرَتِهِ الشَّعْرِيَّةِ قُدَمًا.

إِنَّ بَعْضًا مِنْ قِصَائِدِهِ يَجْعَلُ عَيُونَنَا تَدْمَعُ إِعْجَابًا بِالذِّي اسْتَطَاعَ أَنْ يَرَى اللَّانْهِائِيَّةَ  
فِي حَبَّةِ رَمَلٍ وَالسَّمَاءِ فِي بَتَلَّةٍ وَرْدَةٍ.

تتوردُ خُدودُنَا حَجَلًا إذ نتذكّرُ كيفَ أنكرْنَا المسيحَ بِالدمِّمةِ مرارًا كثيرةً جدًّا. وقد أعطانا الرَسُولُ بولسَ قُدوةً رائعةً في حِيَاةِ نِظَرَةِ اسْتِبْشَارِ إلى السَّجْنِ، إذُ تقدَّمَ أصدِقَاءُهُ بترانيمِ الحمدِ للقادرِ أن يُنقِذَهُم إذا شاءت مشيئتهُ. نحنُ فاعِلونَ كلِّ ما في وُسْعِنَا لِتوالِ بَرَكَاتِ الله؟ إنَّها مخزونةٌ لنا عنده، إن نحنُ طلبْنَا فحسب. فلتطلبْ منه!

وذلكَ تمامًا هوَ ما استمررتُ أفعله. فعلى مدى تلكِ الأيامِ الطويلةِ الحافلةِ بالانتظارِ وخيبةِ الأملِ، صليتُ. وقد استخدمَ اللهُ هذهَ المرحلةَ ليجتدِبني بِشكلٍ أعمقٍ كثيرًا إلى صميمِ حقيقتهِ قلبه الأبويِّ من نحوي وفرحٍ مُجرّدٍ معرفتي له. ففي مرحلةِ الانتظارِ هذه، تعلمتُ أنّ نِعْمَتَهُ حقًا تكفييني، وأنَّ قُوَّتَهُ تكمّلُ في الضَّعْفِ. ومع أنني كنتُ ما أزالُ مُسرِّعةً إلى الاعترافِ لِنَفْسِي بأنَّ عندي أمورًا إضافيّةً أتعلّمها في نطاقِ اعتبارِ صَعْفاتي فرحًا، كنتُ مُتعلّمةً على مهلٍ أن أقبلَ من كنتُ وما قد سمحَ به اللهُ، حتّى عندما لم أفهمُ حُطَّتَهُ تمامًا.

أحيانًا، ظلُّ عجزِي الكُليُّ يقهرُني. غالبًا ما ظنُّ الآخرونَ أنني شجاعة، ولكنني علمتُ العكسَ. وعصرَ ذاتِ يومٍ مُشمسٍ، خارجًا على المرَجّة، كان جُوني وروثُ يزوراننا، وانتقلَ حديثنا إلى أنواعِ الفُويبا. فمن حيثُ كنتُ مُستلقيةً أسترخي على البَطَانِيَّةِ، أدليتُ برأيي. «أنا أكرهُ مُجرّدَ فكرةِ وُجودِ شيءٍ ما فوقَ وجهي. إنني لا أستطيعُ احتمالَ هذا الأمرِ فعلاً.»

وأضفتُ لينا: «لأنك تشعرين كما لو كنتِ لا تستطيعين أن تتنفّسي.» فوافقتُ: «ذلكَ صحيح. بما أنني لا أستطيعُ رَفَعِ ذراعِي، يُخيفُني أن يوجَدَ أيُّ شيءٍ على وجهي.»

وعلقَ جُوني عرَصًا: «اعتقدُ أنكِ تستطيعين أن تتنفّسي جيّدًا تمامًا.» فأصررتُ: «لا، لستُ أستطيع.»

«كيفَ تعلمين؟ سأبرهنُ الأمرَ أيضًا!»

وقبلَ أن يتاحَ لي وقتٌ للرَّدِّ، ألقى جُوني عرَصًا بطَانِيَّةِ النزهةِ فوقَ رأسي. وبدعِرٍ كليٍّ، بدأتُ أصرخُ وأرفسُ يائسةً إذ اكتنفتني الظلامُ وجاهدتُ لِلتنفّسِ.

لم يكن جُوني قد قصَدَ أيَّ أدي، وسحبَ البَطَانِيَّةَ بِسُرعةٍ عن وجهي، ولكنْ كان الأوانُ قد فات.

انتقلتُ من الخوفِ إلى الغضبِ الشَّدِيدِ لحظةً رأيتُ وجهَ جُوني. كان مُبتَسِمًا ابتِسَامَةً نِصْفَ عريضة، ولكنه بدأ مُرتَبِكًا. فزَعَقْتُ: «لماذا فعلتَ هذا بي؟ كانَ هذا فِعْلًا دنيئًا!»

«أنا حقًّا... آسفٌ جدًّا، فيرا. لم أحسب أنكِ كُنْتِ بالحقيقة سوف...» ثمَّ تلاشتُ كَلِمَاتُهُ ونظرتُ بهلَعٍ حوَالِيهِ إلى باقي العائلة.

«قلتُ لك. لم تُصغ!» بكَيْتُ مُتَنَهِدَةً. وإذ حَوَلْتُ رأسي بعيدًا عنه، رفضتُ أن أنعزِّي. فطَوَّقْتَنِي رُوْثُ بِذراعها، وحاولتُ تهدئتي. إمَّا سَيَسْتَغْرِقُ الأمرُ بعضَ الوقتِ قبلَ أن أتمكَّنَ من دَفْعِ نفسي إلى مُسامحةِ جُوني بِمَرَحَتِهِ. ولكنه بالحقيقة كان مُبالِيًا فعلاً، ولم يُحاولْ قَطُّ القيامَ بِأمرٍ كهذا من جديد.

أمرٌ آخَرُ حُضْتُ صراعًا معه كان الجُلوسَ على كُرسيٍّ. ما كانَ مُعْظَمُ النَّاسِ لِيَحْزُرُوا قَطْعًا أَنَّهُ لا يُمْكِنُنِي أن أجلسَ بطريقةٍ سَوِيَّةٍ. ولكنْ لم يكنْ في وُسْعِي أن أطويَ جِسْمِي بِالوَضْعِيَّةِ المُناسِبَةِ لِلجُلوسِ. إمَّا كُنْتُ بدلًا من ذلك أدعِمُ وِزِي بِوَرِي وَأنا مُسْتِنْدَةٌ على مقعدِ الكُرسيِّ. وإذ أسنَدُ رِجْلِي الأخرى على الأرض، وكُرسيُّ مُدارٌ في زاويةٍ قائمةٍ تمامًا، أتمكَّنُ من الجلوسِ إلى الطَّاولَةِ مع عائلتي. ولكي أديرَ كُرسيَّ بالشَّكْلِ المُناسبِ، كنتُ أغلبُ الأحيان أدفَعُ قائمةَ الكُرسيِّ بِقدمي دفعًا خفيفًا. وذاتَ مرَّةٍ انتهى هذا بِشِبْهِ مُصِيبَةٍ.

كان جُوني وروثُ نازلينِ عندنا، فيما كانَ بابا وماما في دِلَوَائِرِ غَائِبِينَ مُدَّةَ أُسْبُوعٍ. وذاتَ مساءٍ قرَّرنا أن نتعشَّى مُدَوِّبَةً. وتحمَّسنا مُبتَهجينَ كُلُّنا لما قعدنا حولَ الطَّاولَةِ. كانت التحضيراتُ قد استغرقتُ كثيرًا من الوقتِ والتَّفكيرِ، وتوقَّعنا وجهًا مسائيَّةً لذِيذَةٍ. دفعتُ قائمةَ كُرسيِّ دفعًا خفيفًا كالمعتاد لأجعلها في وضعيَّةٍ جيِّدةٍ نسبيًا. وإذ فعلتُ ذلك، زَلَّتْ قَدَمِي، فوقعتُ على رأسي وانحرفتُ، وصُرِعْتُ في الحال إذ صَدَمَ رأسي الأرضيَّةَ الخشبيَّةَ المُصلبة. في تلك اللِّحظةِ المُنذِرةِ بِسوءِ نُسيِّ تمامًا عشاءٌ مُدَوِّبَةٍ الجُبِنِ والبِيضِ.

لقد أخبرتني أخواتي بباقي القِصَّةِ في ما بعد.

فقرَّرتُ لينا عن الكُرسيِّ مذعورةً، وركضتُ حولَ الطَّاولَةِ لِتِصَلَّ إِلَيَّ. فلما رأتنِي مُنطَرِحَةً على الأرضِ شاحِبَةً الوجهَ ومقطوعةَ النَّفْسِ، صرَّختُ وأغميَ عليها.

وإذ سمعت جودي صرخة لنا ولمحتني، هُرعت إلى زاوية العُرفة وراء البرّاد، حيث ركعت على رُكبتيها تُصلي وتبكي في وقتٍ واحد. «آه، يا رب، ليس فيرا! آه، يا رب، ليس فيرا. ساعدها، رجاء!»

في غضون ذلك، كانت دليلة قد قامت لتُساعد. فإذ رأت لنا وإيّاي كَلّمتنا مُنطرحتين أرضاً، جمّدت لحظةً وعيناها مُتسعّتان. ثمّ أغميَ عليها هي أيضاً، قائلةً: «أوه، فيرا!» بقيَ جُوني هادئاً، فيما إخوتي وأخواتي الباقون يُراقبون مرعوبين. ولمّا كان جُوني قد تلقى تدريباً على الإنعاش القلبي الرئوي، أحسّ أنّ في وسعه تقديم أيّ إسعافٍ تدعو إليه الحاجة، ريثما يُتاح للنّجدة أن تصلَ إلى بيتنا. فعَدّ الثّواني على ساعتِه، مُنتظراً إيّاي حتّى أننفس. وإذ رَفَع رأسي برفق، لاحظتُ أنّ عضلاتِ رقبتي قد بدأت تَرْتعش. فرَفَع حنكي ليفتحَ منفذَ الهواءِ إلى رئتي، وإذ رجَع وعيي شهقتُ مُتجرّعةً الهواء.

لمّا استيقظتُ تمامًا، حملني جُوني إلى الكنبه، وبقيتَ لنا بقربي لتُعنى بي. وكانت مُضاعفاتي الوحيدة ارتجاجاً خفيفاً وصداعاً شديداً. إنّما التّأثراتُ لدى إخوتي وأخواتي رُجماً كانت أشدَّ حدّةً من أجل الصّدمة التي رافقت ذلك كلّه. ولكننا سرعانَ ما يتنا نضحكُ على هذه القِصّة بقدرٍ ما ضحكنا على جميع حوادثنا المُؤسفة الأخرى. على ذلك النّحو كانت الحالُ في بيتنا.

كثيراً ما شجّعتني لينا على مُتابعة الدّراسة الجامعيّة. كانت تقولُ لي حائّةً: «سوف تكونين معلّمةً جيّدةً جداً. تعلّمين أنّك دائماً تُساعديننا في فروضنا المدرسيّة البيتيّة، ولكِ عقليّة تعليم. فأنت دائماً تعلّمين، دونَ أن تتقصّدي حتّى المُحاولة. ثمّ إنّ لديكِ خبرةً بمدرسةِ الأحُد ومدرسةِ الكتاب المقدّس المُقامة في أثناء العطل المدرسيّة.»

«ما برحتُ أحلمُ بالجامعة كلّ حين. ولكنني لا أدري كيف سيّجري الأمر، لينا. فالمالُ مسألةٌ مهمّة، والدّهَابُ إلى الجامعة يُكلّفُ كثيراً.»

«إعلمي أنّني مؤخّراً قرأتُ في مكانٍ ما أنّه إذا كان لديكِ إعاقهٌ بدنيّة، ولكنّ ما تزالين قادرةً على العمل، فالحكومهُ ستُساعدُ بتمويلِ نفقاتِ تعلّمكِ. فلننظُر في هذه الاحتماليّة قليلاً بعد.»

بينما كنّا ننتظر لمعرفهً المزيد، درستُ مُقرّراً في الكتابة لدى مؤسّسة أدبِ الأولاد. وقد استمتعتُ بها كثيراً جدّاً حتّى تساءلتُ عمّا إذا كان ينبغي لي على وجه الاحتمال أن أصيرَ كاتبهً وأنتجَ سلسلهً للصّغار. ولكنّ كانت لدى الله خُططٌ أخرى.

في أثناء بَحْثِنَا لِمَوْضُوعِ التَّمْوِيلِ الحُكُومِيِّ، تَبَسَّرَ لَنَا الاِتِّصَالُ بِمَرَكُزِ كَانْتِنُ لِإِعَادَةِ التَّأْهِيلِ. فَأَرْسَلْتَنِي الْمَسْئُولُونَ إِلَى اخْتِصَاصِي لِأَجْلِ التَّقْيِيمِ. لَقَدْ أَرَادُوا أَنْ يَحَدِّدُوا مَا إِذَا كُنْتُ بَدَنِيًّا قَادِرَةً عَلَى الْعَمَلِ، وَإِلَى أَيِّ مَدَى وَصَلَتْ إِعَاقَتِي.

ذَهَبْتُ إِلَى مَوْعِدِي مُرْتَعِدَةً، ثُمَّ صَلَّيْتُ لِأَجْلِ الْجَوَابِ الَّتِي تَلَهَّفْتُ كَثِيرًا لِسَمَاعِهِ. وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَاقْتِ سَاعَةُ الْبَرِيدِ. فَلَمَّا وَصَلَتِ الظَّرْفُ الْأَسْمَرُ أَخِيرًا، شَعَرْتُ بِالرَّفْرَفَةِ وَالتَّحُمُّسِ وَالْفَرَعِ كُلِّهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. وَقَدْ رَفَعَتْ لَنَا الظَّرْفُ لِتَقْرَأَ لِي جَمِيعَ التَّعْلِيمَاتِ عَلَى خَارِجِهِ قَبْلَمَا فَتَحْتَهُ.

فَأَلْحَحْتُ: «عَجَلِي، لَيْنَا. لَا يَعْزِينِي مَا يَقُولُهُ مِنَ الْخَارِجِ. مَاذَا تَقُولُ الرَّسَالَةُ؟»

فَفَضَّتِ الظَّرْفَ وَحَطَّتِ الرَّسَالَةَ بِجَانِبِي. وَكَانَتِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي اسْتَوْقَفْتَنِي كَسِيكِيْنِ طَعَنَتْ أَمَالِي: «غَيْرُ قَادِرَةٍ بَدَنِيًّا عَلَى الْعَمَلِ». فَاَنْفَجَرْتُ بِاَكِيَّةٍ، إِذْ لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَتَمَّالِكَ نَفْسِي، بَعْدَمَا كَانَتْ لَدَيَّ أَمَالٌ عَالِيَةٌ جَدًّا حِيَالِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ.

اسْتَشَاطَتْ لَيْنَا غَضَبًا، قَائِلَةً: «لَيْسَ ذَلِكَ صَحِيحًا بِالْفِعْلِ». ثُمَّ ذَرَعَتْ أَرْضَ الْغُرْفَةِ ذَهَابًا وَإِيَابًا بِسُرْعَةٍ. «لَيْسَ الْأَمْرُ صَحِيحًا بِالْفِعْلِ، فَيَرَا، لِأَنَّهُ لَيْسَ مُوَافِقًا لِلْحَقِيقَةِ!»

وَبَعْدَ لِحْظَةٍ مِنَ الْحُزَنِ، تَحَوَّلَ أَسَايَ إِلَى غَضَبٍ. «لَيْنَا، أَنْتِ عَلَى حَقٍّ. لَيْسَ الْأَمْرُ صَحِيحًا. لَا يَهْمُنِي مَا يَقُولُهُ الطَّبِيبُ. سَأَتَّصِلُ بِالْمَرَكُزِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَرَى هَلْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُسَاعِدُونِي بَعْدَ.»

أَجَابَتْ مُوظَّفَةُ الْاسْتِقْبَالِ بِأَنَّ الْمَسْئُولِينَ مَا زَالُوا يُجْرُونَ عَمَلِيَّةَ تَقْيِيمِ حَالَتِي، وَتُعَوِّزُهُمْ بِضَعَةِ أَيَّامٍ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَتِمَّكَّنُوا مِنْ إِعْطَائِي جَوَابًا.

عَلَى مَدَى الْأَسَابِيعِ الثَّلَاثَةِ التَّالِيَةِ، انْتَصَلْتُ كُلَّ بَضْعَةِ أَيَّامٍ. لَقَدْ فَرَرْتُ أَلَّا أُسْتَسَلِمَ إِلَى أَنْ يُعْطُونِي جَوَابًا مُحَدَّدًا. وَكُلَّ يَوْمٍ صَلَّيْتُ طَالِبَةً أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ أَبْوَابَ مَشِيئَتِهِ لِي، وَأَلَّا يَطْغَى رَأْيِي طَبِيبٍ مَّا عَلَى الْحَقِيقَةِ. وَكُلَّ يَوْمٍ أَحْسَسْتُ شِجَاعَةً جَدِيدَةً كِي أَظَلُّ أَرْجُو. وَقَدْ شَجَّعْتَنِي لَيْنَا بِعِنَادٍ وَوَقَفَتْ بِنَبَاتٍ وَرَاءَ تَصْرِيحِي بِأَنَّ الطَّبِيبَ كَانَ مُخْطِئًا، وَأَنَّ فِي وَسْعِي أَنْ أَعْمَلَ إِنْ هُمْ سَمَحُوا لِي بِأَنْ أُجْرَبَ.

فِي الْمُخَابَرَةِ التَّلْفُونِيَّةِ السَّابِعَةِ، قَالَ لِي الْمُسْتَشَارُ مِنَ الْمَرَكُزِ: «عَقَدْنَا تَوًّا اجْتِمَاعًا بِشَأْنِ حَالَتِكَ، فَيَرَا. فَقَرَرْنَا أَنَّهُ إِذَا اتَّصَلْتِ مِنْ جَدِيدٍ نُرْسَلُكَ إِلَى جُونِستاون لِأَجْلِ الْفُحُوصِ. وَأَحْزَرُّ أَنَّكَ اتَّصَلْتِ! فَمِنْ ثَمَّ هَذَا يَوْمٌ سَعْدِكَ. سَنُرْسَلُكَ حَالِمًا يَتَبَسَّرُ لِكَ أَنْ تُخَصَّصِي وَقْتًا فِي بَرْنَامِجِكَ.»

فسألتُه: «أَيُّ نوعٍ من المُحوص؟» لقد كُنْتُ مُرتابَةً بعد مَوَعِدِ «فَحْصِي» الأخير.  
 «فُحُوصٌ مُصَمَّمَةٌ لا كِتِشافِ نِقاطِ قُوتِكَ. فَإِنِ أبلَيْتِ حَسَنًا وَنَجَحْتِ فِي هَذِهِ  
 الامتحانات، نَدْفَعُ نَفَقَاتِ دِرَاسَتِكَ الجامعيَّة.»  
 تَهَلَّتْ مَذهُولَةً بِضَعِ لَحَظَاتِ، وَأَنَا أَكافِحُ دُمُوعَ الامْتِتانِ الغامِرِ. ثُمَّ بَتَقَطُّعُ فِي  
 صَوْتِي، شَكَرْتُهُ وَأَنْهَيْتُ المُكالمَةَ. وَفِي اللِّحْظَةِ التَّالِيَةِ هَتَفْتُ فَرَحًا، فاندَفَعَتْ لِينًا إِلَى  
 الدَّاخلِ لِتَسْمَعَ الخَبَرَ. فَصَحَّكَتْ وَعانَقَتْنِي بِقُوَّة.

غَيْرَ أَنَّ مِخَنِي لَمْ تَنْتَه. فَقد كان الشَّهرُ فِي المَرَكزِ مُروِّعًا، حَيْثُ اكْتَشَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ  
 ما تَوَقَّعْتُهُ. إِذ رَكَزَ عَلَى الوِظائِفِ المُحدَّدةِ الَّتِي يَسْتطِيعُ نَزْلَؤُهُ تَوَلَّى أَمْرَها أَكثَرَ مِمَّا عَلَى  
 إِعدادِنا لِلدَّرَاسَةِ الجامعيَّةِ النُّظاميَّةِ. وَإِذْ كانَتِ أَغلبِيَّةُ القُدْرَاتِ يَدَوِيَّةً، شَعَرْتُ بِأَنِّي  
 خَارجُ مُسْتَوَى راحَتِي.

قَبْلَ انْتِهاءِ الأُسبُوعِ الثَّانِي، كُنْتُ قد كَسَبْتُ بَعْضَ الأَصْدِقاءِ، وَكُنْتُ أَكافِحُ الإِحْباطِ.  
 وَمَلَّما تَحَدَّثْتُ إِلَى عَالِمِ وَظائِفِ الأَعْضاءِ المُقيمِ، بَكَيْتُ بِلا تَحْفَظٍ مِنْ شِدَّةِ الحَبِيَّةِ. وَقَلْتُ  
 لَهُ: «أَظُنُّ أَنَّي ارْتَكَبْتُ غَلَطَةً مِجْجِيئِي إِلَى هُنَا. لا أُرِيدُ أَنْ أُسَقِّ الرُّهُورَ أَوْ أُرْسَمَ  
 اللُّوحَاتِ. كُلُّ ما أُرِيدُ أَنْ أَعْمَلَهُ هُوَ أَنْ أَعْلَمَ فِي مَدْرَسَةِ. فَجاءَتْنِي الكَلِمَاتِ، وَنَظَرْتُ إِلَى  
 الرِّجْلِ الجالِسِ مُقابِلِي نِظْرَةً مُفَعَّمَةً بِالأمَلِ.

«فَإِرا، أَنْتِ تُرِيدِينَ أَنْ تُعَلِّمِي فِي مَدْرَسَةِ. وَتِلْكَ دَعوَةٌ نَبِيلَةٌ جَدًّا. وَلَكِنْ...» تَوَقَّفَ  
 فِغْصَاصِ قَلْبِي، إِذ عَلِمْتُ ما سَيَقولُهُ تالِيًا. «أَعْتَقِدُ أَنَّكَ تُدْرِكِينَ أَنَّ لِكُلِّ مَنَّا قُيُودًا. وَجِزءُ  
 مِمَّا نَقُومُ بِهِ هُنَا هُوَ أَنْ نُشَخِّصَ تِلْكَ القُيُودَ لَدَى نُزُلانِنا. أَتَعْتَقِدِينَ أَنِّي إِذا كُنْتُ عَرْضَةً  
 لِتَوْبِياتِ الصَّرْعِ أَستطِيعُ أَنْ أُتَسَلَّقَ أَعْمِدَةَ التِّلْفونِ لِأَكْسِبَ رِزْقِي؟ حَتَّى لو أَرَدْتُ القِيامَ  
 بِذَلِكَ، لَنْ يُسَمَحَ لِي. عَلَى غِرارِ ذَلِكَ تَمامًا واقِعُ الحِياةِ أحيانًا.»

«أَنْتَ قُولِينَ إِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْلَمَ؟» نَطَقْتُ بِكَلِماتِي هَذِهِ بِهَدوٍ مُتَكَلِّفٍ.  
 «نَعَمْ، تَخْمِينِي أَنَّ ذَلِكَ هُوَ ما أَقولُهُ، فِإِرا. لَدَيْكَ مَهاراتٌ وَقَدْ أبلَيْتِ حَسَنًا جَدًّا فِي  
 فُحُوصِكَ. أَنَا عَلَى يَقِينٍ يَفوقُ الحدِّ بِأَنَّكَ سَتَجِدِينَ شَيْئًا ما تُرِيدِينَ أَنْ تَعْمَلِيهِ.»

تلك الليلة في السَّريِرِ، بَكَيْتُ وَقْتًا طَوِيلًا. بَلَلَتْ الدُّمُوعُ مِخَدَّيَ وَتَصارَعْتُ مَعَ اللهُ.  
 «اللَّهِمَّ، أَعْطِنِي رِجاءً أَتَشَبَّهُ بِهِ. لا أَستطِيعُ أَنْ أَسْتَمِرَّ فِي فَعَلِ هَذَا. كُلُّ مَرَّةٍ أَحاوِلُ  
 إِيجادَ أَجوبَةٍ، تَتَحَطَّمُ آمالِي. أَنَا خائِفَةٌ جَدًّا أَنْ يَنْتَهِيَ بِي الأَمْرُ إِلَى عَيشِ حِياةٍ عَدِيمَةٍ  
 النَّفْعِ. لا أُرِيدُ أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ. يا اللهُ، أَيْنَ أَنْتِ؟»

«تشدّد وتشجّع!» هاتان الكلمتان اللتان قرأتهما في سفر يشوع ذلك الصّباح سكّنتا قلبي. وفجأة توقّفتُ عن البكاء. «لا أبا لي بما قاله ذلك الرّجل. أنا أستطيعُ أن أعلمَ في مدرسة، يا ربُّ. أنت تعرّفني أفضلَ من أيّ شخص. وأنت تعلمُ كم أريدُ أن أعلم. لا يكادُ ذلك الرّجل يَعْرِفُ أيّ شيءٍ عني. أنا آسفةٌ لأنني سمحتُ له بأن يُتَبَطَّ هِمّتي، يا ربُّ. إمّا قُدي، فأتبعك!» وبقلبٍ مُطمئنٍّ أخذتُ إلى النّوم.

تابعتُ البرنامج، عازمةً على إعطائه كلّ ما لديّ. ومع أنّ المهامّ التي عيّنوها لي كانت صعبةً إلى حدٍّ بعيدٍ عليّ، فهي لم تكن مُستحيلة. ثمّ تخرّجتُ بنجاحٍ من البرنامج، ومُنحتُ الاعتمادَ الماليّ لِلدّراسة الجامعيّة. وفي رحلة العودَة إلى البيت من المركز، درّشنا لينا وأنا وضحّكنا. لقد كانَ أمرًا جيّدًا أن نكونَ معًا من جديد!

التفتتُ لينا ناظرةً إليّ بابتسامةٍ عريضةٍ جدًّا، وأعلّنت: «الآن، وقد حُزّتِ المال اللازم للجامعة، أعلمُ ما سوف تفعليته!»

فقلتُ صاحكةً: «ماذا؟»

«سوفَ تعودينَ إلى الدّيار وتُعلّمينَ في مدرستنا.» وقد بدتُ مُقتنعةً.

«ما برحتُ أفكّرُ في ذلك. اكتشفتُ ما كنتُ في المركز أنّي حقًّا أريدُ فعلًا أن أعلم، وأعتقدُ أنّ ذلك رُبّما يكونُ ما قد خطّطه الله لي. ولكن كيف سيحصلُ ذلك؟»

«حسنًا، بعدَ حصولك على شهادتك في التّعليم من قرع جامعة ولاية كنت في سايلم، لا ينبغي أن يكونَ لديك أيُّ عوائقٍ تتغلّبن عليها. وعندما تكونينَ في الجامعة، سيذهب شخصٌ منّا معك إلى صفِّك كلّ يوم، وفي وسعك أن تدرسي باقيَ موادِّك من البيت.»

نظرتُ إليها بإعجابٍ وابتهاجٍ: «أنتِ على حقٍّ، لينا! في وسعي أن أفعلَ هذا. سأفعلُ هذا بواسطة المسيح الذي يُقوِّيني!»

«أمرٌ رائع! سوف تكونينَ مُعلّمة!» ودقّت لينا على عجلةٍ القيادة ببهجةٍ غامرة.

ضحكتُ بارتياحٍ خالص. أخيرًا توصّحت خُطّةُ الله! ومع ثِقّةٍ لينا، انهارتِ الحواجزُ الأخيرة.

ذلِكَ الخريفَ بدأتُ أحضّرُ الدّروسَ في الجامعة حسَبَ المُخطّط. وقد أخذتني إلى صُفوفي جُوآن، إذ كانت تدرّسُ مقرّرات المرحلة الثّانويّة في البيت. وبما أنّي أخذتُ صُفوفًا فقط في بضعةٍ أصباحٍ كلّ أسبوع، تمكّنتُ من احتِمالي البرنامجِ أفضلَ من برنامجِ

معهد الكتاب المقدّس طيلة النّهار. أحياناً، ثارت تحدّياتٌ، ولكنني دائماً رجعتُ إلى تلك اللّحظة المحدّدة في السّيّارة مع ليّنا، ومَضَيْتُ قُدُماً. بِمَعُونَةِ اللَّهِ، سَأُنْجِزُ الاسْتِعْدَادَ لِلْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي خَطَطُهُ لِي، دُونَ أَنْ تُثَبِّطَ هِمَّتِي الْعَقَبَاتُ. لَقَدْ وَعَدَنِي مُسْتَقْبَلٌ وَبِرَجَاءٍ، رَجَاءٍ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي لَمْ يَمْنَحْ أَيَّ خَيْرٍ عَنِ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُ شَخْصِيّاً. فِي سِيَاقِ صَعْفِي، كَانَ الرَّبُّ يُبَيِّنُ أَنَّهُ قَوِيٌّ، وَقَدْ عَلِمْتُ دُونَ أَدْنَى شَكٍّ أَنَّ مَقْصِدَهُ سَوْفَ تَتِمُّ. إِنَّهُ سَوْفَ يُكْمِلُ الْعَمَلَ الَّذِي بَدَأَهُ، وَفِي وَسْعِي أَنْ أُسْتَرِيحَ عَلَى ذَلِكَ.

## عيدُ الميلادِ في بليز

إذ حطَّتِ الطَّائِرَةُ ودرَجَتِ نحوَ المطارِ الصَّغِيرِ، شعرتُ بالبهجةِ تَنَدَّفِقُ في داخلي. لقد وصلنا إلى بليز! لم أُطِقْ أن أنتظرَ حتَّى أخرجَ إلى المَمَرِّ المُسْفَلَتِ بعدَ رحلَةِ الطَّيرَانِ المُرْدَحِمَةِ الكَثِيرَةِ المَطَبَّاتِ الهوائِيَّةِ. ولكنْ على نحوٍ أَكثَرَ أَهمِّيَّةً، لم أُطِقِ الانتظارَ حتَّى أَسْتَكشِفَ العالَمَ الاستِوائِيَّ البَلِيلَ وراءَ نافِذَةِ الطَّائِرَةِ.

كان جُوني وروث قد انتقلا إلى بليز لأجلِ العَمَلِ الإرساليِّ ذلكَ الصَّيفَ من سنة ١٩٧٠. وعلى الفورِ تقريبًا بدأتُ أخطُطُ سَفَرَةً لرؤيتِهِمَا. ولدى بَحْثِ الموضوعِ مع ماما وبابا، قرَرنا جميعًا أَنَّهُ سيكونُ أمرًا مُميِّزًا أن أكونَ مَعَهُمَا للاحتفالِ بعيدِ الميلادِ الأوَّلِ لهُمَا في بلدٍ أجنبيٍّ، حتَّى لا يشعُرا بكَثيرٍ من الوَحْدَةِ والوَحْشَةِ. لقد ضَمَّتْ مَجْموعَةُ سَفَرِنَا ماما وبابا ولينا وجِميَ أَخا جُوني. وقد تطلَّعتُ بِشوقٍ إلى رُؤيةِ أُختي روث من جديد، إلَّا أَنني كنتُ مُتَشوِّقَةً جدًّا لرُؤيةِ فِكي، ابنةِ أُختي ذاتِ السَّنَتَيْنِ مِنَ العُمَرِ.

سألتُ بِقَلْبِي: «لينا، أتعقِّدين أن فِكي ستندكِّرنَا؟»

فطمأنت لينا مُجددًا: «إن كان لا، فإنَّها ستتعرفُ بنا عاجلاً. أوه، ها هُم هُنَاكَ، فيرا!»  
وَقَمَطَيْتُ لِأَتَبَعَ إصْبَعَهَا الدَّالَّةَ من خِلالِ الرُّكَّابِ المَتَرَجِّلينِ، فلمَحْتَهُم يُلَوِّحونَ لنا بأيديهم.

تصاعدَ البخارُ من المَمَرِّ المُسْفَلتِ، فيما دَوّمتِ حَوْلنا حرارةُ المناطقِ الاستوائيةِ المُفعمَةِ بالرطوبةِ. فأحسستُ كأني دخلتُ حمّامًا بخاريًّا. وقد كان التَّنْفُسُ صعبًا في الهواءِ الفايضِ لِلصّدرِ. واحتشدَ حولي مُوظَّفو المطارِ الدّوليِّ، مَعنّينَ كثيرًا بلمسِ آلِهَ تَنفُسي التي كانت مُصنّدةً في حقيبةِ سَفَرٍ بُنيّةٍ وحدّها. بدا أنّهم يُحاولون مُساعدتي وتوفيرَ الرّاحةِ لي، ولكنني ما شعرتُ إلّا بِقُوبيا الاحتِجازِ.

شققنا طريقنا وسطَ حشدِ الأجسادِ إلى جُوبي وروث. ورحّبَ جُوبي بنا بحرارةٍ: «أهلاً بِكم في بليز!»

«رُوث!»

«ماما! فيرا! لينا!»

«فكي!»

جرتِ مُعانقاتٌ حوالينا، ثُمَّ تقدّمتنا جُوبي إلى الشّاحنة التي سنركبُ فيها. وقد كان فَعْرُ صُنْدوقِ الشّاحنة مُبطنًا بِحَشِيَّةٍ لِمَزيدٍ من الرّاحةِ. ونبّهنا جُوبي مُبرّرًا: «الطُّرُق كثيرةُ المُطَبّاتِ.»

وإذ شققنا طريقنا تعريجًا عبرَ شوارعِ مدينةِ بليزِ الكثيرةِ الأخاديدِ، راقبتُ العَجيجَ والضحجَ بانتيابهٍ حادًا. وقد كُنّكتِ فكي بِجانبي في حَضنِ أمّها، حَيِيَّةً قليلًا بعد، لكنّ سريعةَ الاطمئنانِ. «بُوبي!» وأشارتِ إلى كلبٍ أَسودَ مَترَهَلٍ أمامَ دُكانٍ عُرّزتِ نوافذُهُ بِالوِاحِ من حَشَبِ.

«أُنَجِّبِنَ الجِراءِ، فكي؟» واتبسّمتُ لها فردّتِ بابتِسامةٍ عريضةٍ. عَبَرَتِ الشّوارعَ بِسُرعةٍ سياراتٌ رُباعيّةٌ الدَّفْعِ، غَيرَ مُبالِيّةٍ بِالأخاديدِ المُرجِرجةِ. وجاوزتُنا حافلاتٌ هادرةٍ وشوهدتُ أفواجًا لا تنتهي من النّاسِ، يمشونَ على مهلٍ، ويركبونَ درّاجاتٍ، ويقفونَ في أبوابِ الدّكاكينِ، ويُقايضونَ عند زوايا الشّوارعِ. وصدّحتِ موسيقى عاليةٌ من مُكَبّراتِ صوتِ مَرَكومَةٍ في مدخلِ بابٍ مفتوحٍ. كما دَوّتِ زَماميرُ، وبكى طفلٌ، وزعقتُ فَراملِ. فكانَ كُلُّ شيءٍ تُوليفَةً مُشوَّشَةً تمامًا من الصّوتِ المُدَوِّمِ والجِدَّةِ الطّريفةِ.

وإذ رَكَنَ جُوبي الشّاحنة، قالتِ لنا رُوث: «هذهِ سوُفُ مدينةِ بليزِ. نحتاجُ أن نُحضرَ بعضَ المُؤنِّ لِأجلِ الإرسالِ.»

تكدّستِ كُومٌ مَرَكومَةٌ تحتَ صُفوفِ طويَلةٍ من الأكشاكِ المُفتوحةِ، فيها كُلُّ نَوْعٍ من الفواكِهِ والخُصَرِ، وقد بدتِ مُتاحةً لِلشّراءِ. وبدتِ عناقيدُ زاهيةٌ من الموزِ الأصفرِ

وَكَوْمٌ خُضِرُ من مَوَزِ الحِنَّةِ. وقد وُضِعَتْ تِلَالٌ من جَوَزِ الهِنْدِ بجانبِ أكياسِ بلاستيكٍ زرقاءَ ملأى بِالْفُسْتُقِ، وأكداَسٍ من الأناناسِ المُنْصَجِ والمانغا البُرْتقاليَّةِ المُحَمَّرَةِ.

ملأتُ طاولاتٍ كُدِّسَ عليها سَمَكٌ نيءٌ طازِجٌ الجَوِّ بِنَتَانَةٍ سَمَكِيَّةٍ اختلطت على نَحْوِ مُعْبِثٍ في الحرارةِ بِأدخِنَةِ الوَقودِ ورائحةِ القُمامَةِ المُتَعَفِّنةِ والفاكهةِ المُتَهَرِّثَةِ. وازدانت أكشاكُ أُخرى بأوشحةِ زاهيةِ وألبسةِ مُلوَّنةِ ومُجوهراتٍ. وقد بدا كلُّ صاحبٍ دُكَّانٍ تَوَافًا لأنَّ يبيعنا شيئاً ما. ونادونا بالكريوليَّةِ الإنكليزيَّةِ، مُتَمَلِّقِينَ إِيَّانا كي نتوقَّفَ ونتفرَّج. وقد أحببتُ اللُّهجةَ الثَّقِيْلَةَ والأصواتَ المُخْتَلِفَةَ التي تدفقت من ألسِنَةِ أصحابِ الدُكَّانينِ الأهلِيِّينِ، مُمتزِجَةً بِابتساماتهم اللطيفةِ المُوْنَسَةِ. كما أنَّ صخبَ الألوانِ والمَدِّ والجَزَرِ الدَّاهِمِينَ من الوجوهِ الدَّاكِنَةِ والثيابِ الزاهيةِ، والرَّوائِحِ والمناظِرِ والأصواتِ، مُختلِطَةً بالحرارةِ الخانقةِ، جَعَلَتَنِي أشعرُ بِدوارٍ من الحَفْزِ والتَّنَبُّهِ.

كانتِ الرِّحْلَةُ بِالشَّاحِنَةِ إلى الإرساليَّةِ في كايُو طويلةً وموَلِّمةً. فإذا كانت تَقَعُ شرقيَّ سان إغناشيو تماماً، اقتضى الوصولُ إليها قطعَ مسافةٍ فاقت مئةً واثني عشرَ كيلومتراً من مدينةِ بليز على طُرُقٍ وِعِرَةٍ. فلما وصلنا، شعرْتُ بأنَّ جِسمي بكامله مُسْتَنزَفٌ ومُرْضَضٌ. ولما اصطحبنا، ليِّنا وأنا، إلى بيتِ الصُّيُوفِ الصَّغِيرِ المسقوفِ بالقَشِّ، حيثُ كُنَّا سَنامُ، شعرْتُ بِالاعتِلالِ ونُقْتُ أن أسلِقِي وأنا. ولكنَّ بعدَما غسَلنا أيدينا ووجهينا في حَوْضٍ وبدلنا ثيابَ سَفَرِنَا المُعَبَّرَةِ، شعرْتُ بشيءٍ من التحسُّنِ.

على الرُّغمِ من حقيقةِ افتِقارِ بيتِنَا الصَّغِيرِ إلى أنابيبِ مياهٍ داخليةٍ أو تكييفٍ للحرارةِ، أحسستُ في الحالِ أَنَّهُ كان مكاناً ودوداً. لقد كانَ فرجاً مريحاً مُجَرِّدُ الخُروجِ من عَرِيَّةٍ مُتحرِّكةِ والوجودِ على أرضِ صُلْبَةٍ من جديدِ.

كانَ عِشاؤُنَا الأَمِيرِكِيُّ اللاتينيُّ الأوَّلُ لذِيبِ المذاقِ، ولكنني كنتُ أَشدَّ تَعَبًا من أن أُحَوِّزَ شَهيَّةً قويَّةً. وقد رَمَقْتَنِي ماما بِنَظْرَةٍ قَلْبِي عِبرَ الطَّاولَةِ. «أأنتِ بخير؟» قلتُ لها مُطمَئِنَّةً: «أحتاجُ إلى نَوْمٍ فحسب.»

فيما شَقَّقْنَا طريقينا، ليِّنا وأنا، وَسَطَ أوائلِ ظلامِ اللَّيْلِ، رفعتُ نَظْرِي نحوَ السَّماءِ الملبَّدةِ بِالغُيومِ، وتساءلتُ عَمَّا إذا كانت سَتُمَطِرُ. ثُمَّ قلتُ مُتأملَةً بِصَوْتِ عالٍ: «سَيَرِدُ ذلكَ الهواءُ، كما أَظُنُّ.»

فسألتُ ليِّنا: «هذه الحرارةُ صعبةٌ عليكِ، أليسَتْ؟»

قلتُ مُعترِفةً: «بلى، بعضُ الشيءِ.»

تلك الليلة، إذ أَوِينَا إِلَى السَّرِيرِ عَلَى هَرِيرِ مُوَلَّدِ الدَّيْزِلِ، كَثَّرْتُ فِي الظَّلَامِ. «لِينَا، أَحْسُ كَأَيِّ رَضَّةٍ عِمْلَاقَةً وَاحِدَةً!»

«هَلْ أَخَذْتِ دَوَاءَ كِ الْمَسْكِنِ لِلْأَلَمِ؟» سَمِعْتُ تَتَاوَبَهَا فِي الظَّلَامِ.

«نَعَمْ، أَرْجُو أَنْ يَنْفَع. وَإِلَّا فَلَنْ أَنَامَ نَوْمَةً قَصِيرَةً.»

«يُمْكِنُنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ إِلَى أَنْ تَشْعُرِي بِتَحَسُّنٍ!» هَكَذَا قَالَتْ لِي لِينَا مُؤَاسِيَةً. وَبَعْدَ ذَلِكَ بِسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، كُنَّا كِلْتَانَا نَامَتَيْنِ.

تَرَشَّحَ ضَوْءُ الشَّمْسِ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ عَبْرَ الشُّقُوقِ فِي بَابِنَا وَنَافِذَتِنَا، وَوَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ أَشْعَةً طَوِيلَةً مِنَ النُّورِ الدَّهْبِيِّ. فَجَلَسْتُ لِينَا وَتَتَاءَبْتُ. وَإِذْ قَذَفَتْ شَعْرَهَا الدَّاكِنَ خَارِجَ عَيْنَيْهَا، سَأَلَتْ: «مَاذَا أَيْقِظُكَ؟»

فَأَجَبْتُ بِاسْتِيَاءٍ: «لَا بُدَّ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ الْمِحْمَصَةَ. كَانَ فِي وُسْعِي أَنْ أَحْسَّ ضَغْطَ الْهَوَاءِ مُتَوَقِّفًا فِي آلَةٍ تَنْفُسِي.»

«إِحْدَى الطَّرِيقِ لِإِيقَاطِنَا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ.» وَكَظَمَتْ لِينَا تَتَاوَبَةً أُخْرَى.

سَأَلْتُ: «هَلْ نِمْتِ جَيِّدًا؟»

«بِكُلِّ تَأَكِيدٍ. فَالآنَ أَنَا جَاهِزَةٌ لِلْمُغَامِرَاتِ. وَأَنْتِ؟» ثُمَّ فَتَحَتْ مِصْرَاعَ النَّافِذَةِ لِيَدْخُلَ النُّورَ الطَّبِيعِيَّ. وَصَاحَ دَيْكٌ فِي مَكَانٍ مَا، فَرَشَّحَ الصَّوْتُ صَوْبَنَا فَوْقَ ضَجِيحِ الْمُوَلَّدِ الَّذِي مَا زَالَ دَائِرًا.

قَلْتُ بِابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ: «الْمُغَامِرَةُ مُرَحَّبٌ بِهَا دَائِمًا.» فَالآنَ، وَقَدْ تَغَلَّبْتُ عَلَى الْاسْتِيقَاطِ الْفَظِّ مِنْ جَرَاءِ الْمِحْمَصَةِ، شَعَرْتُ بِالْإِسْتِعْدَادِ لِتَقْبُلِ النَّهَارِ بِسُرُورٍ. فَبَعْدَمَا فَرِغْنَا مِنَ الْاِغْتِسَالِ وَارْتِدَاءِ الثِّيَابِ، ذَهَبْنَا لِتَنْضَمَّ إِلَى الْآخَرِينَ فِي وَجَبَةِ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ.

عَلَى قَهْوَةٍ مُقَطَّرَةٍ طَارِجَةٍ، حَدَّثْنَا جُونِي عَنْ تَارِيخِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ، وَعَنْ شَيْءٍ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ طَبِيعَةُ الْحَيَاةِ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِمْ هُنَا فِي بَلِيِزِ حَتَّى الْآنِ. وَإِنْ كَانَ ثَمَّةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ بَرَعَ صَهْرِي فِيهِ، فَهُوَ حِكَايَةُ الْقِصَصِ.

كَانَتْ الْأَرْضُ الْبَالِغَةُ مِسَاحَتُهَا ثَلَاثَةَ وَخَمْسِينَ فِدَانًا وَالْعَدِيمَةُ الشَّجَرِ، وَالتِّي أُقِيمَ عَلَيْهَا مُجْمَعُ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ، مَحْشَاةً بِصَفِّ طَوِيلٍ مِنْ أَشْجَارِ الْبُرْتِقَالِ عِنْدَ الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ لِلطَّرِيقِ. وَقَدْ اِكْتَسَتْ أَوْرَاقُهَا الْقَائِمَةُ طَبَقَةً مِنَ الْغُبَارِ النَّاعِمِ عَنِ الطَّرِيقِ وَرَاءَهَا مُبَاشِرَةً.

وكُنَّا، لينا وأنا، نُوَقِّتِنِ لَأَنْ تَتَشَرَّبَ مُحِيطَنَا الخَلَابَ. إِذْ قَدَّمَتْ حَيَاةَ القَرِيَةِ الكَثِيرَ مِنْ حَيْثُ غَرَابَةُ الاختِبَارِ المُحِبَّةِ، رُغْمَ البَسَاطَةِ فِي إِيقَاعِ عَيْشَتِهَا.

تَنَاتَرَتْ بِيوتٌ بَسِيطَةٌ عَلَى طُولِ جَانِبِي الطَّرِيقِ العَامِّ العَرَبِيِّ. وَفِي كَثِيرٍ مِنَ السَّاحَاتِ المُعْجَرَّةِ، كَانَ خَنْزِيرٌ بَشَعٌ أَوْ اثْنَانِ يَقْلِبَانِ التُّرْبَةَ بِحَطْمَيْهِمَا بَحْثًا عَنْ بَذورِ المُنْغَا وَنَوَى الأفوكَاةِ المَرْمِيَّةِ فِي التُّرَابِ. وَنَبَشَتْ دَجَاجَاتٌ مَهزُولَةٌ الأَرْضَ بِأظْفَارِهَا طَلَبًا لِأجزاءٍ مِنَ الحَبِّ أَوْ لِحَشَرَاتٍ فِي السِّيَاجَاتِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ. وَتَسَكَّعَتْ كِلَابٌ كَثِيرَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ، مُتَجَمِّعَةً اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً ثَلَاثَةً فِي الظَّلِّ عِنْدَمَا تَبْلُغُ الشَّمْسُ أَعْلَى حَرَارَتِهَا.

كَانَتْ امْرَأَةٌ مُحَلِّيَّةٌ فِي ثوبٍ زَاهٍ بَسِيطٍ، شَعْرُهَا الأَسْوَدُ مُرَبُوطٌ فِي جَدِيلَةٍ، تَطْحَنُ الدُّرَّةَ فِي مِطْحَنَةٍ ذَاتِ كَرْنُوكٍ يَدَوِيٍّ. وَقَدْ تَحَرَّكَتْ يَدُهَا الدَّاكِنَةُ فِي دَوْرَةٍ بَعْدَ دَوْرَةٍ، بِصَبْرِ وَاتِّظَامٍ. وَفِي مَكَانٍ مَا، ارْتَفَعَ صَوْتُ حَادِّ احتِجَاجًا، فِي شِجَارٍ بَيْنَ وَادٍ وَأَبٍ أَوْ أُمٍّ، كَمَا فُهِمَ مِنْ اخْتِلَاطِ الأصْوَاتِ.

وَأَعَدَّ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ، نَشَرَتْ أُمٌّ مَا غَسَلَتْهُ تَوًّا مِنَ الثِّيَابِ فَوْقَ سِيَاجِ الأُلُوَاحِ الخَشَبِيَّةِ المُحِيطِ بِبَيْتِهَا. وَكَانَ صَبِيهَا الصَّغِيرُ يَلْعَبُ مَسْرورًا «بشاحتِه» البَيْتِيَّةَ الصُّنْعَ عَلَى مَقْرِبَةٍ مِنْهَا. وَقَدْ كَانَتْ مُجَرَّدَ لَوْحٍ حَشَبِيٍّ مُسَطَّحٍ عَلَى دَوَالِبٍ، بِعَلْبَةٍ صَفِيحٍ مُنْبَتَّةٍ بِمِسْمَارٍ مُثْمَلٍ مَقْصُورَةٍ الشَّاحِنَةِ، وَأَغْطِيَّةٍ مَرَاتِبِينَ مُثْمَلِ الدَّوَالِبِ. وَبَدَأَ الأَوْلَادُ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ وَدَوْدِينَ، إِذْ لَوْحُوا بِأَيْدِيهِمْ أَغْلَبَ الأَحْيَانِ وَنَادَوْا بِتَحِيَّةٍ.

ذَلِكَ المَسَاءِ، إِذْ بَدَأَ أَوَّلُ ظِلَامِ اللَّيْلِ يَهِيْطُ عَلَى بَلِيْزِ، شَاهَدْنَا لِيْنَا وَأَنَا الشَّمْسَ تَغِيْبُ وَرَاءَ أَشْجَارِ المُنْغَا. وَقَدْ مَسَّتْ كُلُّ شَيْءٍ بِضَوْءٍ وَرْدِيٍّ سَحْرِيٍّ، فَانْبَسَطَ قَلْبِي بِجَمَالِ المَنْظَرِ كُلِّهِ. وَغَرَّدَتِ الطُّيُورُ نَاعِسَةً عَلَى الشَّجَرِ، وَبَدَأَتِ الصَّفَادِعُ تُرَدُّدُ أَغْنِيَّتِهَا اللَّيْلِيَّةَ المُتَوَاتِرَةَ. وَفِي مَكَانٍ مَا مِنْ بَعِيدٍ، فَهَقَهُ قِرْدٌ عَوَّاءٌ. وَارْتَفَعَ الدُّخَانُ مِنَ البُيُوتِ عَبْرَ الطَّرِيقِ، إِذْ أُشْعِلَتْ كُلُّ نَارٍ لِلطَّبْخِ. وَكَدَى رُجُوعِنَا إِلَى بَيْتِنَا الصَّغِيرِ لِنَنَامِ، تَرَاقَصَتْ حَشَرَاتُ سِرَاجِ اللَّيْلِ أَمَامَنَا عَلَى الطَّرِيقِ، وَأَخَذَتْ أَتْنَاءً.

تَلَكَ اللَّيْلَةَ الثَّانِيَةَ، حُيِّلَ إِلَيَّ يَقِينًا أَنَّنِي سَأَنَامُ أَفْضَلَ مِمَّا مِتُّ اللَّيْلَةَ السَّابِقَةَ. إِذَا خَابَ أَمَلِي. وَمَا لَيْثُ أَنْ قُلْتُ أَنَّهُ: «لِيْنَا، لِيْنَا، أَنَا مَرِيضَةٌ.»

«مَا حَطْبُكَ، فَيْرَا؟»

«لَا بُدَّ أَنَّهُ الطَّعَامُ. يُعَوِّزُنِي أَنْ أُخْرَجَ خَارِجًا.»

هَمَسَ هَوَاءَ اللَّيْلِ حَارًّا عَلَى وَجُوهِنَا إِذْ خَرَجْنَا بِسُرْعَةٍ إِلَى قَلْبِ اللَّيْلِ. وَبَعْدَ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ، شَعَرْتُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّحْسُنِ. وَبَيْنَمَا مَشِينَا رَاجِعَتَيْنِ مِنَ الْمِرْحَاضِ، رَفَعْتُ نَظْرِي نَحْوَ الْقُبَّةِ الْفَسِيحَةِ الزَّرْقَاءِ الدَّاكِنَةِ جَدًّا فَوْقَ رَأْسَيْنَا وَتَنَفَّسْتُ فِي عَجَبٍ. «لَيْنَا، السَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللَّهِ...» فَقَدْ تَوَهَّجَتِ النُّجُومُ فِي الْفِضَاءِ مُتَلَأَلَةً عَلَى الظُّلْمَةِ الْخَفِيفَةِ. وَلَمْ يَطْمَسْ أَيْ تَلَوُّثٌ ضَوْئِي الْمَنْظَرَ الْأَخَادَ فِي الْغَابَةِ.

هَتَمْتُ لَيْنَا بِرَفَقَةٍ: «يَاي! مَنْظَرٌ مُذْهِلٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

فِي الْيَوْمِ التَّالِي تَنَاوَلْتُ دَوَاءً، وَتَحَسَّنْتُ حَالِي بِسُرْعَةٍ. وَمَعَ أَيِّ كَافِحَةٍ لِأَجَدِ آيَةٍ شَهِيَّةٍ فِي وَسْطِ الْحَرَارَةِ وَالطَّعَامِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ، فَقَدِ اسْتَمْتَعْتُ بَعْدَ بَتَّجْرِبِ مُخْتَلَفِ الْأَطْبَاقِ الَّتِي قُدِّمَتْ لَنَا. وَقَدْ تَمَتَّعْتُ خُصُوصًا بِالْقَهْوَةِ الْمَحَلِّيَّةِ الْخَفِيفَةِ السَّلِسَةِ بِشَكْلِ مُبْهِجٍ، إِذْ قُدِّمَتْ سَاحِنَةً مَبْخَرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ.

ذَاتَ يَوْمٍ، بَعْدَ زِيَارَةِ آثَارِ مَايَانِيَّةٍ وَمَعْبَدٍ قَدِيمٍ لِشَعْبِ الْمَايَا، اصْطَحَبْنَا جُونِي إِلَى مَطْعَمٍ صَغِيرٍ لِلْغَدَاءِ. «فِيْرَا وَلَيْنَا، عَلَيْكُمَا حَقًّا أَنْ تَتَذَوَّقَا الطَّامَالَ. تَعَلَّمَانِ كَمْ ذَكَرْتُ هَذَا الطَّعَامَ غَالِبًا فِي هَذَا الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي. إِنِّي أَحِبُّ لِفَائِفِ الطَّامَالَ فِعْلًا؛ فَهِيَ أَفْضَلُ شَيْءٍ فِي قَائِمَةِ الطَّعَامِ.»

قَرَرْنَا كِلْتَانَا أَنْ نُجَرِّبَ الطَّامَالَ. وَهُوَ لَحْمٌ دَجَاجٍ وَخُضْرٌ مَطْهُوَةٌ دَاخِلَ غِلَافٍ مِنْ طَحِينِ الدُّرَّةِ، ثُمَّ مَلْفُوفَةٌ بِوَرَقَةٍ مِنْ نَبْتَةِ لِسَانِ الْحَمَلِ. وَإِذْ كُنْتُ أَتَنَاوَلُ لُفْمَتِي الثَّانِيَةَ مِنَ الطَّعَامِ الْجَدِيدِ، تَهَادَّتْ دَجَاجَةٌ مُعْبَرَةٌ عَبْرَ بَابِ الْمَطْعَمِ وَأَخَذَتْ تَنْفُدُ حَوْلَ الطَّائِلَاتِ مُفَوِّقِيَّةً بِصَوْتٍ عَالٍ. فِإِذَا بِالرَّابِطِ بَيْنَ لَحْمِ الدَّجَاجِ فِي طَعَامِي وَالدَّجَاجَةِ الْمَكْسُوءَةِ بِالرِّيشِ عِنْدَ قَدَمِي يُبَدِّدُ شَهِيَّتِي. وَلَمْ يُسَاعِدْنِي أَنْي وَجَدْتُ حَشْرَاتٍ ضَمِيلَةً سُودَاءَ فِي مُكْعَبَاتِ الثَّلْجِ دَاخِلَ كَاسِي. فَكَفَيْتُ نَفْسِي بِأَنْ أَرَاقِبَ الْآخَرِينَ يَأْكُلُونَ.

فِي الْيَوْمِ التَّالِي ذَهَبْنَا فِي الشَّاحِنَةِ إِلَى غَابَاتِ الصَّنُوبَرِ الْمَحْمِيَّةِ عَلَى سِلْسِلَةِ جِبَالِ پَايْنِ. كَانَتْ تِلْكَ مُغَامَرَةَ التَّفَرُّجِ الْكَبِيرَةِ فِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِنَا الَّتِي دَامَتْ أُسْبُوعَيْنِ، وَكُنَّا كُنَّا قَدْ تَكَلَّمْنَا عَنْهَا وَحَلَمْنَا بِهَا عَلَى مَدَى بَضْعَةِ أَيَّامٍ.

إِذْ كَانَ مَوْقِعُ غَابَاتِ الصَّنُوبَرِ الْبَلَدِيَّةِ وَتِلَالِ الْمَحْمِيَّةِ الْمُنْبَسِطَةِ فِي بَلِيْزِ الْمُتَوَسِّطَةِ الْجَنُوبِيَّةِ، طَوَّقْتَنَا بِالْجَمَالَ. وَقَالَ بَابَا إِنَّهُ سَيَحْمِلُنِي لَمَّا بَدَأْنَا نَتَسَلَّقُ لِنَرَى كَهْفَ رِيُو أَفْرِيُو. وَكَانَ الدَّرَبُ مُتَعَرِّجًا عَلَى طُولِ حَاقَةِ النَّهْرِ. فَتَبَلَّتُ أَقْدَامَ الْجَمِيعِ، مَا عَدَا قَدَمِي وَقَدَمِي فِي. وَمَلَّا وَصَلْنَا إِلَى فُوهَةِ الْكَهْفِ الضَّخْمَةِ، تَوَقَّفْنَا كُنَّا لِنَتَفَرَّسَ بِضَعِ لِحَظَاتٍ.

إذ كَانَتِ الْفُوَّهُةُ عَلَى الْأَقْلِّ بِعُلُوِّ وَاحِدٍ وَعَشْرِينَ مِتْرًا وَعَرَضِ تِسْعَةِ أَمْتَارٍ تَقْرِيْبًا. وَقَدْ تَدَلَّتْ كُنْتَلٌ كَثِيْفَةٌ مُتَشَابِكَةٌ مِنْ أَعْصَانِ الْكِرْمَةِ عَلَى الْوَاجِهَةِ الصَّخْرِيَّةِ وَتَعَرَّشَتْ فَوْقَ أَعْلَى الْفُوَّهُةِ.

هَتَفَ فِيلِيْبُ بِرَبِّهٖ: «يَا لَهُ مِنْ كَهْفٍ كَبِيْرٍ رَائِعٍ!» وَكَانَ مُعَلِّمٌ مَدْرَسَةٍ مُرْسَلًا أَعْرَبَ مِنْ مَنِيْرَقَا، فِي وِلَايَةِ أُوْهَايُو.

فَوَافَقَتْ لِيْنَا بِحِمَاْسَةٍ: «هَوَ كَذَلِكُ بِالتَّأَكِيْدِ!»

وَإِذْ بَدَأْنَا نَسَلْقُ الْمُنْحَدَرَ الْمَكْسُوَّ بِالْحَصَى الْمُتَقَلِّقِلَةَ، حَذَّرَ بَابَا: «هَذِهِ الضَّفَّةُ شَدِيْدَةٌ الْاِنْجِدَارِ. عَلَى مَهْلِكُمْ جَمِيْعًا!»

ثُمَّ فِي مُنْتَصَفِ طَرِيْقِ الصُّعُوْدِ تَقْرِيْبًا، زَلَّتْ قَدْمُهُ. وَدَوْنَ اِنْذَارٍ، بَدَأْنَا نَسْقُطُ هَوًا. وَأَنَا فَرَفَرَقْتُ قَدَمَايَ بِشِدَّةٍ فِي رُعْبٍ، وَقَدْ حَكِيَ جُونِي فِي مَا بَعْدَ أَنْ النَّظْرَةَ عَلَى وَجْهِ بَابَا كَانَتْ نِظْرَةً خَوْفٍ، لَا عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ عَلَيَّ.

فِي أَثْنَاءِ سُقُوْطِ بَابَا، لَوَى جِسْمَهُ وَكَبِحَ سَقَطَتِي، فَهَبَطْتُ عَلَى ذِرَاعِيْهِ دَوْنَ أَنْ أَتَأَدَّى. فَتَأَوَّهَ قَلِيْلًا وَسَأَلَ بِصَوْتٍ مُتَوَثِّرٍ: «أَنْتِ بِخَيْرٍ، فَيْرَا؟»

«نَعَمْ، بَابَا. أَنَا بِخَيْرٍ. أَنْتِ كَذَلِكِ؟»

إِذْ ذَاكَ كَانَ جُونِي قَدْ وَصَلَ إِلَيْنَا، كَمَا وَصَلَتْ مَامَا أَيْضًا. وَقَالَ مُطْمَئِنًّا الْجَمِيْعِ: «فَيْرَا بِخَيْرٍ!» وَقَدْ كَانَ الْاِرْتِيَاْحُ فِي صَوْتِهِ جَلِيْلًا. وَمَا لَبِثْتُ جُونِي أَنْ شَالَنِي عَنْ ذِرَاعِيْ بَابَا وَحَطَّنِي بِجَانِبِهِ.

«أَنْتِ بِخَيْرٍ، بَابَا؟» كَانَ فِي صَوْتِ جُونِي اِهْتِمَامٌ وَقَلَقٌ، وَنَظَرْتُ أَنَا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِأَدْرِ بَابَا يَرْفَعُ رِجْلَهُ الَّتِي اِنْطَوَّتْ تَحْتَهُ بِشَكْلِ غَيْرِ طَبِيْعِيٍّ لَمَّا وَقَعَ. وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ الصُّلْبِ عَادَةٌ نِظْرَةٌ تَأَلَّمُ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ. وَإِذْ جَلَسَ، نَفَّضَ رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ: «أَعْتَقِدُ أَنَّيْ أَحْتَاْجُ فِعْلًا إِلَى وَقْتٍ قَصِيْرٍ حَتَّى أُسْتَرِيْحَ، ثُمَّ أَصِيْرُ حَسَنَ الْحَالِ.»

وَفِي أَقْلٍ مِنْ عَشْرِ دَقَائِقٍ، كَانَ وَاقِفًا وَحَامِلًا إِيَّايَ مِنْ جَدِيْدٍ. وَلَكِنَّ رِجْلَهُ لَمْ تَتَعَاْفَ قَطُّ إِلَى التَّمَامِ مِنَ الْأَذَى الَّذِي أُصِيبَتْ بِهِ رُكْبَتُهُ فِي تِلْكَ السَّقَطَةِ. وَسَيِظَلُّ يَعْرُجُ عَلَى مَدَى مَا بَقِيَ مِنْ حَيَاتِهِ. فَهَذِهِ كَانَتْ الْحِمَايَةَ الْمُضْحِيَّةَ الَّتِي أَبْدَاهَا مِنْ نَحْوِي بِطَرِيْقٍ كَثِيْرَةٍ جَدًّا. وَقَدْ وَثَّقْتُ بِهِ كَمَا لَمْ أَثِقْ بِأَيِّ شَخْصٍ سِوَاهِ.

لمَّا وصلنا إلى الكهف، دخلنا إلى السردابِ الشَّيْبِ بِقُبَّةِ كاتدرائيَّةِ والمَحجوبِ في عالمٍ آخر.

زفرَ جُوني نَفْسًا، قائلاً: «انظروا إلى تلكِ الرِّواسبِ المُدَلَّاة!»

فقالت روث، ضاحكةً ضحكةً خفيفة: «إنَّها تبدو ككثيَّاتٍ مُثبِّرةٍ للإعجاب.»

وأضافَ فيليب: «هذا المكانُ كان جزءًا من مقبرةٍ عندَ شعبِ المايا في ماضي الزَّمان.» كانت جلاميدُ ضخمةٌ منثورةٌ هنا وهناك. وكان بعضُ منها بِحجمِ بيتٍ صغير. وقد كوَّنَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ الجاري في الكهفِ بِرِكَامًا ومَساقطَ مياهٍ صغيرةً مُطرِشةً على طولِ الطَّرِيق. وتدفَّقَ صَوءُ الشَّمسِ مُخترِّقًا الطَّرْفَ الآخر، مُنيرًا دَرْبَنَا البالغَ طُولُهُ أربعَ مئةٍ ميترٍ إلى طرفِ الكهفِ المُقابل.

قلتُ متنهِّدَةً ونحنُ نهبطُ الجِسْرَ المُطَوَّق: «يا لهُ من مكانٍ جَميلٍ!»

أنهى الآخرونَ النَّهارَ بِسوقَةٍ كثيرةِ المَطَبَّاتِ مسافةً ثمانية كيلومتراتٍ إلى جُرفٍ عُمقُه ثلاثُ مئةٍ ميترٍ، فيما تخلَّفَ بعضُ منَّا لِلاستراحة. وقد أخبرتني لينا في ما بعد بكلِّ شيءٍ عن تلكِ النَّزهة، ومن الجُملةِ سباحَتها في بِرَكَةٍ استوائِيَّة.

لمَّا رَجَعْنَا إلى القرية، كان موسمُ الميلادِ قد حلَّ. فذهَبْنَا إلى الكنيسةِ صباحَ عيدِ الميلادِ في طابِقٍ تحتانيٍّ مُعتدِلِ البرودة. وقد قيلَ لنا إنَّه يُسَمَّحُ لنا بأنْ نحضِرَ الكنيسةَ حُفَاةَ الأقدام. حتَّى إنَّ الواعِظَ، في أوَّلِ يومٍ أحدٍ لنا هناك، كانَ حافيَ القَدَمين. ورتَّلنا التَّرانيمَ الميلاديَّةَ المألوفةَ بِفَرَحٍ مُساوٍ لذاك الذي كان لنا دائِمًا في أوهايو المكسُوةِ بالثلج، رُغمَ الحرارةِ الاستوائِيَّةِ خارجًا. وقد أضفيَ على قِصَّةِ العَطيَّةِ العُظمى معنَى جديدٌ في هذه البيئَةِ المُتواضعة.

وبعدَ بضعةِ أيَّامٍ لاحقًا، فيما كُنَّا نَحزِمُ أمتعتنا لِلسَّفر، نظرتُ إلى لينا وتنهَّدتُ عرفانًا بِالجميل. «كانت رحلةً جميلةً جدًّا.»

فوافقتُ قائلةً: «أفضلُ وقتٍ في حياتنا!»

## شواطئ ماين

كَانَتْ الشَّمْسُ قد بدأت تَلُوْحُ لِلْعِيَانِ فَوْقَ التَّلَالِ، وَنَحْنُ نُسْرِعُ عَلَى الطَّرِيقِ. لَقَدْ  
بَدَتْ سَيَّارَتُنَا الكُومِيَتِ السُّودَاءِ القَدِيمَةَ نَوَاقَهُ مِثْلَنَا لِأَنَّ تَقْوَمَ بِرِحْلَةٍ أُخْرَى. دَنَدَنْتُ  
لِنَفْسِي، مُشَاهِدَةً المَنَاطِقَ الرِّيفِيَّةَ الجَمِيلَةَ فِي نِيو إنْغَلَنْدِ تَتَوَارَى عَلَى كِلَا جَانِبَيْنَا. كَانَ  
الصَّيْفُ قَدْ انْتَصَفَ، وَنَحْنُ خَطُّنَا لِرِحْلَةٍ أُخْرَى بَعْدَ. لَقَدْ كُنَّا، لِينَا وَجُورَانِ وَأَنَا، فِي  
طَرِيقِنَا إِلَى مَايْنِ.

بَدَأَ الأَمْرُ كُلَّهُ بِحَدِيثِ عَنِ الرَّسَّامِ أَنْدَرُو وَايْثِ. فَإِنَّ صَدِيقًا لِعَائِلَتِنَا كَانَ يَرَسُمُ  
بِالألْوَانِ المَائِيَّةِ، وَقَدْ شَغَفْنَا لِينَا وَأَنَا كِلْتَانَا بِنِتَاجِهِ ذِي الجَمَالِ اللُّطِيفِ الرَّزِينِ. وَهُوَ قَالَ  
لَنَا إِنَّهُ حَاكِي فِي أُسْلُوبِهِ الفَنِّيِّ طَرِيقَةَ الرَّسَّامِ أَنْدَرُو وَايْثِ، الأَمْرُ الذِي افْتَادَنَا إِلَى التَّنْقِيبِ  
عَنِ كَنْزِ. كَانَتْ لِينَا تَرَسُمُ بِالألْوَانِ المَائِيَّةِ أَيْضًا، وَكُلَّمَا حَفَرْنَا الفُضُولَ بِشَأْنِ شَيْءٍ مَا أَجْرَيْنَا  
بِحَثِّ عَنِهِ. وَلَمْ يَكُنِ الأَمْرُ مُخْتَلِفًا هَذِهِ المَرَّةَ. فَبَعْدَ الأَطْلَاحِ عَلَى بَضْعَةٍ كُتِبَ لِاحِقًا، شَعَرْنَا  
بِأَنَّنا عَرَفْنَا المَوْلُفَ تَقْرِيْبًا، وَاسْتَحْوَدَ عَلَيْنَا صَنِيعُهُ الفَنِّيَّ.

وَعَصَرَ ذَاتِ نَهَارٍ، افْتَرَحْتُ فَجَاءَةً: «يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَقْوَمَ بِرِحْلَةٍ إِلَى المِتْحَفِ فِي مَايْنِ،  
حَيْثُ نِتَاجُ أَنْدَرُو وَايْثِ مَعْرُوضٌ.»

فَوَافَقْتُ جُورَانَ بِحِمَاسَةٍ: «نَحْتَاجُ إِلَى رِحْلَةٍ بَرِّيَّةٍ، بَعْدَمَا تَوَقَّفَتِ الجَامِعَةُ وَالمَدْرَسَةُ  
فِي عَطَلَةِ الصَّيْفِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.»

وهتفت ليّنا بحماسة: «فلنقم بالأمر!» فصَحِحْنَا كُلَّنَا وابتدأ التَّخْطِيط. وتبيّن لنا أنّ في مابن مَفَاتِنَ أُخْرَى فضلاً عن أندرو وايت، مع أنّ رُويَةَ مُتَحَفِ الفَنِّ في فرانسورث ودار ألسن كانت مَفْتَنًا من أعظم المَفَاتِنِ لنا. كذلك أيضًا توقَّعنا شواطئ مابن الصَّخْرِيَّةِ ومألوفيتها الرُّومَنسيَّة التي بدت جميعًا مطبوعة في أذهاننا كصورة ثابتة.

كان شهرٌ تموزٌ من سنة ١٩٧١ قد خيمَ علينا، ولكنَّ حرارة النَّهار كانت ما تزال بعيدةً عنّا إذ انعطفنا إلى طريقٍ ريفيٍّ وتابَعْنَا سَيْرَنَا المرسوم. لقد غادرنا بيتنا عند السَّاعة الواحدة ذلك الصَّبَاح، قبلَ وقتٍ طويلٍ من مُغَادِرَةِ النَّجُومِ لِلسَّمَاءِ.

والآن بدا أنّ الحصى المتطايرة تحت دواليبنا تُغني أغنيةً قصيرةً بسيطةً تخصُّها. ودَوَّمتَ أشرطه من الغبارِ صاعدهً وراءنا. لقد كانت ليّنا تسوق.

فجأةً، حادثت ليّنا وتوقفت على جانب الطريق. وإذ حدقت إلى غطاء المحرك، صاحت متعجبةً: «ماذا جرى؟ انظروا! اعتقد أنّ المحرك يشتعل!»

«لا!» صرخنا جُوانَ وأنا معًا. كان البخار - أم هو الدخان؟ - يتصاعد من تحت غطاء المحرك في الكوميث السوداء.

أصدرت ليّنا التعليمات بسرعة: «اخرجوا، وسأرى!» فساعدتني جُوانَ على الخروج من السيارة، ووقفنا نراقب فيما رفعت ليّنا الغطاء.

أنت قائلة: «آه، لا! حسناً، المحرك ليس مُشتعلًا.» وقد تصاعد البخار حوالياها. «إنه أنبوب ماء مكسور. ولكن أيّ مكان يحدث فيه هذا!»

نظرنا كلنا إلى الطريق الفارغ صعودًا ونزولًا. واقتحرت جُوانَ: «لنحضر الخريطة. يمكننا على الأقل أن نخمن أين نحن.» والتقطتها عن المقعد الأمامي، حيث كانت تستطلع في وقت أبكر، ثم بسطتها أمامها على صندوق السيارة. «أين نحن الآن؟ أظن في مكان ما هنا تحت.»

فقال ليّنا متنهدةً: «في مكان ما بكونكتكت. ليس في أيّ مكانٍ بقرب طريق عامٍ تنشط عليه حركة المرور، حيث يمكننا أن نحصل على مساعدة. من يدري كم سيطول انتظارنا هنا؟»

فاقتحرت مُستبشرةً. «حسنًا، على الأقل يمكننا أن نبيّن بوضوح أننا نحتاج إلى مساعدة. علينا أن نُعلّق شيئًا ما أبيض خارج النافذة علامةً على أننا في خطر.»

وقالت جُوآن مُسْتَعْرِقَةً في التَّفكير: «لا أدري ما إذا كانَ لَدَيْنَا أيُّ شيءٍ من ذلك. رُبَّما محارِمٌ من ورق.»

في تلك الأثناء، إذ أفأقتَ لينا من ارتباكها الأوَّلِي، انتقلت إلى فُكاهتها النَّموذجيَّة. وفيما هي تُفْتَشُ عن محارِمٍ ورقِيَّةٍ تحتَ المقعد، همَّمت: «الكُوميت السُّوداءُ العتيقة لم تُعدْ كما كانت قبلاً... هُنا عَلمٌ أبيض!» وضحكنا كلُّنا لما علقت بِضِعِّ محارِمٍ ورقِيَّةٍ خارجَ النَّافذة.

قلتُ مُتأملَةً: «الأعلامُ البيضاءُ تعني الاستِسْلامَ أغلبَ الأحيان. تُرى، ماذا خَطَطَ اللهُ هذا الصَّبَّاح؟»

فوافقتَ لينا: «ذلك صحيح. لن تعلِّمي أبداً ما قد تكونُ مَقاصِدُه.»

وبرقتَ عينا جُوآنَ مرَّحاً: «هذا كلُّه يقيناً جزءٌ من مُغامرة. هيَّا! ينبغي أن تُرَنِّم. يا لهُ من صَبَّاحٍ مجيد!»

وإذ رَجَعنا إلى داخلِ السَّيَّارة، انضَمَمنا إلى الطُّيورِ ورتَّلنا ترانيمَ، وجَلَسنا بهدوءٍ مُتأملاتٍ بالتناوب. وطأقتَ نُتْفٌ من الحديثِ مِنَّا وإلينا، حتَّى كانت ساعةٌ مُفيدةٌ تمامًا لما فَعَقَعَت سَيَّارةٌ صفراءُ قديمةٌ نحونا.

ما إن رأينا السَّيَّارة، حتَّى قالتَ لينا مازحةً: «المُساعدةُ في طريقها إلينا!» وقد كانت على حقٍّ. إذ توقَّفتِ السَّيَّارةُ على مَقربةٍ مِنَّا، وفتحَ مُزارِعُ شابٍّ طويلُ القامةِ بابها ثمَّ ترَجَّلَ منها. كانَ يَصْفِرُ نُتْفَةً لَحْن، وقد بدا في مزاجٍ بهيج. انحنى إلى نافذةِ السَّائقِ، وقالَ بِمَوَدَّةٍ، مُبتَسِماً ابتِسامةً عريضةً: «صباحكُنَّ جميل، سيِّداتي. هل من مُشكلةٍ لَدَيْكُنَّ هُنا؟»

ضحكتَ لينا بِمَرَحٍ. لقد تضاهى فرَحُنا وفرَحُه، رُغمَ بليَّتينا. لَدَيْنَا مُشكلةٌ بسيطة. ولكنَّه يومٌ جميل، جيِّدٌ أن نكوُنَ على قَيَدِ الحياة فيه.

ضحكَ المُزارِعُ ضِحْكَةً خافتة: «هو يومٌ جميل، جيِّدٌ أيضًا أن يُولَدَ المرءُ فيه! لقد وضعتَ زوجتي طفلاً ذَكَراً في ساعاتِ الفجرِ الباكِرةِ قبلَ شروقِ الشَّمسِ.»

فقالَتَ لينا بحماسة: «أوه، ما أروعَ الأمر! تَهانينا.»

«صحيح، نحن في سعادةٍ غامرة. طفلٌ فائزٌ حقًّا! ولكن ما المُشكلةُ هُنا، يا تُرى؟»

قالتَ لينا: «أنبوبُ ماءٍ تَلْفان. أنا مُتيقِّنةٌ تمامًا.»

بعد قليل رجّع من النظّر تحت غطاء المحرك. «ذلك صحيح بالتأكيد، سيدي الشّابّة. لديك أنبوب ماء تَلْفَان. ستحتاجين إلى أنبوب جديد. يُمكنني أن آخُذكِ إلى البلدة لإحضار واحدٍ، إذا أحببتِ.» وتوقّف لحظةً.

«لي صاحبٌ يملكُ محلّ ميكانيك. سأخُذكِ إلى هُناك، ثمَّ أساعدكِ على تصليح العطل.»  
فقالَت ليِنا مُحتجّةً: «يُسُقُّ علينا أن نُزعجَكَ.»

«لا بأسَ حقًّا؛ ما مِن مُشكلةٍ أبدًا. في هذا الجوار، نحنُ نؤمّنُ مُساعدةَ النَّاس. هيّا، ليس المحلُّ بعيدًا.»

بعد ذلك بساعة، كان من جديدٍ تحت غطاء المحرك، مُبدلاً أنبوب الماء. فهمستُ لِحْوَانٍ: «لِنَعْمَلْ له فَطورًا يليقُ بِمِلكِ!»

فوافقتُ حالًا: «يستحقُّ فَطورًا كهذا بالتأكيد!» ومُساعدةٍ ومُوافقةٍ من ليِنا، أخرجنا طَبّاخَ الكُولمان من مَقَرِّه في صندوقِ السّيّارة وأشعلناه.

«أذَلِكَ قَدِيدُ اللَّحْمِ ما أَسْمُهُ؟» جاء صوتُ الشّابِّ البهيج من تحت غطاء المحرك، وردّدنا بالصّحِيح.

«الفطورُ جاهزٌ عندما تكونُ أنتُ جاهزًا.»

وبعدما غسلَ يديه، جاء وقعدَ على العُشب، وأكلَ بِسرورٍ من البيضِ المُقلّي مع قَدِيدِ اللَّحْمِ والخُبزِ المُحمّص الذي أعدّناه، وقد غرّدتِ الطيورُ حوَالينا وألقتِ الشَّمْسُ أشعّتها الحارّةَ على أكتافنا فيما استمتعنا بالطعام معًا.

أخيرًا قال الشّابُّ بِامتنانٍ: «هذه أفضلُ وجبةٍ تناولتها منذُ دُهور!»

فقلتُ له: «حسنًا، نحنُ نُقدّرُ حقًّا توقُّفَكَ لمُساعدتنا نحنُ الصّبايا وسَطَ البَلايا. رُبّما ما كُنْتَ لِتُفَكِّرَ في الموضوع، ولكنك استجابةً مُباشرةً لِصَلواتنا لِأجلِ المعونة.»

توردَ وجهه وأشاح بِتوتُر. «إنّني أفعلُ تمامًا ما هو صائبٌ لِأجلِ جاري. ذلك كلُّ ما في الأمر.» ثمَّ قامَ وتمطّى. «رُبّما كان الأحسنُ لي أن أذهبَ الآنَ لِأخذِ قِسطٍ من النّوم. سأكونُ في طريقِ العودَةِ إلى المُستشفى عاجلًا.» وغمزَ بعينه ملوِّحًا بيده. وإذ ركبَ في سيّارته الصّفراءِ العتيقة، انطلقَ حالًا، وسرعانًا ما توارى في غيمةٍ من العُبار.

حزمتنا أمتعتنا، وحمّلنا السّيّارة مُجددًا. وإذ ركبنا، توقّفنا كلُّنا وحتّينا رؤوسنا. فصلّت ليِنا بصوتٍ عالٍ: «شكرًا لك، يا ربُّ، على إرسالِ واحدٍ من ملائكتِكَ لِيساعدنا عندَ

احتياجنا. أنت صالح!» ووافقنا، جُوآن وأنا، في قَلْبينا. ثُمَّ دارَ مُحْرَكُ الكُوميتِ القديمةِ هادراً، وعُدنا إلى الطَّرِيقِ من جديد.

فهِتفنا كُلُّنا بابتهاج: «لِنَنْطَلِقِ بعيداً إلى ماين!»

وصلنا إلى پورتلندَ عصرَ ذلكَ النَّهارِ، وسألنا حَوَالينا عن مكانٍ جيِّدٍ للإقامة. فكان «البابُ الأزرقُ» الذي تُديرُهُ سيِّدتانِ كَهْلَتانِ هو المكانَ الذي اخترناه. وقد أخبرتنا المضيفاتُ المُوَنساتُ هناكَ عن بَضْعَةٍ مَنَاطِرَ محلِّيَّةٍ ينبغي لنا أن نَراها فِعْلاً.

بعدَ إنزالِ أَمَتِتنا، انطلقنا على الطريقِ ٧٧ إلى كايبِ أليزابيث. وُزُرنا هُنَاكَ مُتَنزِّهَةً تُو لائتسِ التابعِ لِلوِلايةِ. وقد انْتَشَرَ أماننا السَّاحِلَ الصَّخْرِيُّ الأطلنطِيُّ، وبدا أَنَّ المُحيطَ يمتدُّ بعيداً إلى ما لا نَهاية. وارتفعَ بياضُ المَنارةِ مُقابِلَ سماءٍ شديدةِ الرُّقَّة. وقد تدرَّجَ عندَ قَاعِديها شاطئٌ صخريٌّ، حيثُ هَفَّ حَطُّ رقيقٍ من الرِّبْدِ مع جَزْرِ المَوْجِ ومَدَّهُ.

سألتُ لينا بابتهاجٍ شديدٍ: «أليسَ جميلاً جداً؟»

ووافقتُ جُوآن: إِنَّهُ رائع!

«يجعلُني أَظُنُّ أَنني أحلم.» وتنفَّستُ هواءَ المِلحِ ثُمَّ أغمضتُ عينيَّ طَرَباً.



في الصَّبَاحِ التَّالِي نَهضنا باكراً لِنَتَصَيَّدَ مُغامرتنا التَّالِيَّة. فاقترحتُ: «لِنَذْهَبْ وَنُنْقَبْ عن البَطْلِينوسِ في جزيرةِ شَبِيعِ. السَيِّدَةُ الصَّغِيرَةُ التي تحدَّثنا إليها البَارِحَةَ جعلتِ الأمرَ يبدو رومَنسِيًّا على نحوٍ مُبهِجٍ.»

وهكذا ذَهَبنا! رَكبنا قارِباً صَغِيراً أَقلُّنا إلى الجزيرةِ، ثُمَّ نَدَهنا واستوقَّفنا سيارَةَ أُجْرَةٍ صفراءَ تسوقُها امرأةٌ صَغِيرَةٌ جَدًّا ذاتُ شَعْرٍ فِضِّيٍّ وابتسامَةٍ مُحَبَّبَةٍ. ثُمَّ في جُونٍ مهجورٍ أنزلتْنا لِنُجَرِّبَ مَهَارَتنا في صَيِّدِ البَطْلِينوسِ. «سأرجعُ لأخذِكُنَّ بعدَ ظُهْرِ اليوم.» ولوَحَتَ بيدها مودَّةً مَرَحَ، ثُمَّ ذَهَبَتْ.

صرَّحتُ جُوآن: «هيا الآنَ لِنَجِدَ تلكَ البَطْلِينوساتِ!» فتوجَّهنا إلى حافةِ الشَّاطِئِ، ونَسِيمُ مِلحٍ خفيفٍ يهبُّ على أوجُهنا.

«لِنَبْحَثْ في الوَحْلِ عن ثُقُوبِ مُدَوَّرَةٍ يَحْجِمُ سَبَّابَتانا!» هكذا قالت لينا، مُعيدَةً تعليماتِ مُضيفَتنا في اليومِ السَّابِقِ. «ثُمَّ نحفرُ بِعُمقٍ قَدَمٍ تقريباً حتَّى نَجِدَ البَطْلِينوس.»

فأضفتُ: «لِتَكُنْ حَذِرَاتٍ لِأَنَّ الْأَصْدَافَ حَادَّةٌ». وَأَكْمَلْتُ جُوَانَ، «وَلِنَفْعَلُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْمُدُّ حَتَّى نَحْضَلَ عَلَى مَا يَكْفِي لِلْعِشَاءِ، قَبْلَ أَنْ تُجْرَفَ الْأَدِلَّةُ عَلَى مَخَابِيِ الْبَطْلِينِ وَسَاتٍ.»

بِأُشْرُنَا الْعَمَلِ، فَاسْتَعْمَلْتُ أَنَا أَصَابِعَ قَدَمِيَّ وَاسْتَعْمَلْتُ لِينَا وَجُوَانَ أَصَابِعَ أَيْدِيهِنَّ. وَأَصْبَحْنَا سَرِيعَاتٍ إِلَى حَدٍّ مَقْبُولٍ فِي الْمَهْمَةِ، فَضَحِكْنَا ضَحِكًا صَاحِبًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَعَلَى لَا شَيْءٍ. آخِرًا قَرَرْنَا أَنَّنَا قَدْ وَجَدْنَا مَا يَكْفِي. فَفَعَدْنَا لِنَسْتَرِيحَ وَنَتَنَاوَلَ غَدَاءَ نُزَهْتِنَا، إِلَى أَنْ رَجَعَتْ سَائِقَةُ سَيَّارَةِ الْأَجْرَةِ لِأُخْذِنَا.

بَعْدَ رُجُوعِنَا إِلَى غُرْفَتِنَا فِي پُورْتْلَنْدَ ذَلِكَ الْمَسَاءِ، طَهَوْنَا تِلْكَ الْبَطْلِينِ وَسَاتٍ عَلَى طَبَّاحِ الْكُؤُلْمَانِ الَّذِي يُخْضِنَا. وَقَدْ كَانَتْ طَيِّبَةً الْمَذَاقِ بِشَكْلِ مُمْتَازٍ، وَاسْتَحَقَّتْ كُلَّ لُقْمَةٍ فِيهَا الْجَهْدَ الَّذِي بَدَلْنَاهُ لِصَيْدِهَا.

انْطَلَقْنَا بَاكِرًا فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، مُتَوَجِّهَاتٍ شَمَالًا. لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِْمُشَاهَدَةِ لُوحَاتِ أُنْدُرُو وَآيْثِ الْمَشْهُورَةِ. وَبَعْدَ قَطْعِ مِئَةِ وَثَلَاثِينَ كِيلُومِتْرًا تَقْرِيْبًا، تَوَقَّفْنَا عِنْدَ مُتَحَفِ فَارْنِسُورْثِ الْفَتْيِّ. وَعَلِمْنَا أَنَّ الرَّسَّامَ اتَّخَذَ بَيْتَهُ الصَّيْفِيَّ فِي مِمْنَطَقَةِ پُورْتْلَنْدِ، وَقَدْ اكْتَشَفْنَا أَيْضًا أَنَّ لُوحَتَهُ الْمَعْرُوفَةَ جَيِّدًا أَكْثَرَ الْكُلِّ أُسِّسَتْ عَلَى امْرَأَةٍ مَحَلِّيَّةٍ وَبَيْتِ مَزْرَعَتِهَا الْمُسَمَّى دَارَ الْأُسْنِ.

أَشْرْتُ قَائِلَةً: «إِنَّهَا هُنَاكَ!» وَوَقَفْنَا نَتَأَمَّلُ تِلْكَ اللَّوْحَةَ الْأَصْلِيَّةَ الْمَشْهُورَةَ. لَقَدْ دُعِيَتْ اللَّوْحَةُ «عَالِمُ كْرِيسْتِينَا». شَكَلَتْ أَلْوَانُ بُنْيَّةٍ وَخَضْرَاءُ مُخَفَّفَةٌ مِنْ عَاشِبِ الْمَرْجُوحِ خَلْفِيَّةَ صُورَةِ الْفَتَاةِ ذَاتِ السَّاقَيْنِ الْعَاجِزَتَيْنِ عَلَى أَرْضِ الْحَقْلِ. وَقَدْ كَانَتْ الْفَتَاةُ تَتَّقِلُ عَلَى نَحْوِ مَوْلِمٍ وَبَطِيءٍ مِنْ مَقْبَرَةِ الْعَائِلَةِ إِلَى بَيْتِ الْمَزْرَعَةِ الْبَعِيدِ. خَيَّمَ عَلَى الصُّورَةِ جَوْ مَهِيْبٍ، حِدَادِيٌّ تَقْرِيْبًا، وَلَكِنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَى لَمَحَةٍ انْتِصَارٍ أَيْضًا. وَقَدْ تَضَمَّنَتْ الصُّورَةَ شَيْئًا مُمَيِّزًا بِالنُّسْبَةِ إِلَيَّ، فَأَحْبَبْتُهَا عَلَى النَّحْوِ الْأَفْضَلِ بَيْنَ جَمِيعِ الصُّورِ الَّتِي رَأَيْتُهَا.

بَعْدَ بَضْعِ سَاعَاتٍ فِي الْمُتَحَفِ، التَفَّتْ إِلَى لِينَا مُقْتَرِحَةً: «لِتَذْهَبِ وَنَرِ دَارَ الْأُسْنِ.» فَوَافَقْتُ لِينَا: «بِالتَّأَكِيدِ! فِي وُسْعِنَا أَنْ نُشَاهِدَ مَكَانَ إِقَامَةِ أُنْدُرُو وَآيْثِ وَنَحْنُ مَوْجُودَاتٌ فِيهِ.»

وَبَعْدَ بَضْعَةِ مُنْعَطَفَاتٍ خَاطِنَةٍ وَطَلَبِ تَوَجِّهَاتٍ فِي مَحْطَّةِ وَقُودِ، وَجَدْنَا دَارَ الْأُسْنِ. تَنَفَّسْتُ فِي عَجَبٍ، قَائِلَةً: «إِنَّهَا تَمَامًا مِثْلُ عَالِمِ كْرِيسْتِينَا، مَا عِدا كَوْنَهَا نَابِضَةً بِالْحَيَاةِ.»

«ولكن ليست جرداء مثلها بوجود الأشجار والمباني الأخرى حولها.» بدأ أن جُوآن  
وجدت عزاءً في هذه الحقيقة.

في الدّاخل تفرّسنا في المزيد بعد من لوحات أندرو وايت. وقرأت عنوان إحدى  
اللّوحات: «وَدْرَسَايِد.»

أوضحت لي: «انظرا! ها هي دارُ ألسن في اللّوحة مُجدداً.»  
فجأة، شهقت جُوآن وهمست: «لينا! فيرا! انظرا خارجاً... تلك هي بتسي  
وايت بتفسها!»

من خلال النّافذة، شاهدنا امرأةً أنيقة، طويلة القامة، مُقبلّة بسرعة في الممشى.  
كانت حطّواتها رشيقةً وجديّةً، رُغم أسلوبِ لبسها غير الرّسمي. ولدى دخولها، سوّت في  
الحال لوحةً علّقت مائلّة قليلاً على وتدّها. إذ ذاك علمنا يقيناً أنّها كانت بتسي، زوجة  
أندرو وايت. فالملكون وحدهم يجرؤون على لمس النّتاج الفنّي. تظاهرتنا بالرجوع إلى  
اللّوحات، ولكنّي لم أمالك نفسي عن اختلاس نظرةٍ إليها مراراً وتكراراً. كنت على يقين  
بأنّ آخرين في المتحف سيّعرفونها ويحاولون أن يكلموها. وأغريت بأن أفعّل الأمر  
عينه بتسي.

«عفوًا، آنساتي.» صوتٌ مُتجانسٌ مُهدّبٌ وراءنا، قطعَ نقاشنا حول لوحة  
«يَوْمُ الغرير.»

التفتُ، فرأيتُ بتسي وايت واقفةً هناك، وابتسامتها المؤنسة مُرتسمةً على وجهها.  
واستفسرت: «أأنتن، يا فتّيات، من ينسلفانيا؟»

فأجابت لي: «لا، نحن من أوهايو.» وتبادلتنا هي وأنا نظرةً خاطفةً قالت:  
«لماذا نحن؟»

سألتها: «أنتِ بتسي وايت، صحيح؟»

فابتسمت ثانية: «صحيح، أنا هي. أنا آسفةٌ إذا جفّلتكن. ولكنني أردتُ أن أسأل  
لأننا نُقيمُ بقربِ إبرانديوين في ينسلفانيا كلّ شتاء، وقد بتنا نعرفُ القليلَ عن قومِ  
الأمش هناك. زوجي آندي مفتونٌ بطرقي حياتكم البسيطة ولباسكم الجميل. وهو يقولُ  
إنّ ذلك يتلاءم مع أسلوبه في الرّسم. مُغايرةٌ بسيطة.»

توردت أوجُهنا قليلاً حيال هذا التعليق، ونظرنا إلى أثوابنا ذات الكاب والون الواحد. لم يحصل كثيراً أن يُعَلِّقَ النَّاسُ على أسلوبِ لبسنا. ولكنّ بتسي كانت صادقةً ومؤنسةً جدًّا بحيثُ لم نتمالك أنفسنا عن الإعجابِ بها.

«هل تعلمن...» أشرقت عينها فجأةً كما لو أنّ فكرةً بارعةً قد خطرت لها. «هل تُردن أن تُقابلن زوجي؟ أعتقد أنه سيحب أن يراكن.»  
«بلا شك!» قبل أن تُفكر في الأمر فعلاً، وافقنا كلنا بشوق.

بدت بتسي في موقفٍ يروّفها: «عندما أنصرف بعد قليلٍ من هنا، اتبعنني فحسب. سيأرهُ الجيب الرُّقأء لي.»

إذ دارت بتسي لتمدني، ابتسمت ليلينا ابتسامهً عريضة، فردت عينها ضاحكتين. «عجباً!» رسمت شفاتها الكلمة دون أن تنطق بها. لن يصدق هذا أصدقائنا هناك في البيت! لقد كُنّا على وشكٍ مُقابله الرّسام الشهير بنفسه.

كان بيت أندرو وبتسي في نهاية زقاق طويلٍ مرصوفٍ، على نحوٍ لافت، بأصداف البحر المسحوقه بدلاً من الحصى. وكان للبيت جدرانٌ خارجيّة من الخشب الرماديّ المُجوّى بفعل الرّيح والبر الذي تمس أمواجه الشاطئ الصخريّ القريب مساً رقيقاً. ترجلنا من الكوميت وانتظرنا مُرتابات، فيما توارت بتسي داخل البيت. وبعد لحظة رجعت وعلى وجهها ابتسامه كبيرة. وقد تبعها رجلٌ طويلٌ هزيلٌ، ذو شعرٍ فضيٍّ مقصوصٍ قصيراً جدًّا، ومشيّة مريحة على ساقين طويلتين.

«أندرو، هؤلاء همّ الأخوات الثلاث من آل أوفرهلت، من أوهايو: فيرا وويلنا وجوآن. إنهنّ مُعجبات بنتاجك الفنيّ.»

«حسنًا، أهلاً بكنّ في إبردفورّد پوينت.» وقد تلالأت عيناه الرّقاوان المذهلتان بابتسامه صيبانيّة عريضة لما عايّتنا. «ماذا أتى بكنّ إلى ماين؟»

فقالَت لينا بصدق: «حسنًا، السبب الرئيسي لكوننا أردنا المجيء كان أن نرى دار السن، ولكننا أيضًا أردنا أن نغامر، كما أحمّن.»

ضحك أندرو. ثمّ أجال نظره علينا وغير الموضوع فجأةً: «تعجبني أثوابكنّ. إنّها مذهلة. هل تصنعنها بأنفسكنّ؟»

أدركتُ أنّ جانبَهُ الفنيّ هو الذي جعلَهُ مفتونًا جدًّا بطريقةِ لبسنا. وابتسمتَ لينا.  
«نعم، نصنعُها بأنفسنا.»

«اعلمن أن عندي بدلةٌ مينوئيّةٌ ذاتُ سُترَةٍ، أعطاني إياها أسقفٌ تحتُ في پَنسلفانيا  
قبلَ سنينَ قليلة. فلأذهبُ وأرثدها لكن.»

غابَ لَحَظَاتٍ قليلةً فقط قبلما رَجَعَ، مُزدهياً بِبدلَةٍ رماديّةٍ داكنةٍ ذاتِ سُترَةٍ  
وينطَلون. وقالَ غامزًا مِغايَظة: «إنني أرثديها فقط في المناسباتِ الخاصّة. كزيارتي  
للرئيسِ وزيارتكُن لنا. هل تُردن أن ترينَ مَرسَمي؟»

«أوه، نعم!» تَوَاقَتِ إلى رؤيةِ مكانِ إلهامِ الرّسام، أدرَكنا أنّهُ كانَ سَلِسًا وأنيسًا، رُغمَ  
مِقدارِ ضئيلٍ من العُرابة.

كانَ مَرسَمُهُ مبنيًّا بسيطًا ذا نوافذٍ عديدةٍ مُطلّةٍ على المحيط. وقد أدخَلَ منورٌ كبيرٌ  
سَيلاً من النُّورِ الطبيعيّ. وإذ وقفنا نَنظُرُ حَوالينا، شرَحَ قائلاً: «إنني أرسُمُ فقط تحت  
النُّورِ الطبيعيّ.» استقرّت على حاملٍ لوحةٌ أنجزَ نصفها، وعلى طاولةٍ شغله حملت  
مجموعةً من أنايبِ الطلاءِ داخلِ دِلاءٍ ألوانه جاهزةٌ للاستعمال.

كذلك أريانا البيتَ أيضًا. وقد كانَ بسيطًا ومُقتصدًا، لكن مَروشا بطَريقةٍ جميلة.  
وإذ حدّقتُ عبرَ النّوافذِ الشَّرقيّةِ إلى أمواجِ المحيط، شعرتُ بإدراكٍ جديد. فلا عَجَبَ  
أنّ الرّسامَ وجدَ إلهامًا فريدًا لرُسومه ههنا! بدا أنّهُ يرسُمُ التّبائينَ والكِفاح، إلّا أنّ صِراعَ  
العناصرِ لَطَفَتَهُ البَساطة. وقد كانت عيناهُ نائيتين، لكنّ مؤنستين وعابئتين وحائيتين  
بالتناؤب. وجعلتاني أفكّرُ في أمواجِ المحيط، عاكسةً باستمرارٍ أحوالِ الجوّ.

أقبَلتَ بتسيّ تسأل: «هل تُحِبُّ شَيئًا باردًا تشرَبُهُ؟» فرحبنا كلُّنا بعرضها إذ كان  
قد مضى وقتٌ طويلٌ منذُ الفَطور. وبعدما تحدّثنا واستمتعنّا بِمشروباتنا الباردةِ بعض  
الوقت، عَلِمنا أنّ علينا أن نكونَ في طريقِ العُودةِ إلى پورتلند عاجلاً. وسألتهما لينا: «هل  
لنا أن نُرنمَ شَيئًا ما لَكُما؟»

فقال أندرو وبِتسي بحماسة: «نودُ ذلك!»

ومن ثمّ رَمَنا، نحنُ الثّلاثيُّ، كلماتِ التّرنيمةِ القديمةِ «نفسِي تُعني... ما أعظمك!»  
فإذ قعدنا هناك في حُجرةِ الجُلوسِ الطّريفة، وصوتُ أمواجِ المحيطِ الخفيفِ يتهدى  
إلينا عبرَ نافذةٍ مفتوحة، شعَرنا بأنّ تلكَ كانت خاتمةً مُناسبةً لزيارتنا.

بعدما أعطانا أندرو نُسخةً طبقَ الأصلَ مُوقَّعةً لإحدى لوحاته، رافقنا هو وزوجته إلى سيّارتنا مُودَّعين. وإذ سُفنا مُبتعداتٍ، تنهَّدنا كُلُّنا بِارتياح. وقالت لنا بصوتٍ عالٍ: «مَن كان يظنُّ أصلًا؟»

فقلتُ بِسرورٍ: «الأحلام تتحقَّقُ فعلاً. الآن يُمكننا أن نقولَ إننا قابِلنا الرِّسامَ المشهور، بل كُنَّا في بيته أيضًا.»  
نظرتُ جُوانَ إلى اللوحة التي حملتها في حضنها. «لدينا لوحةٌ مُوقَّعةٌ برهانًا على ذلك.»

أضينا أسبوعًا مُستكشفاتٍ أجوانَ مائِن وشواطئها وأطاييها وأكلنا في مطاعمٍ محلِّيَّةٍ مشهورة، مثل «كوخ الكركند»، حيثُ أعجبتنا مِذاقِ الكركند ونحنُ جالِساتُ إلى طاولةٍ مُطلَّةٍ على الشاطئ الصَّخريِّ تحتنا تمامًا. وبعد مُغامراتٍ كلِّ يوم، اتَّصلنا بالبيت لِنَتكلَّم مع عائلتنا. إنَّما جميعُ بقعِ الصَّوءِ الأكثرِ إشراقًا كسفتها زيارتنا لبيت الرِّسام. ولكن كانت لنا أيضًا مُغامرةٌ أُخرى جديرةٌ بالتذكُّرِ على نحوٍ فريد.

حلَّ علينا ذلك المساء ونحنُ على رصيفِ السُّفنِ نُشاهدُ قواربَ الكركند، وإذ بنا نسمَعُ صوتًا أجشَّ من ورائنا سائلًا: «هل تُحبِّبنَ أن تذهبنَ إلى عُرضِ البَحْرِ لِصيدِ الكركند؟»

فالتفتنا لِنرى صيَّادَ سمكٍ كهلاً مُجَوِّى.

وقالت لنا بِتردُّدٍ: «أه... بالتأكيد.»

فقال بِقِظاظَةٍ: «الساعةُ السادسةُ تمامًا كُنَّ هُنا على الرِّصيفِ. أراكنَّ عندئذٍ.» ثُمَّ مسَّ مُقدِّمَ قُبَّعتهِ مُحييًّا، ومضى مُبتعدًا بِخطىٍ واسعةٍ قبلَ أن يُتاحَ لنا قولُ أيِّ شيءٍ آخر.

سألتُ جُوانَ بِقلقٍ: «أنتعتقدانِ أَنَّهُ ينبغي لنا أن نذهبَ حقًّا؟»

فأفصحتُ بِسرعةٍ: «طبعًا، ينبغي لنا. لَن تُتاحَ لنا فُرصةٌ أُخرى كهذه. نحنُ ثلاثُ، وسنكونُ في أمان.» وهكذا اتَّفقتنا على الدَّهاب.

أقلَّعنا في بحرٍ هادئٍ أشيبَ إذ أطلَّ الفَجْرُ فوقَ الأفقِ. لاطمتِ أمواجٌ خفيفةٌ قاربَ الصَّيدِ الصَّغِيرِ، ودغدغتُ نكهةً هواءِ المِلحِ حواسِّنا. ومَّا وصلنا إلى أوَّلِ طاقيَّةٍ، انتشَل الصَّيَّادُ القفصَ الخشبيَّ، وأخرجَ ما فيه من كركندٍ وسلطعون، قبلَ أن يُسقطهُ مُجددًا في

الماء مُحدِّثًا رَشَاشًا. وطَوَالَ الصَّبَاحِ انتَقَلَ من شَرِكٍ إلى آخَرَ، حَتَّى امتَلَأَت أرضِيَّةُ القَارِبِ بِكُومَةٍ عَالِيَةٍ، وتَخَلَّت رَائِحَةُ السَّمَكِ كُلِّ شَيْءٍ.

السَّاعَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ، فَتَحَ دَلْوُ غَدَاءٍ وَأَخْرَجَ تَرْمَسَ قَهْوَةَ وسندويشًا. ثُمَّ أَكَلَ بِهْدُوً، مُتَجَرِّعًا بَلْعَةً من القَهْوَةِ السُّودَاءِ كُلِّ بِضْعِ لُقْمٍ. لم يدعُنَا إلى مُشَارَكَتِهِ. وإذ لم نَكُنْ لَنَا أدنى فِكْرَةٍ كم ستطوُلُ مُغَامِرَتُنَا الصَّيْدِيَّةُ، لم نَكُنْ قد جَلَبْنَا غَدَاءً.

لَمَّا رَجَعْنَا إلى الرِّصِيفِ، كانت أوائِلُ بَعْدِ الظُّهْرِ قد حَلَّتْ، ورُومَنَسِيَّةُ رَحَلَةَ صَيْدٍ في المُحِيطِ قد بدأت تتلاشى من وقتٍ طَوِيلٍ. فَشَكَرْنَا مُضِيفَنَا على عَجَلٍ من أَجْلِ الاختبارِ واستَعَدَدْنَا لِلانصرافِ.

فَهَزَّ كِتْفِيهِ، وَقَالَ ناخِرًا: «بِالتأكيد، لا بأس.»

مُوجَعَاتٍ وَمُتَعَبَاتٍ وَمُجَوَّعَاتٍ، تَوَجَّهْنَا إلى المَطْعَمِ الأَقْرَبِ. وتلك اللَّيْلَةُ مِنَّا نَوْمًا ثَقِيلًا. لَقَدْ كَانَ يَوْمٌ مُغَامِرَةٌ، يَوْمًا لَنْ نَنسَاهُ عَاجِلًا.



## تَعَهُدُ مُعَلِّمَةٌ

دارت المِروحةُ بِسُرْعَةٍ فِي سُكُونِ عَصْرِ النَّهَارِ، وَشَعْرَتْ بِالْهَوَاءِ حَوْلِي خَانِقًا. لَقَدْ اسْتَصَعَبْتُ دَائِمًا عَلَى نَحْوِ أَشَدِّ أَنْ تَنْفَسَ فِي حَرِّ الصَّيْفِ. حَمَلْتُ سَمَاءَ شَهْرِ أَبِي الزَّرْقَاءِ الْغَائِمَةَ عَبْرَ نَافِذَةِ حُجْرَةِ الْجُلُوسِ، وَرَدَدْتُ بِحَمَلَقَةٍ مُقْتَرِنَةٍ بِتَفْكِيرٍ كَثِيبٍ. حَسَنًا يَا رَبُّ، مَاذَا تُرِيدُ لِي أَنْ أَفْعَلَ؟

اسْتَلْقَى كَلْبِي الشُّبُوحَ الْأَسْوَدَ وَالْبَيْتِي، هَرَكِي، مُمَدِّدًا أَمَامَ الْمِرْوَحَةِ، وَأَضَاعَهُ الضَّبِيلَةَ تَرْتَفِعُ وَتَنْخَفِضُ فِي أَثْنَاءِ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقْبَلُ عِنْدَ قَدَمِي. مَا بَرِحْتُ أَحْلُمُ بِالْعَثُورِ عَلَى وَظِيفَةِ تَعْلِيمٍ مِنْذُ تَخَرُّجِي فِي ذَلِكَ الرَّبِيعِ. وَقَرَأْتُ النُّسخَةَ الشَّهْرِيَّةَ مِنْ دُورِيَّةِ التَّعْلِيمِ الْأَمِشِيَّةِ «مَجَلَّةُ اللَّوْحِ الْأَسْوَدِ»، وَمَجَلَّةُ لِمُعَلِّمِي الْمَرْحَلَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ تُدْعَى «الْمُدْرَسُ»، مَا عَمِلْتُ إِلَّا عَلَى حَفْزِ شَهِيَّتِي. لَكِنْ كَيْفَ سَيُؤَافِي تَحْقِيقُ حُلْمِي؟ لَنْ يَكُونَ كُلُّ شَخْصٍ مُسْتَعِدًّا لِلتَّعَاظِي عَنِ قُبُودِي وَإِعْطَائِي فُرْصَةً.

دَخَلْتُ لَيْنًا مِنَ الْخَارِجِ، حَيْثُ كَانَتْ تَنْشُرُ الْعَسِيلَ، وَبَدَأَ أَنْ نَظُرَةً وَاحِدَةً إِلَى وَجْهِي أَخْبَرْتَهَا بِأَفْكَارِي. «يَنْبَغِي أَنْ تُخَابِرِي جَانَ صَمْرَزَ، فَيُرَا. أَنْتِ تَعْلَمِينَ أَنَّ مَدْرَسَةَ كَنِيسَتِنَا هِيَ الْمَكَانُ الْمَلَائِمُ لِكِ.»

«لَيْنَا، لَيْسَ هَكَذَا تَجْرِي الْأُمُورُ.» أَخَذْتُ رَشْفَةً مِنْ شَايِي الْمُتَلَجِّجِ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا مَعْغُومَةً. «يُفْتَرَضُ أَنْ يَطْلُبُوا هُمْ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُعَلِّمُوا، وَلَيْسَ الْعَكْسُ بِالْعَكْسِ.»

صَبَّتَ لينا لِنَفْسِها كَأَسَّ شايٍ وَجاءت لِتَتَعَدَّ مُقَابِلِي. «كيف سَيَعْرِفونَ أَصلاً أَنَّكَ تُريدِينَ أَن تَعَلِّمِي إن كُنْتَ لا تَقولِينَ لَهُم؟ لا يُمكنُكَ أَن تَتَنظَّرِيَهُم فَحَسَبَ حَتَّى يَقْرأوا ذِهَتِكَ. لِن يَحْدُثُ الأَمْرُ أبداً إن لم تَقومي مُبَادَرَة. أَنْتِ هِيَ الَّتِي عَلَّمْتَنِي، كما تَعلمِينَ.» وَابْتَسَمَتْ لِي ابْتِسامَةً عَرِيضَةً على سَبيلِ الإقْناع.

«ولكن سَأَبْدو كما لو كُنْتُ أَفْرِضُ نَفْسي عَلَيْهِم بَدَل أَن أَعْرِضَ نَفْسي. بل كيف أَعْلَمُ أَيضاً أَنَّهُم سَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ بَعينِ الاعتِبارِ؟ إذا كُنْتُ سَأَعْلَمُ في مَدْرَسَة، أريدُ أَن أَعْلَمَ عِنْدَ شَخْصٍ أَعْلَمُ أَنَّهُ يُريدُني.»

«حَسَناً، فَيَرا. سَأُخابِرُه أنا. عِنْدئِذٍ لِن يَبْدو كَأَنَّكَ تَفْرِضِينَ نَفْسَكَ عَلَيْهِم.» وَقَفَتْ لينا وَحَطَّتْ شايها المُتَلَجَّ على الطَّاولَة. «سَأُخابِرُ الآنَ الآنَ!»  
صَحَّتْ بِها: «إِيَّاكَ أَن تَجْرِي!» وَانكفَأَتْ إلى الوِراء.

إذ دارت لينا نحوَي بِإِماءَة نَفادِ صَبْرٍ، وَضَعَتْ يَدَيها على وَرَكبَيها. «فَيَرا، أَنْتِ تَعَلِّمِينَ ما يُفْتَرَضُ أَن تَفْعَلِي، وما مِن طَريقَة سَيَعْلَمونَ بِواسِطَتِها ما لم تُخَبِرِيَهُم. لَدَيْكَ خِياران. يُمكنُ أَن تُخابِرِيَهُم، أو سَأُخابِرُهُم أنا. وَلَكِنْ لِيَكُنْ إمَّا هَذا وإمَّا ذاك. لِن أَقِفَ جانِباً وَادَعَ هَذه الفُرْصَة تَفوتُكَ. فَهَذا هو ما أَنْتِ مَدعوَةٌ إلى القِيامِ بِهِ.»

أَذَعَنْتُ مُتَنَهِّدَةً: «سَأُخابِرُ جان. أَنْتِ على حَقٍّ. هَذا هو ما أَشْعُرُ بأنَّ الرَّبَّ يُرْشِدُني إِلَيهِ. أمْهِليني بِضَعِ دَقائِقٍ حَتَّى أَصَلِّي وَأَسْتَجْمِعَ شِجاعتِي، ثُمَّ سَأُخابِرُهُم.»  
فَعَدَّت لينا وَرَشَقَتْ شايها المُتَلَجَّ بِرِباطَة جَاش. «سَبْئَلِينَ حَسَناً تَمَّاماً!» وَهَذه المِرَّة، كانت أَكثَرَ ثِقَةً مِنِّي!

دَقَّ قَلْبِي بِقوَّةٍ إِذ أَجْرَيْتُ أَصابعِي صُعوداً إلى سَماعَةِ التَّلِفونِ وَرَفَعْتُها عَن حامِلِها. وَبِجَهْدٍ أَدرْتُ الفُرْصَ على الرَّقمِ، ثُمَّ انتظَرْتُ حَتَّى تَجْرِي المُخابِرَة. يا رَبِّ، لينا على حَقٍّ. هَذا ما أَشْعُرُ بأنِّي مَدعوَةٌ إلى القِيامِ بِهِ، وَلَكِنِّي خائِفَةٌ جَدًّا، وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِن تَساؤِلاتِ «ماذا لو؟» أَعْطاني الشَّجاعةَ وَالكَلِماتِ لِأَقولَ ما يَنْبَغِي أَن أَقولَهُ. وَرَجاءً، ارْشِدْني عَبْرَ قَرارِ جان.

«هالو!» أَجابَ صوْتُ جانِ الهادِي بَعْدَ الرِّبَّةِ الخامِسة.

«هالو، جان.» وَتَجَرَّعْتُ الهِواءَ. «هَذه فَيَرا تَتَكَلَّم.»

«مرحبا، فَيَرا. كيفَ حالُكَ؟»

لم أُضَيِّعْ وقتًا طويلًا في المُقدِّماتِ قبلَ أن أُطرحَ سؤالي دونَ تروٍّ: «أَعَلِمَ أَنْكُمْ تبحثون عن مُعلِّمٍ لِلصُّفوفِ العُلَيَا في المدرسة. هل تعتقدُ أَنَّهُ يُوجَدُ احتِمَالٌ بأنَّ أَعَلِمَ عندكم؟» لقد قلتُ ذلك! وتلكَ الكلماتُ الحاسِمةُ لا يُمكنُ سَحِبُهَا أبداً. كِدْتُ أَنمُكِّنُ من سَماعِ جانٍ عندَ طرفِ الخَطِّ الأخرِ مُفكِّراً، وانتظرتُ جوابَهُ بِنَفْسِ محبوبوس.

«حَسَنًا، فيرا، الاحتِمَالُ موجود.» وما لَبِثْتُ أن سَأَلْتُ: «لِمَ لا أُنَاقِشُ الموضوعَ معَ هَيْئَةِ الإدارة، ثُمَّ أَعُودُ إلى الأتصالِ بكِ؟»

«شُكْرًا لك. شُكْرًا جزيلاً لك.» وردَدْتُ السَّماعَةَ مُتَنَهِّدَةً. «حَسَنًا، على الأقلِّ

ليس الجوابُ 'لا'!

ابتسمت لي لينا ابتسامةً عريضةً بانتصار. «ماذا قلتُ لك، فيرا؟ لا شكَّ أَنَّهُمْ سيُريدونَ لكِ أن تُعلِّمي!»

على مدى الأيامِ القليلةِ التَّالِيَةِ، انتظرتُ بِقَلْقٍ. أخيرًا، بعدَ أسبوعٍ تقريبيًا، عادَ جان إلى الأتصالِ بي. «نَحْنُ مَعْنِيونَ بأنَّ نَدَعُكَ تُعلِّمين، فيرا. يُمكنُنا أن نُجربَ الأمرَ ونرى هل يجري معكِ حَسَنًا.»

بعدَ المُخَابَرَةِ الهاتِفِيَّةِ القصيرةِ، تنفَّستُ الصُّعداءَ طويلًا، والتفتُّ إلى أخواتي، وقد كُنَّ يَتَبَسَّمْنَ معي. «حَسَنًا، تخميني أنَّ الأمرَ كانَ ما أرادَهُ اللهُ لي. لقد حَلَمْتُ بهذا مُدَّةً طويلةً جدًّا. لا أستطيعُ أن أعرفَ ما إذا كنتُ أَكثَرَ ابتهاجًا وحماسةً، أو مُرتاحةً فحسب!» وضحكتُ بِسرورٍ بالغ. «سأبذلُ أفضلَ ما عِندي. لا يسعُنِي الانتِظارُ حتَّى أبداً.»

أمضيتُ الأسابيعَ القليلةِ التَّالِيَةَ مُخَطَّطَةً ومُحَضَّرَةً بِكثيرٍ من النِّشاطِ والترُّفُّبِ. وكانت لينا وجوانُ مُساعِدَتِي الأساسِيَّتَيْنِ الجديرتَيْنِ بالثِّقةِ والاعتمادِ في كلِّ ما لم أستطِع القيامَ به بِنَفْسِي. وأردتُ أن تكونَ عُرْفُهُ صَفِيًّا جميلةً وتربويَّةً أيضًا. وإذ تذكَّرتُ سَنَواتِي الخاصَّةَ في المرحلةِ الثَّانَوِيَّةِ، اخترتُ قِطْعَةً شِعْرِيَّةً من نظمِ جان اغرينيليفِ وتيرِ كِفكرةٍ رِئِيسِيَّةً في لوحَةٍ بلاغاتي.

«ما زالَ مبنى المدرسةِ قاعِدًا بجانبِ الطَّرِيقِ...» اقتبستُ من الذَّاكرةِ. وخطَّت لينا بِدِقَّةٍ أوَّلَ ثلاثةِ أبياتٍ من قصيدةٍ «في أَيَّامِ المدرسةِ» مُحاذاةً قُصاصاتٍ زاهيةِ الألوانِ لِتلميذِي مدرِّسةِ يَدَيهِمَا دَلُوا غداءً، ثبَّتتها بالدُّبابيسِ في الأمِكِنَةِ الدَّقِيقَةِ التي حدَّدتُها لها.

«انظري، فيرا. إنها تبدو جميلة.»

فوافقت بحماسة: «تُعجِبُنِي. وأفضلُ الأجزاء كُلُّها أبياتُ الشُّعر. لا أُطِيقُ الانتِظارَ حتّى أُعلِّمَ تلاميذي الكَلِماتِ استِظهارًا.»  
وسألتُ جُوآنَ، من حيثُ كانتُ تصعُ الكُتُبَ في مكانها: «ماذا لو كانوا لا يُجِبُونَ الشُّعر؟»

فقلتُ بثقة: «أوه، الشُّعرُ مثلُ الموسيقى. لا شكَّ أنَّهُم سيُحِبُّونه حالما يفهمون كم هو جميلٌ ومُغنٍ. قُولِي الأبياتِ معي، لينا.» وإذ أزاحت لينا خُصلةَ شَعْرٍ داكِنةً عن وجهها، وهي تبتسِمُ ابتسامَةً عريضةً، تَلَّتِ الكَلِماتِ بلَهجَةٍ إلِقاِيَّةٍ مُنَعَّمَةٍ. وانضَمَمْتُ أنا إليها.

«ما زال مبنى المدرسة قاعدًا بجانب الطريق،

شَحَاذًا رَثَّ الثِيَابِ نائمًا.

حوالِيهِ ما زالت شُجيراتُ السَّمَاقِ تنمو،

وعُلَيقاتُ التُّوتِ الأسودِ تحبو.

في الدَّاخلِ مَكْتَبُ الأُسْتاذِ يَرى،

عميقَ النُّدوبِ مِنَ الطَّرِقاتِ الرِّسْمِيَّةِ؛

والأرضيَّةُ غيرُ المُستوية، والمقاعدُ المُخلَّعة،

والأحرفُ الأولى المحفورةُ بِسِكِّينِ جَيْبِ،

والتِّصاوِيرُ الفحميَّةُ على جِدارها،

وبابها الذي ما زالَ باليًّا،

واشيًّا بالأقدامِ التي دَبَّتْ بطيئَةً إلى المدرسة

نُمَّ خَرَجَتْ مُنَدِّفَةٌ كعاصِفَةٍ إلى الملعب!»

لم أستطع أن أُحصِيَ عددَ المرَّاتِ التي فيها ناورتُ نَزولًا على الدَّرَجِ في الطَّابِقِ التَّحتانيِّ من مبنى الكنيسة إلى غُرفةِ صَفِّي في أسابيعِ الاستعدادِ تلك. فقبلَ الأسبوعِ الافتتاحيِّ للمدرسة، كنتُ قد بدأتُ أَخِذُ حُرِّيَّتِي في غُرفةِ صَفِّي كأنَّها بيتي.

كانت المدرسةُ مبنًى مُرتَّباً ذا سَقْفٍ من قَرْمِيدٍ وَجُدْرانٍ بِيضاءٍ، وِراءَهُ تَلَّةٌ مُرتَفَعَةٌ مُشَجَّرَةٌ. ومُقابلَ مَبْنىِ المَدْرَسَةِ العائِلِيّ، التَقَى طَرِيقاً روثَسْتَرٌ ونُكسٌ في زاوِيَةِ. وقد شَكَّلَ الطَّابِقُ الأَرْضِيَّ حَرَمَ كَنِيسَتِنَا، كَنِيسَةِ الشَّرِكَةِ المَسِيحِيَّةِ. أمَّا الطَّابِقُ التَّحْتَانِيُّ فَكانَ المَكانَ الَّذِي فِيهِ اسْتَقَرَّتْ غُرَفُ الصُّفوفِ في مَدْرَسَةِ مَنيرِفا المَسِيحِيَّةِ بِانْتِظارِ التَّلَامِيذِ.

ما بَرِحَتِ المَدْرَسَةُ ناشِطَةً على مَدَى سِتِّ سَنِينَ فَقط. وإِذِ أَطْلَقَها لَسَتَرَ وَجِينِ هيرشِبِرغَرٍ بِرُؤْيِيَةٍ إلى تَربِيَةِ تَنَسُّمٍ بِالتَّقْوَى لأولادِهِما، تَوَلَّى دَوْرَ أَوَّلِ مُعَلِّمِينَ فِيها. وقد أَحسَسْتُ عِباةَ مَسْؤُولِيَّةِ عَن خَيْرِ تَلَامِيذِي الرُّوحِيِّ لَمَّا نَظَرْتُ بِعَيْنِ الاعْتِبارِ إلى هَذا الثَّرائِ. فَسَيَقْتَضِي الأَمْرُ أَكْثَرَ مِن مُجَرَّدِ تَعْلِيمِ أساسِيَّاتِ المِكتابِ المَقَدَّسِ وإِدارَةِ فَتْرَةِ التَّعَبُّدِ كُلِّ صَباحٍ. إِذِ أَرَدْتُ لِتَلَامِيذِي أَن يَعْرِفُوا وَيُحِبُّوا الرَّبَّ بِأَنفُسِهِم، وَأَن يَروا مَحَبَّتَهُ فِيَّ مِن خِلالِ تَدْرِيسِي لَهُم. وَإِذِ وَضَعْتُ هَذا في ذِهْنِي، شَرَعْتُ أَكْتُبُ تَعَهُدَ مُعَلِّمَةٍ يُعَبِّرُ عَن أَشْواقِي بِكَلِماتٍ مُحدَّدة. ولَمَّا أُنَجَرْتُهُ، قَرَأْتُهُ وَأَعَدْتُ قِراءَتَهُ قَبْلَ أَن أَطوِيَهُ وَأَحْفِظَ بِه كِي أَقْرَأَهُ لِتَلَامِيذِي فِي أَوَّلِ صَباحٍ مِنَ التَّدْرِيسِ.

ثُمَّ إِنَّ أُخْتِي دَليلةَ وَجُودِي وَأُخِي دايْفِدَ سَيَكُونونَ جَمِيعاً تَلَامِيذَ لي تِلْكَ السَّنَةِ. كَما أَنَّ دَليلةَ، وَقد كانَتِ في الصَّفِّ العاشِرِ، صارتِ أَيْضاً مُساعِدَتي في التَّعْلِيمِ. وَسَتَعَمَلُ لي عِدَّةُ أَشياءَ مُفِيدَةٍ، كَتَزيينِ لُوحَةِ البَلاغاتِ وَكِتابَةِ الأُمُوثالِ اليَومِيَّةِ على اللُّوحِ الأَسودِ. في الأَسابِيعِ السَّابِقَةِ لِبَدءِ المَدْرَسَةِ، كانَ لَدَيْهِم أَشياءٌ يُحَضِّرُونها أَيْضاً. وَكانَ أَحَدُ هَذهِ المِشارِيعِ تَلْبِيقُ تَوْبِينِ أَرزَقِينَ لِجُودِي ودَليلةَ. وَقد قالَتِ لي دَليلةَ: «أَنتِ تَعَلِّمِينَ أَنَّنِي لا أَعْرِفُ أَن أَحْبِطُ. وَلَكنَّ إِن قُلْتُ لي كَيفَ، أَعْرِفُ أَنَّنِي أَستَطيعُ ذَلِكَ. لَدَيَّ الثُّوبانِ كِلاهُما مُفَصَّلِينَ.» فَغالِباً ما كانَتِ هَذهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي بِها عَلِمْتُ إِخَوْتِي وَأُخواتِي الأَصغَرَ سَناً أَن يُنَجِرُوا الأَشياءَ. إِذِ تَعَلَّمْتُ بِمِراقَبَةِ الأَخَرِينَ، وَمِن ثَمَّ اسْتَطَعْتُ أَن أَقولَ لَهُم حُطوَةً فَحُطوَةً تَماماً كَيفَ يُعَمَلُ شَيءٌ ما، سِوِءاً أَكانَ تَزيينَ قَالِبِ حَلوِي، أَمْ طَبَخَ دِيكُ رُومِيٍّ، أَوْ خِياطَةَ ثُوبِ.

وَافقَتُ قائلَةَ: «جَيِّدٌ، دَليلةَ، أَسليكي الحَيطَ في مَكَنَةِ الخِياطَةِ. ما زِلْتُ أَشغَلُ بِبِرنامِجِي لِلْمَدْرَسَةِ، وَلَكنَّني أَستَطيعُ القِيامَ بِذلكِ وَأَنتِ تَنفُذِينَ كُلَّ حُطوَةٍ وَسَطِ التَّوَجُّهاتِ.» وَشاهَدْتُ شَكْلَها النَّحِيلَ يَندَفِعُ عَبرَ البابِ ثُمَّ يَتوارى، لِتُحَضِّرَ ما دَعَتْ إِلَيْهِ الحَاجَةُ لِأَجْلِ مِشروعِها. لَقَد كانَتِ دائِماً مُفَعِّمَةً بِالنَّشاطِ والحَيَويَّةِ والمِرحِ. وَقد

تطلّعتُ فُدمًا إلى وجود إخوتي وأخواتي ضمنَ تلاميذِ صَفِّي، إلّا أنّني أيضًا شعرتُ بالترّفزة حِيالَ ذلك. فرَجوتُ أن أكونَ قادرةً على الامتناع من إظهار الانحيازِ بأيّةِ طريقة.

وإذ ألقيتُ نظرةً شاملةً على برنامجي الأسبوعي، غيّرتُ تفصيلًا في حُطِّ عَصْرِ الأربعاء ونقلتُ حصّةَ الرِّياضيّاتِ من ساعةٍ في الصّباحِ إلى أُخرى. كان البرنامجُ قد اكتملَ تقريبًا، ولكنني لم أكن راضيةً به تمامًا بعد. فإنّ شيئًا ما بدا ناقصًا. أكان مُنظّمًا أكاديميًا فوق الحدِّ؟ لعلّي احتجتُ لأنّ أزيدَ وقتًا أكثرَ إبداعيةً بقليل في مكانٍ ما. وفيما كنتُ أفكّرُ مليًا في هذه المسألة، صرّحتُ دليلاً بأنّها باتت مُستعِدّةً للمباشرة.

«حسنًا، ستأخذينَ قِطعتي القُماشِ هاتينِ وتقليبينهما هكذا. ثمّ ينبغي لكِ أن تدرّزيهما معًا على طولِ هذه الحاشية.»

«حسنًا.» باشرتُ بشوق، وسُرعانَ ما قِطعتُ شَوطًا طويلًا في مشروعها. كما أنجزتُ أنا برنامجي، وأحضرتُ لنا ماما شايًا مثلجًا لترتشفهُ ونحنُ نشتغل.

وإذ وجّهتُ دليلاً القُماشِ الخفيفَ تحتَ إبرَةِ المكنةِ المُتكتكة، سألتُ بلِباقةٍ مُتحدّثةٍ بارعة: «أأنتِ مُتحمّسةٌ بشأنِ التّعليم؟»

فأجبتُ بتفكيرٍ واهتمام: «نعم، أظنُّ ذلك. إنّ الاستعدادَ عملٌ شاقٌّ أكثرُ ممّا توقّعتُ. ولكن بوجود كلِّ المساعدة التي توافرت لي، أعتقدُ أنّني مُستعِدّةٌ تقريبًا.»

«سُتبلينَ حسنًا، لا شكَّ عندي. والآنَ كيفَ قُلتِ أن البَسَ هذه التُّنورة؟» وقبلَ أوّلِ يومٍ من المدرسة، كانت دليلاً قد خيَّطتُ ثوبينِ وعِلِمَتُ كيف تُخيّطُ وحدها دونَ مُساعدةٍ مِنِّي.

وفيما هيَ وجُودي تُجرِّبانِ لباسهما المنجَز، قلتُ مؤكّدةً: «يبدو جميلًا عليكما! مُمتازٌ لأوّلِ يومٍ في المدرسة.»

طلعَ الصّباحُ صافيًا ومُشرقًا، وأمضيتُ وقتًا إضافيًا في الاستعدادِ لِلنّهار. كان ينبغي أن يكونَ كلُّ شيءٍ صحيحًا تمامًا. وشعرتُ بمزيجٍ من الابتهاجِ والحماسة، والفرعِ والتّصميم، يطمؤني داخلي إذ اقتربتُ لحظةً مُغادرتي إلى المدرسة. وقالت لي ماما عندَ البابِ مُحدّثةً: «أرجو أن يجري نهاركُ حسنًا. لا تُرهقي نفسك!»

فوعدتُ: «لا تقلقي. سأكونُ بخير.» ولكنني داخليًا قلّقتُ. هل أتعبُ فوقَ الحدِّ فلا أكملُ النّهار؟ ما كان ممكّنًا أن أتراجعَ الآن. لقد التزمتُ. وهكذا زفرتُ صلاةً صامتة.

يا ربُّ، أنتَ دَعَوْتَنِي إلى هذا، وأَعَلِمْتُ أَنَّكَ سَتُسَاعِدُنِي. سَاعِدْنِي فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ حَتَّى لَا أَخَافُ، بَلْ أَمْضِي إِلَى الْأَمَامِ وَأَقُومَ بِمَا أَنْتَ طَالِبُهُ مِنِّي. سَاعِدْ تَلَامِيذِي كَيْ يَكُونُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِقُبُولِي مُعَلِّمَةً لَهُمْ. وَيَا رَبُّ، سَاعِدْنِي كَيْ أَعَلِّمَ جَيِّدًا وَأَعَلِّمَ تَلَامِيذِي مَعْنَى الْحَيَاةِ. إِذْ دَخَلَ كُلُّ تَلْمِيذٍ إِلَى عُرْفَةِ صَفِّي فِي رَتَلٍ، كَانَ مُعْظَمُهُمْ أَطْوَلَ قَامَةً مِنِّي. وَمَلَّا كَانَ طُولِي مِتْرًا وَسَبْعَةً وَعَشْرِينَ سَنْتِيْمِتْرًا فَقَطْ، وَوَزَنِي لَا يَتَعَدَّى ثَلَاثِينَ كِيلُوغْرَامًا، عَلِمْتُ أَنَّني لَنْ أَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ بِالْقُوَّةِ. فَسَيَكُونُ عَلَيَّ أَنْ أَكْسِبَ قُلُوبَهُمْ. وَذَلِكَ كَانَ هَدْيِي فِي التَّعْلِيمِ، حَتَّى لَوْ كَانَ حَجْمِي ضِعْفِي مَا هُوَ عَلَيْهِ.

«صباحُ الخير، رُوْثَ آن. صباحُ الخير، ولس.»

«صباحُ الخير، أُخْتُ فَيْرَا.»

«وليس، هذه طبقَتُكَ. رُوْثَ آن، ستَقْعُدِينَ هُنَا بِجَانِبِ رَايْشِلِ اسْتَوْلْتِرْتِص.»

وَمَلَّا كَانَ جَمِيعُ تَلَامِيذِي الْاِثْنِي عَشْرَ، مِنْ الصَّفِّ السَّادِسِ حَتَّى الصَّفِّ الْعَاشِرِ، قَدْ وَجَدُوا مَقَاعِدَهُمْ، افْتَتَحَتْ النَّهَارَ بِالصَّلَاةِ. ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ، أَخَذْتُ نَفْسًا عَمِيْقًا وَابْتَسَمْتُ لِلْوُجُوهِ الْمُتَرْقِبَةِ قُدَّامِي.

وَبَادَرْتُ قَائِلَةً: «لِي الشَّرْفُ بِأَنْ أَكُونَ مُعَلِّمَتُكُمْ هَذِهِ السَّنَةِ. هَدْيِي أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ تَرْبِيَةٍ اسْتَطْبَعُهَا، وَأَيْضًا أَنْ أَتَشَارَكَ مَعَكُمْ فِي بَهْجَةِ التَّعْلِيمِ. وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ نَبْدَأَ دَرُوسَنَا، أَوَدُّ أَنْ أُنَاقِشَ بَعْضَ الْأُمُورِ.»

أَصْعَوْا إِلَيَّ بِانْتِبَاهٍ إِذْ شَرَحْتُ بِطَرِيقَةٍ عَمَلِيَّةٍ وَمُخْتَصِرَةٍ فَيُودِي وَإِعَاقَتِي، وَكَيْفَ سَاحْتَاجُ إِلَى مُسَاعَدَتِهِمْ لِي وَتَعَاوُنِهِمْ مَعِي حَتَّى تَجْرِي الْأُمُورُ بِسَلَاةٍ. «وَالآنَ، أُرِيدُ أَنْ أَشَارِكُكُمْ فِي تَعَهُدٍ مُعَلِّمَةٍ كَتَبْتُهُ لِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ. وَأُرِيدُ لَكُمْ أَيْضًا أَنْ تَعْرِفُوا مَا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَتَوَقَّعُوهُ مِنِّي.» ثُمَّ نَظَرْتُ مِنْ عَلُ إِلَى الْوَرَقَةِ الْبَيْضَاءِ الْمُتَمَوِّجَةِ عَلَى مَكْتَبِي وَنَظَّفْتُ حَنْجَرَتِي مُتَّحِنَةً.

«أَتَعَهُدُ بِوَقَارٍ، أَمَامَ اللَّهِ وَفِي حَضْرَةِ تَلَامِيذِي، بِأَنْ أَقْضِيَ حَيَاتِي فِي الطَّهَارَةِ وَأَمَارِسَ مِهْنَتِي بِأَمَانَةٍ، سَأَمْتَنِعُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ مُؤَدٍّ، وَلَنْ أَقُدِّمَ بِعِلْمٍ مِنِّي أَيَّ مُعْتَقِدٍ ضَارٍّ. سَأَبْدِلُ كُلَّ مَا فِي طَاقَتِي لِأَصَوْنٍ وَأَعَزَّرَ مَقَامَ مِهْنَتِي، وَأَبْقَى أَمِينَةً عَلَى جَمِيعِ الشُّؤُونِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي يُعْهَدُ إِلَيَّ بِحِفْظِهَا، وَعَلَى جَمِيعِ الشُّؤُونِ الْعَائِلِيَّةِ الَّتِي تَدْخُلُ نِطَاقَ مَعْرِفَتِي فِي مُمَارَسَةِ دَعْوَتِي. وَبِإِخْلَاصٍ سَأَسْعَى إِلَى مُسَاعَدَةِ التَّلْمِيذِ فِي عَمَلِهِ، وَإِلَى تَكْرِيسِ نَفْسِي لِخَيْرِ الْمَوْضُوعِينَ فِي عَهْدَتِي.»

تمهّلتُ بانتظارِ الاستجابة. وإذا بكلِّ عَيْنٍ تُثَبِّتُ على وجهي. لقد كانوا يُصغونَ جيّدًا. فرجوتُ أنّي كنتُ مُعَبَّرَةً حَسَنًا عن تَوْقي الشَّدِيدِ للاعتناء بِنُفوسِهِمْ ومُصادِقَتِهِمْ. وبعدمَا فَرَعْتُ من قِراءةِ باقِي التَّعْهُدِ، التَّقَطُّتُ قَلَمًا ووقَّعتُ الوثيقةَ بِاسْمِي.

بعدَ فترةِ التَّعَبُدِ، أمضيتُ باقِي النَّهارِ مُعَيَّنَةً النَّصُوصِ لِمُخْتَلَفِ الصُّفُوفِ، مُذَكِّرَةً التَّلَامِيذَ بِنِظامِ المِدرسةِ الأَسَاسِيِّ، ومُراجِعَةً إِجْرَاءَاتِ عُرْفَةِ الصَّفِّ. سَيَكُونُونَ مُسَاعِدِينَ لي في أَنْشِطَةٍ عَدِيدَةٍ لا أَسْتَطِيعُ القِيَامَ بِهَا بِنَفْسِي، مِثْلَ وَضْعِ كُتُبِي في التَّرْتِيبِ المُنَاسِبِ لِأَجْلِ الصَّفِّ التَّالِي، وَفَتْحِ الكُتُبِ إلى الصَّفْحَاتِ الصَّحِيحَةِ. شَعَرْتُ بِأَنَّ اليَوْمَ الأَوَّلَ كانَ حَافِلًا بِالعَمَلِ وَالتَّنْظِيمِ، إِلَّا أَنِّي شَعَرْتُ بِأَنَّ قَلْبِي أَحَدًا أَصَلًا يَرْتَبِطُ بِتِلْكَ المِيزَانِ. لَقَدْ بَدَوا تَوَاقِينَ أَنْ يُسَاعِدُوا، إِذِ اتَّاهَمُ شَعُورًا طَيِّبًا أَنْ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى القِيَامِ بِأَشْيَاءَ لِأَجْلِي. فلم أَطِقِ الاِنتِظَارَ حَتَّى أَعُوضَ فِي التَّعَلُّمِ مَعَهُمْ!

كانت بُقْعَةُ نَهَارِي الأَشَدَّ إِشْرَاقًا قَبْلَمَا فُرِعَ الجَرَسُ النَّهَائِيُّ، لَمَّا طَلَبْتُ مِنَ التَّلَامِيذِ أَنْ يَقرَأُوا مَعِي بِصَوْتٍ عالٍ قَصِيدَةً «في أَيَّامِ المِدرسةِ». وإِذْ تَكشَفَتِ القِصَّةُ عِبرَ الشَّعْرِ، شَجَّعْتُهُمْ عَلَى بَثِّ التَّعْبِيرِ وَالعَاطِفَةِ داخِلَ الكَلِمَاتِ. فَقَدْ قَلْتُ مُوجِّهَةً: «تَصَوَّرُوا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ هُنَاكَ. ماذا تَرَوْنَ من خِلالِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ؟»

لَمَّا وَلَجْتُ البَيْتَ عَصَرَ ذَلِكَ اليَوْمِ، مُرْهَقَةً لَكِنْ سَعِيدَةً، لَاقَتْنِي ماما عِنْدَ البَابِ بِابْتِسَامَةٍ قَلْفَةٍ. وَرَحَّبَتْ بِي كَأَسَانٍ مِنَ الشَّايِ المُنْتَلَجِ إِلَى طَاوِلَةِ المَطْبَخِ. فَعَدَدْتُ وَتَلَوَّيْتُ لِاتِّخَاذِ الوَضْعِيَّةِ المُنَاسِبَةِ. وَبِتَنْهَدَةٍ، سَحَبْتُ الكَأْسَ المُصَقَّعَةَ نَحْوِي.

سَأَلْتُ ماما بِحَذَرٍ: «حَسَنًا، كَيْفَ كانَ نَهَارُكَ الأَوَّلِ؟»

تَنَاوَلْتُ رَشْفَةً مِنَ الشَّايِ المُحَطَّرِ الحُلُوِّ وَابْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. «تَمَامًا كَمَا خَطَّطْتُ لَهُ أَنْ يَكُونَ.» ثُمَّ أَخَذْتُ رَشْفَةً أُخْرَى وَأَنَا مُسْتَغْرِقَةٌ فِي التَّفَكِيرِ. «أَطْنُ أَنَّنِي وَجَدْتُ ما قُصِدَ لي أَنْ أَفْعَلَهُ.»

عِنْدئذٍ تَمَامًا دَخَلَتْ جُوآنُ مِنَ حُجْرَةِ الجُلُوسِ. وَابْتَسَمَتْ مُغَايِظَةً: «هَلِ أَحَبَّتْ تَلْمِيذَتَاكَ الشَّعْرَ؟»

فَأَجَبْتُ فورًا: «أَسأَلِيهِمَا!»

وَحالِمَا دَخَلَتْ دَلِيلَةَ المَطْبَخِ، أَعْلَنْتُ: «سَأخُذُ شَيْئًا مِنَ الشَّايِ. ثُمَّ هَذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ وَأَخْرُ مَرَّةً فِيهَا نَلْبِسُ دَيْنِكَ التَّوْبِينَ اللَّذِينَ كَدَحْتُ كَدْحًا شاقًّا لِصُنْعِهِمَا.» وَرَأَيْتُ حَالًا أَنَّهَا قَدْ بَدَلَتْ بِثُوبِهَا الأَزْرَقِ ثُوبًا يَوْمِيًّا عَادِيًّا.

فسألت جُوآن: «ماذا جرى؟»

«مُعَلِّمَةُ الصُّفوفِ الأَدْنَى اعقَدَت أَنَّ القُماشَ أَرَقُّ ممَّا ينبغي. طَلَبَت مِنَّا أَلَّا نرتديَهُما مرَّةً أُخرى، وبعثت بِتذكيرٍ إلى والدَيِّنا.» ثُمَّ أكملت جُودي القِصَّةَ إذ دخلت ماشيةً الهُوَينى لِتُشاركَ في الحديث. «لا أدري لماذا أحسَّت كذلك، ولكن كما تقول ليلَّة، ستكونُ هذه آخِرَ مرَّةٍ فيها نلبسُهُما إلى المدرسة.»

وأبدت ماما مُوافقتها: «هذا جيِّد، يا بنتان. يسُرُّني أنَّكما تحترمانِ السُّلطة.»

«ولكن عودًا إلى الشُّعر: هل أحببْتُما، أنْتُما البتَّينِ، القصيدة؟» غمزتني جُوآن بعينها، وحدقتُ أنا إليها.

«بالتأكيد.» ونقفت دليلاً إلى فمها قِطعةً من كُعيكَةِ شوكولا مَبشُور. «إنَّها أفسى على إخوتها وأخواتها ممَّا هي على التلاميذ الآخرين، ولكنَّ الشُّعرَ جميل.» فكَرْتُ في الاحتجاج، ولكنِّي علمتُ أنِّي لن أكسبَ الجِدال. وهبَّت جُودي لِتجدتي. «أنا أحببتُ القصيدة، فِيرا.»

انصرفتُ التُّلاثُ من المطبخِ واحدةً فواحدةً، وابتسمتُ لي ماما برقةً. «ينبغي أن تستريحى الآن، فِيرا. سيكونُ العَدُّ يومًا كبيرًا آخر.»

وإذٍ استلقيتُ على الصُّوفا، فكَرْتُ مليًا في اليوم، وصليتُ لأجلِ كُُلِّ من تلاميذي. وصليتُ لأجلِ نفسي أيضًا، حتَّى أتمكَّنَ بمعونَةِ الله من الوفاء بتعهُدِ المُعلِّمةِ الذي التزمته.



## تعلّم المنحيات

تساقطت رقائقي ثلجٍ مندوفهٌ خفيفهٌ على مهلٍ في جوِّ شُباط البارد. وارتجفتُ قليلاً إذ دخلتُ مبنى المدرسة وورائي تماماً دليلاً وجُودي. وذكّرتُ جُودي من فوقِ كتفي: «انتبهِي إلى تلك الكعكات الكأسيّة!»

فأجابت فوراً: «أنا مُنتبهة. لا تقلقي!»

«إدّاً سنحتفلُ بعيدِ فالنتين اليوم!» غمزتني دليلاً بعينها وجلّلت ضحكها المغايظة في العُرفة المدرسيّة الفارغة لدى دخولنا.

أجبت بحماسةٍ ومرحٍ: «أعتقدُ أنّ هذا الأمر سيُعطي كلَّ شخصٍ شيئاً جيّداً يُفكرُ بشأنه. وسيكون منبراً مُمتازاً كي نتحدّث عن مُشكلة تمرير الملاحظات، تلك التي ما برحتُ أريدُ التّطرُقُ إليه منذُ تلك الحادثة في الأسبوع الأخير. واعلمنا أنّ أيَّ عُذرٍ لإقامة حفلةٍ يجعلُنِي أريدُ ذلك.»

قالت جُودي مؤكّدةً: «حسنًا، الكعكات الكُوبيّةُ هذه تبدو جيّدةً كثيرًا!»

فقالت دليلاً مُتشدّقةً: «وكلُّ شخصٍ في مرحلة الصّبا يحتاجُ إلى شيءٍ من صَبِطِ قِصصِ الغرام.» ثمَّ ضحكت هي وجُودي، وضحكتُ أنا معهما.

وقلتُ مؤيّدةً: «بلا شك! من منّا لم تختبرِ افتتاحاتٍ في المدرسة؟» ثمَّ أضفتُ مُترزّنةً: «ولكنّ ليس هذا شيئاً أريدُ أن أشجّع عليه. ينبغي للشّبيبة أن يكونوا قادرين على

التّواصل بطريقةٍ سليمةٍ دون التّورطِ رومَنسيًا فيما يكونونَ صِغارَ السّنِّ كثيرًا بعدُ. ثمَّ إنَّ ذلكَ يُنشئُ مشاكلَ بين الفتياتِ عندما تُغايظُ إحداهنَّ إذ يُقالُ لها: 'فلانُ الفلانيُّ يُحبُّكِ!'»

«لعلَّكِ على حقٍّ». وأكملتْ دليلاً تثبيتَ فُصّاتِ الوِردِ الأصفرِ التي حَصَرْتُها على لوحةِ البلاغاتِ، وتحتها كَلِمَتا «الصّدقاتُ الحقيقيَّةُ» مكتوبتينِ بِحَظٍّ يَدِ أسودَ بارزِ. وسُرعانَ ما بدأ التّلاميذُ الآخرونَ يَصلونَ. ولمَّا صارَ الاثنا عشرَ الذين في عَهدي على طَبقاتِهِم، افتتحتُ النّهارَ بِالصّلاةِ.

«جوني، هَلّا تتقدّمنا بالترنيمه الاستهلايّه هذا الصّباح، رجاءً!»

قوّمَ جوني كَتفَيه العريضتينِ وتقدّمَ إلى صَدْرِ العُرفه بِحَظٍّ واسعه. وتولّى بِصوتِهِ الجَهِيرِ القويِّ قيادهَ الباقيين في التّرنيمه «أدينُ لِلرَّبِّ بترنيمه تَشكُّرٍ وتَسبيحٍ صباحيّه...» فملأَ التّناغمُ الرُّباعيُّ الطّبقاتِ عُرْفَه الصّفِّ إذ رتلَ كُلُّ تلميذٍ حَسَبَ طَبَقَه صوتَه. لقدِ استَسَعَتْ هذه اللّحظّاتِ التي فيها راقبتُ وُجوهَهُم. وكنتُ قد تعودتُ أن أتأمّلَ كُلَّ تلميذٍ من تلاميذي بِقدْرِ الإمكان. فقد كانَ أسهلَّ عليّ أن أتواصلَ وأنفاهمَ معهم عندما شَعَرْتُ بأنني أعرفُ معنى تعابيرِهِم ولُغَه جسدِهِم وكيف تتفاعلُ شخصياتُهُم مع شخصيتي وشخصياتِ باقي التّلاميذ.

بعدَ حديثٍ عن الأصحاحِ الثّالثِ عشرَ من الرّساله الأولى إلى مؤمني كورنثوس، وما تعنيه محبّه الله الأعايب في حياتنا اليوميّه، تقدّمتُ إلى دَرسِ الرّياضيّاتِ الصّباحيِّ. لقد كانت الرّياضيّاتُ واللُّغه الإنكليزيّه أحبَّ مادّتينِ أُعلِّمُهُما. ففي الرّياضيّاتِ أعجبتني أنّهُ كانَ هناكَ دائماً إجابهُ واحدهٌ صحيحة. وقد شَعَرْتُ بأنّ ذلكَ مأمونٌ وملموّسٌ لديّ. وفي اللُّغه الإنكليزيّه، استمتعتُ بِجمالِ الكلماتِ التي تتلاءمُ جيّدًا بعضها مع بعض، وبتناسُفها. وجاهدتُ أكثرَ في ما خَصَّ تعليمَ العُلوم، مع أنّني أحببتُ عِلْمَ الطّبِّ وجمالَ العالمِ الطّبيعيِّ. ثمَّ انقضى ما بَقِيَ من الفتره الصّباحيّه بِامتحانٍ في مادّه التّاريخِ ودَرسٍ في الأدبِ من روايّه شكسبير الشّهيره «تاجرُ مدينه البُدقيّه».

عصرَ ذلكَ النّهارِ، أعلّمتُ تلاميذي أنّهُ بسببِ كونِ العيّدِ وطنيًّا، اخترتُ أن أُخطِّطَ لِعَصريّه خاصّه بدلًا من البرنامجِ المدرسيّ المُعتاد. وإذا تلميذتاي في الصّفِّ السّابع، مارثا وروثُ أن، انفجرتا في ابتساماتٍ سُورور. وبدا جوزفُ وماركُ مُتردّدين. أمّا تلاميذي الأكبرُ سنًّا، فابتسموا ابتساماتٍ عريضةً وانتظروا.

«في فكري، بالحقيقة، شيءٌ مُختلفٌ جدًّا عن المعتاد. فبدلاً من أن ندعوَ هذا اليومَ 'يومَ فالنتين'، أودُّ أن أدعوَه 'يومَ التَّقدير'. فعندما تكونون مع بعضٍ كلِّ حين، يسهلُ أن تصيروا أقلَّ حذرًا وتُغايظوا وتُغازِلوا وتُمرِّروا ملاحظات، ولكنني أودُّ حقًّا أن أشجّعكم على أن تُفكِّروا بشأنِ الأمور من منظورٍ مُختلفٍ.

«جميعُكم شبَّانٌ وشابَّات، صحيح؟»

حصلت إيماءةً جماعيةً إبداءً للموافقة. وكان كلُّ وجهٍ رزينًا، كما تورَّدت بضعةً أوجه.

«مؤخَّرًا، اتَّصل بي بعضٌ من أهاليكم بشأنِ مشكلةٍ أحسُّوا أنَّها تواجَه هُنا في المدرسة. وقد أطلعوني على كونهم قَلِقين بسببِ المُعَايَظَةِ التي أَخْبَرَهُمْ وَلَدَهُمْ أنَّها كانت جارية، خصوصًا بينَ الفتيات. فأريدُ لكم أن تعلموا أنني من الآن فصاعدًا لا أريدُ أن يجري ذلك في عُرفَةٍ صَفْنَا. يُمْكِنُنَا أن نَفْخَرَ ونَسْتَمْتِعَ بِصُحْبَةِ أَحَدِنَا لِلاَخرِ دونَ التَّرْكِيزِ على مَوْضوعِ قِصَصِ الحُبِّ، أو المُعَايَظَةِ بشأنِ حُبِّ شَخْصٍ لِآخِر. أَلَا تَعْتَقِدُونَ ذلك؟»

أوماً الجميعُ برؤوسهم مُوافقين. «شكرًا لكم؛ أنا مسرورة. أريدُ لِعُرفَةٍ صَفْنَا أن تكون مكانًا آمنًا، حيثُ يَتِمُّ التَّمَتُّعُ بِالصِّداقةِ والألفةِ، وكلُّ منكم يُريدُ أن نُقيمَ حفلةً عصرَ اليوم؟»

انفجرت وجوهُ رزينةٌ بِابتساماتٍ عريضة. «حفلة؟ بالتأكيد!» تشاركَ الجميعُ في هذا الرأي العامِّ.

«رائع!» وابتسمتُ. «لِنبدأُ حفلتنا بتمرينٍ منجَهيٍّ على التَّقدير. فليخترَ كلُّ منكم شيئًا من الجِنسِ نَفْسِه ويكتبُ مَلاحِظَةً لذلك الشَّخصِ تُبَيِّنُ كيفَ ولماذا يُقدِّره. مارثا، هل تُساعدِيني في توزيعِ الأوراق؟»

على مدى نصفِ ساعة، خربشتِ الأقلامَ بانهماكٍ على الورق، متوقِّفةً أغلبَ الأحيانِ فيما أشارت جِبهاتُ الوجوهِ المُغضَّنةِ إلى التَّرْكِيزِ في التَّفْكيرِ. وابتسمتُ إذ شاهدتُ التَّلَامِيذَ يَستثمرونَ أَفضَلَ ما عندهم في إتمامِ أمثولتي. وقد شعرتُ بِمَوَدَّةٍ حارَّةٍ لكلِّ منهم، إذ فُكِّرْتُ في مُختلفِ نِقاطِ قُوَّتِهِمْ وَضعْفِهِمْ. كنتُ في المساءِ السَّابِقِ قد أمْصِيتُ وقتًا في كتابَةِ مَلاحِظَةٍ تقديرٍ لكلِّ منهم. لقد علِّموني الكثيرَ حقًّا! وثِقْتِي الأَصْلِيَّةُ قد امتُحنتَ فَعَلًا. إذ كانوا مُتَعَاوِنِينَ، ولكنهم تَحَدَّوْني يَوْمِيًّا فيما كافحتُ كي أكونَ قُدوةً وأملًا عقولَهُمْ وقلوبَهُمْ لا مَعْرِفَةَ الكُتُبِ فقط، بل بالحقِّ أيضًا.

لَمَّا فَرَعَ الْجَمِيعُ مِنَ الْكِتَابَةِ، تَنَاطَبَ التَّلَامِيذُ عَلَى قِرَاءَةِ مُلَاحَظَاتِهِمْ بِصَوْتٍ عَالٍ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ تَوَرُّدِ الْخَدِيدِ أحيانًا، أَوْ تَحْرِيكِ الْقَدَمِينَ بِأَنْزِعَاجٍ، أَمْكَنَنِي أَنْ أَعْرِفَ مَنْ السَّعَادَةِ فِي عُيُونِ التَّلَامِيذِ وَمِنْ ابْتِسَامَاتِهِمْ أَنَّهُمْ تَبَارَكُوا عَلَى السَّوَاءِ بِأَنْ تُتَاحَ لَهُمْ قُرْصَةٌ لِمُبَارَكَةِ شَخْصٍ آخَرَ وَيَحْظُوا هُمْ شَخْصِيًّا بِالتَّعْزِيزِ وَالتَّشْجِيعِ.

ثُمَّ أَعْلَنْتُ: «وَالآنَ إِلَى الْكَعَكِ الْكَاسِيِّ، وَإِلَى حَدِيثٍ عَنْ مَعْنَى الصَّدَاقَةِ الْحَقِيقِيَّةِ.» فَتصَاعَدَ هُتَافٌ تَرْحِيبٌ جَمَاعِيٌّ بِالْكَعَكِ الْكُوَيْيِّ. وَقَدْ تَمَّ التِّهَامُهُ بِسُرْعَةٍ، لَكِنْ بِحُسْنِ سُلُوكٍ. وَكَانَ ذَلِكَ أَمْرًا آخَرَ أَصْرَرْتُ عَلَيْهِ فِي عُرْفَةٍ صَفِيٍّ. فَكَانَ لَنَا نِقَاشٌ مُفَعِّمٌ بِالْحَيَوِيَّةِ فِي الصَّدَاقَةِ، وَخْتَمْنَا النَّهَارَ بِصَدَاقَةٍ وَثِيقَةٍ وَوَحْدَةٍ عَمِيقَةٍ جَدِيدَتَيْنِ بَيْنَنَا.

فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْبَيْتِ عَصَرَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، بَدَتْ دَلِيلَةٌ فِي مِرَاجٍ أَكْثَرَ اسْتِبْطَانًا مِنَ الْمُعْتَادِ. «فِيرَا، أَتَطْتِنُ أَنْكَ سَتَتَزَوَّجِينَ ذَاتَ يَوْمٍ؟ أَعْنِي أَنْ أَفْرَدَ وَرُوثَ مُتَزَوِّجَانِ الْآنَ. أَنْجُبِينَ كَوْنِكَ عِزْبَاءً، أَمْ تُرِيدِينَ أَنْ تَجْدِي شَخْصًا مَا وَتَحْصَلِي عَلَى بَيْتِكَ وَعَائِلَتِكَ الْخَاصِّينَ؟»

«تَخْمِينِي أَنَّنِي لَا أَدْرِي، دَلِيلَةٌ. أحيانًا أَظُنُّ أَنَّنِي أَوُدُّ ذَلِكَ. وَلَكِنْ لَسْتُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّي سَأَمْتَكُنُّ أَصْلًا.» لَقَدْ أَطْلَعَ سَوَالِهَا إِلَى السَّطْحِ أَشْوَاقًا قَدْ تَجَاهَلْتُهَا زَمَنًا طَوِيلًا. هَلْ أَتَزَوَّجُ يَوْمًا؟ عَلِمْتُ أَنَّ قِيودي سَتَكُونُ عَقْبَةً هَائِلَةً. فَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ غَيْرَ وَارِدٍ كَلِيًّا، وَلَكِنِّي لَمْ أَعْتَبِرْهُ حَاصِلًا أَيضًا. وَقَدْ تَعَلَّمْتُ بِأَكْرَبٍ فِي سِنِي مُرَاهَقَتِي أَنْ أَكُونَ عَمَلِيَّةً بِشَأْنِ الْوَاقِعِ، رُغْمَ اسْتِيشَارِي الدَّائِمِ بِأَنَّ فِي وَسْعِي أَنْ أُجْرَبَ تَقْرِيبًا أَيَّ شَيْءٍ رَغِبْتُ فِي تَجْرِبِهِ.

إِذْ تَفَكَّرْتُ فِي هَذَا، أَدْرَكْتُ أَنَّنِي كُنْتُ حَقًّا قَانِعَةً حَيْثُ أَنَا. فَقَدْ أَحْبَبْتُ التَّعْلِيمَ. أَحْبَبْتُ الاسْتِثْمَارَ فِي حَيَاةِ تَلَامِيذِي وَإِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي. وَأَحْبَبْتُ التَّعْلَمَ وَالسَّفَرَ. لَقَدْ حَوَتْ حَيَاتِي عُنَاصِرَ عَجِيبَةً كَثِيرَةً. فَكُنْتُ مُبَارَكَةً حَقًّا، وَعَلِمْتُ أَنَّنِي عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَشْوَاقِي أحيانًا سَأَسْتَمِرُّ قَانِعَةً. لَقَدْ اخْتَرْتُ هَذَا السَّبِيلَ، وَكَانَ هَذَا حَيْثُ دَعَانِي اللَّهُ.



«أُخْتُ فِيرَا، لَيْسَ هَذَا إِنْصَافًا. كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُحْتَجَزَ اسْتِرَاحَتَيْنِ عَلَى التَّوَالِي حَتَّى الْآنَ، فَقَطْ لِأَنَّ التَّلْمِيذِينَ الْآخَرِينَ فِي صَفِّي لَمْ يَنَالَا مِثْلَهُ عَلَى مِثْلِهِ فِي امْتِحَانِهِمَا بِمَادَّةِ الرِّيَاضِيَّاتِ. وَأَنَا نِلْتُ مِثْلَهُ عَلَى مِثْلِهِ فِي كِلْتَا الْمَرَّتَيْنِ.»

«إِبْقِي فِي الدَّخْلِ هَذِهِ الْمَرَّةَ. سَأَتَدَبَّرُ هَذَا الْأَمْرَ.» هَكَذَا أَجَبْتُ بِتَفْهَمٍ وَاهْتِمَامٍ. لَقَدْ بَدَأَ أَنْ نِظَامَ وَضَعِي لِلْعَلَامَاتِ كَانَ يُسَبَّبُ بَعْضَ الْمُضَاعَفَاتِ. إِذْ كُنْتُ قَدْ اعْتَمَدْتُ نِظَامَ

مُكَافَأَةٌ مُؤَسَّسًا عَلَى عِلَامَاتِ الصَّفِّ بِكَامِلِهِ. فَإِذَا نَالَ صِفًّا بِكَامِلِهِ عِلَامَةً مِثَّةً عَلَى مِثَّةٍ فِي الْمَادَّةِ الْمُخْتَارَةِ لِذَلِكَ الْأُسْبُوعِ، سُمِّحَ لِتَلَامِيذِهِ بِأَنْ يَخْرُجُوا لِلِاسْتِرَاحَةِ. وَإِلَّا احْتَجَزُوا وَأَعْطُوا مَسَائِلَ إِضَافِيَّةً لِيَسْتَغْلَوْهَا بِهَا. وَالآنَ لُفِتَ انْتِبَاهِي إِلَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يُسَبِّبُ إِحْبَاطًا لِدَى تَلَامِيذِي الَّذِينَ تَفَوَّقُوا. فَلَمَّا كَانَ مِنْهُمْ بِالطَّبِيعَةِ أَقْلٌ مِيَلًا إِلَى مَادَّةٍ مُعَيَّنَةٍ لَا يُحِرِّزُونَ عِلَامَاتٍ عَالِيَةً كَأَوْلئِكَ، كَانَ الصَّفُّ كُلُّهُ يُعَانِي. وَلَمْ يَسْبِقْ لِي أَنْ أُدْرِكْتُ أَنَّ هَذَا سَيَكُونُ شَأْنًا يُثِيرُ النَّقَاشَ وَالخِلَافَ.

مَا بَرِحَ قَصْدِي الْأَصْلِيُّ أَنْ أُشَجِّعَ عَلَى التَّنَافُسِ السَّلِيمِ وَالِإِنْجَازِ الْجَمَاعِيِّ. وَكُنْتُ مُتَعَلِّمَةً بِسُرْعَةٍ أَنَّنِي سَأُضْطَرُّ إِلَى إِجْعَادِ طَرِيقَةٍ أُخْرَى. وَقَدْ نَشَأَ حَافِزِي لِإِحْدَاثِ نَقْلَةٍ كَامِلَةٍ فِي نِظَامِ تَقْيِيمِي لَمَّا اكْتَشَفْتُ أَنَّ وَاحِدًا مِنْ تَلَامِيذِي الْأَقْلَ أكَادِمِيَّةً تَعَرَّضَ لِلسُّخْرِيَةِ الْمُهْمِنَةِ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ اضْطَرُّوا إِلَى الْبَقَاءِ فِي عُرْفَةِ الصَّفِّ عِنْدَ الْاسْتِرَاحَةِ بِسَبَبِ إِخْفَاقِهِ فِي الْأَدَاءِ وَالِإِنْجَازِ. وَمِنْ ذَلِكَ الْأُسْبُوعِ فَصَاعِدًا بَدَأْتُ أَضَعُ الْعِلَامَاتِ لِلتَلَامِيذِ عَلَى إِجْرَائِهِمُ الْفَرْدِيِّ وَأُكَاثِفُهُمْ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ. بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَالْفَيْئَةِ، كُنْتُ أَطْلُبُ مِنَ الصَّفِّ كُلِّهِ أَنْ يَسْتَغْلَلَ مَعًا فِي مَشْرُوعٍ مُعَيَّنٍ لِلْفَوْزِ بِمُكَافَأَتٍ، وَلَكِنْ لَمْ أُعِدْ قَطُّ اعْتَمِدُ ذَلِكَ كِنِظَامِ تَقْيِيمِ رَيْسِي لَدَيَّ.

رُغِمَ هَذِهِ النَّقْلَةُ، طَلَبْتُ الْكَثِيرَ مِنْ تَلَامِيذِي. وَقَدْ نَهَضُوا لِتَلْبِيَةِ التَّحَدِّيِّ، وَقَلَّمَا خَابَ أَمَلِي بِهِمْ. كَانَتْ قِضَايَا التَّأْدِيبِ نَادِرَةً فِي تِلْكَ السَّنَةِ الْأُولَى. وَكَانَ لِي أَنْ أُوَجِّهَ مِنْهَا أَكْثَرَ بَكْتِيرٍ فِي السَّنِينَ الْآتِيَةِ، خُصُوصًا بَعْدَمَا انْتَقَلْتُ إِلَى تَعْلِيمِ الصُّفُوفِ الْأَدْنَى. وَلَكِنَّ تِلْكَ السَّنَةَ الْأُولَى سَارَتْ كَرَتَلٍ عَسْكَرٍ مُنْظَمٍ، مَعَ قَلِيلٍ مِنَ التَّعْدِيلِ فِي الْخُطَّةِ وَمُقَدَّارٍ ضَائِلٍ مِنَ الْكِفَاحِ.

إِنَّ الْعِلَاقَاتِ الْمُوَحَّدَةَ، لَيْسَ بَيْنَ تَلَامِيذِي فَحَسْبَ بَلْ فِي مُحِيطِي وَعَائِلَتِي أَيْضًا، بَدَتْ مَوْضُوعًا نَامِيًّا فِي أَفْكَارِي. فَقَدْ كَانَتْ الصَّدَاقَاتُ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ قُصُوى عِنْدِي. وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْهَمَ لِمَاذَا يَفْتَرِقُ النَّاسُ حَوْلَ قِضَايَا تَافِهَةٍ وَشِجَارَاتٍ عَقِيمَةٍ.

فِي أَثْنَاءِ عِيدِ الْمِيلَادِ تِلْكَ السَّنَةِ، حَصَلَ بَعْضُ التَّوْتُرِ بَيْنَ مُؤْمِنِي الْكَنِيسَةِ. وَكَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ أَغْلَبَ الْأَحْيَانِ، اسْتَجَبْتُ لِلتَّرَاعِ وَالِتَّوْتُرِ بِالشُّعْرِ. وَإِذْ خَرَبَشْتُ فِي مُفَكَّرَتِي الْيَوْمِيَّةِ، عَنَوْنْتُ الْقَصِيدَةَ «الِإِخَاءَ».

الْمِيلَادُ هُوَ فَرَحٌ إِعْطَاءِ الْآخِرِينَ

غِبْطَةَ التَّرْقُبِ الْغَامِرَةِ.

الوشائجُ البشريَّةُ الأرجوانيَّةُ  
تَنسُجُ خُيوطَها حَولَ قُلُوبِنا،  
لِجَمِّعِنا في وَحَدَةِ اجْتِماعِنا مَعًا.  
فإنَّ مَحَبَّتَنا تُشَبِّهُ شُعَلَةً  
تَتَوَهَّجُ مُتَأَجِّجَةً ثُمَّ تَخْفُقُ لِتَخْبُو،  
إِلَّا أَنَّها تَبقى دائِمًا هُناكَ،  
وقد أَتَتِ مِنَ المَسيحِ الطُّفْلِ،  
ذاكَ الَّذي نَلْتَمِسُ أن نَعْرِفَهُ!

تَوَقَّفْتُ في أَثناءِ كِتابِتي، مَذهولَةً تَقريبًا حِيالَ الإِدراكِ المُفاجِئِ. لَقَد نَحَى المَسيحُ  
جانِبًا كُلَّ شَيْءٍ لِيَأْتِيَ إلى أَرْضِنا ومِشِيَّ على كَوكِبِنا. لم تَكُنْ تَلكَ معلومةً جَديدةً، وَلَكِنَّها  
كانت صائِرَةً إِدراكًا قَلِيبًا بِطَريقةٍ جَديدة. فإنَّ مَلِكَ المَجدِ قد جاءَ لِأَجْلي أنا. لَقَد تَرَكَ  
العَرشَ في المَجدِ إلى مَدودٍ في إِسْطَبِلِ حَيَواناتِ كَريهِ الرائِحَةِ، وَكُلُّ ذلكَ من أَجلِ المَحَبَّةِ.  
فَنَعِمْتُ بِدِفءِ هَذِهِ الفِكرَةِ، شاكِرَةً لَهُ، مُحِبَّةً إِياهُ. ثُمَّ فَكَّرْتُ من جَديدٍ في المِشاكِلِ الَّتِي  
غالبًا ما نُواجِهُها في عِلاقَتِنا البَشِريَّةِ. كم كُنَّا حَقِراءَ وأَدْنِيا! كم كُنَّا بِحاجَةٍ إلى فِداءهِ!

طِيلةَ الصَّيفِ التَّالِي، قَرَأْتُ وَدَرَسْتُ وَحَضَّرْتُ. كُنْتُ قَدِ اكْتَشَفْتُ شَعْفِي بِالتَّعْليمِ في  
تَلكَ السَّنَةِ الأوْلى، وأَرَدْتُ أن أَكونَ أَفضَلَ ما يُمَكِّنُني أن أَكونَ. كُنْتُ قَدِ تَعَلَّمْتُ الكَثيرَ  
عَمَّا يَنفَعُ وَعَمَّا لا يَنفَعُ مَعَ التَّلامِيزِ، وفي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ شَعَرْتُ بِأَنَّني أَكثَرُ اسْتِعدادًا، لَكنْ  
أَقَلَّ ثِقَةً بِقُدْرَاتي. فَشَعَرْتُ بِأَنَّي أَكثَرُ اتِّكالاً على الرَّبِّ، وَتَعوِيلًا على الصَّلَاةِ، إِذِ دخلْتُ  
عُرْفَةَ الصَّفِّ لِأَجْلِ فَصْلِ دِراسِي آخَرَ.

نَتيجَةً لِتَلكَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ النُّمُوِّ، أَنشأتُ دُستورَ مُعلِّمةٍ لِيَجِلَّ مَحَلَّ تَعَهُّدِ  
المُعلِّمةِ الغامِضِ، المُتعالِي الوَقْعِ، ذاكَ الَّذي اتَّخَذْتَهُ لي سَابقًا. لَقَد كانَ هَذا الدُّستورُ  
أَساسًا عَليه بُنِيتَ سَنوُ تَعلِيمي التَّالِيَةِ كُلِّها. وَقَد بَرَوَزَتْ نُسْخَةٌ مِنْهُ واحْتَفِظْتُ بِها حَيْثُ  
يُتاحُ لي أن أَقرأها أَغْلَبَ الأَحْيانِ.

أُومِنُ بِمَدْرَسَةٍ تُعزِّزُ مُمَارَساتِ مُخلِّصِ قامَ من بين الأموات.

أومِنُ بأنَّ كُلَّ مَوْقِفٍ داخِلِيٍّ وحَالَةٍ لِقَلْبِي يَنْبَغِي أَنْ يَطْلُبَا أَوَّلًا مَشِيئَةَ اللَّهِ، ثُمَّ يَجْعَلَا القَلْبَ يَسْأَلُ: هلْ يُوَثِّرُ ذَلِكَ فِي مَوْقِفِ تَلَامِيذِي مِنَ المَفَاهِيمِ الرُّوحِيَّةِ؛ لِأَنَّ مَوْقِفِي رَبِّمَا سَوْفَ يَكُونُ مَوْقِفَهُمْ فِي سِنِينَ لَاحِقَةٍ.

أومِنُ بِجَوْءٍ مِنَ الرِّزَانَةِ الهَادِئَةِ فِي عُرْفَةِ الصَّفِّ، حَتَّى لَوْ كُنْتُ أَقْصَرُ عَنِ الإِمْسَاكِ دَائِمًا بِهَذَا المِزَاجِ المُحَيِّرِ والمُرَاوِغِ.

أومِنُ وَأَعْجَبُ بِأصْوَاتِ الأَوْلَادِ السُّعْدَاءِ إِذْ يَلْعَبُونَ فِي الخَارِجِ، وَوَجْوهُهُمْ مُتَلَأئِئَةٌ بِالفَرَحِ والمَرَحِ، بِبَهْجَةٍ كَوْنِهِمْ أَحْيَاءَ وَمَحْبُوبِينَ. فَإِنِّي فِعْلًا أُحِبُّهُمْ كَثِيرًا جَدًّا، وَأَعْرِفُ حَالًا عِنْدَمَا يَكُونُ شَيْءٌ مَا نَاقِصًا فِي حَيَاتِهِمْ.

أومِنُ بِآبَاءِ تَلَامِيذِي وَأُمَّهَاتِهِمْ. أَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَتَغَاصُونَ عَنِ أخطَائِي ثُمَّ يَثْقُونَ بِأَلَّا أَرْتَكِبُ الأَخْطَاءَ نَفْسَهَا تَكَرَّرًا.

أومِنُ بِمِرَاعَاةِ فِتْرَةِ تَعْبُدِيَّةِ كُلِّ صَبَاحٍ. فَهَذَا الأَمْرُ يَبْدَأُ النَّهَارَ مَعَ اللَّهِ، وَالنَّهَارُ الَّذِي بَدَأَ مَعَ اللَّهِ يَجِبُ أَلَّا يُمْتَنَى بِالإِخْفَاقِ.

أومِنُ بِأَنَّ عَلِيًّا أَنْ أَرْفَعَ مِيعَارًا بِحَيْثُ تَكُونُ صُورَةُ الرَّبِّ يَسُوعَ وَاضِحَةً المَعَالِمِ وَجَلِيَّةً كُلِّ حِينٍ. فَأفْكَارِي وَخِيَابَتِي التَّافَهُةُ الخَاصَّةُ يَجِبُ أَنْ تُتْرَكَ فِي البَيْتِ، لِأَنَّهَا غَيْرُ مُرْحَبٍ بِهَا فِي المَدْرَسَةِ.

أومِنُ بِأَنِّي هُنَا كِي أَعْلَمَ الأَوْلَادَ مَدْرَسِيًّا وَأكَادِمِيًّا مُسَاعِدَةً إِيَّاهُمْ فِي مَسَائِلِ الرِّيَاضِيَّاتِ، وَقَوَاعِدِ اللُّغَةِ، وَوَقَائِعِ التَّارِيخِ. وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَتَعَلَّمُوا أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ، فَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ سَاعَتِي بِأَنْ يَتَعَلَّمُوا عَنِ المَسِيحِ وَمِنِهِ.



## مغامرات في الخارج

ارتفع مُقدّم السفينة المصقول، الأسود والأحمر، مَهَابَةً من مياهِ الأطلسيّ. وقد برزت طوابقها ودرايزوناتها بيضاءً مُقابلِ سماءِ نيويورك الرّماديّة المملوءة بالضباب والدخان والمُلبّدة بالغيوم. كانت الملكة أليزابثُ الثانيةُ على أهبّة الإقلاع، ونحنُ على مَتنها. وقد كان مرفأنا المَقصود شيربور في فرنسا.

كانَ مساءً ذلك اليوم، الثالثَ عشرَ من حُزيران ١٩٧٥، كثيرَ الرُّطوبةِ والضباب، وكنتُ في السادسة والعشرين من العُمُر. وكُنّا، ليّنا وجُوآن وأنا، مع أمتعتنا القليلة وألتي تَنفُسُ تَزَنُ الواحدةُ منهما نحوَ ثلاثةٍ وعشرين كيلوغرامًا وكُرسِيّ المدوَلَب، قد انطلقنا تَوًّا في أعظمِ مُغامرةٍ حلَمنا بها حتّى الآن. كان بابا يخشى أن يسمَح لي بالذهاب، كما استطعتُ أن ألاحظ، ولكنّه وافق.

بوجودِ إذنِ بابا والحماسيةِ المُتناميةِ، أمضيتُ الأشهُرَ القليلةُ الأخيرةَ في التَّخطيطِ الدَّقيقِ لِكُلِّ تفصيل. وقد باشرتُ الاضطرّاعَ المُضنيَ بالمُخابراتِ التِّلِفونيّةِ ووَضع خريطةٍ لرحلتنا. ومُساعدةٍ «سَفَرِيَّاتِ العجلاتِ الطَّائرة»، وهي وكالةُ سَفَرٍ مُخصَّصةٌ بترتيبِ رحلاتٍ لِدَوي الإعاقات، تمكَّنتُ من الحُصولِ على المَعونةِ التي احتجتُ إليها لِجَعَلِ حُطِّنا مملوسَةً وقابلةً لِلتَّنفيذِ.

نَفَسَ نَسِيمٌ قَوِيٌّ رَطْبُ شَعْرِي، فَالتَصَقَ بِحَدْيٍ مَبْلُولًا. وَسَرَحْتُ نَظْرِي فَوْقَ الامْتِدَادِ  
الشَّاسِعِ لِلْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ، وَالصَّبَابُ يَتَدَهَدُهُ مُقْتَرَبًا، فِإِذَا بِي أَشْعُرُ فَجْأَةً بِالرَّتْبَاكِ، إِذِ  
اجْتَاخَنِي الْإِعْيَاءُ وَالغَتْيَانُ. «أخشى أن أمرضَ، لينا!»

وَاسْتُنِي لِينَا بِقَلْق: «لِنَنْزِلْ إِلَى حُجْرَتِنَا. يُمَكِّنُكَ أَنْ تَسْتَلْقِي وَتَسْتَرِيحِي مُدَّةً قَصِيرَةً.»  
بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ عَلَى سَرِيرِي الْمُبَيَّتِ، شَعَرْتُ بِتَحَسُّنٍ كَافٍ لِأَنَّ أَصْعَدَ إِلَى ظَهْرِ  
السَّفِينَةِ مِنْ جَدِيدٍ. كَانَتِ السَّاعَةُ قَدْ جَاوَزَتِ التَّاسِعَةَ، وَاحْمِرَارُ أَفْقِ الْعُرُوبِ خِيَمَ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ. وَقَدْ اخْتَرَقَتْ تَلَالُؤُ أَسْوَءِ الْمَدِينَةِ عَلَى طُولِ الْأَفْقِ الصَّبَابِ الْخَفِيفِ. وَانزَلَقَتْ بِنَا  
السَّفِينَةُ مُجَاوِزَةً جَزِيرَةَ اسْتَاتِنَ.

إِذْ ذَاكَ ارْتَفَعَ فَوْقَنَا تِمثالُ الْحَرِّيَّةِ. فَاتَّكَأْتُ عَلَى الدَّرَابِزُونَ لِلتَّمَكُّنِ، وَنَظَرْتُ إِلَى لِينَا  
مُسْتَغْرِقَةً فِي التَّفَكِيرِ. «هَذَا يُعِيدُ إِلَى الذَّاكِرَةِ آيَاتِ الشَّعْرِ الَّتِي تَتَرَدَّدُ أَصْدَاؤُهَا فِي ذِهْنِي  
عِنْدَمَا أَرَى صُورًا لِلتَّمثالِ.»

سَأَلْتُ جُوَانَ: «أَلَمْ يَكُنْ هَدِيَّةً مِنْ فَرَنَسَا لِلوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ؟»

«بَلَى، كَانَتِ النَّحَاتُ هُوَ أَوْغَسَتْ بَارْتُولِدِي.»

فَقَالَتْ لِينَا مُتَأَمِّلَةً: «أُوهُ، كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ غُوسْتَايفُ إِيفَل.»

وَتَذَكَّرْتُ جُوَانَ: «كَانَ هُوَ مَنْ تَوَلَّى الْعَمَلِيَّةَ الْهِنْدَسِيَّةَ فِي تَرْكِيبِ التَّمثالِ مِنْ جَدِيدٍ  
هُنَا فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ، صَحِيحٌ؟ وَلَكِنْ مَاذَا كَانَتْ آيَاتُ شَعْرِكَ، فِيرَا؟»

زَلَّ بِقُرْبِنَا ضَابٌ هَوَاءِ اللَّيْلِ الرَّمَادِيُّ الْمُخْمَلِيُّ، وَتَوَهَّجَ ضَوْءُ الْمِشْعَلِ الْمَرْفُوعِ بِيَدِ  
التَّمثالِ الصَّامِتِ مُقَابِلِ الظَّلَامِ الْهَابِطِ.

«أُوهُ، نَعَمْ. كَتَبَتِ الْقَصِيدَةَ إِمَّا لِأَزَارُوسَ، وَعُنْوَانُهَا 'الْعِمْلَاقُ الْجَدِيدُ'.»

وَإِذْ أَخَذْتُ نَفْسًا مِنَ الْهَوَاءِ الشَّدِيدِ الْحَرَارَةِ وَالرُّطُوبَةِ، بَدَأْتُ بِتَدْفُقاتِ قَصِيرَةٍ أَتَلُو  
الشَّعْرَ الْجَلِيلَ الَّذِي كَانَ لَهُ وَقَعُ الْمَوْسِيقَى فِي أُذُنِي:

لَيْسَ مِثْلَ الْعِمْلَاقِ الصَّفِيقِ الشَّهِيرِ عِنْدَ الْيُونَانِ،

بِأَطْرَافِ ظِلْفَةِ مُمْتَدَّةٍ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ؛

هُنَا عِنْدَ بَوَابَتِنَا الَّتِي يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ لَدَى الْعُرُوبِ،

سَوْفَ تَقِفُ امْرَأَةٌ جَبَّارَةٌ مَعَهَا مِشْعَلٌ

لَهيبُهُ بَرَقَ مَأسور، واسمُها أُمُّ المَنفِيِّينَ.  
 من يَدِها المَنارَةُ يَنالُني تَرحيبٌ عَالميُّ النُّطاق؛  
 عَيناها الرِّقِيقَتانِ تُشْرِفانِ على المَرفأِ  
 ذِي الجِسرِ المَرتَفِعِ في الهِواءِ،  
 ذاكَ الَّذِي يوطِّرُ المَدينَتَينِ التَّوأمينِ.  
 إنَّها تصيحُ من شَفتَينِ صامِتَتَينِ:  
 «إِسْتَبْقِي، أَيْتُها البُلدانُ القَديمَةُ،  
 أَبْهَتِكِ التي يَحيي عنها التَّاريخُ!  
 أَعْطيني جُموعَكَ المُنَجَّمِهرَةَ التي تَتوقُّ  
 لأنَّ تَنفَسَ حُرَّةً،  
 النُّفَياةَ البائِسةَ على شَاطئِكَ العِجَاجِ.  
 أرسِلي إليَّ هَؤلاءِ المُشَرِّدينَ الَّذينَ طَوَّحَتَهُمُ العَاصِفَةُ؛  
 إليَّ أرفَعُ مِصباحي بِجانِبِ بابِ الذَّهَبِ!»

هَمَسَتَ لينا: «ياي جَميل! أرفَعُ مِصباحي بِجانِبِ بابِ الذَّهَبِ!»  
 نُمَّ التَفَتَتَ لينا إليَّ: «ولَكنَّ الوَقتَ يَتأخَّرُ. لا بُدَّ أن يَكونَ لَدينا وَفَرَةٌ من الوَقتِ كي  
 نَسَترِجَ على مَدى أَيامِ السَّفَرِ الأربِعةِ التَّالِيةِ، ولكِنَّكَ لم تَكوني تَشعُرِينَ بِحُسنِ الحَاليِ في  
 وِقتِ أبَكر، ولا أريدُ لِكَ أن تَمَرِّضي في هَذه الرِّحَلَة، فَيَرا.»  
 وَقالت جُوانُ مُوافِقَةً: «أَنتِ على حَقِّ. الجُؤُ جَميلٌ جَدًّا هُنَا في الخَارجِ، ولكِن يَنبَغي  
 أن نَأوِيَ إلى السَّريرِ، كما أعتَقد.»

أَلقيتُ نَظرةً مَتمَهِّلَةً أخيرةً إلى ذَلكِ المِشعَلِ المَرفوعِ مُنزلِقا أبعدَ فأبَعدَ في قَلبِ  
 الظَّلامِ، وحَصَرَتَني كَلماتُ الرِّبِّ يسوعِ بِجَلاءِ مُذهِلٍ: «فَلْيَضُ نورُكم هَكَذا قُدَّامَ  
 النَّاسِ...» وتَأملتُ بَينِي وبَينَ نَفسِي: الحُرِّيَّةُ الحَقيقِيَّةُ يُمكنُ أن تَأتِيَ فَقطَ من التَّعَرُّفِ  
 بِالْمَسيحِ. وَبَدَتَ تلكَ الكَلماتُ الأَخيرةُ كَثيرًا مِثْلَ دَعوَتِهِ لِجَميعِ المُتَعَبِّينَ والتَّائهِينَ  
 والمُوحَشينَ ومَرضى الخَطيَّةِ:

أعطيني جُموعَكَ المتجمّهرَةَ التي تتوقُّ  
لأنّ تتنفسَ حرّاً،

النُفَيَاةَ البائسةَ على شاطئكَ العجّاجِ.

أرسلني إليّ هؤلاء المُشرّدينَ الذين طوّحتهم العاصفة؛

إني أرفعُ مصباحي بجانبِ بابِ الدّهَبِ!»

تسنّى لي أن أتصوّرَ المسيحَ رافعاً مصباحَ حقّه إذ وقفَ بجانبِ بابِ السّماءِ الذهبيّ، داعياً جميعَ التّائهبينَ المتعبينَ إلى شخصه. وأنا أيضاً كنتُ مدعوّةً إلى هذا العملِ الحامِلِ للنّورِ. فهمستُ في قلبِ الظّلمةِ: «دعنا نُضيّ بنورِ ساطع، يا ربُّ!»



«عفوًا، سيّداتي. هل لي أن أسألَكَنّ سؤالًا؟» التفتنا من تمّشينا على ظهرِ السّفينةِ المضاءِ بنورِ الشمسِ لِرَبي رجلاً بدينًا حسنَ الهندامِ.

ابتسمتُ له، وردّت لي: «لَكَ ذلك بالتأكيد، سيّدي. ما هو سؤالُكَ؟»

«حسنًا، ما برحتُ أشاهدُكَنّ طيلةَ الصّباحِ، ودفعني مُجرّدُ الفُصولِ لأنّ أعرفَ ما تلكَ القُبُعاتُ الصّغيرةُ الطّريفةُ على رؤوسِكَنّ. أمثَلُ شيئًا ما، أم هي زيّ فحسب؟» تبادلنا لينا وأنا النّظراتِ، وبرقتَ عيناها كأنّما لتقولوا: «ههنا فرصةٌ أخرى!»

«ذلك سؤالٌ جيّد. وغالبًا ما يُطرحُ علينا ذلك السّؤال. هذه هي ما ندعوه أُعْطِيَّةَ رأسِ، ونحنُ نرتديها لأننا مسيحيّاتُ مِينونِيّاتُ يُردنُ أن يُطبّقنَ الكتابَ المقدّسَ حرفيًّا.» «كم هذا مُشوّق! سبقَ لي أن سمعتُ عنِ الآمِش. هل المِينونِيّونَ والآمِشَ شيءٌ واحد؟»

«حسنًا...» توقّفت لينا وفتّشت عن الكلماتِ المُناسبةِ. «نحن مُتساهبونَ من عدّةِ نواحٍ. لدينا كثيرٌ من الممارساتِ والمعتقداتِ عينيها، رُغمَ وجودِ بعضِ الفُروقِ أيضًا.» «أعتقدُ أنّه جميلٌ جدًّا أن تستطعنَ ممارسةَ إيمانِكَنّ بهذه الطّريقة. إني أعجبُ بالَّذينَ يعيشونَ عيشةً بسيطةً وهم مستعدّونَ لأنّ يكونوا مُخْتَلِفِينَ من أجلِ ما يؤمنونَ

به. ولكنني الآن مؤخرُكَنَّ عن تَمْشِيكُنَّ الصَّبَاحِيَّ. شُكْرًا على تخصيصِ وقتٍ لي.» ثُمَّ مَسَّ مُقَدَّمَ قُبْعَتِهِ على سبيلِ التَّحِيَّةِ، وابتسَمَ، ومشى على مَهَلٍ مُبْتَعِدًا في الاتِّجَاهِ المُعَاكِسِ.

قالت لي جُوآن بِهْدوءٍ: «هُوَ أَكْثَرُ فُضُولًا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ، كَمَا أَعْتَقِدُ.»

فَقُلْتُ مُتَّفَادِيَةً: «رَبُّمَا كُنْتَ عَلَى حَقٍّ. وَلَكِنَّهُ بَدَأَ مُخْلِصًا.»

اشْتَمَلَتِ الرَّحْلَةُ على فُرْصِ شَتَّى لِمُشَارَكَةِ إِيمَانِنَا وَتَرَاتِنَا مع عِدَدٍ مِنَ المُسْتَفْسِرِينَ المُسْتَطْلِعِينَ. وَقَدِ عَمَدَتِ امْرَأَةٌ أَكْبَرُ سِنًا إِلَى مُرَاجَعَةٍ مَا جَاءَ تَحْتَ عُنْوَانِ «الْمِينُونِيُونِ» فِي كُتُبِ المَوْسُوعَةِ المَوْسُوعَةِ فِي مَكْتَبَةِ السَّفِينَةِ. وَفِي مَا بَعْدُ وَجَدْنَا فِي عُرْفَةِ الطَّعَامِ وَانْدَفَعَتْ قَائِلَةً: «مَنْ كَانَ يَظُنُّ؟ أَنْتُمْ مَذْكُورُونَ أَيْضًا فِي مَوْسُوعَةٍ وَرُلْدُ بُوَكِ. خَطَرَ فِي بَالِي أَنْ أَبْحَثَ عَنِ جَمَاعَتِكُنَّ فِي المَوْسُوعَةِ، فَإِذَا هُنَاكَ تَمَامًا عَلَى الصَّفْحَةِ مَقَالَةٌ صَغِيرَةٌ كَامِلَةٌ عَنْكُنَّ وَعَنْ قَوْمِكُنَّ. أَلَيْسَ ذَلِكَ مُذْهَبًا حَقًّا؟»

أَوْمَأْنَا بِرُؤُوسِنَا بِتَهْذِيبٍ، وَلَكِنْ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ نَبْتَسِمَ حِيَالَ مُفَاجَأَتِهَا.

كَانَ رُفْقَاءُ مَائِدَتِنَا المُعَيَّنِينَ فِي عُرْفَةِ الطَّعَامِ الدُّكْتُورُ غَارْتُ وَزَوْجَتُهُ وَوَلَدَاهُ. وَقَدِ كَانُوا عَائِلَةً مِنْ عَلِيَّةِ القَوْمِ، عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِإِرْشَادِنَا عِبْرَ تَعْقِيدَاتِ المُسْتَوَى الرُّفِيعِ فِي تَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَالأَدَابِ المُجْتَمَعِيَّةِ. وَسُرْعَانَ مَا تَصَادَقْنَا، وَبِتَنَا تَبَادُلِ الأَحَادِيثِ فِي جَمَهَرَةٍ مِنْ المَوَاضِعِ المُخْتَلِفَةِ حَوْلَ الوَجَبَاتِ الغَرِيبَةِ اللَّذِيذَةِ الَّتِي كَانَتْ تُقَدَّمُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي اليَوْمِ. وَفِي أَوَاخِرِ عُبُورِنَا لِلْمُحِيطِ، مَنَحُونَا ثَلَاثَ قَنَائِي نَبِيذٍ فَارِغَةٍ لِأَجْلِ مَشْرُوعِ كُنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْهُ فِي اليَوْمِ السَّابِقِ.

لَمَّا عُدْنَا إِلَى عُرْفَتِنَا، أَحْضَرْنَا قُصَاصَاتٍ وَرَقٍ صَغِيرَةً وَكَتَبْنَا عَلَيْهَا الآيَةَ الَّتِي جَاءَتْ فِي إِنْجِيلِ يُوْحَنَّا ٣: ١٦، مَعَ أَسْمَائِنَا وَعُنْوَانِنَا. ثُمَّ لَقَفْنَاهَا وَدَسَسْنَاهَا فِي فُوهَاتِ القَنَائِي الصَّيْفَةِ، وَسَدَدْنَاهَا بِالفِلِينَاتِ سَدًّا مُحْكَمًا. وَأَعْلَنْتُ لِنَا بِطَرِيقَةٍ مَسْرُوحَةٍ: «وَالآنَ إِلَى إِطْلَاقِ رِسَالَتِنَا دَاخِلَ القَيْئِنَةِ!» فَإِذْ وَقَفْنَا عَلَى مُؤَخَّرِ السَّفِينَةِ، تَنَاوَلَتْ كُلُّ مَنَّا عَلَى طَرَحِ قَنَائِنَا مِنْ فَوْقِ السَّفِينَةِ وَمُرَاقَبَتِهَا تَغَيْبُ فِي الأَمْوَاجِ القَائِمَةِ تَحْتِنَا. وَلَمَّا جَاءَ دَوْرِي، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَطْلُبَ مِنْ لِنَا مُسَاعَدَتِي. وَبِلا تَطْفُلٍ، حَتَّى تَجْعَلَ ذِرَاعِي تَبْدُو سَوِيَّةً بِقَدْرِ الإِمْكَانِ، أَمْسَكْتُ بِمِرْفَقِي وَدَفَعْتُ ذِرَاعِي فَوْقَ الدَّرَابِزُونِ. فَأَلْفَتُ القَيْئِنَةَ، مُشَاهِدَةً بَارْتِيَاكِ إِذْ انْضَمَّتْ إِلَى الأَخْرِيَيْنِ مُتَدَبِّبَةً فِي الأَمْوَاجِ.

أشاحت جُوآن مُتملِّمةً عن الدّرابزون. «أشكُّ في أنّ أحدًا سيَعثُرُ عليهنَّ، ولكنني أشعرُ بأنّه كان مُهمًّا أننا فُمنّا بالأمر، على كلّ حال. والآن، إن استطعتُ فعلاً إتمامَ هذه الرّحلة دون أن يقتربَ إليّ عازِفُ البوقِ الإيطاليّ ذاك مرّةً أخرى بعد، فيني سأدعوها سَفرةً ناجحة.»

فَهَقَّها لينا وأنا، وقالت لينا مازحةً: «إنّه يبدو بالفِعل تَوافًا تمامًا لأنّ يتعرّفَ بك. لا تقلقي، جُوآن. سيكونُ انجذابًا قصيرَ الأمد. لعلّ فيرا تحتاجُ فقط لأنّ تُبدِي له حَمَلَقَتها الغاضِبة!»

فوافقت جُوآن بحماسة: «سيفزعه ذلك على كلّ حال. ألا تعتقدين أنّ واجِبَكِ الأختيّ يقضي بأن تحميني، فيرا؟»

وصحّحنا كلُّنا معًا. كان ذلك عَصَرَ الإثنتين، وكان وُصولنا المُحدّد في البرنامَج اليومَ التّالي. وكُنّا كُنّا شاعِراتٍ بالاستعداد للمُغامراتِ التي تنتظِرُنّا. ولكنّ كالمُعتاد ستُوجدُ مُغامراتٍ أكثرَ بكثيرٍ ممّا قد توفّعتُهُ أيُّه واحدةٍ منّا!

في اليومِ التّالي، رَحَبَ بِسَفِينَتِنَا في المرفأِ مجموعةً من التّلاميذ مُعَنِّينَ بالافرنسيّة. ففي كلّ مكانٍ حوَالِيّ أنسابتِ كالمياهِ تلكَ اللُّغَةُ الشّعريّةُ الجميلةُ التي جاهدتُ لإتقانها في مرحلةِ الدّراسةِ الثّانويّة. أصواتٌ غنائيةٌ بهيجةٌ ضاحكةٌ... كَلِماتٌ أعرفُها، ولكنّ الأحاديثُ كانت أكثرَ سرعةً وتعقيدًا من أن أتبعَها.

شعرتُ بالدُّوارِ من اندفاعِ النَّاسِ الصّاحبِ حوَالينا. بدا الجميعُ عارفينَ أين همُ ذاهبون، ومُستعجلينَ للوصولِ إلى هُناك. قليلونَ جدًّا أجروا تَواصلاً بصريًّا، وأقلُّ بَعْدُ ابْتَسَموا. وقد بدتِ النّساءُ حُصوصًا بارداتٍ ومُنهكات. وفي خِصَمِّ صَحَبِ الرُّكّابِ المترجلينَ وِصُوضائهم، مع الصّجّةِ والسّرعةِ المُدوّمتينِ حوَالينا، توقّفت لينا لِتُخْرِجَ برنامَجَ رحلتنا.

تنهّدت جُوآن: «أشعرُ بالِصّياح. ففقط انظروا إلى جميعِ هؤلاء النَّاسِ!»

وسألتُ بلهفة: «أين يفترضُ أن نبيتَ ليلتنا؟»

فقالَت لينا بصوتٍ يعكسُ القلقَ: «حسنًا، علينا أولًا أن نجدَ وكالةَ تأجيرِ السيّاراتِ المُحدّدة لنا.»

أقبلَ زوجانِ يتكلّمانِ الإنكليزيّة من السّفينةِ وراءنا تلكَ اللحظةَ ولاحظنا ورطنتنا. فسألَ السّيدُ الفِضّيُّ الشّعيرَ بلُطف: «أميكننا أن نُساعدَكُنَّ في العُثورِ على شيءٍ ما؟»

فَهتَفَّتَ لينا بامتنان: «أوه، نعم، سيدي! يُعَوِّزُنَا أَنْ نَجِدَ وَكَالَةَ تَأْجِيرِ السِّيَّارَاتِ الْمُحَدَّدَةَ لَنَا، وَفُنْدُقًا لِلْمَبِيتِ لِيَلًا، وَنَحْنُ نَشْعُرُ تَقْرِيْبًا بِالارْتَبَاكِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ حِيَالِ الْمَكَانِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ نَذْهَبَ إِلَيْهِ.»

«أريني برنامجِ رِحْلَتِكُنَّ. ما اسمُ وَكَالَةِ تَأْجِيرِ السِّيَّارَاتِ الْمُعَيَّنَةِ لَكُنَّ؟ أه، نعم. هذا المكانُ يَقَعُ قَرِيبًا جَدًّا مِنَ الرَّصِيفِ هُنَا. فَلِنَدِلْكُنَّ عَلَى الطَّرِيقِ.» وَفِي وَقْتٍ قَصِيرٍ حَدَّدَا لَنَا الْمَكَانَ وَدَلَّانَا عَلَى فُنْدُقٍ مُحْتَرَمٍ قَرِيبٍ، وَعَلَى مَطْعَمٍ أَيْضًا.

وَإِذْ دَارَا لِيَمِضِيَا، قَلْتُ: «شُكْرًا جَزِيلًا لَكُْمَا! لَا أُدْرِي مَا كُنَّا سَنَفْعَلُ لَوْلَا مُسَاعَدَتُكُْمَا!»  
«مَدْعَاةٌ سُرُورٍ لَنَا. سَفَرًا سَالِمًا!»

كَانَتْ سِيَّارَتُنَا الْمُسْتَأْجَرَةَ رَيْنُو ١٢ بُرْتَقَالِيَّةَ اللَّوْنِ. وَعَلَّقْتُ لينا: «إِنَّهُ لَوْنٌ مُبْهَجٌ. حَتَّى لَوْ تَهْنَا، فَالْآخَرُونَ سَيَعْرِفُونَ أَيْنَ نَحْنُ، كَمَا أُخْمِنُ.» فَفَهَّقَهْنَا كُلُّنَا بِطَرِيقَةٍ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّوَثُّرِ، وَحَمَلْنَا أَنْفُسَنَا دَاخِلَ السِّيَّارَةِ الرَّأهِيَةِ اللَّوْنِ، وَالتِّي سَتَكُونُ مَرْكَبَتَنَا عَلَى مَدَى بَضْعَةِ أَيَّامٍ آتِيَةٍ.

لدى وصولنا إلى فُنْدُقِنَا وتسجيلِ أسمائنا، بَرَزَتْ مُشْكِلَةٌ أُخْرَى فِي الْحَالِ تَقْرِيْبًا.  
«فيرا! لا أدري ما سَنَفْعَلُ! فالقَابِسُ الكَهْرِبَائِيُّ الْعَائِدُ لآلَةٍ تَنْفُسِكِ لَا يُلَائِمُ الْمَأْخُذَ.»  
وَقَدْ شَحَدَ الْقَلْقُ لِهَجَّةِ لينا.

فَسَأَلْتُ بِقَلْقٍ: «أَأَنْتِ مُتَيْقِنَةٌ؟»

«بِكُلِّ تَأْكِيدٍ. انظري!»

وَأَنْتِ جُوَّانُ: «أه، لا! ماذا سَنَفْعَلُ؟»

«لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَنَفَّسَ فِي اللَّيْلِ مِنْ دُونِهَا.» وَقَدْ أَخْفَقْتُ فِي إِبْعَادِ الدُّعْرِ عَنِ صَوْتِي.  
«يَجِبُ أَنْ تَفْعَلِي شَيْئًا مَا، لينا. افْعَلِي شَيْئًا مَا بِسُرْعَةٍ!»

فَقَالَتْ لينا شَاكِيَةً: «لَا أَعْلَمُ مَا أَعْمَلُ.»

فَأَعْلَنْتُ: «سَأَتَّصِلُ بِالْبَيْتِ.» وَقَدْ كَانَتْ دُمُوعِي تَنْهَمِرُ. وَطَلَبْتُ جُوَّانَ رَقْمَ الْهَاتِفِ لِي، وَلَكِنَّ مَكَالِمَتِي مَرَّتْ عَبْرَ مُشْغَلٍ اِفْرَتْسِيٍّ، وَلَمْ أَسْتَطِعِ التَّوَاصُلَ جَيِّدًا عَلَى نَحْوِ كَافٍ بِالْاِفْرَتْسِيَّةِ لِأَجْرِي الْمُكَالِمَةِ. أُخِيرًا رَدَدْتُ السَّمَاعَةَ إِلَى حَامِلِهَا مُحَبَّطَةً. «لينا، علينا أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا مَا.» وَقَدْ بَتَّ الْآنَ بَاكِئَةً.

فقال لي مُطمئنّة: «سأنزّل وأسأل عند النُضدِ الأماميّ. ربّما يتمكّنونَ من مُساعدتينا. جُوآن، ابقِي هنا مع فيرا. سأرجِعُ على الفور. وفي أثناء غيابي، أحسّنْ لَكُما أن تُصليَا!»

صليْنَا فِعلاً، وعادت لينا بعد وقتٍ قصيرٍ حاملةً مقدارًا ضئيلًا من الوصلات لتجريبها. وصرّحت باستبشار: «واحدةٌ من هذه ينبغي أن تنفع.» فلم تنفعْ أوّلُ وُصلتين، ولكنّ الثالِثة كانت الاستجابة لصلواتنا. فهتفنا فرحًا لما انزلقَ القابِسُ الكهربائيُّ بِيسرٍ داخلِ الوصلة.

وهتفتُ بحرارة: «شُكرًا لله!»

فوافقت لينا برزانة: «ما كانَ أصعبَ الورطة!»

جُئنا قليلًا في باريس في اليوم التالي. وقد وصفتِ البطاقةُ البريديةُ التي أرسلتها لينا إلى عائلتنا في الوطنِ مشاعرنا الجماعيةَ حيالَ عاصمةِ فرنسا: «كانت باريس فائقةَ السرعةِ بالنسبة إلى فتياتِ الرّيف! لم يطلُ بنا الوقتُ حتّى خرَجنا منها!»

سُئنا باتّجاه الجَنوبِ الشّرقيّ إلى ليون، وقد كانت أحدَ مواقعِ التّراثِ العالميّ. وبعدما شاهدنا عددًا من المعالمِ التّاريخيةِ والهندسيّة ذاتِ الشهرةِ الشّعبيّة، وأغرمنّا بِطَراجةِ الخبزِ الأفرنسيّ اللّذيذة، سُقنا مسافةَ المئةِ والسّتينِ كيلومترًا إلى جنيف في سويسرا. لقد شردنا إلى حدٍّ بعيدٍ عن برنامِجِ رحلتنا الأصليّ. ولكنْ بدا أنّه كان في فرنسا أشياء قليلةٌ جدًّا تستبقينا. أمّا سويسرا فأثبتت أنّها غيرُ ذلك.

«لينا، انظري الجبال! إنّها كلُّ شيءٍ حلّمتُ بأن تكونه!» لقد ارتفعت جبالُ الألبِ السّويسريّة حوالينا، شاهقةً بجلالٍ مُقابلِ قُبّةِ سماءٍ زرقاء. وبدت قِمَمُها المُسنّنةُ المُكلّلةُ بالتلّوجِ مُخرّقةَ السّماء. كان الهواءُ هنا صافيًا ومُعتدلَ البرودة. وحيثنا مروجُ الرّهورِ الجبليّةِ المُتموجةُ مُفعمةٌ بالحياةِ والجِدّة، مُتدهدهةٌ بعيدًا إلى قلبِ تلكِ الحُصونِ الصّخريّةِ العظيمة. وقد فتنتنا الشّاليهاتُ القديمةُ الطراز. ووجدنا النّاسَ مُرحّبين، والحضارةَ المُتوارثةَ غنيّةً وحافلةً بالتّاريخ.

علّقت جُوآن بحماسة: «هذا يجعلني أفكّرُ في روايةِ 'هايدي' الكلاسيكيّة. يُمكنني تقريبًا أن أحسّ القِصّةَ مُتكشّفةً حولنا.»

كان فَطورٌ تقليديٌّ بانتظارنا كلّ صباحٍ في فُنْدُقنا قبلَ أن نمضي في مسيرَةِ يومنا. ولأجلِ غداٍ سهلِ الصّر، كُنّا نستمعُ بالخبزِ والفواكهِ الطّازجة، ولكنّ ذلك عَنَى أنّنا نكونُ عادةً جائعاتٍ جدًّا قبلَ أن نجدَ مطعمنا المحلّيّ الفاجرَ كلَّ مساء.

في مدينة زوريخ الحافِلة بالحركة، العَنَبِيَّةُ التَّارِيخُ، المُنْتَشِرَةُ فِي وادٍ والمُحاطَةِ بِجِبَالِ الأَلْبِ الشَّاهِقَةِ، زُرْنَا نَهْرَ لِمَات. وإذ شاهدنا المياهُ نُجاوِزُنَا بِسُرْعَةٍ، تَأَمَّلْتُ فِي التَّارِيخِ. لقد كان هذا مَوْقِعَ اسْتِشْهادِ قائِدِ مُعَيدي المَعْمودِيَّةِ فيلِكس مانز.

أَسْرَرْتُ إِلى لينا بِصَوْتٍ مَكْتومٍ: «يُمْكِنُنِي تَقْرِيْبًا أَنْ أَرَاهُ واقِفًا هُنَا. وأكادُ أَسْمَعُ صَوْتَهُ مُتحدِّرًا إِليْنا هادِرًا عَبْرَ العُصُورِ.»

فأَكَمَلْتُ لينا بِحدْسٍ مُرْهَفٍ: «كَدَعُوَّةٍ لَنَا كِي نَكُونَ آمِنَاتٍ عَلى تِراثِنا.»

وأضَافَتِ جُوآنُ: «هذا يَجْعَلُ الأَمْرَ يَبْدُو أَكثَرَ واقِعِيَّةً بِكثِيرٍ جَدًّا بِطريقةٍ ما.»  
وَبِعَيْنِ ذِهْنِي رأيتُهُ واقِفًا هُنَاكَ عَلى صَفَةِ النَّهْرِ، وَتَرَبُّهُ سُويسِرا صُلْبَةً تَحْتَ قَدَمَيْهِ. وكان فِي وُسعِي أَنْ أَتَصورَ الجِبَالَ الَّتِي أوثَقْتُ مِعصَمِيهِ. لقد جَرَّحَتْهُ وَقَرَّحَتْهُ، وَلَكِنَّهُ بَدَا لِمِبالِيًا بِهذا كُلُّهُ. كانت عيناهُ مرفُوعَتَيْنِ إِلى السَّماءِ المَلْبَدَةِ بِالغُيومِ، إِلا أَنَّهُما بَدَتَا مُبصِرَتَيْنِ شَيْئًا ما وراءَها.

والآنَ كان يُجَدِّفُ بِهِ إِلى مُنتَصَفِ النَّهْرِ. وكان الكاهِنُ يَسأَلُهُ أسْئَلَةً. إِلا أَنَّهُ اكَتَفَى بِهَژُ رَأْسِهِ. واستطَعْتُ أَنْ أَرى أُمَّهُ وإِخوَتَهُ وأَصْدِقاءَهُ مُتَجَمِّعِينَ عَلى الشَّاطِئِ بِحُزْنٍ شَدِيدٍ، فِيمَا أُخوهُمُ المَؤْمِنُ يَدْفَعُ إِلى داخِلِ المِياهِ الجَلِيدِيَّةِ. لقد حَكَمَ عَليه بِأَنْ يَمُوتَ كَهَرطُوقِيٍّ. وَلَكِنَّ كَلماتِهِ الأَخيرةَ جَلَجَلَتْ ظافِرَةً وَغَيْرَ هِياَبَةٍ: «فِي يَدَيْكَ، يا رَبُّ، أَسْتودِعُ رُوحِي!»

لقد وُضِعَ حدٌّ نَهايِي لِحَياتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي ذَلكَ اليَومِ، وَلَكِنَّ إِراثَهُ وإِماهُنَّ ظَلًّا حَيِّينِ فِي قُلُوبِ الذِّينِ اقْتَدَوْا بِهِ وَعَمايِنُوا شَهادَتَهُ فِي ذَلكَ اليَومِ. ثُمَّ قَلْتُ مُفَكِّرَةً بِصَوْتِ عالٍ: «الرِّجالُ والنِّساءُ الذِّينَ عَلى غِرارِ فيلِكسِ ظَلُّوا أوفِياءَ لِلْمَسِيحِ حَتَّى المَوتِ أَعْطَونا تِراثًا نائِبًا فِي الأمانَةِ.» وإذِ غادَرْنَا، كُنْتُ مُتحدِّاةً ومُستَنهَضةً. فَصَلَّيْتُ فِي قَلْبِي: يا رَبُّ، دَعْنِي أَكُنْ آمِنَةً نَحوَكُ. كما كان فيلِكسُ؛ بِشِجاعَةٍ وَحَتَّى المَوتِ.

يَومَ الأَحَدِ الأَوَّلِ ذَلكَ فِي أورُوپا، حَضَرنا العِبادَةَ الصَّباحِيَّةَ فِي مَسَقَطِ رَأْسِ أَجدادِنا، بَلَدَةِ أوبرَهُوفين. وَفِي اليَومِ التَّالِي عَبرْنَا الحُدُودَ إِلى ألمانيا وَتَوَجَّهنا شَمالًا نَحوَ اسْتوتغارت. كُنَّا نَسوقُ عَبْرَ الغابَةِ السَّوداءِ الشَّهيرَةِ فِي ألمانيا. سَلاسلُ جِبَالِ مُغْطاهُ بِغاباتٍ خَضراءَ كَثِيفَةٍ خَصبِيَّةٍ أَخَفَّتْ أَنهارًا جَلِيبَةً مُتَدَفِّقَةً، وَبِيوْتًا جَدَّابَةً مَخبُوءَةً فِي زوايا مُنْعَزَلَةٍ هادِئةٍ. بَينَما نَحْنُ نَسوقُ، اسودَّتِ السَّماءُ. وَسَمِعنا الرِّعْدَ يَقِصِفُ بَعيدًا، ثُمَّ بَدَأَ المَطَرُ يَسقُطُ. لَمَحَ الرِّقِيُّ قَريبًا عَلى نَحوِ خَطِرٍ، وَترَدَّدَتِ أَصداءُ الرِّعْدِ عَلى الجِبالِ. كما هَبَّتِ

الرَّيْحُ وَسَاطَتِ الْمَطَرِ عَلَى زُجَانِنَا الْأَمَامِيِّ وَالْأَشْجَارِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا. فَبَدَتْ أَشْعَثُهُ مِصْبَاحَيْنَا  
الْأَمَامِيِّينَ ضَعِيفَةً إِذْ كَافَحَتِ ظُلْمَةَ الْعَاصِفَةِ الْجَارِفَةِ.

فَجَاءَتْ، دُونَ إِنْذَارٍ، أَصْدَرُ مُحَرِّكُنَا صَوْتَ سُعَالٍ وَانْطِفَافاً. فَأَنْتَ لِينَا: «آه، لَا! لَيْسَ الْآنَ!  
نَحْنُ وَسَطَ اللَّامِكَانَ!»

فَقُلْتُ بِالْحَاحِ: «حَاوِلِي تَشْغِيلَهُ مِنْ جَدِيدٍ.»

هَمَّهَمَ الْمُحَرِّكُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشْتَغَلْ. فَأَدَارَتْ لِينَا تَكَرُّارًا الْمِفْتَاحَ فِي الْمُشْعَلَةِ. وَمِنْ الْمَقْعَدِ  
الْخَلْفِيِّ قَدَمْتُ جُؤَانَ أَفْكَارًا. ثُمَّ قَرَّرْتُ لِينَا بِشَجَاعَةٍ: «سَيَكُونُ عَلَيَّ أَنْ أُخْرَجَ وَأَنْظَرُ  
تَحْتَ غِطَاءِ الْمُحَرِّكِ.»

وَبَعْدَ ذَلِكَ بِسَاعَةٍ، كُنَّا مَا نَزَالَ هُنَاكَ وَحَدَانَا مَقْطُوعَاتٍ، وَالسَّيَّارَةُ تَأْبِي أَنْ تَدُورَ. لَقَدْ  
جَرَّبْتُ لِينَا كُلَّ شَيْءٍ تَعْرِفُهُ. ثُمَّ بَعَيْتَيْنِ بُنْيَتَيْنِ مُغْرُورِقَتَيْنِ، وَالْمَطَرُ يَسُحُّ مِنْ شَعْرِهَا الْمُبْلَلِ،  
نَظَرْتُ إِلَيْنَا مُدَافِعَةً. «لَسْتُ أَعْلَمُ مَا أَعْمَلُ فِعْلًا!»

طَغَى عَلَيْنَا الْعَجْزُ. كُنَّا فِي بَلَدٍ أجنبيٍّ. وَكُنَّا وَحِيدَاتٍ، لَا أَحَدَ لِيُعِينَنَا، وَلَا أَحَدَ  
يَنْتَظِرُنَا اللَّيْلَةَ. وَلَمْ يَكُنْ لَنَا أَيُّ سَبِيلٍ لِلاتِّصَالِ بِأَيِّ شَخْصٍ، وَلَا أَيَّةَ مَعْرِفَةٍ مِيكَانِيكِيَّةٍ بَدَتْ  
نَافِعَةً مِنْ أَيِّ وَجْهِ. وَكَانَ ظِلَامُ اللَّيْلِ قَدْ بَدَأَ يَهْبِطُ خَارِجَ نَوَافِذِنَا الْمُطْرَطِشَةَ بِالْمَطَرِ.  
وَإِذْ بَتُّ مَسْعُورَةً، وَأَكَادُ أَصِيرُ مَذْعُورَةً، قُلْتُ: «لِينَا، عَلَيْنَا أَنْ نُصَلِّيَ بِلَجَاجَةٍ. ذَاكَ هُوَ  
رِجَاؤُنَا الْوَحِيدُ.»

«يَا رَبُّ، أَنْتَ تَرَى كَمْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَيْكَ. رَجَاءً، دَعِ هَذِهِ السَّيَّارَةَ تَشْتَغَلْ.»  
وَبِالْتَّنَاوُبِ، تَوَسَّلْتُ كُلَّ مَنَّا إِلَى أَبِيْنَا السَّمَاوِيِّ كِي يَتَدَخَّلَ لِخَيْرِنَا، وَأَكْذُنَا مُجَدِّدًا ثِقَتْنَا  
بِتَدْبِيرِهِ وَحِمَايَتِهِ. وَمَلَأَ قَالَتْ جُؤَانَ «أَمِينَ!» أَدَارَتْ لِينَا الْمِفْتَاحَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ، فَجَارَ  
الْمُحَرِّكُ وَاشْتَغَلْ. فَهَتَفْنَا كُلُّنَا مَعًا: «أُوهِ، شُكْرًا لَكَ، يَا رَبُّ!» وَبِالْصَّلَوَاتِ وَتِرَانِيمِ الشُّكْرِ  
وَالرِّيحِاحِ فِي قُلُوبِنَا، سَفُنَا إِلَى الْبَلَدَةِ التَّالِيَةِ لِنَبِيَّتِ لَيْلَتِنَا.

عَلَى حُدُودِ أَلْمَانِيَا الشَّرْقِيَّةِ، قَابَلْنَا حُرَّاسًا شَبُوعِيَّينَ عِنْدَ «نُقْطَةِ شَارْلِي لِلتَّفْتِيْشِ». وَقَدْ  
فَتَحُوا صُنْدُوقَ سَيَّارَتِنَا لِمُعَايِنَةِ مَحْتَوِيَّاتِهِ. كَانُوا لُطْفَاءً وَوَدُودِيْنَ، وَأَشَارُوا لَنَا بِالْأَيْدِي  
كِي مُرٌّ، مَعَ أَكْثَرِ بَقْلِيلٍ مِنْ ابْتِسَامَةٍ مُغَايِظَةٍ وَتَعْلِيْقٍ «وَجُوهٌ جَمِيلَةٌ جَدًّا» عَبْرَ نَافِذَةِ  
السَّيَّارَةِ الْمَفْتُوحَةِ.

في برلين كُنَّا قد خَطَطْنَا لِقَضَاءِ نِهَابِيَّةِ أُسْبُوعٍ مَعَ جِمي مَلَرٍ، وَهُوَ أَحْ لِيْصِهْرِنَا جُونِي. كَانْ يَخْدُمُ كَمُرْسَلٍ فِي رَعِيَّةِ أَفْرِيدِنْسُهَائِمِ المِينُونِيَّةِ، وَقَدْ وَعَدَ بَأَنْ يَصْطَحِبَنَا فِي جَوْلَةٍ لِرُؤْيَةِ مَعَالِمِ المَدِينَةِ الأَلْمَانِيَّةِ المَشْهُورَةِ.

وَسُرْعَانَ مَا بِتْنَا تَائِهَاتٍ يَائِسَاتٍ. لَمْ يَبْدُ أُنَّا سَنَجِدُ أَفْرِيدِنْسُهَائِمِ أَيَّمَا انْعَطَفْنَا. وَطَلَبْنَا المُسَاعَدَةَ مِنْ شَخْصٍ بَعْدَ آخَرَ. إِنَّمَا بَدَّتْ أَلْمَانِيَّتُنَا الپَنَسِلْفَانِيَّةَ قَلِيلَةَ النَّفْعِ، وَمِ يَكُنْ أَحَدٌ قَدْ سَمِعَ بِأَفْرِيدِنْسُهَائِمِ. وَمَعَ الإِلْحَاحِيَّةِ المُتَعَاظِمَةِ، شَعَرْنَا بِالارْتِيَاحِ يَغْمُرُنَا لَمَّا رَأَيْنَا شُرْطِيًّا مُرْتَدِيًّا البِرَّةَ الرِّسْمِيَّةَ. فَصَرَّحَتْ وَاثِقَةً: «يَقِينًا، سَيُسَاعِدُنَا!»

وَلَكِنْ لَمَّا تَقَدَّمَتْ لِينَا إِلَيْهِ، تَصَرَّفَ بِتَعَالٍ وَمِ يَبْدُ أَنَّهُ فَهَمَ كَلَامَهَا جَيِّدًا جَدًّا. فَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ نُقْطَةِ الانْهِيَارِ، ضَرَبَتْ لِينَا الأَرْضَ بِأَخْمَصِ قَدَمَيْهَا مُحْبَطَةً. وَعَبَّرَتْ يَائِسَةً عَنِ مَطْلَبِنَا بِأَلْمَانِيَّةِ پَنَسِلْفَانِيَا: «عَلَيْكَ أَنْ تُسَاعِدَنَا!»

نَظَرَ الشُّرْطِيُّ الأَلْمَانِيُّ الفِظُّ إِلَيْهَا بِجَدَّةٍ. وَحَاوَلَ أَنْ يُخْفِيَ ابْتِسَامَةً، وَلَكِنْ زَوَايَا فَمِهِ ارْتَعَشَتْ بِالسَّلْسِيَّةِ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ ضَاحِكَتَيْنِ عَلَيْنَا. عَلَى الأَقْلِ حَظِينَا بِكَامِلِ انْتِبَاهِهِ الآنَ. وَبِذَلِكَ لِينَا جَهْدًا يَائِسًا آخِرًا لِتَشْرَحَ لَهُ وَرَطَّتْنَا.

عِنْدئذٍ تَمَامًا مَشَى وَرَاءَنَا رَجُلٌ. «أَنَا سَأخُذُكَ إِلَى أَفْرِيدِنْسُهَائِمِ. اتَّبِعْنِي فَحَسْبُ. مِنْ هُنَا، يَا صَبَايَا.» فَأَطَعْنَا غَيْرَ مُصَدِّقَاتٍ، مَبْهُورَاتٍ.

سَاقٌ قُدَّامَنَا، مُتَقَدِّمًا إِيَّانَا إِلَى زُقَاقٍ صَغِيرٍ. وَإِذْ رَكْنَا سَيَّارَتَنَا وَتَرَجَلْنَا مَعًا لِتَشْكُرِهِ، شَاهَدْنَا مَشْدُوهَاتِ السَّيَّارَةِ تَنْطَلِقُ مُبْتَعِدَةً بِسُرْعَةٍ وَتَخْتَفِي. فَعَبَّرَتْ لِينَا عَنِ أَفْكَارِنَا كُنَّا إِذْ سَأَلَتْ: «أَلْعَلَّ ذَاكَ كَانَ مَلَكَ؟» وَسُرْعَانَ مَا كَانَ جِمي يُرْحَبُ بِنَا بِحَرَارَةٍ. وَبَعْدَمَا دَخَلْنَا وَاسْتَقَرَّرْنَا حَكِينًا لَهُ القِصَّةَ كُلِّهَا. فَارْتَبَكَ كَمَا ارْتَبَكْنَا نَحْنُ بِشَأْنٍ مَنِ أَمَكَّنَ أَنْ يُسَاعِدَنَا ثُمَّ يَنْصَرِفَ دُونَ أَنْ يَقُولَ وَدَاعًا. وَلَمَّا افْتَرَقْنَا لِنَنَامَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، أَمَكَّنَا فَقَطْ أَنْ نَسْتَنْتَجِ أَنَّ اللهَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ جَدِيدٍ قَدْ عَالْنَا عِنْدَ الحَاجَةِ.

بِوُجُودِ جِمي مُرْشِدًا لَنَا، أَمْضَيْنَا الأَيَّامَ القَلِيلَةَ التَّالِيَةَ مُتَبَضِّعَاتٍ وَمُنْتَفِرَّجَاتٍ. وَقَدْ قَابَلْنَا الرِّعِيَّةَ الَّتِي كَانَ جِمي جُزْءًا مِنْهَا، وَتَبَارَكْنَا بِمُودَّتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ. وَذَاتَ مَسَاءٍ قَرَّرْنَا أَنْ نَنْضَمَّ إِلَى آخَرِينَ مِنْ أَهْلِ بَرْلِينِ فِي تَسْلِيَّةِ مَدِينِيَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ. فَاصْطَحَبْنَا جِمي، مَعَ اثْنَيْ عَشَرَ شَخْصًا مِنْ شَبِيئَةِ أَفْرِيدِنْسُهَائِمِ فِي كَنِيسَتِهِ، إِلَى مُنْتَهَى كَبِيرٍ فِي المَدِينَةِ. كَانَ ذَاكَ لَيْلًا دَافِئًا أَضَاءَهُ القَمَرُ، وَبِوُجُودِ جِمي دَافِعًا كُرْسِيَّ المَدُولَبِ وَالشَّبِيئَةِ الآخَرِينَ مُنْتَشِرِينَ قُدَّامِي وَوَرَائِي، شَعَرْتُ بِالأَمَانِ وَالارْتِيَاحِ.

كان المنتزهُ كبيرًا والممرّات فسيحةً. فتحدّثنا وضحكنا ورتّلنا ترانيم، ونحن نتمشّي تحت ضوء القمر اللطيف. وفجأةً سدّ سبيلنا شكّل رجلٍ قاتمٍ خرج من الظلال بقرب الممرّ.

كان مُرتديًا ثيابًا مدنيّةً، وبدا أنّه ليس مُتشرّدًا ولا شرطيًا، نوعي النّاس الوحيدين اللّذين أمكّن أن نتوقّع منهم أن يُبادرانا بالكلام. وما لبث أن أمرنا: «توقّفوا عن الترنيم!» وقد كان صوته باردًا، أمرًا، فيه رنّةٌ كره. وبدا أنّ هواء اللّيل كان الشّيء الوحيد الذي يتنفّس. فكلّ شيءٍ سواه كان ساكنًا، في حال انتظارٍ قلبي.

ناظرًا إلى مجموعتنا الصّامته المصدومة، سحبّ مُسدّسًا من زُناره. وبدا لي أنّي أرى المشهد أمامي بالحركة البطيئة. وقد تحرّكت يداهُ في الظلال، ومضّ ضوء القمر مُنعكسًا على ماسورة المُسدّس السّوداء. كان جيمي قد تقدّم أمامنا جميعًا ممّا بادرتنا الرجلُ أولًا. والآن سدّد الرجلُ المُسدّس إلى بطن جيمي. وقد رأيتُ وجه جيمي مُرتعشًا. فانتظرت الطّلقَة التي كنتُ على يقينٍ بأنّها ستأتي. وأحسستُ كأنّ ذلك كابوسٌ بطيء الحركة.

«أنا أعني ما قُلتُه.» كانت كلماتُ الرجلِ هادئةً ولثيمة. فقَفّ الشّعْرُ على قفا رقبتي. ثمّ مشى إلى جانب الممرّ وأشار لنا أن نمرّ. وكأّمّا في حُلْم، تحرّكنا إلى الأمام طائعين، مُجاوزين إيّاهُ على الممرّ في صفٍّ طويل. وقد انتظرتُ طلقه في الظّهر، إلّا أنّها ما جاءت قطّ. ولكنّ إذ جاوزهُ آخرُ شخص، واستعدنا مشيتنا، جاء الصوتُ مُجددًا عبر الظلام. «تذكّروا ما قُلتُه لكم.» وقد كانت كلماتُه مُضربّةً قليلًا. «ولا ترجعوا على هذا الطّريق أيضًا، وإلّا فإنّكم ستأسفون.»

وإذ ركضنا تقريبًا، جعلنا مسافةً أمانٍ بيننا وبين الرجل قبل أن نجرؤ على التّكلم بعضنا إلى بعض. ثمّ بدا أنّنا شرعنا كلنا نتكلّم في وقتٍ واحد. لقد خُصّ كلُّ شخصٍ مِنّا. ولمّا وصلنا إلى بقعةٍ في المنتزهُ مُضاءةً جيّدًا، استوقف جيمي المجموعة، وقال بحماسة: «لنركع هنا ونشكر الله على إنقاذنا!»

وبعدما شكرنا ربّ، وجدنا طريقًا آخر ورجعنا إلى البيت بأسرع ما يمكن. لقد تلاشى الفرح من النّزهة، وأردنا كلنا أن نكون سالمين في الدّاخل. فمرّةً أُخرى بعدُ قد أثبت الله أمانتهُ عبر الحماية العجيبة.

بعدما توقّفنا في هولندا مُدّةً قصيرة، تركنا وراءنا مركبتنا الرّبّطاليّة المُستأجرة، وركبنا في طائرةٍ مُسافرةٍ إلى لندن يوم الثّالث من تمّوز. وهناك أمضينا نحو أسبوعٍ نجول

في المدينة الشهيرة، حيثُ نشأ كثيرٌ من التَّشويقيِّ الأديبيِّ والتَّاريخيِّ. فقد أبهَجني أن أتصوَّرَ شوارعَ لَنْدُنَ المملأى بالصَّبَابِ والدُّخَانِ في روايَةِ «دايڤد كُڤرفيلد»، والأزَقَّةَ الخلفيَّةَ في «أوليفر تويست». كذلك «الأميرُ والفقيرُ» لِتُوَايْن، و«سَفْرَاتُ غُلَيْفَر» لِسُوَيْفَت، و«حِكَايَاتُ كَانْتَرَبْرِي» لِشوسِر، معَ عددٍ كبيرٍ من الرواياتِ والسِّيَرِ الأخرى التي قرأتُها على مرِّ الزَّمنِ، عادت نابضَةً بالحياة بطُرُقٍ جديدةٍ إذ تصوَّرتُ مَشَاهِدَ من صَفَحَاتِهَا هنا في مُحيطِهَا الفِعلِيِّ.

وبعدَ خمسةِ أَيَّامٍ في بريطانيا، ركبنا الطَّائرةَ في رحلتنا إلى نيويورك، مُتعباتٍ ومُحَنَّكاتٍ ومُحمَّلاتٍ بِذكرياتٍ وقِصصٍ نحكيها. ولم أُطِقِ الانتِظارَ لِلوُصُولِ إلى الدِّيارِ الآن. لقد باتَ لَدَيَّ أشياءٌ كثيرةٌ أتطَّلَعُ إلى مُشارَكَةِ تلاميذي فيها في السَّنَةِ الدَّرَاسِيَّةِ المُقبِلَةِ، ولكنني كنتُ أولًا بِحاجَةٍ لأنَّ أُستريحَ وأتعافى من جميعِ مُغامراتنا.



## الزَّمِيلَةُ الطَّيَّارَةُ وَالذِّينَامِيَّةُ

كان ذلك يومًا باردًا وعاصفًا في مُنتصفِ الشُّتاءِ. وطَوَالَ الصُّبْحِ، ما بَرِحَ تلاميذي مُتَمَلِّمِينَ، حَتَّى أَمَكَّنِي أَنْ أَعْلَمَ أَنَّهُمْ كَانُوا بِحَاجَةٍ إِلَى تَحْوِيلِ عَنِ المَأْلُوفِ. ففِي مُنْتَصَفِ الحِصَّةِ الثَّانِيَةِ، عَزَفْتُ وَتَرَّ إِعْلَانِ كِي أَحْفِزُهُمْ عَلَى حُسْنِ السُّلُوكِ. إِذِ قَدَّمْتُ لَهُمْ عَرَضًا: «إِذَا اشْتَغَلْتُمْ بِاجْتِهَادٍ بِالْغِ، فَسَتَكُونُ لَنَا اسْتِرَاحَةٌ بَاطِرَةً، وَسَنَلْبَسُ كُلُّنَا مَا يُنَاسِبُ الطَّقْسَ البَارِدَ وَنَذْهَبُ لِلتَّمَرُّجِ.»

فارتفعت يدُ تَوَاقِهِ حَالًا مِنْ مَوْخِرِ العُرْفَةِ. «أَأَنْتِ ذَاهِبَةٌ مَعْنَا، أُخْتُ فَيْرَا؟»  
«نَعَمْ، أَنَا ذَاهِبَةٌ.» وَابْتَسَمْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْزِهِمْ، إِذِ انْكَبُّوا كُلُّهُمْ عَلَى شُغْلِهِمْ بِانْدِفَاعٍ وَاسْتِمْتَاعٍ مُجَدِّدِينَ. وَبَعْدَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، كُنَّا نَرْتَدِي ثِيَابَ الهَوَاءِ الطَّلَقِ.  
قَالَتْ زَمِيلَتِي المَعْلَمَةُ إِسْتَرَّ اسْمِث: «تَظْهَرِينَ مِثْلَ دَبْدُوبٍ بِتِلْكَ الدُّنُرِ كُلِّهَا وَقَلَّسُوهُ الفَرِوِ تِلْكَ!»

«سَاعِدِينِي عَلَى رَبِطِ هَذَا اللِّفَاحِ، فَأَصِيرَ عِنْدِيذٍ جَاهِزَةً لِلذَّهَابِ. أَأَنْتِ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِرُكُوبِ مِرْجَةٍ نَزُولًا عَلَى ذَلِكَ التَّلِّ، إِسْتَرَّ؟ سَيَكُونُ الطَّقْسُ جَمِيلًا وَثَلْجِيَّ البُرُودَةِ اليَوْمِ.»  
وَتَلَأَلَتْ عَيْنَايَ فَرَحًا وَمَرَحًا.

«بِالتَّأَكِيدِ، فَيْرَا، أَنَا عَلَى اسْتِعْدَادِ. وَكَمَا أَقُولُ دَائِمًا: أَنْتِ العَقْلُ وَأَنَا اليَدَانِ. افْتَحِي أَنْتِ البَابَ، فَأَتْبَعُكَ حَتْمًا.»

فقلتُ ضاحِكَةً: «الآنَ، إذا استطعتِ فعَلًا أن تُعطيني جناحين!»

«آه، لا تُبأشِرني ذلكَ من جديد!» وقد تورّدَ خدًا إسترَ قليلًا تحتَ لِفَاعِهَا الصُّوفِيّ الأَزْرَق. «أنا لستُ طيَّارَةً بالحقيقة، فبرا. إنَّما أقودُ فقط طائرةً خاصَّةً صغيرةً لأجلِ الاستِجْمام.»

فقلتُ بإصرار: «بلى، أنتِ طيَّارة. أليسَ الطيَّارُ شخصًا يقودُ طائرةً؟ ذلكَ هو أوَّلُ شيءٍ تحدّثتُ إليكِ عنه أصلًا. أتذكُرِينَ لَمَّا وقفتُ بجانبِكِ وسألتُكِ ما إذا كُنْتِ أنتِ مَنْ قَادَ الطَّائرة؟»

«أذكُرُ بالفِعلِ حقًّا.» وتلألأتِ عينا إسترَ الزُّرقاوانِ حيالَ تلكَ الذِّكْرَى. «كنتُ مرْتَبِكَةً بشأنِ ذلك، وكُنْتِ أنتِ هُناكَ مُفْشِيَةً الأَمْرَ عَلَنًا كما لو كان إنْجَارًا بهِرًا.»

فصَحِكتُ: «هو كذلك! وماذا كانَ انْطِباعُكِ الأوَّلُ عَنِّي؟»

«تساءلتُ كيفَ أمكَنَ أن يُصَرَ ذلكَ المِقدارُ الكَبيرُ من الدِّيناميتِ داخلَ ثيابِ شخصٍ ضئيلِ القامةِ هكذا.» وقَهَقَها معًا كِتْمِيزَتِي مدرسة، ثُمَّ خرجنا إلى داخلِ الثَّلْج. كنتُ على عتَبَةِ أواسِطِ ثلاثينِيَّاتِي، واستمرَّ التَّعلِيمُ في المدرسة مُشْبِعًا لي، مُعْطِيًا إِيَّايَ معنَى حقيقيًّا من العَزْمِ والإنجازِ في حياتِي. وقد جُعِلَ أكثرُ إمتاعًا بعدَ بوجودِ شَخْصٍ مِثْلِ إسترَ زميلَةً لي في العملِ.

عندَ قِمَّةِ الثَّلِّ، كانَ الأولادُ يَنْتَظِرُوننا. «أخُتُ فبرا! أخُتُ فبرا، هُنا فوقَ أفضلِ مِرْزَجة!» وكانَ بِضَعَةُ صَبِيانٍ قَدِ انْتَفَوا مِرْزَقَةً خَشْبِيَّةً طويلةً كي نتمزِجَ عليها.

ركبتُ إسترَ أوَّلًا، وركبتُ أنا قُدَّامَها. وإذ لَمَّتْ ذِراعِها حولي بإحكام، نادَتْ: «جاهِزتان!» وإذا دَفَعَةٌ هائلة، وبعدَ سُقوطِ المطرِ في اليومِ السابقِ مُجلَّدًا الثَّلْج، اندفَعَتِ المِرْزَجةُ مُبتَعِدَةً بِسرعةِ طَيَّرانٍ، هابِطَةً على مُنحَدِ الثَّلِّ.

هَبَّتِ الرِّيحُ الباردةُ الفارِصَةُ قويَّةً على وجهينا. فصَحِكتُ عاليًا باستِمتاعٍ خالصٍ. لقد أحببتُ تلكَ اللِّحْظَاتِ التي فيها أثْبَتَتِ الرِّيحُ أنَّ جِسمِي المشلولَ يتحرَّكُ وأنني أتقبَّلُ الحياةَ بِسرور. «أليسَ هذا مُمتِعًا؟» وصَحِكتُ إسترَ.

ارتفعتُ قَبيلَ أسْفَلِ الثَّلِّ شَجَرَةً قَيْقَب. وإذ وصلنا إلى مُنْعَطَفٍ في مَدْرَجِ التَّمزِجِ، حاولتُ إسترَ أن تدورَ حوله. ولكنَّ الثَّلَّ المُجلَّدَ كانَ زَلَقًا فوقَ الحدِّ، فتوجَّهتِ المِرْزَجةُ

مُبَاشِرَةً نَحْوِ جِذْعِ الشَّجَرَةِ. وَصَرَخَتْ: «آه! سَنَصْطَلِدُ بِتِلْكَ الشَّجَرَةِ!» لَقَدْ لَاحَتْ مُنْتَصِبَةً  
أَمَامَنَا بِصَلَابَةٍ!

زَعَقَتْ إِسْتَرْ مَذْعُورَةً: «سَاتَوَلَّى الْأَمْرَ!» وَإِذْ فَكَّرَتْ بِسُرْعَةٍ، أَحْكَمَتْ ذِرَاعَيْهَا حَوْلِي،  
جَاذِبَةً إِيَّايَ إِلَى صَدْرِهَا وَضَاعِطَةً بِذَقْنِهَا عَلَى كَتِفِي، كِي تُثَبِّتَنِي أَفْضَلَ بَعْدَ. وَإِذْ رَمَتْ  
بِثِقَلِ جِسْمِهَا مِنْ عَلَى الْمِزْلَجَةِ قَبْلَ ثَانِيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ اصْطِدَامِهَا بِالشَّجَرَةِ، تَدَحْرَجَتْ  
وَهِيَ مُتَشَبِّهَةٌ بِي إِلَى قَلْبِ كَوْمَةٍ تَلْجُ كَدَسْتَهَا الرِّيحَ.  
«أَأَنْتِ بَخِيرٌ، فَيَر؟» أَفَلْتَنَنِي إِسْتَرْ وَحَدَّقَتْ إِلَيَّ بِقَلْقٍ.

«أَطْنُ ذَلِكَ. أَأَنْتِ بَخِيرٌ؟» لَقَدْ حَالَ اللَّفَاعُ دُونَ دُخُولِ التَّلْجِ إِلَى فَمِي، وَلَكِنَّ  
قَلْنَسُوْتِي كَانَتْ مَمْلُوءَةً بِهِ. فَتَدَحْرَجْتُ مُنْقَلِبَةً وَجَلَسْتُ.  
وَقَالَتْ إِسْتَرْ مُفْهَقَةً: «أَنْتِ تُشْبِهِينَ إِنْسَانًا ثَلْجِيًّا!»

فَرَدَدْتُ مَازِحَةً: «وَأَنْتِ تُشْبِهِينَ طَيَّارًا، تَحَطَّمَتْ طَائِرَتُهُ فِي كَوْمَةِ تَلْجٍ.»

«أَيُّ طَيَّارٍ! لَا أَسْتَطِيعُ حَتَّى قِيَادَةَ مِزْلَجَةٍ.» وَهَزَّتْ إِسْتَرْ رَأْسَهَا بِاشْمِئزَازٍ مُصْطَنَعٍ،  
فَانْفَجَرَتْ فِي صَاحِكِ مُجَلْجَلٍ. فَاَنْضَمَّتْ إِلَيَّ وَصَحَّكْنَا حَتَّى وَجَعْنَا خَوَاصِرُنَا مِنْ الْمَرَحِ  
الصَّاحِبِ وَالرَّيَاحِ.

بَعْدَ الرُّجُوعِ إِلَى عُرْفَةِ الصَّفِّ بَعْدَ ظَهْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، بَدَأَ تَلَامِيذِي أَكْثَرَ اسْتِقْرَارًا بَعْدَ  
ذَلِكَ التَّمَرِينِ فِي الْهَوَاءِ الطَّلُقِ. كَانَتْ دَرْسُ التَّارِيخِ أَوَّلَ حِصَّةٍ بَعْدَ الظُّهْرِ، وَلَا حِظُّ بَارْتِيَاخِ  
أَنْ وَاحِدًا مِنْ صِبْيَانِ الصَّفِّ الْأَعْلَى يُوَلِّي دَرْسَهُ فِي التَّارِيخِ عِنَايَةً جَدِيدَةً. مَا بَرِحَ كِفَاحًا  
طَوَالَ وَقْتٍ لَا بِأَسْ بِهِ أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَى الْاهْتِمَامِ وَالتَّعَلُّمِ، وَكُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ طُرُقٍ لِأَسَاعِدَهُ.  
فَفِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ تَقْرِيْبًا فِي أَثْنَاءِ الْحِصَّةِ، قَرَّرْتُ أَنْ أَمْتَحِنَهُ فِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ  
الَّتِي كُنْتُ قَدْ طَلَبْتُ مِنَ التَّلَامِيذِ أَنْ يَسْتَظْهِرُوهَا مِنْ فِتْرَةٍ أَوَّلِ عَصْرِ النَّهْضَةِ الْأُورُوبِيَّةِ  
الَّتِي كُنَّا نَدْرُسُهَا. وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَكْفَيْتُهُ عَلَى اجْتِهَادِهِ بِفُرْصَةٍ لِلْمُشَارَكَةِ فِي مَا كَانَ يَتَعَلَّمُهُ.  
فَلَمَّا نَادَيْتُهُ بِاسْمِهِ، بَدَأَ مُرْتَبِكًا؛ وَعِنْدَمَا تَقَدَّمَ بِتَرَدُّدٍ إِلَى مَكْتَبَتِي، فَكَّرْتُ مُجَدِّدًا فِي قَرَارِي.  
لَمَّا وَضَعَ كِتَابَهُ الْمَفْتُوحَ عَلَى مَكْتَبَتِي، رَأَيْتُ مَا كَانَ أَسْرًا اهْتِمَامَهُ. إِذْ كَانَتْ مَجَلَّةٌ  
رِيَاضِيَّةٌ مَدْسُوسَةٌ بِطَرِيقَةٍ مُنَاسِبَةٍ تَمَامًا بَيْنَ صَفْحَاتِ كِتَابِ التَّارِيخِ الْكَبِيرِ. فَغَاصَ قَلْبِي؛  
وَإِذْ رَمَقْتُهُ بِنَظَرَةٍ امْتَزَجَتْ فِيهَا الصَّرَامَةُ بِالْخَيْبَةِ، لَمْ أَقُلْ أَيُّ شَيْءٍ إِلَى حِينٍ. وَقَدْ قَابَلْتُ  
عَيْنَاهُ عَيْنِي وَقْتًا قَصِيرًا، ثُمَّ تَحَوَّلْنَا بَعِيدًا. كَمَا رَاوَحَ بَيْنَ قَدَمَيْهِ، وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ.

سألتُ بهدوء: «لماذا فعلتَ هذا؟»

فَعَمَّغَمَ قائلاً: «لستُ أدري. أنا آسف.» وقد كانت قَطْرَاتٌ من العَرَقِ تتشكَّلُ على جبينه، وكانت يدها ترتجفان. ومع أنه كان أكبرَ حجماً مني بثلاثة أضعاف، استطعتُ أن أتبيّنَ أنه كان خائفاً.

«رجاءً، انظرْ إليّ.» فنظرَ، وكانَ في حمله تَهْ أَسْفُ مُمتزج بالخجل. لقد نَدِمَ على تخيبي أَملي، واستطعتُ أن أعَيَّ أنه كانَ آسِفاً. «سنتحدّث عن هذا بعدَ المدرسة. لك أن تتركَ المجلَّةَ على مكنتي وترجعَ إلى مقعدك.»

أبقيتُ القصاصَ خفيفاً، وحاولتُ أن أجعله مُتكافئاً مع الذَّنْب. وقد كان هذا واحداً من أعظمِ تحدّياتي كُملِّمة، أن أُقيمَ توازناً بين جميع النواحي العلائقية في مهنتي. لقد أردتُ أن أفهمَ وأُصادقَ كُلاً من تلاميذي، ولكنني كنتُ أيضاً عالِمةً أن الاحترامَ وقُبُولَ العواقبِ أمرانِ حاسمان بالنسبة إلى التَّعليم الجيّد.

وفي ما بعد، إذ ناقشنا إسْتَر وأنا النِّهارَ قبلَ الذَّهابِ إلى البيت، أسررتُ إليها: «أحياناً، أجدهُ تحدّياً هاماً أن أعرفَ ما هو القَرَارُ الصَّحيح، كما تعلمين. من أجل ذلك بدأتُ أجعلُ التَّلاميذَ يُصلُّونَ معي قبلَ أن أُودِّبَهُم. ففي وُسْعِك أن تُدرِكي الكثيرَ عن مدى توبَةِ الأولاد إذا سمعتهم يُصلُّون. وهذا الأمرُ يُتيحُ لي فرصةً كي أصلي لأجلهم أيضاً. إنّه يُوطدُ العَلاقةَ حقاً.»

فطمأنتني إسْتَر مُجدداً: «أوه، تلكَ فكرةٌ مُمتازة، فيرا. أنا أعرفُ ما تعينهُ. والتَّلاميذُ يحترمونك احتراماً ربيعاً. على فكرة، عندي لقاءُ أهلٍ في وقتٍ لاحقٍ اليوم. أَلديك أَيْهَ نصيحةٌ لي، يا تُرى؟»

«أصغي إليهم، إسْتَر. ذلكَ أفضلُ شيءٍ تستطيعين القيامَ به. إذا أصعبتِ إلى خيبتهم، وسمعتِ من أين هم أتون، فسيسخرون باحترامك لهم، وسيُتيحُ لك ذلكَ فرصةً كي تشرحي الأمورَ دونَ أن تجعلهم يشعرون بأنهم مُهاجمون. أنا أحبُّ أن أطرَحَ هذا السؤالَ: 'ماذا، برأيكم، ينبغي لي أن أفعلَ في هذا الوضع؟ كيف تودون لي أن أعالجَ هذا الأمر؟' وهكذا يشعرون كما لو كانوا في فريقك، وذلك يُعطيهم ثقةً بأنك في فريقهم.»

«أحبُّ ذلك. تلكَ نصيحةٌ صحيحة.»

«أه، وقبلَ أن أنسى، أَيْهَ ترنيمَةٌ تُوصِنُ بها لأجلِ فترتي التَّعديّةِ غدًا؟ نحنُ نقرأ من رومية ٨ عن إحراننا ما يفوقُ الانتصار، وكنتُ أحاولُ أن أتذكّرَ تلكَ التَّرنيمَةَ التي

استعملتها في عُرفَةِ صَفْكِ الأُسبُوعِ الأخيرِ.» وقد كُنَّا إِسْتَرَّ وأنا دائماً نبتادلُ الأفكارِ، ونُقَارِنُ المَلاحِظَاتِ، وننشارِكُ في القِصَصِ.

ثُمَّ سَأَلْتُ: «أترِيدِينَ أَنْ نخرُجَ لِتناوُلِ الفَطُورِ صَبَاحَ الإِثْنَيْنِ؟»

«بالتَّأكِيدِ، ولكنْ سيكوُنُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَيَقِظَ باكراً.»

«سأكوُنُ حَاضِرَةً لِكَ عِنْدَ شَقِّ الفَجْرِ.» وَضَحِكْتُ، ثُمَّ مَضِينَا كُلَّ واحِدَةٍ فِي سَبِيلِهَا.

كَانَ صَبَاحَ الإِثْنَيْنِ كَثِيرَ الرِّذاذِ، ولم يَكُنِ الفَجْرُ قَدِ انْشَقَّ لَمَّا جَاءَتْ إِسْتَرَّ لِتَصْطَحِبَنِي.

ثُمَّ تَوَجَّهْنَا إِلَى مَدِينَةِ أَلِيَّانَسِ.

وسَأَلْتُ إِسْتَرَّ: «كَنْتُرِي مَانِرَ هُوَ حَيْثُ أَرَدْتِ أَنْ نذَهَبَ، صَحِيحٌ؟»

«نَعَمْ، سيكوُنُ مُمْتَعًا أَنْ نتناوَلَ مَعًا فَطُورًا سَاخِنًا قَبْلَ المَدْرَسَةِ.» وَاتَّكَأْتُ إِلَى الوَرَاءِ

فِي المَقْعَدِ بِسُرُورٍ غَامِرٍ، مُتَوَصِّرَةً وَقَتْنَا الطَّيِّبِ، يُهْدِهِنِي المُحْرَكُ وَالدَّفءُ المُنْبَعِثُ مِنْ فُوهَاتِ جِهَازِ التَّسْخِينِ. كَانَ الحَدِيثُ مُتَقَطِّعًا. سَنَسْتَيَقِظُ أَكْثَرَ بَعْدَ أَنْ نَشْرَبَ قَهْوَتَنَا!

وَإِذْ كُنَّا مُتَوَقِّفَتَيْنِ فِي مَجَازِ الانْعِطَافِ، وَصَوْنَا الوِمَاضِ مُضَاءً، خَطَّطْنَا مَا سَنَطْبُهُ

مِنْ قَائِمَةِ الطَّعَامِ. «أَطْنُ أَنْيَ أُرِيدُ قَدِيدَ اللَّحْمِ المَقْلِيِّ هَذَا الصَّبَاحَ وَرُجْمًا...» وَإِذَا بِصَوْتِ

تَحْطُمِ مُرْوَعٍ يُقَاطِعُ جُمْلَتِي، مَصْحُوبًا بِخَبْطَةِ اصْطِدَامِ هَائِلَةٍ.

أَحْسَسْتُ نَفْسِي طَائِرَةً فِي الهَوَاءِ، وَارْتَطَمَ جِسْمِي بِإِفْرِيزِ لَوْحَةِ المَوْشَّراتِ تَحْتَ

الرُّجَاجِ الأَمَامِيِّ، ثُمَّ نَطَّ وَحَطَّ فِي حِضْنِ إِسْتَرَّ.

فِي لِحْظَةِ دَوخَانِ مِنَ الخِصَّةِ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ سَاكِنًا. أَحْسَسْتُ كَأَنِّي قَدِ اخْتَبَقْتُ فِي

وَضْعِي الحَالِي، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَرَى إِلَّا القَلِيلَ القَلِيلِ. فزَعَقْتُ: «شِيلِينِي! شِيلِينِي!»

وَمَلَحْتُ إِسْتَرَّ خَطْفًا، فَبَدَّتْ دَائِخَةً وَمَخْضُوضَةً. وَقَدِ قَالَتْ لِي فِي مَا بَعْدَ إِنَّهُ لَمَّا صَدَمْتَنَا

السَّيَّارَةُ نُخَعَتْ رَقَبَتُهَا إِلَى الوَرَاءِ ثُمَّ ارْتَدَّتْ إِلَى الأَمَامِ بِفِعْلِ الصَّدْمَةِ، فَتَهَشَّمَ رَأْسُهَا عَلَى

النَّافِذَةِ وَغَابَتْ عَنِ الوَعْيِ إِلَى حِينِ.

وَفِي دُعُرٍ صرَخْتُ: «أَعِيدِينِي إِلَى المَقْعَدِ. لِنَنْطَلِقِ. شَعْلِي هَذَا الشَّيْءُ!» لَمْ أَكُنْ أَفْكَرُ،

بَلْ كُنْتُ مُسْتَمِيتَةً لِلسَّيْرِ عَلَى الطَّرِيقِ فَحَسَبِ.

«فِيْرَا، لَقَدْ تَعَرَّضْنَا لِحَادِثِ سَيْرٍ. لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَمْضِيَ فِي سَبِيلِنَا فَحَسَبِ.» كَانَ صَوْتُ

إِسْتَرَّ يَرْتَعِشُ. ثُمَّ مَدَّتْ يَدَيْهَا مُتَقَلِّفَةً، وَحَطَّنِي عَلَى مَقْعَدِي، حَيْثُ بَدَأَتْ أُدْرِكُ كَم

بدوْتُ غيرَ مَنْطِقِيَّةٍ لَمَّا طَلَبْتُ أَنْ نَسْتَأْنِفَ السَّيْرَ. وَكَرَّرْتُ إِسْتَرَ: «عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَظِرَ. مُؤَخَّرُ السَّيَّارَةِ مُحَطَّمٌ وَمُبَعَّجٌ.»

«أَعْرِفُ...» تَنَهَّدْتُ بِصَوْتِ ضَيْلٍ.

سُرْعَانَ مَا وَصَلَ شُرْطِيٌّ إِلَى مَسْرَحِ الْحَادِثِ. وَكَانَتِ السَّائِقَةُ الَّتِي اصْطَدَمَتِ بِنَا مُعَلِّمَةً فِي طَرِيقِهَا لِتَتَأَوَّلَ فِطُورٍ بَاكِرٍ فِي الْمَطْعَمِ نَفْسِهِ مَعَ مُعَلِّمَةٍ زَمِيلَةٍ. وَقَدْ كَانَتْ مُنْشَغِلَةً تَمَامًا بِالْحَدِيثِ حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَرَْنَا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِتَتَوَقَّفَ. ثُمَّ تَبَادَلْنَا مَعْلُومَاتِ التَّأْمِينِ، وَعِنْدَئِذٍ كَانَتْ قُوَّةُ إِسْتَرَ الْهَادِئَةُ قَدْ سَيَّطَرَتْ مُجَدِّدًا، رُغْمَ أَلْمِهَا. وَقَرَّرْتُ: «سُنْضَطَّرُ إِلَى تَخْطِيِ الْفَطُورِ، كَمَا أَظُنُّ. سَنَتَأَخَّرُ قَلِيلًا فِي عَوْدَتِنَا فِعْلًا.» فَوَافَقْتُ، وَتَوَجَّهْنَا رُجُوعًا إِلَى الْمَدْرَسَةِ.

وَمَا لَبِثْتُ أَنْ قَلْتُ لَهَا: «أَعْتَقِدُ أَنَّي سَاحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مُسْكِّنَاتِ الْأَلَمِ لِأَكْمَلَ نَهَارِي.»

«أَنَا أَيْضًا.» وَقَدْ كَشَّرَتْ لِي بِأَسَى. «عَلَى الْأَقْلُ لَمْ تَمُتِ.»

وَقَتَّ وَصَلْنَا إِلَى عُرْفَتِي دَرَسِنَا، كُنَّا مُرْضَضَتَيْنِ، جَانِعَتَيْنِ، مَخْضُوضَتَيْنِ، مُتَأَخَّرَتَيْنِ. ثُمَّ شَعَرْنَا بِأَنْ نَهَارَنَا كُلَّهُ كَانَ غَرِيبًا وَمُرْعَبًا، وَتَنَاوَلْنَا مُسْكِّنَاتِ لِلْأَلَمِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ. وَأَخِيرًا عَلِمْتُ إِسْتَرَ أَنَّهَا قَدْ صَدَعَتْ فِرْقَةً فِي عُنُقِهَا. كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ لِكَلِّتِنَا أَنْ نُعْرَجَ عَلَى الْمُسْتَشْفَى بَعْدَ حَادِثٍ كَذَاكَ، وَلَكِنَّا كُنَّا شَابِتَيْنِ وَثَابِتَتِي الْعِزْمِ. فَلَمْ نُفَوِّتْ ذَلِكَ النَّهَارَ الْمَدْرَسِيَّ، حَتَّى يَسْبَبَ حَادِثٌ.

تَشَارَكْنَا إِسْتَرَ وَأَنَا لَيْسَ فَقَطْ فِي عُرْفَةِ الصَّفِّ، بَلْ فِي الْحَيَاةِ كُلِّهَا أَيْضًا. فَطَالَعْنَا وَتَحَاوَرْنَا فِي كُتُبٍ وَمَوَاضِيَعٍ لَا تَنْتَهِي، قَارِئَتَيْنِ الْكِتَابَ نَفْسَهُ أَغْلَبَ الْأَحْيَانِ، ثُمَّ مَقَارِنَتَيْنِ الْمُلَاحَظَاتِ. وَمَلَّا لَمْ نَكُنْ نَخْطُطُ لِرِحْلَةٍ مِيدَانِيَّةٍ أُخْرَى، أَوْ نُنَاقِشُ شُؤُونَ عُرْفَةِ الدَّرْسِ، كُنَّا غَالِبًا مَا نَتَشَارِكُ فِي التَّبْصُرَاتِ الرُّوحِيَّةِ وَفِي قِصَصٍ مِنْ طُفُولَتِنَا. لَقَدْ عَلَّمْنَا مَعًا خَمْسَ سِنِينَ، وَفِي تِلْكَ السَّنِينَ تَوَطَّدَ رِبَاطٌ عَمِيقٌ سِيدُومٌ عُمْرًا.

إِحْدَى مُعَامَرَاتِنَا الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي لَا تُنْسَى عَلَى الْأَخْصِ، خَارِجَ عُرْفَةِ الصَّفِّ، حَصَلَتْ عَصْرَ يَوْمٍ سَبَتْ مُثْلَجٌ. كُنَّا قَدْ خَرَجْنَا مَعًا فِي جَوْلَةٍ بِالسَّيَّارَةِ، وَمَا بَرِحَ وَاحِدًا مِنْ أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيَّ أَنْ نَسُوقَ فِي الثَّلْجِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي لَمْ يُسَسَّ. «انظُرِي الْجَمَالَ، إِسْتَرَ. انظُرِي الْبَيَاضَ الشَّاسِعَ. كَأَنَّهَا نَحَاتُ ثَلْجٍ نَزَلَ وَأَقَامَ هُنَا!»

تَنهَّدتْ إِسْتَرٌ بِسُرُورٍ غَامِرٍ. «أَلَيْسَ فَاتِنًا؟ أَحِبُّ الثَّلْجَ عِنْدَمَا يَتَلَأَلُ ضَوْءُ الشَّمْسِ عَلَيْهِ. إِنَّ بِيَاضَهُ يَجْعَلُنِي دَائِمًا أَفْكَرٌ فِي الْمَسِيحِ غَاسِلًا قُلُوبَنَا وَجَاعِلًا إِيَّاهَا طَاهِرَةً وَنَقِيَّةً.» كَانَتْ مَنَاسِفُ الثَّلْجِ عَمِيقَةً وَكَانَ الْيَوْمُ بَارِدًا، وَلَكِنْ دَاخِلَ السَّيَّارَةِ حَرَّخَرْنَا وَبَرَبَرْنَا أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ. وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى طَرِيقٍ خَلْفِيٍّ صَغِيرٍ يَفْصِلُ بَيْنَ طَرِيقِ بَفِيلُو وَطَرِيقِ مَدْرَسَةِ نُوكْسَ، رَأَيْتُ أَنَّ عَالَمَ الثَّلْجِ كَانَ أَكْثَرَ عُمَقًا وَجَمَالًا بَعْدَ عَلَى ذَلِكَ الْمَجَازِ الْمُنْحَدِرِ الَّذِي يَبْدُو مُكْتَنَفًا بِالْأَسْرَارِ.

قَلْتُ مُوجَّهَةً: «انْعَظْفِي نُزُولًا إِلَى هُنَاكَ، إِسْتَر.»

فَاحْتَجَّتْ إِسْتَرٌ بِطَرِيقَةٍ عَمَلِيَّةٍ: «لَمْ يُجْرَفِ الثَّلْجُ عَنِ ذَلِكَ الطَّرِيقِ. سَنَعَلَقُ.»

وَلَكِنِّي كُنْتُ غَيْرَ هَيَّابَةٍ. لَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ لِأَيِّ مَا بَرَحْتُ أَكْفِخُ الْفِيوَدَ طِيلَةً حَيَاتِي. أَوْ رُبَّمَا كَانَ فَقَطْ بِسَبَبِ عِنَادِي الْفِطْرِيِّ، وَلَكِنِّي أَصْرَرْتُ عَلَى أَنْ تَنْعَظِفَ نُزُولًا عَلَى ذَلِكَ الطَّرِيقِ رُغْمَ هَوَاجِسِهَا الْمَانِعَةِ. وَأَخِيرًا أَدْعَنْتُ.

فَقَلْتُ بِنِثْقَةٍ: «أَعْطِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْوَقُودِ، وَسَتَكُونِينَ بِخَيْرٍ. أُوهُ، أَلَسَتْ مَسْرُورَةً لِأَنَّ

نَزَلْنَا عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ؟ انظُرِي ذَاكَ الْجَمَالَ!»

«إِنَّهُ فَاتِنٌ.» اشْتَمَلَ صَوْتُ إِسْتَرٍ عَلَى حِدَّةٍ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْبِيَنَّ أَنَّهَا كَانَتْ مُتْرِفِزَةً.

ثُمَّ عَبَرْنَا جِسْرًا صَغِيرًا خَلَابًا. وَقَدْ تَجَمَّعَتْ كُومٌ مِنَ الْبِيَاضِ صُعُودًا حَتَّى الطَّرِيقِ، وَامْتَدَّتْ أَمَامَنَا طَرِيقٌ مَلَأَى بِالثَّلْجِ غَيْرِ الْمَشْقُوقِ. وَفِي آخِرِ الطَّرِيقِ، بَدَا الثَّلْجُ أَعْمَقَ. فَالْحَصْحُ: «أَعْطِيهَا وَقُودًا أَكْثَرَ!» لَمْ أُرِدْ لَنَا أَنْ نَعَلَقَ بَعْدَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَصِلَ تَقْرِيبًا إِلَى آخِرِ الطَّرِيقِ.

وَبِطَيْبِ خَاطِرٍ دَاسَتْ إِسْتَرٌ عَلَى دَوَاسِيَةِ الْبَنْزِينَ، فَإِذَا بِسَيَّارَةِ الْبُيُوكِ إِلِكْتَرَا الْكَبِيرَةِ

تَنْدَفِعُ إِلَى الْأَمَامِ، مُبَاشِرَةً إِلَى قَلْبِ كُومَةِ ثَلْجٍ ضَخْمَةٍ. وَقَدْ كَانَ الثَّلْجُ عَمِيقًا جَدًّا بِحَيْثُ تَحَرَّكَ مُتَمَوِّجًا فَوْقَ غِطَاءِ الْمُحَرَّكَ.

فَصَرَخْتُ بِشَوْقٍ: «أَعْطِيهَا الْوَقُودَ، إِسْتَر! أَعْطِيهَا مَزِيدًا مِنَ الْوَقُودِ!»

وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَمْ يُوَصِّلْنَا كُلُّ اسْتِبْشَارِي وَإِلْحَاحِي إِلَى أَيِّ مَكَانٍ.

«انظُرِي، فَيْرَا. نَحْنُ عَالِقَتَانِ.» كَانَ صَوْتُ إِسْتَرٍ مُتَأَنِّيًا، لَكِنْ سَاخِطًا.

نَظَرْتُ حَوْلَنَا فَادْرَكْتُ أَنَّ الثَّلْجَ مُرْتَفِعٌ حَتَّى نَوَافِذِنَا حَوَالَيْنَا وَأَنَّ عَالِقَتَانِ حَقًّا.

وسألتُ على مهل: «إدًّا لا أظنُّ أنّ هُناكَ أيَّةَ طريقةٍ لفتحِ البابِ والخُروجِ من هُنا؟»

«لا! لن تَنفَتِحَ الأبوابَ. انظُرِي، التَّلجُ عالٍ إلى النّوافذِ.»

فسألتُ، مُحاولَةً أن أكونَ عمليّةً: «لا بأس! حسنًا، هل يُوجَدُ أيُّ شيءٍ آخَرَ

نستطيعُ أن نعملَه؟»

بقيتِ إسترَ صامِتَةً إلى حينٍ. «لا أستطيعُ أن أُجِريَ مُعجِزاتٍ. أعتقِدُ أنّهُ سيكونُ

علينا فقط أن نكونَ صابِرَتينِ وننتظِرَ مَعونَهُ حتّى تأتي.»

ثمَّ لُدنا بالصّمتِ. وصَلَّيتُ طالِبَةً أن يُرسلَ اللهُ شخصًا ما لإخراجنا. وبعدَ وقتٍ

قصيرٍ، رأى شخصٌ ما ورتبتنا، وجاءَ يَمشي بِثقلٍ ويلهثُ عِبْرَ التَّلجِ العميقِ، حاملاً رِفْشًا.

وقد كان سامرِينا الصّالِحِ هارلي هليارد، جارٌ إستر. وفيما هو يُزِيلُ بِالرِفْشِ التَّلجِ العميقِ

اللّزجَ بعيدًا عن سيّارتنا، احمرَّ وَجْهُهُ من الإجهادِ.

«أرجو ألا تُصيبهُ نوبَةٌ قلبيّةٌ من جرّاءِ ذلكِ العَمَلِ الشّاقِّ كُلِّهِ»، علّقتِ إسترُ بِقلبيّ،

مُضيفَةً: «أعلمُ أنّ عليهِ أن يَنتبِهَ ويَعتنِيَ بقلبه.»

فقلتُ: «لِنَصَلِّ كي يكونَ بخيرٍ تمامًا!» وقد تَغَضَّنَ حاجِبَايَ مِنَ القَلقِ. فالآنَ رأيتُ

حماقةَ فِكرتي وشعرتُ بالنّدمِ.

لمَّا جُرِفَ عَنّا التَّلجُ تمامًا في الأخيرِ، شكّرنا هارلي شُكرًا جزيلاً، وسلّكنا طريقَ

الرُّجوعِ إلى البيتِ.

التفتتِ إسترُ إليّ وبرّقتِ عيناها، قائلةً: «أترين؟ لا أستطيعُ أن أُجِريَ مُعجِزاتٍ، فيرا،

حتّى لو كنتُ طيارَةً!»

فابتسمتُ بارتباكٍ ابتسامَةً عريضةً: «تخميني أنّي ظنّنتُ فعلاً أنّك تستطيعين

القيامَ بأيِّ شيءٍ. فلنذهَبَ إلى البيتِ ونشربُ فِنجانَ قهوةٍ ساخناً.»

كَلَّ سَنَةٍ عَلَّمْتُ فِيهَا، تَعَلَّمْتُ الْمَزِيدَ عَمَّا آمَنْتُ بِهِ وَكَيْفَ أَسَاعِدُ التَّلَامِيذَ. تَعَلَّمْتُ مَا يَنْفَعُ وَمَا لَا يَنْفَعُ. وَأَحَدُ الدَّرُوسِ الْكُبْرَى الَّتِي تَعَلَّمْتُهَا أَنَّ أَلَمًا مَخْبُوءًا غَالِبًا مَا يَكْمُنُ تَحْتَ الْقَضَايَا السُّلُوكِيَّةِ. فَلَيْسَ جَمِيعُ تَلَامِيذِي كَانُوا أَوْلَادًا تَرَبَّوْا فِي كِنَائِسٍ. إِذْ جَاءَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْحَيِّ. وَأَحْيَانًا جَاءُوا مِنْ بِيوتٍ فِيهَا عُنْفٌ وَعَسْفٌ. وَكَثِيرًا مَا ذَكَرْتُ نَفْسِي بِأَنْ أَكُونَ بِالْعَجَّةِ الْإِنْتِبَاهِ وَالتَّنْبُهُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ مَا اخْتَبَرُوا قَطُّ الْأَمَانَ وَالْمَحَبَّةَ فِي بَيْتٍ مُعَافٍ.

وَمَهْمَا كَانَتِ الْقَضَايَا الَّتِي وَاجَهْتُهَا مَعَ تَلَامِيذِي، تَعَلَّمْتُ أَنَّ التَّفْهِيمَ وَحُسْنَ التَّوَاصُلِ وَالتَّشْجِيعَ كَانَتِ الْمَفَاتِيحَ الْكُبْرَى لِقُلُوبِهِمْ.

ذَاتَ يَوْمٍ كَانَ صَبِيٌّ مِنْ تَلَامِيذِي فِي الصَّفِّ الْخَامِسِ يَسْلُكُ سُلُوكًا تَمَرُّدِيًّا. كَانَ وَاحِدًا مِنْ تَلَامِيذِي الْأَكْثَرِ صُعُوبَةً، وَلَكِنَّهُ يَوْمَذَلِكَ كَانَ أَشَدَّ عُدُوَانًا وَنَذَالَةً مِنَ الْمُعْتَادِ بِكَثِيرٍ جَدًّا، وَإِذْ اسْتَدْعَيْتُهُ إِلَى مَكْتَبَتِي فِي أَثْنَاءِ الْإِسْتِرَاحَةِ، سَأَلْتُهُ: «مَا الْمَشْكِلةُ؟ أَنْتِ لَا تَتَصَرَّفُ عَادَةً عَلَى هَذَا النَّحْوِ.»

أَشَاحَ بِنَظَرِهِ عَنِّي بِضَعِ لَحَظَاتٍ، ثُمَّ اعْتَرَفَ دَامِعَ الْعَيْنِينَ: «هَذَا الصَّبَاحَ غَرَّقَ أَبِي جِرَائِي!»

«آه، أَمْرٌ رَهِيْبٌ حَقًّا. أَنَا آسِفةٌ جَدًّا. وَلَكِنْ لِمَاذَا غَرَّقَهَا؟»

«لأنّها جعاريّة.» وقد بات باكيًا الآن. فبسّطت يدي لأواسيّه.

كررت بعطف: «أنا أسفّه جدًّا.» وجلسنا صامتين وقتًا قصيرًا، ثمّ نظرت إليّ وفي عينيّه الدّاكنتين أمل.

وسأل: «أتعتقدين أنّ الجراء الأليفّة تذهب إلى السّماء؟ فإذا كانت تذهب، تكون جرائي في السّماء.»

صليتُ لأجلِ حكمة، مُتمهلهً بضع لحظات. ثمّ قلتُ له إنني لا أعرف جواب سؤاله، ولكنني طمأننته بأنّ الله يهتمّ فعلاً بحقيقة شعوره. وتحدّنا حينًا عن الخسارة والحزن وخيار المُسامحة. فلمّا فرغنا، ابتسم لي ابتسامه حيّيه وخرج ليلعب مع زملاء صفّه. لقد وجّعني قلبي عليه، وصليتُ ألا يدع هذه الحادثة تُقسّي قلبه.

تلاميذُ آخرون احتاجوا إلى مُعاملة صارمة، بدلًا من العطف. فقد حضّر صفّي أخوانٍ مُدّة من الزمن. كان أصغرهما أكثرَ رغبةً في التّنافس وبراعةً أكاديميّة. وكان الأخ الأكبر يُعاني إعاقته تعلّميّة، وقد خاض صراعًا مع الشّعور بالنقص ومع الغضب. وسبق أن ارتاد مدرسة رسميّة قبلما جاء إلى مدرستنا. هناك لقي الاستهزاء والتّهمز. والآن بدا أنّه قد استسلم لرياء الدّات أيضًا. فشعرتُ بأنني، مهما حاولتُ، لم أستطع أن أحفزه.

ثمّ بلغتُ الأمور أزمّةً لمّا نشب شجارٌ بينه وبين تلميذٍ آخر في أثناء الاستراحة. فلمّا دعوته إلى غرفة الصّف لتتحدّث، دخل مُتراجيًا. كان صريحًا معي أغلب الأحيان بشأن حياته ومشاكله، وقد عنيتُ بأمره عنايةً شديدة، إلّا أنّني أدركتُ أنّه بحاجة لأن ينضج ويكون رجلًا. فإذا صليتُ في سرّي لأجلِ حكمة، طلبتُ منه أن ينظر إليّ عينًا ليعين ويصغي إليّ ما كان عندي لأقوله. فأذعن مُرتبكا.

«هل تعتقد أنّي أستمتع بقيودي؟ هل تعتقد أنّني ما أردتُ قطُّ أن أركض وأتمتّع

بجميع الحريّات التي يتمتّع بها شخصٌ سويٌّ؟»

فهزّ كتفيه إنكارًا: «لا أعرف، أختُ فيرا.»

«بالطبع، أردتُ ذلك، جم. ولكنني اتخذتُ خيارًا. وذلك الخيار هو أن أعيش بعزم

رغم القيود التي سمح الله بأن تكون لديّ.»

«ولكنني لستُ ذكيًا مثلك، أختُ فيرا.»

«جم، كفّ عن الأنين، وأصخّر! كثيرًا ما تتشكّي من كون الفتيات لا يُصيّبنك أبدًا لأنك

طويل القامة فوق الحدّ، ومن كونك لا تستطيع أن تتعلّم لأنّ الأمر صعبٌ فوق الحدّ.

لقد سَمِئْتُ سَمَاعَ ذَلِكَ النَّوعِ مِنْ رِثَاءِ الدَّاتِ. هَلْ يُسَاعِدُكَ ذَلِكَ عَلَى التُّضَجِ أَصْلًا؟ أَمْ هَلْ يُسَاعِدُكَ عَلَى النَّجَاحِ فِي الْمَدْرَسَةِ؟»

«إِنَّ ذَلِكَ صَعَبٌ فَوْقَ الْحَدِّ.» وَقَدْ اِكْتَسَبَ صَوْتُهُ لَهجَةً كَثِيْبَةً.

«مَا بَرِحْتُ كُلَّ يَوْمٍ أَكْفَحُ كِي أَنْغَلِبَ عَلَى قِيُودِي. وَكُلَّ يَوْمٍ أَقَاسِي الْأَلَمَ وَالصُّعُوبَةَ. وَلَكِنْ هَلْ تَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَا أُرَكِّزُ عَلَيْهِ؟»

فَهَزَّ رَأْسَهُ. «لَا.»

«هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ يَتَوَقَّعُ مِنْكَ أَيَّ شَيْءٍ أَقَلِّ؟»

«لَا.»

«جِمِّ، لَدَيْكَ مِقْدَارٌ لَا يُصَدِّقُ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ. لَدَيْكَ جِسْمٌ يُودِّي وَظَائِفَهُ وَعَقْلٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفَكِّرَ. لَقَدْ خُلِقْتَ لِأَجْلِ قَصْدٍ مُعَيَّنٍ. أَنْتِ مُسْتَعِدَّةٌ لِأَنَّ تَسْمَحَ لِلَّهِ بِأَنْ يُسَاعِدَكَ لِكِي تُحَاوِلَ بَدَلَ أَنْ تَسْتَسَلِمَ لِرِثَاءِ الدَّاتِ؟ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ رَجُلًا، فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَحَمَّلَ الْمَسْئُولِيَّةَ وَتَبْذِلَ أَفْضَلَ مَا عِنْدَكَ. إِنَّكَ سَتَكُونُ أَقْوَى لِمُوجَهَةِ التَّحَدِّيَّاتِ الَّتِي عَلَيْكَ أَنْ تَتَغَلَّبَ عَلَيْهَا.»

بَدَأَ عَلَى وَجْهِهِ أَنَّهُ كَانَ يُفَكِّرُ. وَظَلَّ صَامِتًا بِضَعٍ لِحِظَاتٍ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَأَوْمَأَ بِهِ مُوَافِقًا، وَوَلَّاحَتْ عَلَى شَفْتَيْهِ ابْتِسَامَةٌ يَسِيرَةٌ. «أَنْتِ عَلَى حَقٍّ، كَمَا أَظُنُّ. مَا فَكَّرْتُ قَطُّ فِي ذَلِكَ. شُكْرًا، أَخْتُ فَيْرَا. هَلَّا تُصَلِّينَ لِأَجْلِي؟»

صَلَّيْنَا مَعًا، وَفِي أَثْنَاءِ الْأَشْهُرِ التَّالِيَةِ رَاقِبْتُ بِفَرَحٍ إِذِ اسْتُجِيبَتْ تِلْكَ الصَّلَوَاتُ. لَقَدْ صَارَ جِمِّ مُجْتَهِدًا وَكَافِحًا لِلتَّغَلُّبِ عَلَى تَحَدِّيَّاتِهِ. وَإِذْ تَمَّا فِي الْقُوَّةِ وَالثِّقَةِ، تَنَاقَصَتْ أَيْضًا مَشَاكِلُهُ مَعَ الْآخَرِينَ شَيْئًا فَشَيْئًا.

يَوْمًا آخَرَ، كَانَ الْأَمْرُ مَعَ تَلْمِيذِ بَدْيِ اللِّسَانِ. وَمِنْ جُمْلَةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَصْرَرْتُ عَلَيْهَا حُسْنَ السُّلُوكِ، وَطَهَارَةُ الْكَلَامِ، وَعَدَمُ الْاسْتِهْزَاءِ بِالْغَيْرِ. فَكُلَّمَا تَمَّ تَخْطِي هَذِهِ الْحُدُودَ، كُنْتُ أَشَاهِدُ عَلَى أَقْسَى مَا أَكُونُ. وَهَذِهِ الْمَرَّةَ كَانَ الْمَعْنِيُّ فَتَى فِي الصَّفِّ الْأَعْلَى. قَبْلًا تَشْرِيفَاتٍ، طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَلْحَقَ بِي إِلَى الْمُسْتَرَاخِ.

وَقَتْمَا وَصَلْنَا إِلَى مَكَانِنَا الْمَقْصُودِ، أَعْتَقِدُ أَنَّ الْخَوْفَ كَانَ قَدْ بَدَأَ يَنْشَأُ فِي دَاخِلِهِ. فَرَمَقْتُهُ بِتَحْدِيقَتِي الَّتِي يُصْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ، وَصَرَّحْتُ بِهَدْوَةٍ: «هَلْ تَرَى تِلْكَ الصَّابُونَةَ هُنَاكَ تَمَامًا؟»

«نعم، أُخْتُ فِيرا.»

«أريدُ منك أن تأخذَ لَوْحَ الصَّابونِ ذاك وتُنظِّفَ فَمَكَ، من فَضْلِكَ!»

«أنا، أَفَعَلَ ذلِكَ لِنَفْسِي؟»

فكرتُ بجسارة: «أظنُّ أنَّ ذلكَ أَحْسَنُ لَكَ إن كنتَ لا تُريدُ أن تذهبَ في زيارةٍ إلى مَكْتَبِ المُدير.»

فقالَ مُتلعثمًا: «مهما قُلْتِ!» وأطاعَ مُرتبِكًا. ولمَّا انتهى، رَجَعْنَا إلى عُرْفَةِ الصَّفِّ.

وقد ذكَّرتُه: «الموتُ والحياةُ في يدِ اللسانِ. إنَّ اللهَ يَسْمَعُ كُلَّ كَلِمَةٍ تَقُولُهَا. فَلْيَتَبَرَّهْ هَذَا مُدْكَرًا وتحذيرًا دائميًّا بأن تنتبهَ إلى كَلِمَاتِكَ في المستقبل.»

«نعم، أُخْتُ فِيرا.» كانت كَلِمَاتُهُ حليمةً، وكان في وُسْعِي أن أدركَ أَنَّهُ قد تادَّبَ تمامًا. ولم أسمعُه قطُّ ثانيةً يَسْتَعْمِلُ كَلِمًا بَطْأًا.

سنةَ ١٩٨٢، التحقَ فيليبُ استئْثَسَفَصَ بالهيئةِ التَّعليميةِ في مدرستنا لِموَاكِبةِ تعديلٍ في عُرْفِ الصُّفوفِ. إذ أُضيفتَ عُرْفُهُ صَفٌّ، وعَلِمَ فيليبُ من الصَّفِّ السَّادِسِ حتَّى التَّاسِعِ ضِمْنَا، فيما عَلِمْتُ أَنَا من الصَّفِّ الثَّالِثِ حتَّى الخَامِسِ، وأخذتِ إِسْتَرُ العُرْفَةِ الأُولَى بِصَفِّيها الأَوَّلِ والثَّانِي. كُنْتُ قد التقيْتُ فيليبَ قَبْلَ سِنِيْنٍ في بَلِيْز. وقد بقيَ على مدى إحدى عشرةَ سنةً من مسيرتي التَّعليميةِ، وصارَ ليس فقط مُعلِّمًا زميلًا مُحترَمًا، بل أيضًا صديقًا صدوقًا. لقد عاملني كأخت، وبذلَ دائماً كُلَّ ما في وُسْعِهِ ليرعى رفاهتي في المدرسة. فإذا كان حيِّ الصَّمِيرِ، ومُحِبًّا لِلدَّرْسِ والعَمَلِ، وصاحبَ قَلْبٍ حَدُومٍ، جَرَفَ أَرْصِفَةَ المُشْيِ مِنَ الثَّلْجِ، وكَنَسَ أَرْوَقَةَ المدرسةِ، بل عَلَّقَ المعاطِفَ الفالِئَةِ أيضًا. ولمَّا مات أبوه بالسَّرطانِ، أعجَبَنِي اعتناؤُهُ بأمِّه.

ذاتَ يومٍ، بعدَ مُدَّةٍ قصيرةٍ من مُباشرتنا التَّعليمَ معًا، حَرَجْنَا نحنُ المُعلِّمِينَ الثَّلَاثَةَ لِتَنَاوُلِ الطَّعامِ. وعَلَّقَ فيليبُ: «تُعجِبُنِي طَريقُهُ عَمَلِكُمْ مَعًا أَنْتُمَا الاثْنَيْنِ كَفَرِيْقٍ واحِدٍ، كما يَظْهَرُ جَلِيًّا.»

فَضَحِكْتُ: «أوه، نحنُ فعلاً نَعْمَلُ العجائبَ معًا، حتَّى لو كانت كارِثِيَّةً أحيانًا.»

وَأَنْتِ إِسْتَرُ: «إِيَّاكَ أن تحكي تِلْكَ القِصَّةَ!»

وبطريقةٍ ما، إذ تَابَعْنَا الحديثَ، بَرَزَتْ حادِثَةٌ من أَيَّامِ صِبَايَ. أدركْنَا لينا وأنا أَنَّنَا سنَتأخَّرُ عن مَوَعِدِ حَظَرِ تَجَوَّالِنَا، وكانت عندنا آنذاك سيارتُنَا البُويكِ السَّوداءِ. فإذا نظرْنَا

حوالينا، تبينَ لنا أَنَّ الطُّرُقَ باتت خاليةً تقريبًا. وكانت لينا قد قالت بقلقٍ: 'سأسوقُ بسرعةٍ مئةٍ وثلاثينَ كيلومترًا في السَّاعة تقريبًا، لعلنا نصلَ قبلَ بدءِ الحَظَرِ'.  
 «فيما السَّيَّارَةُ مُسرَّعةٌ وسطَ اللَّيلِ، شاهدتُ الظَّلامَ يَزُلُّ قُربَ النِّوافِذِ، وتساءلتُ كيف يكونُ الشُّعُورُ بالسرَّعةِ في أثناءِ ساعاتِ النَّهارِ. لقد أحببتُ السرَّعةَ. وقد نَبَّهتُ قائلةً: 'سنصلُ متأخِّرتينَ بعدُ. جرِّبي سرَّعةَ مئةٍ وخمسةٍ وأربعينَ كيلومترًا في السَّاعة!'»  
 «فعلتَ لينا ذلكَ، ضاغطةً دوَّاسةَ البنزينِ حتَّى أرضيَّةِ السَّيَّارةِ، وأنا ارتقبُ أضواءَ الشُّرْطَةِ خارجَ نافذتينا الخلفيَّةِ. ولمَّا نظرتُ من جديدٍ إلى عدادِ السرَّعةِ، وجدتهُ يُشيرُ إلى سرَّعةٍ مئةٍ وستينَ كيلومترًا في السَّاعة! فضحكْتُ غيرَ مُصدِّقةٍ: 'لينا، أأنتِ جادَّةٌ؟'»  
 «أجابت بلامبالاةٍ: 'أعتقدُ أننا سنصلُ في الوقتِ المُحدَّدِ'.  
 «إذ أعودُ بنظري إلى ذلكَ الآن، أدركُ أَنَّهُ كان تهورًا... ولم فعل ذلكَ قطُّ مرَّةً أُخرى. إلَّا أَنني ما زلتُ أهوى السرَّعةَ.»

وما لبثتُ أسترَ أن ابتسمت لي ابتسامةً عريضة، قائلةً: «أحكي لنا القِصَّةَ عن العبورِ بِمُحاذاةِ مبنى الكنيسةِ فيما كانت دليلةً تسوق. لستُ أعتقدُ أَنك الوحيدةُ التي تَهوى السرَّعة.»

فضحكْتُ: «حسنًا، إليكما تلكَ القِصَّةِ. أنا أحببتُ السرَّعةَ دائمًا، ولكنَّ دليلةً كانت الجامعةَ بالسَّياراتِ. ذلكَ اليومَ كانت ماما جالسةً على حافةِ بابِ الشَّاحنةِ الخلفيِّ، وهي السَّيِّدَةُ الرِّزِينَةُ دائمًا. وكنتُ أنا في مؤخَّرِ الشَّاحنةِ مع واحدةٍ من باقي البناتِ. فانعطفنا حولَ زاويةِ مبنى الكنيسةِ، ودونَ أن تُدركَ دليلةً أَنَّ واحدًا من مؤمني الكنيسةِ كان واقفًا في الفناء، جعلتِ العَجَلاتُ تُصدرُ زعيقًا طويلًا حادًا عالي الصَّوتِ تمامًا. فبدا الأُخُّ مُحَفَّلًا، ولكنَّ ماما رفعت يدها ولوحت له كأنَّ شيئًا لم يكن. وكأنَّها كانت في جولةِ استجمامٍ بِمركبةٍ في يومِ مُشمسٍ! ولمَّا رجَّعنا إلى البيتِ، صَحَّكنا نحنُ الفتياتِ حتَّى وجَّعنا خواصرنا.»

هزَّ فيليب رأسه، ضاحكًا ضحكةً خفيفة. «فيرا، لكِ جانبٌ جرأةٍ يتخطى كثيرًا ما نراه مِنكِ في عُرفَةِ الصَّفِّ. وأرى فعلًا أَنك مع ذلكَ تعترفين بأخطائكِ حينَ لا يتبينُ أَن أفكاركِ هيَ الفُضلى.»

إذ ذاكَ قاطعتُ إسترَ: «نتخذُ قراراتٍ كثيرةً معًا، ونرتكبُ أخطاءً كثيرةً أيضًا، ولكنَّ مُسامحةً بعضنا بعضًا تجعلُ كلَّ شيءٍ يؤولُ إلى الصَّوابِ أخيرًا.»



ما استطعتُ قَطُّ أن أحملَ نفسي على إسقاطِ تلميذ. فلمّا قابلتُ تلاميذَ ذوي إعاقات، أمضيتُ أغلبَ الأحيان ساعاتٍ ما بعدَ المدرسةِ والصَّيفيَّاتِ مُعْطِيَةً إِيَّاهُمْ دروسًا خُصُوصِيَّةً لِأَسَاعِدَهُمْ على اللَّحَاقِ بباقي التَّلَامِيذِ. وكُلَّمَا تيسَّرَ لي، كنتُ أختارُ قِصداً أَسِيَاءَ أَعْلَمُ أَنَّهُمْ قد أنقَحوها، وأدعوهم إلى مُقدِّمِ غُرْفَةِ الصَّفِّ لِجُجِيبُوا عن سؤَالٍ أو يَحْلُوا مسألةً على اللُّوحِ في سبيلِ الشَّرْحِ الصَّفِيِّ. وقد كانتِ ابْتِسَامَةُ النَّصْرِ التي بادِرُونِي بها دائماً عند الانتهاء أكثرَ من مُكافأةٍ كافيةٍ على جميعِ السَّاعاتِ التي أمضيتُ وراءَ الكواليسِ.

كانتِ أَيَّامَ تعليمي المُحَبَّبَةِ أَكْثَرَ الكُلِّ هِيَ الأيَّامُ الخُصُوصِيَّةِ، مِثْلَ نُرِّه الشَّتَاءِ على التَّلِّ، وأيَّامَ طيَّاراتِ الورقِ، حينَ كانتِ طيَّاراتُ ورَقِيَّةٌ شَتَّى زاهيةً الألوانِ مربوطةً بِطرفِ خيطٍ ملفوفٍ تُحَلِّقُ بعيداً فوقَ الوادي تحتنا. وقد بَثَّتِ الحياةَ والحيويَّةَ في تَعَلُّمِنَا سِلسِلَةً لا تنتهي من أَيَّامِ الحيواناتِ الأليفةِ، وأيَّامِ البِنااتِ، وأيَّامِ الصَّيَّبانِ، والأحداثِ الخاصَّةِ الأُخْرَى. وفي أحدِ أَيَّامِ الحيواناتِ الأليفةِ أَحْضَرَتِ حَنَّةُ ابْنَةُ أُخْتِي خَنُوصًا صَغِيرًا ملفوفًا بِبَطَّانِيَّةٍ. «اسْمُهُ سَمُون، وقد أَحْضَرْتُهُ لِأَنَّني أعرفُ كم تُحِبِّبِنِ الخَنانِيصِ.»

فقلْتُ بِحِماسَةٍ: «إنَّه فاتن!» ثُمَّ تبادَلْنَا ابْتِسَامَةً خُصُوصِيَّةً، ومسدَّتْ أُذُنِي سَمُونِ الحَرِيرِيَّتَيْنِ.

ثُمَّ إنَّ أَيَّامَ الشَّعْرِ، حينَ كُنَّا نَعْبُدُ على التَّلِّ والرَّيْحِ تَعَبَّتْ بِشَعْرِنَا فيما نحنُ نَتَأَمَّلُ الطَّبِيعَةَ، رُبَّمَا كانتِ أَيَّامِي الخُصُوصِيَّةِ المُحَبَّبَةِ أَكْثَرَ الكُلِّ. فعلى مدى أسابيحِ كُنْتُ أُعِدُّهُمْ لذلكِ اليومِ، إذ أقرأ لَهُمْ شِعْرًا كَلَّ يومِ، وننتشاركُ كَصَفِّ لِنَكْتَبَ قِصِيدَةً من نَظْمِنَا. ومتى أنجزناها، تناقشنا لِتَرَى أَيَّ أَجْزَاءِ انْسابِ بِسَلَّاسَةٍ وكيفِ تناغمَ الوَزنُ الشَّعْرِيَّ والقوافي. وتحدَّثنا عن اختيارِ الكلماتِ من أجلِ جمالِها، وكيفِ يُوَثِّرُ الشَّعْرُ في النَّفْسِ كما يتأتَّى لِلنَّثْرِ نادراً. وعِنْدَمَا نُنْهِي تَعْدِيلَنَا وتَنقِيحَنَا لقِصِيدَةٍ صَفْنَا إلى التَّمَامِ، نقومُ ببِضْعَةِ تمارينِ قَرْدِيَّةٍ أُخْرَى.

وفي واحدٍ من أَيَّامِ الشَّعْرِ، أواخرَ تَشْرِينِ الأوَّلِ، أحسَّ تلاميذي تصاعُدَ الحماسَةِ والبهجةِ إذ اندفعنا خارجَ المدرسةِ إلى ذلكِ النَّهارِ الخَرِيفِيِّ المُنْعِشِ. وشعرتُ أنا بِشَوَّةٍ تَسْرِي في أوصالي. لقد كانتِ الحياةُ جميلةً!

فإذ أخذت مِمّشاتي، لاقيتُ مجموعتي المؤلّفة من اثني عشرَ تلميذًا مَرِحًا، في الصُّفوفِ الثَّالثِ والرَّابِعِ والخامسِ، على قِمّةِ التَّلِّ وراءَ بَيْتِ مزرعتنا. كان المكانُ معروفًا في الحَيِّ بِاسْمِ «التَّلِّ»، وقد وُقِرَ إطلاّلهُ شامِلَةً على الوادي المُنْبَسِطِ تحتهُ، وكان بُقْعَتِي المُحَبَّبةَ على المزرعة. وقد تعرّجتُ بعيدًا تحتنا طُرُقُ ريفيّة، وارتفعتُ أشجارٌ مكسوّةٌ بِمِعَاطِفِ الخريفِ اللَّماعةِ مُتشرّبةً أشعّةَ الشَّمْسِ. وكانتِ السَّمَاءُ فوقنا زرقاءَ صافية.

مُتَكِنَةً على بطّانيّةٍ مفروشةٍ على الأرض، راقبتُ تلاميذي بِسُرور. كان كُلُّ منهم يتولّى الهدفَ العظيمَ بكتابة قصيدتهِ الحقيقيّةِ الأولى، وكان كُلُّ وَجِهٍ نابضًا بالتركيز والتأمّل. كان كُلُّ واحدٍ مُختلِفًا للغاية، ولكنَّ كُلَّ واحدٍ كان هبّةً ثمينة.

فكرتُ مليًا كيف بدأتِ الأمورُ تتغيّرُ في عائلتي أيضًا. إذ مرّتِ السَّنونُ، أخذ أبناءُ إِخوتي وأخواتي وبناتهم بِبُطءٍ يَحْضُرُونَ صَفِي. وقد كان هذا بالنسبةِ إِلَيَّ امتدادًا خاصًا لِشَغَفِ حياتي. فلأنيّ لن أرزقَ أبدًا أولادًا من لحمي ودمي، صارَ أبناءُ إِخوتي وأخواتي وبناتهم وتلاميذي كلُّهم كأولادي. وأحببتُ كيف وثقوا بي وساعدوني بِشَوْقٍ في مهامٍ يسيرةٍ، كإخراجِ الطَّعامِ من عُلْبَةِ غداي ووضعهِ قُدّامي حتّى أتمكّنَ من الانحناء والتقاطهِ بِفَمِي.

كان بابا وماما كلاهما يَشِيخان. وباتَ مُعْظَمُ إِخوتي وأخواتي مُتزوِّجينَ الآن، إلّا أنّ عائلتنا بقيتِ مُتقاربةً كحالها دائمًا بِطُرُقٍ كثيرة. وقد عادت أفكاري إلى رسامةِ زوجِ أُختي دليّة مؤخرًا. إذ وقفتُ تبكي من رزانةِ اللّحظةِ وجسامتها، فيما طوّقتُها لينا بذراعيها لِثُؤاسيها. «أوه، ليّلة، ستكونينَ بخيرٍ تمامًا. سوفَ تكونينَ زوجةً أُسُفِّ مُمتازة. كُفّي عن البُكاء.»

تبسمتُ بِسَمّةٍ عريضةً إذ تذكّرتُ ما تبِعَ ذلكَ بِأسلوبِ أُختي أوفرهلتِي نموذجيّ. قالت دليّة بصوتٍ مكتوم: «أوه، اسكّتي! أنتِ تعلمين أنّ ذلكَ ليس صحيحًا، لينا.» فردّت لينا حالًا، وفي صوتها أثرٌ ابتسامة: «اسكّتي أنتِ! إنكِ تعلمين أنّ ذلكَ ليس صحيحًا!»

اضطّرتنا كلتاهُما إلى كبحِ ضَحِكهما، وضَحِكْتُ أنا مَعَهُما بهدوء. لقد شعرتُ بأنني مُباركةٌ تمامًا بوجودِ عائلةٍ رائعةٍ كهذه كان أفرادها كلَّ حينٍ مَعْنينَ ومشمولينَ بحياتي. فلولا دَعْمُهُمُ الوطيدُ، بَدَنِيًّا وعاطفيًّا على السَّواء، ما كنتُ لِأُمكنَ من التَّعليم.

«أخْتُ فِيراً.» رفعتُ نظري لأرى واحداً من تلاميذي في الصّفِّ الرابع، وعيناهُ الدّاكِنَتانِ تتلألآن بِشوق. «لقد أنهيتُ قصيدتي. هلّا تُلقينَ نظرةً عليها؟»  
 «بالتّأكيد.» ثمّ أخذتها وقرأتُ الكلماتِ بانتباه. لقد وصّفَ الواديَ وألوانَ فصلِ الخريفِ المتنوّعة. فابتسمتُ حيالَ الموهبةِ المتبرعمة التي رأيتها في العباراتِ البسيطة.  
 «شغلٌ مُمتاز. أستطيعُ أن أرى أنّك أعملتُ في القصيدةِ مقدّاراً وافراً من التّفكيرِ الإبداعيِّ. ههنا فقط بعضُ اقتراحاتٍ لتغييراتٍ يُمكنُ أن تجعلها أفضلَ بعد.»  
 وبعدما صحّحها، قرأتها مرّةً أُخرى وابتسمتُ لتلميذي ابتسامَةً مؤنّسة. «عسى أن تصيرَ أديباً يوماً ما.» فكانتِ ابتسامتهُ العريضةُ الحيّيةُ أكثرَ من مكافأة.  
 عصرَ ذلكَ اليوم، احتفالاً بمقطوعاتنا الشّعريّة المنجزّة، لعبنا مباراةً بايسبول. وإذ جلسْتُ أشاهدُ وأشجّعُ اللاعبينَ هاتِفَةً، أعادني ذلك إلى المقالة التي كنتُ قد أنجزتها في الأسبوعِ السّابقِ لِعَدَدٍ من صحيفةٍ مُعلّمينَ محلّيّةٍ اسمُها «أبناء وآراء». وقد عَنوتُ المقالةَ «حلميّ».

اعتقدُ أنّ حلمَ كلّ مُعلِّمٍ هو أن يُنتجَ تلاميذَ يَنمونَ ليصيروا راشدينَ ناصحينَ ويستجيبوا بطريقةٍ مسيحيّةٍ سليمةٍ للأوضاع. لقد باشرتُ التّعليمَ بهذا الحلمِ، وما زلتُ - والشُّكرُ لله - حائزةً إيّاه بطريقةٍ أكثرَ واقعيّةً من أيِّ وقتٍ مضى!  
 لا أكادُ أصدّقُ أنّ سِتَّ عشرةَ سنّةً قد مضتْ منذُ أن دخلتُ غُرْفَةَ الصّفِّ ذلكَ الصّباحِ المُفزعِ الأوّلِ في أيلول. وما برحتُ هذهِ سنينَ جيّدةً... سنينَ أتعلّمُ فيها الصّبرَ، من جُملةِ أشياء أُخرى كثيرةٍ أسهمتْ في تقويةِ حياتي الرّوحيّة. إنني أحبُّ العملَ مع تلاميذي، لأنّ لهمُ قيمةً أبديةً! وما مِن شيءٍ يُمكنُ أن يُعطيَ إشباعاً شخصياً بالغاً كالقيامِ بعملٍ تستمتعُ به، والقيامِ بعملٍ جديرٍ بعنائه.  
 بعضُ الأصباحِ، لا أكادُ أطيعُ الانتظارَ حتّى أدخُلَ غُرْفَةَ صفيّ النّظيفةِ الهادئةِ وأنصبَ مشروعاً جديداً ما للأولاد، فقط كي أتمكّنَ من مشاهدةِ الشّررِ والوميضِ يُضيئانِ عيونهمُ الدّكيّة.

أُتيح لي وقتٌ للتأمّلِ إذ خالطتُ الشّبيبةَ في أثناء التّخيمِ في «مُخيمِ فنيثيل» نهايةَ الأسبوعِ الماضي. كان مُعظّمُ الشّبيبةِ تلاميذَ لي سابقاً. لم يعودوا أولاداً في

المدرسة، بل باتوا شُبَّانًا وشَابَاتٍ حَسَّاسِينَ مُنْهَمِكِينَ بِنَشَاطٍ فِي حَيَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ؛ شُبَّانًا وشَابَاتٍ يَخْوِضُونَ صِرَاعًا لَا مَعَ مَسَائِلِ الرِّيَاضِيَّاتِ وَأَسْئَلَةِ التَّارِيخِ، بَلْ مَعَ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا: ذَلِكَ السُّؤَالِ الْكَبِيرِ وَالْجَبَّارِ عَنِ الْحَيَاةِ وَمَعْنَاهَا!

شَكَرْتُ اللَّهَ عَلَى خَلْفِيَّتِهِمُ الْمَسِيحِيَّةِ وَتَعْلِيمِهِمُ الرُّوحِيَّ، وَاثِقَةً وَمُطْمَئِنَّةً بِأَنَّ الْكُلَّ سَيَكُونُ خَيْرًا بِسَبَبِ تَوْفِيقِهِ الدَّاخِلِيِّ لِلْقِيَامِ بِمَا هُوَ صَائِبٌ.

كَذَلِكَ أَيْضًا تَشَجَّعْتُ وَابْتَهَجْتُ بِحَادِثَةٍ صَغِيرَةٍ وَاحِدَةٍ. فَإِذْ كُنْتُ وَاقِفَةً بِقُرْبِ مَلْعَبِ الْكُرَّةِ، شَعَرْتُ بِقَرَابَةٍ حَقِيقِيَّةٍ لِكُلِّ شَخْصٍ هُنَاكَ. كَانَ النَّهَارُ مُمْتَازًا، وَالْهَوَاءُ مُنْعَشًا وَنَقِيًّا. وَكَانَتِ السَّمَاءُ فَوْقَ رُؤُوسِنَا زُرْقَاءَ، وَالْغَيُْومُ تَطْفُو بِبُطْءٍ فَوْقَنَا. وَأَحْسَنُ الْكُلِّ أَنَّهُ وُجِدَتْ أَلْفَةٌ طَيِّبَةٌ بَيْنَ الْمُرْشِدِينَ وَكُلِّ فَرْدٍ مِنَ الشَّيْبَةِ. فَلَا أَحَدٌ كَانَ لَهُ عُمْرٌ، بَلْ كُنَّا كُلُّنَا وَاحِدًا. نَحْوَ ذَلِكَ الْوَقْتِ، صَعِدَ أَحَدُهُمْ عَلَى عَرَبَةِ الْغُولْفِ الَّتِي لِي حَامِلًا مَاءً مِثْلُوجًا، وَسَمِعْتُ شَخْصًا يُنَادِي: «هَآي، فَيْرَا، أَتُرِيدِينَ شُرْبَةَ مَاءٍ؟» أُوهِ، لَقَدْ أَرَدْتُ حَقًّا! وَهَكَذَا تَقَدَّمَ وَاحِدٌ مِنَ تَلَامِيذِي السَّابِقِينَ بِلُطْفٍ وَنَاوَلَنِي شَرَابًا بَارِدًا. إِذْ ذَاكَ تَسَاءَلْتُ هَلْ يَتَذَكَّرُ أَنَّنِي لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَحْمِلَ الْكَأْسَ إِلَى شَفْتِي. وَمَا كَانَ مِنْ دَاعٍ لِلتَّسَاوُلِ. فَبِأَسْلُوبٍ فَتَى مَاجِدٍ، سَقَانِي الشَّرَابَ، مُدْرِدْشًا بِمَوَدَّةٍ عَنِ الْمُبَارَاةِ. وَقَدْ شَعَّتِ الشَّمْسُ بَضِيَاءً أُسْطَعَّ قَلِيلًا. وَكَانَتِ الْأَشْجَارُ أَكْثَرَ اخْضِرَارًا بِقَلِيلٍ. فَإِنَّ تَلَامِيذِي كَانُوا حَقًّا يَسْتَجِيبُونَ لِحَاجَاتِ الْآخَرِينَ. لَقَدْ تَحَقَّقَ حُلْمِي!



## الحياة هبة

كَانَ الصَّيْفُ قَدْ حَلَّ مِنْ جَدِيدٍ، وَأَقْفَلَتِ الْمَدْرَسَةُ أَبْوَابَهَا تِلْكَ السَّنَةَ. وَالتَّقَطَتِ الْمُوَيَّجَاتُ الْخَفِيفَةُ عَلَى الْبِرْكَةِ تَلَالُؤَ شَمْسِ الْعَصْرِ، وَانْعَكَسَتْ فِي مِيَاهِهَا الدَّاكِنَةُ الْغَيُومُ الْمُنْدَوْفَةُ كَالْقَطْنِ.

قَاطَعَ تَأْمُلَاتِي فَجَاءَهُ صَوْتُ جَانَ الصَّبِيَانِي: «إِنَّهُ يَوْمٌ مُمْتَازٌ لِصَيْدِ السَّمَكِ، خَالَتِي فَيْرَا، صَحِيحٌ؟»

«نَعَمْ، جَمِيلٌ بِشَكْلِ مُمْتَازٍ. مَا كَانَ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَخْتَارَ عَصْرَ نَهَارٍ أَفْضَلَ.» وَابْتَسَمَتْ لِابْنِ أُخْتِي مُبْدِيَةً مُوَافَقَتِي.

مَدَّ قَصْبَتَهُ بِنَهَاتِ فَوْقِ الْمَاءِ، وَقَالَ بِأَمَلٍ: «لَعَلَّنَا مُسَكٌ سَمَكًا لِلْعِشَاءِ.»

فَوَافَقْتُ: «عَسَى أَنْ مُسِكَ فِعْلًا.» وَعَدَلْتُ أَصَابِعَ قَدَمِي حَوْلَ قَصْبَتِي الْخَاصَّةِ وَشَدَدْتُ قَلِيلًا، مُرَاقِبَةً فَوَاشْتِي الْحَمْرَاءَ وَالْبَيْضَاءَ تَنْطُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ.

فَجَاءَهُ دَوَى مِنْ وَرَائِنَا صَوْتُ خُورٍ خَفِيفٍ طَوِيلٍ. فَالْتَفَتُّ إِلَى وَرَائِي مُجَفَّلَةً. كَانَ قَطِيعٌ بَقَرٍ بَابَا آتِيًا حَوْلَ زَاوِيَةِ الْحَقْلِ، يَتَقَدَّمُهُ الثَّوْرُ الصَّخْمُ الْقَطُّ.

قَالَ جَانُ مُعْلَقًا: «إِنَّهُ مُهْتَاجٌ جَدًّا! إِنَّهُ آتٍ إِلَى الْبِرْكَةِ، خَالَتِي فَيْرَا، انظُرِي!» وَقَدْ اكَتَسَبَ صَوْتُهُ لَهْجَةً خَوْفٍ وَتَحْذِيرٍ إِذْ اِنْدَفَعَ الثَّوْرُ نَحْوَنَا. وَلَمْ يَكُنْ يَفْصِلُ بَيْنَنَا إِلَّا طَاقٌ وَاحِدٌ مِنَ الْأَسْلَاقِ الشَّائِكَةِ.

إذ خَمَنْتُ الوضعَ بِسُرْعَةٍ، رَكَزْتُ على طَاوِلَةِ النُّزْهَةِ على مقربةٍ مِنَّا. وقلْتُ مُخْطِطَةً: «إِذَا اضْطَرَرْنَا، يُمَكِّنُنَا أَنْ نَدْخُلَ تَحْتَ طَاوِلَةِ النُّزْهَةِ، جَان. وَلَكِنْ سَيَكُونُ عَلَيْكَ أَنْ تُسَاعِدَنِي.»

تَوَقَّفَ الثَّورُ فِي اهْتِجَاجِهِ على بُعْدِ بَضْعَةٍ أَمْتَارٍ عَنِ السِّيَاحِ، رَافِعًا رَأْسَهُ، شَاحِرًا وَنَاحِرًا، وَضَارِبًا الأَرْضَ بِأُظْلَافِهِ وَقَدْ كَانَ يَنْفُخُ بِقُوَّةٍ مِنْ خِلَالِ أَنْفِهِ، وَبَدَتْ عَيْنَاهُ الحَمْرَاوَا الجُفُونُ مُخِيفَةً جَدًّا مِنْ تِلْكَ المَسَافَةِ القَرِيبَةِ. ثُمَّ أَرَجَعَ رَأْسَهُ إِلَى الوَرَاءِ وَأَطْلَقَ حُورًا مُدَوِّيًّا طَوِيلًا، مُقَلِّبًا عَيْنَيْهِ كَمَا لَوْ كَانَ فِي قِمَّةِ الأَشْمِيزَازِ وَالعَضْبِ الشَّدِيدِ.

فَقُلْتُ مُسْتَعْجِلَةً: «أَحْسَنُ لَنَا أَنْ نَدْخُلَ تَحْتَ الطَّوِيلَةِ الآنَ، جَان.» وَقَوَّطَعْتُ فِكْرَتِي بِصَوْتِ شَاحِنَةِ بَابَا السَّوْدَاءِ الكَبِيرَةِ. جَاءَ سَائِقًا بِسُرْعَةٍ عَالِيَةٍ، مُتَخَبِّطًا عَبْرَ المَرْعَى. لَا بُدَّ أَنَّهُ رَأَى مَا كَانَ جَارِيًا، لِأَنَّهُ تَوَجَّهَ مُبَاشِرَةً نَحْوَ الثَّورِ العَضْبَانِ. فَكَمَا قَدْ فَعَلَ دَائِمًا طِيلَةً حَيَاتِي، تَدَخَّلَ حَالًا وَأَنْقَذَ المَوْقِفِ. وَإِذْ رَأَى الثَّورَ الشَّاحِنَةَ، اسْتَدَارَ وَمَضَى مُهْرَوْلًا، مُبْتَعِدًا وَهُوَ يَحُورُ. ثُمَّ رَكَبْنَا جَان وَأَنَا مُتَطَلِّينَ، مَخْضُوضِينَ لَكِنْ سَالِمِينَ، رَجُوعًا إِلَى بَيْتِ المَزْرَعَةِ مَعَ بَابَا. أَمَّا صَيْدُ السَّمَكِ، فَنَسِيْتُ حَتَّى وَقْتُ آخِرِ.

إِنَّ حَيَاتِي المُشْتَرَكَةَ مَعَ أبنَاءِ إِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي وَبَنَاتِهِمْ كَانَتْ وَاحِدًا مِنْ أعْظَمِ أَفْرَاحِي. وَذَاتَ لَيْلَةٍ فِي فِنَاءِ الكَنِيسَةِ، تَشَارَكْتُ فِي مُغَامَرَةٍ سَرِيَّةٍ مَعَ دُوَيْطِ، ابْنِ أُخِي. كَانَ أَوَّلُ ظَلَامِ اللَّيْلِ قَدْ هَبَطَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّا انْتظَرْنَا بِهَدوءٍ حَتَّى يَزْحَفَ الظَّلَامُ عَلَى الأَقْدَامِ المُخْمَلِيَّةِ قَبْلَ مُغَادَرَةِ مَرَكَبَتِنَا. «عَمَّتِي فَيْرَا، لِمَاذَا نَنْتَظِرُ حَتَّى حُلُولِ الظَّلَامِ؟» سَأَلَ صَوْتُ دُوَيْطِ الصَّنِيْلِ هَمَسًا عِنْدَ مِرْفَقِي.

فَشَرَحْتُ بِرَفَقَةٍ: «لَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ مُفَاجَأَةً لِالجَمِيعِ.»

وَصَحَّكَ صَدِيقِي جَرِي ضِحْكَه خَافَتَهُ بِقُرْبِي. «ذَلِكَ صَحِيحٌ. إِنَّهُ سُرُّ السَّاعَةِ.»

كَانَتْ جُودِي أَيْضًا مَعْنَا، حَامِلَةً مِنْ بَصَلِ التَّرْجَسِ البُرِّيِّ مِقْدَارًا أَكْبَرَ مِنْ ذَاكَ الَّذِي حَمَلَهُ جَرِي وَدُوَيْطُ أَصْلًا.

وَفِي الثَّرْبَةِ اللَّيْنَةِ، أَحَدَثْنَا حُفْرًا وَطَمَرْنَا بَصَلَاتِ التَّرْجَسِ عَلَى ضَوْءِ المِصْبَاحِ اليَدَوِيِّ. «هَلْ تَرَى، دُوَيْطُ؟ هَكَذَا تَقُومُ بِالأَمْرِ. ازْرَعْ البَصَلَةَ فِي حُفْرَةٍ عَمَقُهَا ثَلَاثَةُ أَضْعَافِ حَجْمِ البَصَلَةِ نَفْسِهَا، وَاقْلِبِ التُّرَابَ عَلَيْهَا بِرَفْقٍ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَضَعَ البَصَلَةَ الثَّلَاثِيَّةَ عَلَى بُعْدِ خَمْسَةِ عَشْرَ سَنْتِمِترًا عَنِ الأُولَى.»

«هكذا، عمّتي فيرا!»

«نعم، عظيم!»

ذلك الربيع التالي، لما نبتت بصلات الرجس البري وأزهرت، شارك دويط في بهجة نجاح مشروعنا السري. فسوف تظل تلك البصلات تزهر على مدى سنين آتية.



لما مات حيواني الأليف الثاني، وكان من نوع تزيير، علمت أنني بحاجة إلى واحد آخر. ووقع اختياري هذه المرة على سنوزر أسود ناعم. وقد كانت عيناه السوداوان البراقتان وأنفه الأسود المدور مؤطرة بفرو أسود زعب. وهكذا قلت لصديقي الأليف الجديد: «كم أنت فاتن! أظن أنني سأسميك هانز.»

سرعان ما انصم هانز إليّ في حياتي الحافلة بالمغامرات. ففي الأسبوع التالي لاقيناه، إياه، خططنا صديقي ابروس وأنا لرحلة فودجية نزور فيها مريضة في مستشفى. ونويت أن نطحب ابن أختي جان أيضا. فلما فكرت في الجدة اسنايدر منطرحه في المستشفى، علمت أنه ينبغي لي أن آخذ معي هانز لزيارتها. إذ كانت قد فقدت أليقتها الخاص حديثا، وعلمت أن ذلك قد يعني لها شيئا ما. كنت قد اصطحبت تلاميذي لزيارتها بضع مرات، ولكن هذه المرة سأحضر لها زائرا خاصا!

خططت مع ابروس، قائلة: «سيكون ذلك تماما مثل قصة جوني إيريكسن تادا لما هرب صديقها جروا لرويتها. سنضعه في حقيبتنا القرنفلية ونخبئه حتى نجاوز محطة الممرضات. فكل فقط كم ستكون الجدة اسنايدر مدهوشة!» وعبرت ابتسامه ابروس العريضة وضحكته القلبية عن موافقته التامة على خطتي.

كنت قد التقيت ابروس في الكنيسة، حيث حضر من حين إلى آخر. وكان أحد الأمور التي اكتشفتها سريعا أن ابروس صاحب قلب كبير من ذهب. فكان كل حين يزور القعداء، ويطهو وجبات للناس، ويستقبل البائسين في بيته، ويشهد للمسيح أمام كل شخص يحتك به. لقد توافقنا وترافقنا هو وأنا، ومع آخرين شتى، انهمكنا عاجلا في فرص الخدمة الفورية بين أهل حيّنا.

كان ذلك اليوم قد طبخ وجبة للجدة اسنايدر. وأسر إليّ: «إنها لا تحب طعام المستشفى. فكرت أنه سيطيّب قلبها أن تتناول وجبة مطبوخة في البيت، كما تعلمين.»

«بلا شك، ابروس. أنت دائماً تُفكّر في أمورٍ من هذا النوع.»  
 سأل جان الصّغيرُ من المقعد الخلفي: «خالتي فيرا، ماذا لو عوى هانز؟»  
 فضحكت، وقلتِ مَرَح: «لِنُصَلَّ حَتَّى يَبْقَى سَاكِنًا!»  
 «ماذا لو قالوا لكِ إنَّ إدخالكِ إيَّاهُ إلى المُستشفى ممنوع؟» بدا جان قَلْبًا. وقد  
 كانت شخصيَّته حسَّاسةً وحَذِرَةً، وكان يُفكّرُ مُسَبِّقًا كالمعتاد.  
 فطمأنته واثقةً: «لن نستاء أو نغتاظ، بل سنكتفي بأن نأخذهُ وننصرفَ إذا طلبوا  
 مِنَّا ذلك.»

وصلنا إلى المُستشفى، وأنزَل ابروس كُرسيَّ المُدوَلَب، المُلقَّبَ تحبُّبًا «مُلي». وكان  
 كُرسيًّا مُدوَلَبًا قائمًا قد صمَّمه بابا ولحمه لي خصوصًا. وقد جعلته بِطانتُهُ القَرْنفليَّةُ  
 والعاجيَّةُ جدًّا جدًّا، والحقيبةُ القَرْنفليَّةُ المُوصولةُ به كانتِ المكانَ الذي فيه خبأنا  
 جروي الأسودَ ذا الفُروِ النَّاعمِ.

ابتسمتُ لِبروس ابتِسامةً عريضةً ردَّ عليَّ بِمثلها. وقد شَعَرنا تقريبًا كما لو كُنَّا تلاميذَ  
 مدرسةٍ مُشاغبين، إذ اندفعنا جان الصّغيرُ و ابروس وأنا مُتَخَطِّينَ محطةَ المُمرَّضاتِ، مُبْقِينِ  
 رأسَ الجَروِ مُنَحْفَظًا داخلَ الحقيبة. وإذ كُنَّا نعرفُ رقمَ عَرَفَةِ الجَدَّةِ اسنايْدَر من زياراتِ  
 سابقة، توجَّهنا إليها مُباشرةً.

حيًّا ابروس الجَدَّةِ مَودَّةً: «مرحبًا! أحضرنا لكِ مُفاجأةً جميلةً!»  
 فأشرقَ وجهها قائلةً: «ما أروعَ هذا! هيَّا ادخلوا، هيَّا ادخلوا حالًا.» وقد أطرَّ  
 شَعْرُها الفِضِّيُّ وجهًا غَضَنهُ الابتِسامَ وعينينِ ذكِيَّتَيْنِ مُفعمَتَيْنِ بِالحيويَّةِ.

أعلنتُ: «أحضرنا لكِ زائرًا خاصًّا اليوم.»  
 «أوه، إنَّه جان! ما أحسنَ أن أراكِ، بَنِي!»  
 فقال جان بِحياءٍ: «لا، جدَّةُ اسنايْدَر، ليس هو إيَّاي.»  
 وابتسمتُ قائلةً: «هيَّا، جان، أخرجهُ!»

وإذ سَحَبَ جان الجَروَ من مَخْبِاه، عبَّرتِ الجَدَّةُ اسنايْدَر عن فَرَحها وَعَجَبِها،  
 وارتسمتَ على وَجْهِها ابتِسامةُ سعادةٍ مُشرِّقةٍ فيما مسَدَّتِ السَّريرَ بِتَشوُّقٍ. «عجبا!  
 أفعلتُم هذا حقًّا؟ إنَّه جميل! ضَعهُ هُنا.»

عندئذٍ تمامًا دخلتِ الممرضة. فرقعنا كلنا أنظارنا مدهوشين. وتوسلنا معًا: «أوه، لا تقولي لرئيسة الممرضات.»

وشرح جان مُدافِعًا: «إنَّه مُفاجأةٌ للجدة اسنايدر.»

«طبعًا، لن أفعل ذلك. ما كنتُ لأفكر في هذا.» وقد ابتسمتِ الممرضة وربتت رأس هانز برفق. وسألت: «أهو سنوزر؟»

«نعم، أليس فاتنا؟»

«هو كذلك بالطبع. أنا في الواقع أربِّي جِراءَ سنوزر. إنَّهم رُفقاء رائعون. لا يمكنني أن أقولَ عنهم ما يكفي من الأمور الحسنة.»

وإذ استمرت تتحدَّثُ معنا، دخلتِ الممرضةُ الرئيسة. فانتظرنا كلنا متوترين قليلاً، ولكنَّ المرأة اللطيفة تصرَّفت كأنَّها لم ترَ الجرَّو على السرير. فقدِ ابتسمت لنا وشرعت تهتمُّ بشأنها، ثمَّ انصرفت بعد وقتٍ قصير. وملاً أنهيينا زيارتنا وعانقنا الجدة اسنايدر مؤدِّعين، دسَّسنا هانز من جديد في عِشِّه داخل حقيبتَي القرنفلية، وغادرتنا المستشفى ضاحكين.

استمرت سلسلتهُ مغامراتي تُعرجُ على السرعة. وقد كانت جولةُ جامحةً في قاربٍ عند الشاطئِ ذكري بهيجتهُ من إحدى الصيَّفات. ولكن في ما بعدُ بلغت متعة القواربِ حدًا نهائيًا بعدَ حادثٍ شهدتهُ ولم أكد أنجو منه. كنتُ في زيارةٍ لأولان ولينا في جورجيا، وكان لاري كاوفمان مُصطحبًا لينا وإيَّاي في جولةٍ حذرةٍ عصرَ ذاتِ نهار بقاربِ الصَّغير. كان للقاربِ مُحركٌ كبيرٌ جدًّا نسبةً إلى حجمه، وكان أولان قد حذرتنا بشأن خطر الرُّكوب فيه. فلمَّا انضمَّ صبيُّ مُراهقٍ من الجيران إلى لاري على متن القارب، قررنا لينا وأنا أنَّ الحكمةَ تقضي بأن نترجَّل منه.

بعد نُزولنا بلحظات، ضاعفَ الرَّجلانِ سرعةَ دَوْرانِ المُحرِّكِ بمقدارٍ أعلى بقليلٍ ممَّا ينبغي، فانقلبَ القاربُ رأسًا على عَقب. وقد توقَّفَ المُحرِّكُ، وغاصَّ كلا الرَّجلين تحت القارب. ثمَّ انقلبَ القاربُ على جنِّيه، ولم يتأدَّ لاري، ولا الصَّبي، ولكنني شعرتُ كما لو كنتُ أشاهدُ كابوسًا.

«لينا، لو كنتُ على متنِ القاربِ، لَعَرِقتُ.»

فوافقت لينا: «أعلمُ ذلك، فإِرا. لقد ترأَّفَ بنا اللهُ مُنعِمًا.»

تلك اللَّيلة، لم أستطع أن أنام. فقد عَبَرَت ذِهني صورةُ القاربِ المنقلبِ مرارًا وتكرارًا. وشكرتُ الله على هِبَةِ الحياةِ والإنقاذِ اللطيفِ لحياتي كما أجرأه ذلك اليوم.

مرّةً أُخرى، ركبْتُ على درّاجةٍ ناريّةٍ مع أُختي وصديقتها. وقد كنتُ مُقحّمَةً بإحكامٍ بينهما، لأنّ ما كان لديّ شخصيًّا من التّوازن كان أقلّ بكثيرٍ من أن يُبقيني مُعتدلةً. فشعرتُ كليًّا بأنني فافدةُ السّيّرة. وما إن انطلقَ الكُلفُ، حتّى بدأتُ أصرُخُ من الخوفِ. فكانتِ الجَوْلَةُ قصيرةَ الأمدِ بسببِ هذا الرُّعبِ. وقرّرتُ ألا أُجرّبُ أبدًا رُكوبَ درّاجةٍ ناريّةٍ مرّةً أُخرى. إلاّ أنّ ذلكَ كانَ قبلَما أدركتُ أنّ هُنالكَ أكثرُ من طريقةٍ واحدةٍ للرُّكوبِ.

حدّثَ في «خَلوةِ جُوني وأصدقائها العائليّة» أنّني حصلتُ على فُرصةٍ أُخرى لرُّكوبِ الدَّرّاجةِ. وكنْتُ قد دأبتُ في الذّهابِ إلى هذه الخَلواتِ عدّةَ سنينَ مع أخواني، مُستمتعةً بالحلقاتِ الدَّرّاسيّةِ والشَّرِكَةِ مع آخرين ذوي فَيودٍ حياتيّةٍ بدرجاتٍ مُتفاوتةٍ. فالعبادةُ التي مركزُها المسيح، والحلقاتُ الدَّرّاسيّةُ العمليّةُ في شؤونِ عائليّةٍ مُتعلّقةٍ بِمُعايشةِ الإعاقاتِ، والأمسيّةُ الحافلهُ بِنيرانِ المُخيّماتِ والنّشاطاتِ الجَماعيّةِ المُمتعةِ، كلّها جعلتِ هذه الخَلواتِ البُقعةَ الأشدَّ إشراقًا في صيفيّاتٍ كثيرةٍ بالنّسبةِ إليّ.

غالبًا ما شاركتُ في أحداثٍ جمع التبرّعاتِ لأجل توزيع الخَلواتِ في الخارجِ للكراسيّ المدوّلةِ على المُحتاجين ذوي الإعاقاتِ. وقد اشتملتِ هذه الأحداثُ على مَسيرةٍ طويلةٍ، حيث يقوم ابنُ أخٍ أو ابنُ أُختٍ لي بِدفعِ كُرسِيّ المُدوّلبِ مسافةَ السّباقِ. وتبرّعتُ المصلحُ التّجاريّةُ في حيننا بِسَخاءٍ، كما كان لي عدّةُ مرّاتٍ فرحُ المُشاركةِ بمبالغٍ كبيرةٍ لهذا الغرضِ النبيلِ.

وقد حدّثَ عصرَ ذاتِ يومٍ في واحدةٍ من تلك الخَلواتِ أنّني حصلتُ على جَوْلَةٍ رُكوبي الثّانيةِ على درّاجةٍ ناريّةٍ. إذ حرّموا كُرسِيّ المُدوّلبِ، وأنا فيه، على مَقطورةٍ صغيرةٍ تَجرُّها درّاجةٌ ناريّةٌ. فهبّتِ الرّيحُ لاسعةً وجهي ونافشةً شعري، وضحكْتُ من شدّةِ الابتهاجِ إذ هدرَ المُحرِكُ وغرّكتِ العَجَلتانِ فوق الرّفْتِ. ولمّا توقّفنا، قلتُ بلا تفكيرٍ: «كانتِ تلكَ جَوْلَةٌ رُكوبٍ جيّدةً، ولكن هل لي أن أذهبَ من جديدٍ؟ لم تكنِ السّرعَةُ عاليةً بما يكفي.» فلبّى سائقُ الدَّرّاجةِ طلبِي بطيبِ خاطرٍ، ضاحكًا بِسرورٍ. وكانت جَوْلَةُ الرُّكوبِ الثّانيةِ جَوْلَةً لا تُنسى، إذ كانت سريعةً تمامًا بما يكفي لإرضاءِ شغفِي بالسّرعَةِ!

وإذ مرَّت السَّنُون، وكبرت بنات إخوتي وأخواتي الكثرات، بدأً يصطحبني إلى الخلوات بدلاً من أخواتي. فصارت تلك الأيام قرصاً عظيماً لتوثيق الروابط والثموم معاً في علاقاتنا. وما كان لي أن أحضر لولا مساعدتهنَّ ومحبتهنَّ الطوعيتان.

كانت الأوقات مع بنات إخوتي وأخواتي وأبنائهم دائماً ساعاتي الأكثر امتلاءً بالفرح، وسوف يستمرُّ هذا إلى الجيل التالي من حُفدائِ إخوتي وأخواتي وحفيداتهم أيضاً. فذات يوم جاءت اثنتان من حفيداتِ إخوتي وأخواتي راكضتين لثرياني صوصهما الأليف.

وإذ ضمته سيلقيا إلى خدها، أوضحت: «أنظري، خاله فيرا، رجله معطوبة. لذا سميناها عراج!»

فرددت بسرعة: «أوه، عليكما أن تغيرا اسمه. لا ينبغي أبداً أن تشيرا إلى شيء مَّا بحسبِ إعاقتِه.»

«لماذا، عمَّة فيرا؟» وقد ارتسمتِ الجدِّيَّة مع السؤال في عيني كارا البتيتين الواسعتين.

فشرحت بحزم: «لأنَّ ذلك هو رؤيته شخص ما بحسبِ مظهره، لا تقديره من أجل نفسه. عليك دائماً أن تنظري إلى القلب لثري الجمال الحقيقي، كارا.»

لقد علمتُ هذا في غرفة صفي بطرقي خلاقة قدر استطاعتي. أردتُ أن يعرف كلُّ من تلاميذي أنَّ الإعاقات لم تكن ما يُعرف النَّاس، وأنهم بكونهم مدرِّكين حقيقة شعور من يعيش إعاقةً يُمكنهم أن يهدوا السبيل أمام المحرومين ويُعاملوهم بكرامةٍ لطفًا وعطفًا.

في يوم الإعاقات، كنتُ أُعِينُ لكلِّ تلميذٍ إعاقةً ما. فيكون أحدهم على عكازين، ويكون على آخر أن يقضي النهار وذراعاً في رباطٍ مُعلَّقٍ بعنقه. وقد دخلوا دائماً مُستبشرين مسرورين واستمتعوا بضحكاتٍ كثيرةٍ خلال تحفُّطاتِ يومهم.

وفي يوم إعاقات، شاركتُ التلاميذ قائلةً: «منذُ بضعة أيام في الكنيسة، حاول أحدهم أن يُناولني كتابَ ترانيم. لقد نسي أنني لا أستطيع أن أمدَّ يدي لأخذ الكتاب. فاعتذر كثيراً، ولكنني قلتُ له إنَّ ذلك كان إطرأً بالفعل. إنَّ أعظمَ هبةٍ يُمكنكم أن تعطوها لشخصٍ مدعوٍّ لأنَّ يعيش بقيود هي أن تعاملوه ببساطةٍ كما لو كان كائنًا بشرياً سويًا.»

ثمَّ أضفتُ بعد توقفٍ: «أعظمُ هبةٍ على الإطلاق أعطاني إيَّها أحدُ الأصدقاء كانت الكلمات البسيطة: 'لستُ أبالي بتدبِّك، فيرا، بل أبالي بقلبك!'»

«تذكّروا هذا حينَ تحتكُون بالآخرين، يا أولاد. حتّى أمرٌ بسيطٌ كالتلّعثُم قد يكونُ مُحرجًا جدًّا للشخص الذي يتصارَعُ معه. وكثيرون يُحاولون أن يُساعدوا شخصًا ما على إكمالِ جملته عندما يتلعثَم. ولكنْ مُجرّد النَّظَرِ إليه بهدوء وانتظارِه حتّى يُكملَ كلامه، وكأنّ لا مُشكلة أبداً، يُمكننا أن نُعطيه الثقة التي يحتاجُ إليها ليُخبرنا بما في قلبه دون خوف. اكتفوا بالانتظار في هدوء. إنّ هذا يُعطيه كرامة.»

لقد تعلّمتُ أن أعيشَ فيودى بِسلاسةٍ كافية. وبذلتُ قُصارايَ لأعيشَ وجودًا سويًّا. وقد تبيّن لي أنّه كلّما قلّ تشديدي على عجزِي، قَبِلَهُ الآخرونَ أسرعَ باعتباره عديمَ الأهميّة. غيرَ أنّ هذا حالَ دُونِ حُصولي على المُساعدة التي أحتاجُ إليها. فقد جعلني عنيدةً حيالَ التّغيير، أحيانًا لِضَرَرِ جِسمي وإزعاجِ خاطرِ الذين يُساهمونَ في الاعتناء بي، سواءً بِسواء.

بُعِيدَ عيدِ مولدي الثّاني والأربعين، بدأتُ أخوضُ صراعًا مُتزايدًا مع الضّعفِ والدُّوار. وقد كرهتُ التّعبيرَ «الفشلُ التّنفسِي ما بعدَ شللي الأطفال». كنتُ على يقينٍ بأنّ درعي الصّدرية، وهي مهواةٌ تستقرُّ فوقَ صدري ليلًا، كانتُ وافية، رُغمَ سماعي مُتكلّمين يتحدّثون عن منافعِ أجهزة تنفّسٍ أخرى. وقد كان لي ما أعنى به من أنشطَةٍ عائليّة، وأنشطَةٍ كُنيّة، وتعليمٍ وسفَرٍ وصدّاقات. فلم يَنسُخْ وقتي لِألقَقْ بشأنِ صحتي، أو هكذا حُيِّلَ إليّ.»

لمّا لم يَبْدُ أنّ صَخَّ الفيتامينات في جِسمي مُفيدٌ، زُرْتُ طبيبنا المحلّي. ولمّا سَمِعَ عن دُواري، عالجنِي من أجلِ مشاكلِ الأذنِ الداخليّة. وعلى الرُغم من عدمِ التّحسُّنِ نتيجةً لِعالجه، فكّرتُ: أنا أنقذتُ في السّنِّ فحسب. سوفُ أكونُ أحسنَ حالًا في الخريف عندما يَصيرُ الجوُّ أبرد. فإذ كنتُ مُستبشرةً، رفضتُ الاعترافَ بأنّ شيئًا ما أشدَّ خطرًا كانَ جاريًا. ثمّ إنّ زيارةَ طبيبِ الأسنانِ أنتجتُ فُوبيا احتِجازٍ ودُوارًا حادّين جدًّا بحيثُ اضطرّرتُ إلى مُغادرةِ المبنى. وعندَ المساءِ ارتعبتُ من تنظيفِ أسناني بِالْفُرْشاة. فكُلّما فعلتُ ذلك، كافحتُ لِأتنفّس. وفي ذلك الخريف، إذ فُتِحَتِ المدرسةُ مُجددًا، كان يُغَطِّطُ عليّ النّومُ على مكّتي أحيانًا وأنا أُساعدُ الأولادَ في دروسهم. لقد كانوا لطفاءً طرُفًا، فكانوا ببساطةٍ يَهْرولونَ ذاهبين ويحضرونَ لي فنجانَ قهوةٍ لِأستيقظ. ولكنني علمتُ أنّ شيئًا ما ينبغي أن يُعملَ.

وقد أصرتُ أخواتي: «يجبُ أن تتلقَى مُساعدة.»

وناشدتني لينا: «فيرا، أنتِ لا تُدرِكينَ حتَّى مدى السوء الذي بلَعتهُ الأمور. أنتِ بحاجةٌ إلى مُراجعةٍ اختِصاصيِّ.» فاستسلمتُ أخيراً.

وجاء حلٌّ مُشكِلتِي بجهازِ تنفُّسٍ ثنائيِّ المُستوى يدفع الهواءَ بالضَّغطِ داخلَ قنّاةِ التنفُّسِ، مُزوِّدٍ بقناع. فعلى الرُّغم من إصراري على أنِّي أحتاجُ فقط إلى مِهواةٍ صدريَّةٍ أفضلَ ملاءمةً، تخطى مُعالِجي الاختِصاصيُّ رأيي. وقد جعلتني فُوبيائي مُتخوِّفةً من وضعِ قناعٍ على وجهي، إلّا أنّ الاختِصاصيَّ أصرَّ على أن أُجرِّبَ الجهازَ. فأوَّلَ مرَّةٍ ارتديتُ القناعَ وأحسستُ بدءَ تدفُّقِ الهواءِ، سحبتُهُ مذعورةً، وصرَّحتُ: «لا يُمكنني أن أفعلَ هذا!» ولكن في صميمِ قلبي، علمتُ ما هو أفضل.

لمَّا نظرتُ إلى الوضعِ بواقعيَّةٍ، أدركتُ أنِّي كنتُ بينَ خيارين: إمَّا ثقبُ القصبَةِ الهوائيَّةِ وإمَّا هذا الجهازَ. لم أَرِدُ شقَّ القصبَةِ الهوائيَّةِ، ومن ثمَّ شرعتُ في تدريبِ نفسي على قُبُولِ القناعِ. ومُساعدَةٍ مُترقِّقةٍ من عائلتي، تعلَّمتُ أن أرى القناعَ كصديق، وأخيراً بدأتُ أترقَّبُ ارتدائهُ ليلاً.

بهذا التَّعديلِ في حُطَّةِ العِنايةِ الصَّحيَّةِ بي، تبدَّدت نوباتُ صداعي المُروِّعة، مع أرقِّي ودواري وتورُّمِ كاحليِّ. فكلُّ ما في الأمرِ أنَّ جسمي لم يكنِ يحصلُ على الأكسجين الكافي لتأديَّةِ وظائفِهِ. وإذ عادَ إليَّ التَّوقُّ البهيجُ إلى الحياة والطَّاقة المُجدِّدة، شكرتُ اللهَ مرَّةً أُخرى على هبةِ الحياة.



## عَبَّرَ الْمَاضِي

جلستُ في سَكِينَةٍ مُفَكَّرَةً فَوْقَ فِنْجَانِ قَهْوِي. وَإِذْ حَدَقْتُ فِي السَّائِلِ الْبُنِّيِّ  
الْغَنِيِّ الَّذِي يُشَكِّلُ مَشْرُوبِي الْمُفَضَّلَ، لَمَحْتُ الصُّورَةَ الْمُنْعَكِسَةَ الْمَشْهُوَهَةَ لِوَجْهِ رَادًّا  
بِالتَّحْدِيقِ. وَمَلَّا كُنْتُ مُتَمَلِّمَةً وَمُسْتَعْرِفَةً فِي التَّفَكِيرِ الْكَثِيبِ، نَظَرْتُ خَارِجَ النَّافِذَةِ إِلَى  
السَّمَاءِ الرَّمَادِيَّةِ وَمَمْنَيْتُ لَوْ أَنَّ الْعَدَّ لَا يَأْتِي. فَلَمْ يَكُنِ التَّقَاعُدُ كَلِمَةً سَبَقَ أَنْ أَعَدَدْتُ  
نَفْسِي لِسَمَاعِهَا.

كَانَ مَجْلِسُ الْمَدْرَسَةِ قَدْ تَفَضَّلَ بِشَرْحِ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَتْ أَعْضَاءَهُ يَرُونَ  
أَنَّ وَقْتَ انْكِفَائِي عَنِ التَّعْلِيمِ قَدْ حَانَ. وَقَدْ أَصْغَى أَفْرَادُ عَائِلَتِي إِلَيَّ، وَتَحَاجُّوا مَعِي،  
وَصَلُّوا لِأَجْلِي. لَمْ يَكُنْ أَنْنِي لَمْ أَفْهَمَ، بَلْ كَانَ أَنَّهُ أَلْمَنِي كَثِيرًا بِالْفِعْلِ أَنْ أَقُولَ وَدَاعًا لِشَيْءٍ  
عِشْتُ لِأَجْلِهِ. كَانَتْ السَّنَةُ الْآلَنَ ٢٠٠٢، مُسَجَّلَةً وَاحِدَةً وَثَلَاثِينَ سَنَةً طَوَّالَهَا مَا بَرِحَ  
التَّعْلِيمُ حَيَاتِي.

«وَلَكِنْ، فَيْرَا، لَنْ تَتَوَقَّفِي عَنِ التَّعْلِيمِ. فَحَنُّ كُنَّا نَعْرِفُكَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. سَتَجِدِينَ  
كُلَّ نَوْعٍ مِنَ الطَّرِيقِ لِتَمْلَأِي سَاعَاتِكَ بِتَشْجِيعِ النَّاسِ وَمُسَاعَدَةِ الْآخَرِينَ. إِنَّمَا سَيَكُونُ  
ذَلِكَ تَعْلِيمًا بِصِفَةٍ أُخْرَى.» عَادَتْ كَلِمَاتُ جُونِي الرَّقِيقَةُ مُجَدِّدًا، فَابْتَسَمْتُ. عَرَفْتُ أَنَّهُ  
كَانَ عَلَى حَقٍّ. فَمَا كُنْتُ لِأَتَوَقَّفَ عَنِ التَّعْلِيمِ. إِذْ كَانَتْ حَيَاتِي حَافِلَةً بِالْأَصْدِقَاءِ وَالْعَائِلَةِ  
وَالْفُرْصِ. وَمَا بَرِحَتْ صِحَّتِي وَقُدْرَتِي عَلَى الْإِحْتِمَالِ تَنْحَدِرَانِ. فَبَاتَ أَصْعَبَ فَأَصْعَبَ أَنْ  
أَتَهَيَأَ بَدَنِيًّا وَأُنْجِزَ عَمَلِي جَيِّدًا فِي غُرْفَةِ الصَّفِّ.

غَيْرَ أَنَّنِي سَأَفْتَقِدُ تَلامِيزِي. ومهما قلتُ لِنَفْسِي الحَقَّ، فَإِنَّ الحَقَائِقَ لَمْ تَكُنْ قَطُّ أَقْلَّ  
إِيلاَمًا. يا اللهُ، أَعْنِي كِي أَقْبَلَ هَذَا التَّغْيِيرَ بِنُبُل. لقد بذلتُ كُلَّ ما عِنْدِي لِكِي أُعَلِّمَ إِكْرَامًا  
لَكَ. فَأَعْنِي الآنَّ كِي أَعِيشَ لَكَ خَارِجَ عُرْفَةِ الصَّفِّ، مِثْلَمَا عِشْتُ فِي عُرْفَةِ الصَّفِّ تَمَامًا.  
اللَّهُمَّ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ شَعْفِي. إِمَّا أَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ لِنُعْطِيَنِي فِي هَذَا المَوْسَمِ الجَدِيدِ  
عَزْمًا مُساوِيًا لِمَا قَدْ أُعْطِيتَنِي طَوَالَ هَذِهِ السَّنِينَ الإِحدَى والثَّلَاثِينَ الرَّائِعَاتِ مِنَ التَّأثيرِ  
فِي حَيَوَاتِ الآخِرِينَ عِبْرَ التَّعْلِيمِ. يا اللهُ، ما بَرِحْتَ صالِحًا مَعِي وَمُحْسِنًا إِلَيَّ لِلغَايَةِ. ما  
أَكثَرَ الذِّكْرِيَّاتِ العَجِيبَةِ...

سَافَرَ بِي ذِهْنِي رَجوعًا عِبْرَ السَّنِينَ، بَعِيدًا جَدًّا إِلَى أَوَّلِ يَوْمٍ لِي فِي عُرْفَةِ الدَّرْسِ،  
لَمَّا دَخَلْتُ شَابَّةً مُرْتَاعَةً عُرْفَةَ ذَلِكَ الصَّفِّ الأَعْلَى، وَوَقَّعْتَ تَعَهُدًا طَنَانًا أَمَامَ تَلامِيزِها  
الأَوَّلِينَ. فابْتَسَمْتُ الآنَّ حِيالَ تِلْكَ الفِكرَةِ. كَم كُنْتُ سادِجَةً وَمِثاليَّةً فِي ذَلِكَ المَاضِي  
البَعِيدِ، لَكِن مَفْعَمَةً بِالأَمالِ والأَحلامِ والشَّعْفِ تَمَامًا! إِنَّ الرَّمْنَ يُعَلِّمُكَ بِطَرِيقِ تَفَوُّقِ  
طَريقَةٍ واحِدَةٍ. إِنَّهُ يُرَفِّقُ وَيُلِينُ وَيُعَمِّقُ...

خارجًا، كَانَتْ الأوراقُ عَلى الشَّجَرِ فِي كَاملِ بَهاءِ الرِّبيعِ عَلى عَتبَةِ الصَّيفِ. وَقَدْ غَرَدَ  
أبو حِنَاءٍ بِجَدَلٍ، فَأَصغِيتُ إِلَى أُغْنِيَةِ ذَلِكَ العُصْفورِ الصَّغِيرِ عِبْرَ النَّافِذَةِ المَفتوحَةِ. حَيَاةٌ  
جَدِيدَةٌ! كَذَلِكَ تَمَامًا كَأَنَّ صَفًّا تَلامِيزِي الأَخِيرِ، مُتَفَجِّرًا بِحَيَاةٍ شابَّةٍ. فَمَا بَرِحُوا تَوَاقِينَ  
لأنَّ يَتَعَلَّمُوا وَتَوَاقِينَ لأنَّ يُحِبُّوا. وَإِذ عَلِمْتُ أَنَّ تِلْكَ كَانَتْ سَنَتِي الأَخِيرَةَ، اسْتَمْتَعْتُ  
بِكُلِّ لِحْظَةٍ. وَالآنَّ كَأَنَّ يَوْمَ غَدِ الخِتامِ الرَّسْمِيِّ النَّهائِيِّ لِمَسِيرِي التَّعْلِيمِيَّةِ، سَيَسْتَهْلُ  
بِخِدمَةِ تَكرِيمِ خَاصَّةٍ.

صباحَ اليَوْمِ التَّالِي، عُنيْتُ عِنايةً زائِدَةً بِمَظْهَرِي وَمَلْبَسِي، وَقَدْ ساعَدَتَنِي لِينا بِسِمَاحَةٍ  
وَصَبْرٍ حَتَّى بَثُّ راضِيَةٍ. عَلِمْتُ أَنَّنِي سَأُرَى بِضَعِّ مِئاتٍ مِنَ تَلامِيزِي السَّابِقِينَ، وَأرَدْتُ أَنْ  
أُكْرِمَهُمْ فِي المَقابِلِ مِنَ أَجْلِ مَحَبَّتِهِمْ لِي. وَكُنْتُ قَدْ عَلِمْتُهُمْ دَائمًا أَنَّ الاعْتِناءَ الوَافِي بِمَلْبَسِنَا  
وَمَظْهَرِنَا وَأَدابِ سُلوكِنَا يُعَبِّرُ عَنِ سَجِيَّةِ التَّقْوَى فِي إِبْداءِ الكِرامَةِ والاحترامِ لأنفُسِنَا  
وللآخِرِينَ عَلى السَّواءِ.

قالت لي إِمَّا، ابْنَةُ أُخِي، ضاحِكَةً ضِحْكَةً خافِتَةً: «أَتَذْكَرِينَ لَمَّا كُنْتُ تُعَلِّمِينَا كَيْفَ  
نُبْقِي أَظفارَنا مُقْلَمَةً ونَظيفَةً ومُدْرَمَةً فِي يَوْمِ الفِتياتِ فِي المَدْرَسَةِ؟»  
فابْتَسَمْتُ قائلَةً: «بِالتَّأكِيدِ أَذْكَرُ. عَجَبًا! ذِكرِيَّاتٌ كَثيرَةٌ جَدًّا.»

وقالت إِمَّا مُشْجَعَةً «سَتَرِينَ بَعْضًا مِنْ تَلَامِيذِكَ مَا رَأَيْتَهُمْ عَلَى مَدَى سَنِينَ.  
أَأَنْتِ مُتَشَوِّفَةٌ؟»

«بِلا شَكٍّ، سَيَكُونُ رَائِعًا أَنْ أَرَاهُمْ. مَا زِلْتُ أَحْمِلُ كُلًّا مِنْهُمْ فِي قَلْبِي.»

شَعَرْتُ بِخَلِيطٍ غَرِيبٍ مِنَ التَّشَوُّقِ وَالْأَسَى. وَقَدْ ذَكَرْنِي الْأَسَى بِالْوَجَعِ الَّذِي عَانَيْتُهُ  
لَمَّا رَحَلَتْ مَامَا لِتَكُونَ فِي حَضْرَةِ الرَّبِّ قَبْلَ بَضْعِ سَنِينَ، فِيمَا ذَكَرْتَنِي بِهَجَّةٍ رُؤْيَةٍ الْجَمِيعِ  
وَالِاحْتِفَالِ مَعَهُمْ بِالْفَرَحِ الَّذِي كُنْتُ أَشْعُرُ بِهِ لَدَى إِعْدَادِ حَفْلَةٍ لِشَخْصٍ مَا. لَمْ يَكُنْ  
مَعْقُولًا وَمَفْهُومًا أَنْ أَشْعَرَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْاِخْتِلَاطِ الشَّدِيدِ لِكِلَا الْأَمْرَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ،  
وَصَلَّيْتُ فِي سِرِّي لِأَجْلِ قُوَّةٍ لِمُوَاجَهَةِ الْيَوْمِ الْعَتِيدِ.

لَمَّا وَصَلْنَا، جَرَى التَّرْحِيبُ بِي مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِهَتْافَاتِ الْمَحَبَّةِ وَالْمُودَّةِ، مَعَ مُصَافِحَاتٍ  
شَدِيدَةٍ بِالْأَيْدِي، وَمُعَانَقَاتٍ رَقِيقَةٍ، وَابْتِسَامَاتٍ مُتَأَلِّفَةٍ مُعَبَّرَةٍ عَنِ التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ.  
وَقَدْ صَجَّتْ قَاعَةُ الْاسْتِمَاعِ الْمُرْدَحِمَةُ حَوْلِي بِالْعَمَعَمَاتِ. «أَخْتُ فَيْرَا، هَلْ تَذَكِّرِينَ ذَلِكَ  
الْبَرْنَامَجَ الْمِيلَادِيِّ الَّذِي فِيهِ كُنْتُ خَرُوفًا؟»

فَتَذَكَّرْتُ ضَاحِكَةً: «أُوهُ، نَعَمْ! لَقَدْ كُنْتُ خَرُوفًا لَعُوبًا صَاحِبًا تَمَامًا. وَلَكِنْ قَدْ مَضَى  
زَمَنٌ طَوِيلٌ مِنْذُ رَأَيْتُكَ سَابِقًا. كَيْفَ حَالُكَ الْآنَ؟» وَقَدْ رَفَعْتُ نَظْرِي إِلَى وَجْهِ رَجُلٍ بَالِغٍ  
كَانَ ذَاتَ مَرَّةٍ تَلْمِيذًا مُفْرَطَ الطَّاقَةِ فِي الصَّفِّ الثَّلَاثِ دَاخِلَ غُرْفَةِ صَفِّي.

وَمَا لَبَّتُ أَنْ قَالَ لِي، ضَاحِكًا ضِحْكَةً خَافِتَةً: «مَا بَرَحَتِ الْحَيَاةُ مُشَوِّشَةً كَالصُّوفِ  
الْمَنْدُوفِ مُنْدُودًا، وَلَكِنَّ كُلَّ مَا عَلَّمْتَنِي إِيَّاهُ قَدْ أَبْقَانِي تَابِعًا الرَّاعِي الصَّالِحِ. وَهُوَ مَا بَرَحَ  
صَالِحًا، رُغْمَ تَوَالِي الْمَدِّ وَالْجَزْرِ.»

فَقُلْتُ مُؤَيَّدَةً: «يَسُرُّنِي أَنْ أَسْمَعَ ذَلِكَ. لَا شَيْءَ يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَنِي أَسْعَدَ سِوَى أَنْ  
أَعْلَمَ أَنَّ تَلَامِيذِي يَتَّبِعُونَ الْمَسِيحَ.»

وَقَاطَعَ تَلْمِيذٌ آخَرَ: «أُوهُ، وَهَلْ تَذَكِّرِينَ سِلَاسِلَ الْفُرُودِ الَّتِي كُنَّا نَعْلُقُهَا وَنَحْنُ  
نَسْتَنْظِرُ جَدْوَلَ الضَّرْبِ؟»

«أُوهُ، نَعَمْ! وَحَفَلَاتِ التَّرْحَلِقِ وَنُزَةِ التَّمْرَلِجِ!»

وإذ طافَ حَولي تلاميذي السَّابِقون، طَمَتَ عليّ الذِّكْرِيَّاتُ أُمُوجًا. لقد كانَ رائِعًا جدًّا أن ألتقيَ أولادي هكذا، بِوُجُودِ كَثِيرينَ مِنْهُمُ فَعَلًّا في مَكانٍ واحدٍ وفي الوَقْتِ نَفْسِه. لمَّا بدأ البَرنامِج، شاهَدْتُ كُلَّ شَخْصٍ يَقومُ لِيَتَكَلَّمَ وفي حَلْقِي غُصَّةٌ. وقد تَساءَلْتُ: كم مرَّةً يَرى المرءُ هذا المَقْدَارَ الوافرَ من المَحَبَّةِ في مَكانٍ واحدٍ؟ يا رَبُّ، لَسْتُ أُسْتَحِقُّ هذا، كُلُّ المَجدِ والكرامَةِ لَكَ. أَشكُرُكَ على السَّماحِ لي بأن أكونَ جُزءًا صَغيرًا من خُطَّتِكَ عَبْرَ هذه السَّنين!

أَلقَيْتُ أَكثَرَ من قِطَعَةٍ شِعْرِيَّةٍ أَصْلِيَّةٍ تَذكارًا بِمَحَبَّتِي للشَّعرِ وسَني تَعلِيمي إِيَّاه. وقد صَوَّرتُ قَصيدَةً كَتَبَها صَهرِي جُوني كَثيرًا من اللَّحظَاتِ الأَظرفِ في عُرْفَةٍ صَفِي. ومِما أَنَّهُ لم يَسْتَطِعْ أن يَحضَرَ يَومَذاك، قرَأَ القَصيدَةَ دايفِدَ مِلرَ، زَوجَ أُختي جُودي.

«حَقًّا إنَّ حَيَاةَ تَعاشٍ ونَحْنُ نَبْذِلُ لِلغَيرِ العَطاءَ،

لِيسَتِ مُصَيِّعَةً ولا مَطروحَةً بَعيدًا بَعيدًا؛

بل هِيَ بِالمَحَبَّةِ مَشغولَةٌ، فيما مَعَ كُلِّ دَرسٍ تُعَلِّمُ،

وَسَتَعُودُ كَأَنَّها تاجُ ذاتِ يَومٍ حُلُوٍ.

«تَقريبًا أربَعُ مِئَةٍ من الأَقوياء - ويا لَهُ حَشْدًا مُدهِشًا! -

إذ رَحَقُوا عَبْرَ صَفِّها يَومًا فيَومًا.

وبِالصَّابونِ عَلِمَتِ نَبْذَ الكَلامِ البَديءِ،

الأمرُ الَّذي رَوَّعَ كَثيرًا غَيرَ صَبِيٍّ كَبير.

«عُلِّمنا أن نَقعَدَ ساكِينَ، بِهَدوٍ على التَّلِّ مُنتَظِرينَ،

حَتَّى نُوافي دَوقَنا الكِتابَةَ الإِبداعيَّةَ.

ولَكنْ يَومَ كُلِّ أليفٍ مُدَلَّلٍ، رُغمَ نِجاحِ اليَومِ البَاهرِ،

تَنشأ لِحَبَطَةٌ تَجعَلُ القُلُوبَ الأَضعَفَ تُخَفِقُ غالِبًا.

«نُزَّهُ الشِّتاءَ كَانتِ مُمتَعةً، إذ نَرَكُضُ في الغاباتِ،

بِوُجُودِ عَرَبَةٍ العُولفِ مَعنا لِجَولَةِ الرُّكوبِ،

وَمَعَ أَنَّنَا نَكَادُ نَتَجَمَّدُ مِنَ الرَّيْحِ الْبَارِدَةِ الْحَادَّةِ،  
كُنَّا نُخْفِي ذَلِكَ بِسَبَبِ مَا لَدَيْنَا مِنَ الْكِبْرِيَاءِ.

«دُرُوسُ الطَّبْعِ تَلَقَّيْنَاهَا، وَإِنْ كُنَّا أحيانًا أَرْدِيَاءِ،  
وَمَعَ ذَاكَ تَعَلَّمْنَاهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ صَوَاضَائِنَا،  
إِذْ بَقِينَا نَنْفِرُ دَوْمًا، يَوْمًا ثُمَّ يَوْمًا،  
حَتَّى اسْتَطَعْنَا أَنْ نُجَارِيَ بَاقِيَ الطَّابِعِينَ.

«دَوَّنتُ لَمَحَاتٍ وَصَفِيَّةً لِلتَّلَامِيذِ، وَدَامَ صَفٌّ فَيَرَا لِلتَّدْبِيرِ الْمُنزَلِيَّ  
حَتَّى تَعَلَّمْنَا كَيْفَ نُحْضِرُ كُلَّ طَبَقٍ جَدِيدٍ.  
ثُمَّ حَضَرَهُ بَعْضٌ جَيِّدًا، وَقَدَّمُوهُ فِي الْمَسَاءِ  
إِلَى أَهَالِيهِمْ، فَطَابَ بِهِ الْعِشَاءُ!

«الرِّيَاضِيَّاتُ كَانَتْ صَعْبَةً، لَكِنْ بِاسْتِعْمَالِ الْبِطَاقَاتِ الْمَذْكُورَةِ  
تَدَلَّتْ مِنَ السَّقْفِ سَلَاسِلُ الْفُرُودِ،  
حَتَّى كُلُّ حَصِيلَةٍ ضَرَبَ أَمَكْنَ أَنْ تُقَالَ بِطَقْطَقَةٍ إِبْصَعِينَ،  
فَتَوَضَّعَ الْفُرُودُ مِنْ جَدِيدٍ فِي طُبُولِهَا.

«إِذْ ذَاكَ كَانَ يَوْمُ الشُّعْرِ رَائِعًا، حِينَ نَأْتِي إِذَا اسْتَطَعْنَا  
كِي نَسْمَعَ الْقِصَائِدَ الْبَسِيطَةَ وَالْعَظِيمَةَ،  
وَنَحْكُمُ كَيْفَ كَانَتْ وَقْفَةُ الْمُلقِي وَحَرَكَاتُ يَدِهِ،  
إِنَّمَا كَانَتْ لِجَمَالِ الشُّعْرِ الدَّرَجَةِ الْأُولَى.

«وَالآنَ يَا كُلُّ مَنْ هَهُنَا، هَلُمُّوا اقْتَرِبُوا جَدًّا جَدًّا،  
لَأُنَبِّئَ أَوْشِكُ أَنْ أَكْشِفَ لَكُمْ سِرًّا:  
لَا أَظُنُّ أَنَّهَا سَتَسْتَعْفِي، وَلَا حَتَّى قَلِيلًا،  
إِذْ هِيَ تُعَلِّمُ أَيْنَمَا ذَهَبَتْ!»

هنا غامت عيناى بِدُموعٍ لم تُسكَب. لن أَسْتَعْفِي. ما زالت كُلُّ واحدةٍ من تلكِ الحَيَواتِ في مُتناوَلِي حَتَّى أَمْسَها. وما زالَ كُلُّ قَلْبٍ هُنا حاضِراً حَتَّى أَجِبَه. فِيمَعونَةِ اللهُ سَأَسْتَمِرُّ أَبادِراً وأُكونُ جُزءاً من هذه الحَيَواتِ التي كانت مُتمازِجَةً للغاية مع حياتي الخاصّة. لقد ذكّرني المقطعُ الشّعريُّ الأخيرُ بِغايَتِي في الحياة، وإذ فَرَعَ دايثد من التّلاوة، تردّدَت أصدااءُ كلماتِهِ في ذِهني:

«أختُ فيرا، لكِ نقولُ، وبأكثرٍ من طريقة،

إنّنا نشكُركُ من أجلِ كُلِّ ما قد فَعَلتِ،

وسنقولُ لكِ الآنَ تمامًا إنَّ هُنالكِ إكليلاً لِرأسِكِ

بانِظارِكِ حينَ تَكونينَ مَعركَتِكِ الأخيرةَ قد رَبحتِ!»

سَرَحَ دايثد بَصَرَهُ فوقَ الجُمهورِ، وما لبِثتِ عيناها أن لاقَت عينيَّ لُحِيظَةً بابتِسامةٍ أحويّة. وإذ تنحنحَ مُنظِّفاً حَنجرتَهُ، تكلمَ بِشعورٍ رقيقٍ. «باشرتِ الأختُ فيرا مَسيرَتَها التّعليميّة بِعزمٍ لا يُقهر. لقد نذرتِ نَفْسَها لِبدَلِ قُصاراها، وهي اليومَ تَرتَفِعُ فوقنا فِعلاً، مثلاً على الشّجاعةِ العريقةِ النّادرةِ في مُواجهةِ عَقباتٍ لا تُذَلُّ، لا أَمامَ تلاميذِها فقط، بل أيضاً أَمامنا جميعاً نحنُ الذينَ نَعرِفُها ونُحِبُّها.

«إنَّ رَوحَها التي لا تُغلبُ هَدَتَها سُبُلَ عَمَلِيّاتٍ فِكرِيّةٍ بارِعَةٍ، ومُنطَلقاتٍ بِكرٍ من أساليبِ التّعليمِ حيثُ ابتكرتِ أفكاراً جديدةً ووضعتَها قَيَدَ التّنفيدِ في صُفوفِها وفي عُقولِ تلاميذِها الخصبية. فإلى يومنا هذا، قد ترسّخت أساليبُها، وأفكارُها النّاميةُ تَحْمِلُ مَمرًا في حياةِ تلاميذِها الذينَ اسْتَنهَضَ بَعْضُهُم بَعْضَهُم لِيَصيروا مُعلِّمينَ أيضاً.

«لم تَكتَفِ فيرا بتعليمِ الحقائقِ والمعلوماتِ والفَهْمِ، بل إنّها لم تَرَضْ قطُّ قبلَما ولَدتِ في قُلُوبِ تلاميذِها حُبَّ التّعلُّمِ. لقدتعلّموا أن يُجِبُوا القِراءةَ وأن يدرسوا من تلقاءِ أنفُسِهِم أسرارَ الحياةِ المُتَشابِكةِ. فلدى فيرا تلكَ القُدرةُ النّادرةُ على ريادةِ التلاميذِ إلى رِحابِ الاستِكشافِ العقليِّ، حيثُ اللهُ وحدهُ يَنصُبُ الحدودَ. وقد اقتادَتَهُم في رِحلاتِ البَحْثِ المُشوّقةِ عبْرَ أودِيّةِ الكِفاحِ المجهولةِ وعلى قِمَمِ النّجاحِ المُثيرةِ، وهُم اقتَفَوا حُطّاها تمامًا بِكُلِّ عَزمٍ وَتَباتِ.

«وإذ يصيرُ تلاميذُ فيرا مُزارعينَ وبنّائينَ وقُسوسًا ومُعلِّمينَ وآباءَ وأُمَّهاتِ، يكونونَ أَفْضَلَ تاهلاً وتاهباً لِرِحلتِهِم في الحياةِ لأنَّهُم كانوا تلاميذَ لِفيرا، إذ علّمَتَهُم لا مُجرَدَ

الحقائقِ وكيفَ يعملونَ بها، بل أيضًا كيفَ يُفكرونَ وكيفَ يعيشونَ. وقد أصرتَ على اعتِمادِ اللُّطْفِ وحُسنِ المُعامَلَةِ مع مُتَدَيِّ الإنجازِ، حتَّى فيما حثَّت ذلك التَّلْمِيذَ المُجْتَهِدَ على التَّقدُّمِ قليلاً بعدَ، وعلى بَدَلِ جَهْدٍ أقوى قليلاً. لقد بيَّنتَ لكثيرينَ، من خلالِ اختِبارِها الخاصِّ، كيفَ يَشْطَبُونَ الكَلِمَةَ 'لا' من العبارةِ 'لا أُستطيعُ'، وأذاقتَهُم حَلَاةَ الانتِصارِ.»

وهنا توقَّفَ من جديدٍ. ثُمَّ أَحَسَّ العُصَّةَ التي ما بَرَحَتْ في حلقي طَوَالَ الصَّبَاحِ تَمَدُّدًا، وشعرتُ بِصَدْرِي مُثَقَلًا بالعاطفةِ، لما أكَمَلْتُ دايفدَ كلامه. «تُوجَدُ قصيدةٌ تَنَاشِدُنَا أحيانًا أن نُقدِّمَ وُروَدَنَا للشَّخصِ الذي نُحِبُّه ونُعجَبُ به فيما هو على قَيَدِ الحَيَاةِ بعدَ، بدلًا من أن نَضَعَهَا على قَبْرِهِ بعدَ رحيلِهِ. فإِذَا، هل لك أن تصعدي إلى المِنْبِصَةِ، من فضلك؟ إنَّ تلاميذكِ يودُّونَ أن يُهدوكِ كلمةً شُكْرٍ خاصَّةً.»

على المِنْبِصَةِ، شاهدتُ من كُرْسِيِّ المَدْوَلَبِ إذ صَعِدَ تلاميذُ من مُختلفِ الأعمارِ واحدًا فواحدًا. وقَدَّم لي كُلُّ مِنْهُمُ وردةً جميلةً مُخْتَلِفَةَ اللَوْنِ. وعلى الجُمْلَةِ، وُجِدَتْ وَرْدَةٌ واحدةٌ مُثَلُّ كَلِّ سَنَةٍ من السَّنِينَ التي علَّمتُ فيها. وقد اغرورقتَ عيناك إذ نَظَرَ دايفدُ إليَّ وختَمَ بِفصاحَةٍ كلمتهُ الإِطرائِيَّةَ.

«اليومَ، فإِذَا، نُقدِّمُ لكِ هذه الورودِ. فاستمتعي بها وُصُونِها، لأنَّها مُعْطَاةٌ لكِ بِكُلِّ ما تستحقُّينَهُ من المحبَّةِ والتَّقْدِيرِ، من أجلِ تضحيتِكَ اللَّأَنَانِيَّةِ في تمكينِ أولادنا من أن يتعلَّموا ويُحِبُّوا وَيَحْيُوا. ولكنَّ ما هذه مُقارنَةٌ بِباقَةِ النُّفوسِ المُجَدَّةِ التي سوفَ تجتمعُ يومًا حولَ ذلك العرشِ السَّمَاوِيِّ، نُفوسِ الكَثيرينَ الذين أعانتهم يداك على الوُصُولِ إلى هُناك؟»

فجأةً، لم يعدَ يَهُمُّ كثيرًا أنِّي أُحِلُّ على التَّقَاعِدِ. فالأبديةُ هي ما كنتُ مُستَتمِرَةً فيه. وكُلُّ خُطْوَةٍ في الحَيَاةِ لا يُمكنُ تفسيرُها على النَحْوِ الصَّحِيحِ إِلَّا في ضَوْءِ مَلَكُوتِ المسيحِ الأبدِيِّ.

ونحنُ ما كُنَّا عائِشِينَ لِلزَّمنِ، بل للأبديةِ. وإذ انبَعَثَ رائحةُ الورودِ الدَّكِيَّةِ الرِّقِيْقَةِ صُعودًا إليَّ، لَمَسْتُ بِأصابعي واحدةً من البتلاتِ المُخْمَلِيَّةِ.

لدى استعراضِ الماضي، سوفَ تبدو جميعُ أحزانِ الحَيَاةِ وتقلُّباتِها كأنَّها ضئيلةٌ جدًّا عندما أرى الرَّبَّ وجهًا لوجه. واليومَ، إكرامًا لذلكِ المُحِبَّةِ الذي بَدَّلَ الكَثيرَ الكَثيرَ لأجلِي وهداني بِكُلِّ أمانةٍ في كُلِّ خُطْوَةٍ مُتَعَرِّجَةٍ من حياتي حتَّى الآنَ، سأختارُ مُجددًا أن أحيَا

وأعطي - بكلّ ما لديّ - لأجله، إلى أن يحين دوري للذهاب إلى موطني. وإذ حنيتُ رأسي على باقّة المحبّة من الأولاد الذي أعطانيهم الله، صليتُ صامتةً: أيّها الآب السماوي، دعني أعش كل يوم بمحبّتك المضحّية اللأنائيّة. سوف يكون الأمر مُستحقّاً كلّ عنائه عندما نرى المسيح وجهاً لوجه.

## تنويه

بِقَلَمِ فِيكَ يُوَدِر

بصفتي واحدةً من الأوائل في سِرْبٍ من أبناء الإخوة والأخوات وبناتهم، تبدأ ذكرياتي عن خالتي فيرا ببيت المزرعة القديم على طريق مدرسة نوّس.  
احتفلت بكلّ واحدةٍ وواحدٍ منّا إذ جئنا إلى العالم. وكان باطنُ ذراعها مهدياً لنا فيما هي مُستلقيةٌ على الصُوفاء. ولما كبرنا قليلاً، كانت تُركبنا على ظهرها كأنّها مُهرّة، وتضربُ مؤخراتنا بقدميها. فكبرنا شاعرين بأننا الأولادُ الأذكي والأقوى والأجملُ بينَ مَنْ وُلدوا على الإطلاق.

كانت أرباضُ المزرعةِ القديمةِ محورَ حياتنا. إذ كُنّا - نحنُ أبناءَ الأعمام والعمّات والأخوال والخالات وبناتهم - نسكنُ كلُّنا في الجوار، وقد وجدنا كلّ فرصةٍ كي نتجمّع لأجلِ لعبِ الكرةِ اللينةِ وكرةِ القدمِ والتزحلقِ على جليدِ البركةِ، أو التمزُّجِ على التلالِ خارجاً في النَّاحيةِ الخلفيةِ. وغالباً ما كانت فيرا على مقربةٍ منّا، مُشاهدةً من الخُطوطِ الجانبيةِ، أو قاعدهً إلى طاولةِ نُزهةٍ ومعها كُوبٌ شايفها المُتلججِ الحاضرُ دائماً، أو من على المقعدِ الأماميِّ في سيارَةٍ دافئة. وكان من عادتها أن تُنادي بالتوجيهات وتُطلقُ هُتافاتِ التشجيعِ بكلِّ قوتها، وإذا كانت براعتنا الفاتحة في التزحلقِ على الجليدِ استثنائيةً تتمطى إلى عجلةِ القيادة وتُطلقُ الرُّمُور... بقدميها! لقد عَلِمنا أنّها كانت تُشاهدنا، إذ استطعنا أن نُحسَّ ذلك. وتحت حَمَلَتِها، صرنا نُجومَ رياضةٍ، لاعبينَ أوليمبيين... أبطالاً طوَلَ الطريق!

كانت الأيام المدرسيّة تقاطعُ أحياناً مِمّا سمّته «الأحداث السنويّة». وكانت فيرا تبدأ المدرسة في أيلول من كلّ سنة مَناسِبَةً مُهمّة، حين كان حتّى التلاميذ الأكثرُ تردُّداً يتبادلون الأحاديثَ بِقَلْبٍ رَاجِبٍ عن أيّام الصّيفِ البهيجة، لأنّهم عَلِموا أنّ التعلُّمَ مع فيرا كان مُغامرة، ولم يُطيقوا اصطيباراً حتّى تبدأ الرّحلة.

كما أنّ العشاءَ في بيتِ فيرا (يطبخُه تلاميذُها لأنفسهم) أكسبَ السّنةَ المدرسيّةَ الجديدة انطلاقةً عظيمة. وتوجيهاتٍ من أصابعِ فيرا الدّقيقة، رَمْنَا من أعماقِ قلوبنا في بيتِ التّمرّيزِ المحليّ، الأمرُ الذي زوّدنا بِتَحْمِيَةٍ مُهمّة لأجل البرنامجِ «الفعلّي» بعدَ بضعةِ أسابيع. وقد كتبنا شعراً على فَمَمِ الثّلالِ التي تَدروها الرّياح، وعَلِمنا أنّنا كُنّا بَراعمِ الشّعراءِ العُظماءِ الثّالين، أمثالِ افُرستِ ولُونغفيلو. وجمَعنا أوراقياً خريفيةً مُشعَبَةً وكَبَسناها في القواميسِ العتيقةِ المُغبرةِ لِتَصِيرَ مَشاريعَ فنيّة، ونظرنا من خلالِ عدسةِ مِجهرٍ إلى قُرْبِدسةِ بحريّةٍ حيّة، كما إلى - ويا لهوَل! - قطرةِ دم. ثُمَّ إنّ قُرودنا البلاستيكيّة الصّغيرة شَقّت طريقها مِخالِها إلى أعلى سلسلةِ قُرودٍ، مُتقدّمةً مع كلّ جُزءٍ من جدولِ الضّربِ يَتِمُّ تَعَلُّمُه. هذه الأحداثُ كانت حُطّى على طريقِ رحلَةِ التعلُّمِ الطّويلة، ومع فيرا كانت مُغامرة.

وقد أَلْتَمْنَا سَواتِ بُلوغنا الباكِرُ مَرَقَيْنَ إلى مرتبةِ شرفٍ لَقَبُها «رفيقي سَفَر» أو «مُساعدٌ في عِرْقَةِ الصّف» أو «مُستخدَمٌ تَسوّقٍ وخُرُوجٍ للأكل». ومع أنّ مُلي، الكُرسيّ المُدوَلَبَ القائم، استلزمَ وُجودَ مجموعةٍ لأجلِ هذه النُزّهة، فقد كُنّا أكثرَ من حامليِ حقائبِ وفاتِحِي أبوابٍ، إذ احتاجت فيرا إلى مُساعدتِنَا، ولكنّها أيضاً قَدَرَت رِفَقَتَنَا واستمتعتَ بها.

ثُمَّ إنّ اجتماعاتِ بائعي «موسوعة وُردُ بُوك»، ومؤتمراتِ ما بعدَ شلَلِ الأطفالِ المحليّةِ والوطنيةِ، وخَلواتِ جُوبي وأصدفائها العائليّةِ، وفَرّت تشكيلةً غنيّةً من الناسِ والاختِباراتِ. وبصَفَةِ فيرا مُتكلّمةً صَيَفَةً في اجتماعاتِ السّيّداتِ والكنائسِ وخدماتِ الأولادِ، عَرَضَت كُرسيّها المُدوَلَبَ «مُلي» ونَوَرَت مُستمعيها بشأنِ النّفاطِ الأدقِّ في التّواصلِ مع ذوي الإعاقاتِ. وقد أَحَببنا مُرافقةَ فيرا إلى هذه الأحداثِ، وهي لم تتوانَ قَطُّ عن التّعريفِ بنا بِصِفَتِنَا مجموعةٍ دَعِمِها الأولى: عائلتها.

إنّ التّقاءَ بعدَ التّعليمِ سِنينَ كثيرةٍ كانَ بالتّأكيدِ وقتَ تغييرِ بالنّسبةِ إلى فيرا. فبدلاً من عِرْقَةِ صَفٍّ مَلأى بالأولادِ، عَلِمَت حُصوصيًّا أولادًا أكبرَ سِنًا كانوا بِحاجةٍ إلى دَعَمٍ

أكاديمي. ومِمَّا آتَاهَا سُورًا بَالِغًا أَنَّ شَابًا مُعَيَّنًا تَعَلَّمَ الْقِرَاءَةَ، الْأَمْرُ الَّذِي صَارَ إِنْجَازًا مُعَيَّرًا لِلْحَيَاةِ بِالنُّسْبَةِ إِلَيْهِ. وَهَكَذَا، فِي لِقَاءَاتٍ ثُنَائِيَّةٍ، مَعَ شَخْصٍ وَاحِدٍ كُلِّ مَرَّةٍ، حَدَّثَ تَأْثِيرٌ خَيْرٌ دَائِمٌ فِي حَيَاتٍ كَثِيرَةٍ، إِلَى طَاوِلَةِ السُّفْرَةِ تَمَامًا، حَيْثُ فَيِرَا جَالِسُهُ فِي الْجَوَارِ. لَقَدْ كَانَتْ الصِّيغَةُ بَسِيطَةً: تَعْلِيمٌ، تَحَدُّ كِي يَعْمَلِ الشَّخْصُ وَيَكُونُ الْأَفْضَلَ فَعَلًا، وَأَحْمَالًا مِنَ التَّشْجِيعِ. وَقَدْ فَعَلْتِ الصِّيغَةَ فِعْلَهَا!

كَانَتْ عَصْرَ كُلِّ يَوْمٍ «سَاعَةُ سَعَادَةٍ». فَمِنْ السَّاعَةِ الثَّلَاثَةِ حَتَّى الرَّابِعَةِ عَلِمْنَا كُنَّا أَنَّ الْقَهْوَةَ كَانَتْ تَغْلِي، وَأَنَّ فَيِرَا تُحِبُّ أَنْ تَتَلَقَّى زِيَارَةً مِنْ أَيِّ شَخْصٍ أُتِيحَتْ لَهُ فُرْصَةٌ كِي يُعْرَجَ عَلَيْهَا. فَتَلَقَّتِ الْعَمَّاتُ وَالخَالَاتُ، وَأَبْنَاءُ الْعَمِّ وَالْعَمَّةِ وَالخَالَ وَالخَالَةَ وَبَنَاتِهِمْ، وَالْأَصْدِقَاءَ وَالصَّدِيقَاتِ، لِيَتَحَدَّثُوا وَيُخَطِّطُوا وَيُضْحِكُوا وَيَحْلُمُوا بِشَأْنِ أَحْدَاثِ حَيَاتِهِمْ. وَأَلْفَانَا عَصْرُ كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الصَّيْفِ عَلَى الشَّرْفَةِ نَرْتَشِفُ الشَّايَ الْمُتَلَجَّ، وَالجِيرَانَ يُحْيُونَنَا بِالتَّزْمِيرِ إِذْ يَمْرُونَ بِسَيَّارَاتِهِمْ. لَقَدْ حَلَلْنَا مَشَاكِلَ الدُّنْيَا وَعَدَدًا قَلِيلًا مِنْ مَشَاكِلِنَا، إِذْ فَاصَّتِ الْأَحَادِيثُ وَالْمَحَبَّةُ بَيْنَنَا.

بَعْدَ سَنَيْنَ مِنَ الصَّرَاعِ مَعَ مُلِي الْأَوَّلِ وَمُلِي الثَّانِي، اقْتَنَعْتُ فَيِرَا أُخِيرًا بِأَنَّ كُرْسِيًّا مُدَوَّلِبًا مُزَوَّدًا مِحْرَكٌ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَسِّنَ تَحْرُكِيَّتَهَا عِنْدَ مُغَادَرَةِ الْبَيْتِ. وَكَمَلِكَةٍ عَلَى عَرْشٍ، دَرَجَتْ إِلَى دَاخِلِ الْمَطَاعِمِ أَوْ الْكُنَائِسِ أَوْ مُوَلَاتِ التَّسْوُوقِ، فِيمَا نَحْنُ الرِّعَايَا الْأَوْفِيَاءُ نَتَقَدَّمُهَا مُسْرِعِينَ لِخَلِي لَهَا الطَّرِيقِ. وَقَدْ كَانَ الْكُرْسِيُّ مُجَهَّزًا دَائِمًا لِأَيِّ طَارِئٍ وَأَيِّ تَغْيِيرٍ فِي الْحَرَارَةِ: أَكْيَاسٌ تَسْوُوقٍ فِيهَا بَطَانِيَّاتٌ، قَنَائِي مَاءٍ، وَسَائِدٌ، حَتَّى مِرْوَحَةٌ صَغِيرَةٌ جَدًّا! وَكَانَ فِي وَسْعٍ فَيِرَا أَنْ تُنَاوَرَ بِالْكَرْسِيِّ بِنَقْرَةٍ مِنْ إِصْبَعِهَا الصُّيْلَةِ. وَأَيِّ شَعُورٍ بِالْإِنْجَازِ أَعْطَاهَا ذَلِكَ!

عَلَى خِلَافِ كِرَاسِيهَا الْمُدَوَّلِبَةِ الْقَائِمَةِ الْوَفِيَّةِ، لَمْ يَسَعُ صَنْدُوقُ سَيَّارَةٍ نُسَخَّتَهُ الْجَدِيدَةَ الْمَطْوُورَةَ. وَبِقُضْلِ تَبْرَعَاتٍ سَخِيَّةٍ، تَمَّ شِرَاءُ سَيَّارَةٍ فَان تَسْتَوِعِبُ كُرْسِيًّا مُدَوَّلِبًا. وَمَعَ أَنَّ فَيِرَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَسْوُقَ بِنَفْسِهَا مَجْمُوعَةَ الْعَجَلَاتِ الْجَدِيدَةِ، فَإِنَّ مَرْكَزَهَا مِنْ نِطَاقِ مَقْعَدِ الرَّآكِبِ الْأَمَامِيِّ مَنَحَهَا الرُّبْبَةَ الْمُوَكَّدَةَ بِصِفَتِهَا الْمَلَّاحِ الرَّئِيسِ وَمُهَنْدِسِ الطَّيْرَانِ وَمُؤَدِّرِ الْأَمْنِ، كُلُّهَا فِي أَنْ مَعًا. وَقَدْ كَانَتْ الْفَانُ رَائِعَةً، حَتَّى إِنَّهَا جَمَعَتْ الْأَخْوَاتِ الْخَمْسَ وَأَخَذَتْهُنَّ مَعًا فِي رِحَلَاتٍ بَرِّيَّةٍ تُذَكِّرُ!

اشْتَرَكْتُ فَيِرَا مَعَ صَدِيقِهَا الْوَفِيِّ الْإِبْرُوسِ أَفْرَايَ لِإِنْشَاءِ خِدْمَةٍ مُصَغَّرَةٍ اسْمُهَا «اللَّهُ مَحَبَّةٌ»، وَتَوَجُّهُهَا الْاِسْتِرَاتِيجِيَّ أَنْ تُوَصَلَ الْمَحَبَّةَ وَالضَّحِكَ إِلَى الْمُحْتَاجِينَ فِي أَنْحَاءِ الْأَحْيَاءِ

المُجاوِرة. وقد كانت حَفَلاتُ أعيادِ المولِد، وزياراتُ المرضى في المُستشفيات، ووجباتُ العشاء، كُلُّها جُزءًا من روتينِهما. وأصبحَ بيتُ ابروس في كارلتن القاعدَة الرئيسيَّة لهذه المناسبات. فكانت فيرا تُحطِّط قوائم الطَّعام وتُكرِّم الضُّيوف، فيما ابروس يطهو ويُضَيِّف، مُحَمَّسين ومُشجَّعين طوَالَ الوقتِ وهُما يخدمان. ومع أنَّ فيرا لم تُعد تُخدِّم في إطارِ هذه الخدمة، فإنَّ فاتها التي أوصت بها لإبروس تُستخدَم في نقلٍ من يحتاجون إلى توصيلة، سواءً كانوا في كُرسِيٍّ مُدولب أو لم يكونوا.

شهدتِ آخرُ سَنَةٍ أشهرٍ من حياة فيرا تغييراتٍ جذريَّةٍ في قوَّتِها الطبيعيَّة. فقد أضعفتِ سكتةٌ دماغيَّةٌ رتنيها، وباتت مُحتاجةً إلى آلَةٍ تنفِّسها ذاتِ القناع فتراتٍ من الوقتِ أطول. وقد أمضت ساعاتٍ كثيرةً من نهاراتها على سريرٍ نهارِيٍّ في عُرفةِ السُّفرة، حيثُ بقيت قريبةً من الأنشطة، لكنَّ قادرةً على الاستراحة. وفي ٢٢ شباط من سنة ٢٠١٢، بعد مُعانةٍ سكتةٍ ضئيلةٍ أُخرى، رحلت فيرا بِسَلامٍ في الثالثة والسَّتين من العُمُر. اجتمَعنا لكي نحزنَ ونبكيَ ونضحك، ونتذكَّر معلِّمتنا وصديقتنا وعمَّتنا وخالَتنا وأختنا. وكانَ كُلُّ منَّا قد تأثَّر بفيرا، خُصوصًا بتشجيعِها على مُواصلَةِ التَّقَدُّمِ حتَّى لو كانَ التَّقَدُّمُ شاقًّا. وقد شارك في الحدادِ أناسٌ مُختلفو المهَن والصفَّات: فُسوس، معلِّمون ومُعلِّمات، رجالُ أعمال، آباءٌ وأمَّهات، كبارٌ في السَّنِّ وأحداث، موهوبون، أناسٌ كافَّحوا وأناسٌ يُعاشون التَّحَدِّيات. فإنَّ خيطًا مُشترَكًا حقيقيًّا ربَطنا كلِّنا معًا. ذلكَ أنَّ هذه المُعلِّمة المُوَدَّبة - هذا الدِّينامو الضَّئيل الضَّعيف - من خلال الإيمان الذي لا يخيب والمحبة لكلِّ منَّا، شجَّعتنا على المُضيِّ إلى الأمام لِنكونَ كلِّ ما في وُسعنا أن نكونَه. لقد حانَ الآنَ دَوْرنا.

وفي قلوبنا، قُلنا لها كلُّنا: «اركُضِي بِسرعة، يا بطلتنا الصَّغيرة! طيري فوقَ شوارع الذَّهَبِ تلكِ واطلبي جائزتكِ. لقد جاهدتِ في مواجهةِ التَّحَدِّياتِ... وقد فُزْتِ!»

## عن المؤلِّفة

نشأت رايتشل في منطقة الغابات الشماليَّة الجميلة بولاية مَنيسوتا، ولكنَّ في هذه الأيام نادرًا ما تجدها هناك. فسواء تعلَّق الأمرُ بالبحثِ لأجل مشروع كتابة جديد، أم بفرصٍ للخدمة في مَخيمٍ لاجئين في اليونان، أو بتعليم اللُّغة الإنكليزيَّة في الهند، هي تواقَّة دائمًا لأنَّ تحزيمَ حقائبها للسَّفَر.

عندما لا تكونُ مشغولةً بالكتابة، تستمتعُ بأموٍرٍ أُخرى تحظى بشغفِها، مثل قضاءِ وقتٍ مع بناتٍ إخوتها وأخواتها وأبنائهم، وإنشاءِ صداقاتٍ مُفعمَةٍ بالمعنى، وقراءةِ كُتبٍ عميقة، وتجريبِ وصفاتٍ جديدةٍ لِمَشروبِ القهوة، وتعلُّمِ المزيد عن سُعوبِ الشَّرقيِّ الأوسط وحضاراتهم. وقد منَّ اللهُ على رايتشل بِبَرَكةِ المُشاركةِ في حياةِ الأشخاص الذين تكتبُ عنهم.

يبقى شغفُها بالكتابة ناشطًا وفعلًا إذ يفتح اللهُ أبوابَ فُرصٍ جديدةً. وهي تقول: «أن أكونَ كاتبَةً أدوُنُ فصلًا صغيرًا فحَسْبُ من قِصَّةِ اللهِ إذ يعملُ بين أولاده لهوٌ امتيازٌ صَخم. فعندما أكتبُ، أحسُّ سروره، ومُنِيَّةُ قلبي أنَّ ما يفيضُ من قلَمي يكونُ لِمَجدهِ وحدَه.»

تَسرُّ رايتشل بأن يتواصلَ معها فَرَاوُها، وتدعوكَ إلى الكتابةِ إليها إلكترونيًا على

ascribebytrade@gmail.com

مُمكنكُ أيضًا أن تكتبَ إليها بواسطة:

c/o ChrisanAid Ministries,

P.O. Box 360, Berlin,

Ohio, 44610



## خدماتُ المَعُونَةِ المَسِيحِيَّةِ (خ م م)

أُنشِئَتْ «خدماتُ المَعُونَةِ المَسِيحِيَّةِ» سنة ١٩٨١ كمؤسَّسة لا تتوخَّى الرِّبح، مُعفاةً من الضَّرَائِبِ بموجب (3) (c) 501. وغايتها الرِّبَاسِيَّةُ هي أن تُوفِّرَ قنَاةً موثوقةً وفعَّالةً للجماعات والأفراد المُنتمِيْنَ إلى الآمَشِ والمِينُونِيِّينَ وغيرِهِم من مُعَيدي المَعمودِيَّةِ المُحافظِيْنَ. وهذا هو إطاعةٌ لِلوَصِيَّةِ «... لِنَعْمَلِ الخَيْرَ لِلمَجْمِيعِ، ولا سِيَّما لأهلِ الإِيمان» (غلاطِيَّة ٦: ١٠).

كُلَّ سنة يُوفَّرُ دَاعِمُو خ م م نحو ٧٥٠٠ طُنُّ من الطَّعامِ واللِّباسِ، والأدوية والبُدُورِ، ونُسخِ الكُتابِ المُقدَّسِ وكُتُبِ قِصصِ الكُتابِ المُقدَّسِ وسِواها من المَطبوعاتِ المَسِيحِيَّةِ لِلْمُحتاجِيْنَ. ومُعظَّمُ المُساعداتِ تذهبُ إلى الأيتامِ والعائلاتِ المَسِيحِيَّةِ. كذلك أَيْضًا تُسَهِّمُ تَبَرُّعاتُ الدَّاعِمِيْنَ المَالِيَّةُ في رفعِ الأنقاضِ وإعادةِ البناءِ لضحايا الكوارثِ الطَّبِيعِيَّةِ، ونصبِ لوحاتِ إعلانِ تبشِيرِيَّةٍ في الولاياتِ المُتَّحِدةِ، ودَعْمِ عَدَدٍ من مَجْهوداتِ عَرَسِ الكَنائسِ، وتشغيلِ مُستوصَفِيْنَ طَبِيِّينَ، وتأمينِ المواردِ للعائلاتِ المُحتاجةِ لكسبِ رِزقِهِم بأنفُسِهِم. وفي طليعةِ الأَعراضِ الرِّبَاسِيَّةِ لتأمينِ المَعُونَةِ بواسطة خ م م أن يُساعدَ شَعْبُ الله وَيُشجَّعُوا، وأن تُبلِّغَ بِشارةِ الإِنْجيلِ إلى عَالَمٍ هَالِكٍ وماتٍ.

تملِّكُ خ م م هِيئَةً عامِلَةً ومُستودعاتٍ وشبكاتٍ توزِيعٍ في رومانيا ومُولدوفا وأوكرانيا وهاييتي ونيكاراغوا وليبيريا والأراضي المقدَّسة. علاوةً على الإدارةِ ومِلاكِ الإشرافِ وعمليَّاتِ مَسْكِ الدَّفَاتِرِ، يقومُ المُتطوِّعونُ بالعملِ في مواقعِ خ م م. فكلَّ سنة، يَهْبُ المُتطوِّعونُ فوقَ ٢٠٠,٠٠٠ ساعة من العَمَلِ في مُستودعاتِنَا وقواعِدِنَا المِيَدَانِيَّةِ، ومشاريعِ خِدْماتِ الاستِجابةِ للكوارثِ، ومواقعٍ أُخرى.

إنَّ غايَةَ خ م م القُصوى هي أن مُجِدَّ الله وتُسَهِّمَ في توسيعِ نطاقِ ملكوتِهِ. «إذا كنتم... تَفعلونَ شيئًا، فافعلوا كُلَّ شيءٍ لِمُجِدِّ الله» (١ كورنثوس ١٠: ٣١).



## الصَّارِقُ إِلَى اللَّهِ وَالسَّلَامِ

إِنَّا نَعِيشُ فِي عَالَمٍ مُلَوِّثٍ بِالْخَطِيئَةِ. وَالْخَطِيئَةُ هِيَ أَيُّ شَيْءٍ يُعَاكِسُ مَعَايِيرَ اللَّهِ الْمَقْدَّسَةَ. فَعِنْدَمَا لَا تَتَّبِعُ الْإِرْشَادَاتِ الَّتِي أَعْطَانَا إِيَّاهَا خَالِقُنَا، نَكُونُ مُذْنِبِينَ بِالْخَطِيئَةِ. وَالْخَطِيئَةُ تَفْصِلُنَا عَنِ اللَّهِ، مَصْدَرِ الْحَيَاةِ.

مَنْذُ أَنْ أَخْطَأَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ الْأَوْلَادِ، آدَمُ وَحَوَاءُ، فِي جَنَّةِ عَدْنِ، مَا بَرَحَتِ الْخَطِيئَةُ عَالَمِيَّةَ النَّطَاقِ. وَيَقُولُ الْكِتَابُ الْمَقْدَّسُ إِنَّ جَمِيعَ الْبَشَرِ، وَنَحْنُ مِنْهُمْ، «أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللَّهِ» (رُومِيَّةُ ٣: ٢٣). وَيَقُولُ أَيْضًا إِنَّ الْعَاقِبَةَ الطَّبِيعِيَّةَ لِتِلْكَ الْخَطِيئَةِ هِيَ الْمَوْتُ الْأَبَدِيُّ، أَوْ الْعِقَابُ فِي جَحِيمٍ أَبَدِيٍّ: «ثُمَّ الشَّهْوَةُ إِذَا حَبَلَتْ تَلِدُ خَطِيئَةً، وَالْخَطِيئَةُ إِذَا كَمَلَتْ تُنْتِجُ مَوْتًا» (يَعْقُوبُ ١: ١٥).

وَلَكِنْ لَسْنَا مُضْطَرِّينَ لِأَنَّ نُكَايِدَ الْمَوْتِ الْأَبَدِيِّ فِي جَهَنَّمَ. إِذْ أَعَدَّ اللَّهُ غُفْرَانًا لَخَطَايَانَا بِمَوْتِ ابْنِهِ الْوَحِيدِ، الرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. وَلِأَنَّ الْمَسِيحَ كَانَ كَامِلًا وَبِلَا خَطِيئَةٍ، أَمَكَنَ أَنْ يَمُوتَ عِوَضًا عَنَّا. «لِأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَدَّلَ ابْنَهُ الْوَحِيدِ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ» (يُوحَنَّا ٣: ١٦).

التَّضْحِيَةُ التَّعْوِضِيَّةُ هِيَ شَيْءٌ يُبَدَّلُ لِيُفِيدَ شَخْصًا آخَرَ، وَهِيَ تُكَلِّفُ الْبَاذِلَ كُفَّةً بَاهِظَةً. وَقَدْ كَانَ الرَّبُّ يَسُوعُ هُوَ تَضْحِيَةُ اللَّهِ التَّعْوِضِيَّةُ. فَإِنَّ مَوْتَ الْمَسِيحِ يَرْفَعُ عَقُوبَةَ الْخَطِيئَةِ عَنِ كُلِّ مَنٍ يَقْبَلُ هَذِهِ التَّضْحِيَةَ وَيَتُوبُ حَقًّا عَنْ خَطَايَاهُ. وَالتَّوْبَةُ عَنِ الْخَطَايَا تَعْنِي أَنْ نَكُونَ آسَفِينَ وَنَادِمِينَ عَلَى الْأُمُورِ الَّتِي قَدْ فَعَلْنَاهَا، وَالتِّي انْتَهَكْتَ مَعَايِيرَ اللَّهِ، وَأَنْ نَرْجِعَ عَنْهَا (أَعْمَالُ ٢: ٣٨؛ ٣: ١٩).

لَقَدْ مَاتَ الرَّبُّ يَسُوعُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مَيِّتًا. فَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَقَامَهُ رُوحُ اللَّهِ مُعْجِزَةً إِلَى الْحَيَاةِ مِنْ جَدِيدٍ. وَرُوحُ اللَّهِ يَعْمَلُ فِينَا شَيْئًا مُشَابِهًا. فَعِنْدَمَا نَقْبَلُ الْمَسِيحَ بِاعْتِبَارِهِ التَّضْحِيَةَ التَّعْوِضِيَّةَ عَنَّا وَنَتُوبُ عَنْ خَطَايَانَا، تُغَيِّرُ قُلُوبَنَا. إِنَّا نَصْبِحُ أَحْيَاءً رُوحِيًّا! فَتَنْشَأُ فِينَا أَشْوَاقٌ وَمَوَاقِفٌ دَاخِلِيَّةٌ، كُلُّهَا جَدِيدَةٌ (٢ كُورِنْثُوسُ ٥: ١٧). وَنَبْدَأُ نَخْتِذُ خِيَارَاتٍ تَسْرُرُ

الله (١ يوحنا ٣: ٩). وإن أخفقتنا فعلاً وارتكبنا خطايا، نستطيع أن نطلب الغفران من الله. «إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمينٌ وعادلٌ حتى يغفرَ خطايانا، ويُطهرنا من كلِّ إثم» (١ يوحنا ١: ٩).

ما إن تتغيَّر قلوبنا، حتَّى نُريد أن نستمرَّ نامينَ روحياً. سيُسعدنا أن ندع الرَّبَّ يسوع يكون السيِّد على حياتنا، وسُرُّيد أن نتشبهَ بهِ أكثر. ولكي نفعلَ هذا، يجبُ علينا أن نتأمَّل في كلمة الله المقدَّسة ونتواصلَ مع الله بالصَّلاة. وسنشهدُ أمام الآخرين عن هذا التَّغيير بقبولِ المعموديَّة ومُشاركةِ بشارَةِ انتصارِ الله على الخطيَّة والموت. ثمَّ إنَّ الشَّرِكَةَ مع جماعةٍ من المؤمنين الأُمماء ستُتقوَّى مسيرتنا مع الله (١ يوحنا ١: ٧).

عندما كانت فيرا أوقرهُلت  
طفلةً، أمضت أيامًا كثيرة  
في مستشفى أولطمان في  
مدينة كانتن في ولاية أوهايو.  
هنا مُسِكِ الممرضة باربرا  
غاسطن برأس فيرا لسندها  
ومنعها من السقوط. كانت  
السيدة غاسطن الممرضة  
المفضلة لدى فيرا.



في الصف الثالث، التحقت  
فيرا بمدرسة هارتفل المسيحية.  
كانت تذهب إليها ظهر  
كل يوم وتبقى حتى نهاية  
اليوم الدراسي.  
تبرع فكتور، والد فيرا، بالأرض  
التي بُنيت عليها المدرسة  
وساعد في تشييد المبنى متفقا  
مع المعنيين على أن يلتحق  
أولاده بالمدرسة من دون أن  
يضطر إلى دفع أقساطهم.

ضحية شلل الأطفال، ٥ سنوات، اليوم هو اليوم الـ٤٩٨ في مستشفى أولطمان  
تستخدم قيرا أوقرهلّت رجليها ويديها للعب بالدمى والألعاب

## **Polio Victim, 5, Marks 489th Day in Aultman**

**Vera Overholt Uses Her Feet, Toes To Play With Dolls, Toys**



In good spirits in her reclining wheel chair is Vera Overholt, who is today spending her 489th day in Aultman Hospital fighting polio. With her toes and feet, she can play with her dolls, start her phonograph and turn the pages of books. Her arms are paralyzed.

For nearly 500 days, home has been Aultman Hospital to a 5-year-old girl from RD 1, Uniontown.

Today marks the 489th day that polio-stricken Vera Overholt has looked out at the world from the windows of Aultman Hospital.

During that period she has never visited her real home.

-:-

**VERA'S PARENTS**, Mr. and Mrs. Victor Overholt, visit her each night. Sometimes, according to hospital spokesmen, the parents bring her a little sample of home cooking. That's a little contrary to policy, but if it is something the girl can eat she is allowed to have the food.

On Aug. 5, 1952, Vera entered the hospital. For the last 10 months her home has been room 474 in the

McKinley IV wing.

Both of her arms, her back, chest and neck are paralyzed by polio. Her legs aren't affected, but they are not strong enough to support her in walking.

Since her illness, the physician handling the case has said that Vera has become quite proficient in the use of her feet and toes. She uses them to take the place of her hands and fingers, which can't be manipulated easily because of the paralysis of her arms.

-:-

**VERA CAN PLAY** with dolls, start her little phonograph and turn the pages of books with her toes.

A great pleasure of Vera is the popsicle she receives each afternoon. An ice cream company has arranged to present her with one every day.

afternoon in an iron lung and sleeps in the lung at night.

-:-

**ARRANGEMENTS** are now being made with the National Foundation for Infantile Paralysis, according to the doctor, for an iron

lung to be placed in the child's home. If the lung can be made available, the doctor indicated that Vera may possibly be able to leave the hospital in the near future.

If she can leave, then Vera would be able to see her five broth-

ers and sisters at home. They are Ruth, 7; Fred, 6; Leon, 3; Mary Magdalena, 2, and Joan Patricia, 9 months.

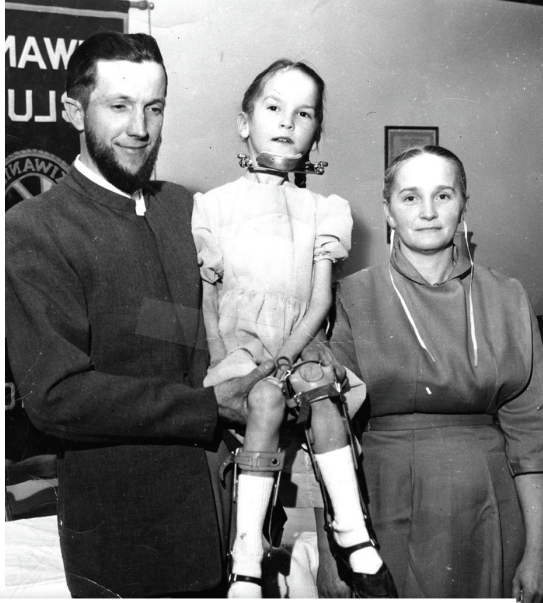
Overholt farms and during the winter months also does masonry work.

فيرا وموظفة  
من مؤسسة  
March of Dimes  
يظهرا في  
ملصقٍ للمؤسسة.



كانت فيرا تحب أن تحملَ الطفلة دليلاً بساقها. بسببِ حدّة الشلل  
الذي أصيبت به فيرا، لم يكن بوسعها أن تتنفسَ بشكلٍ طبيعيٍّ  
وهي نائمة (كان عليها أن تفكّر بتعمّد في أخذِ نَفَس). إنّ الخرطوم  
الذي تمسكه بيدها مربوطٌ بالآلة التي تقوم برفع صدرها وخفضه  
في أثناء النوم.

فيرا مع والديها، فكتور  
وإمّا، عندما رجعت إلى  
البيت من المستشفى.



منزل أوقرهُلت في مينيرفا في ولاية أوهايو.

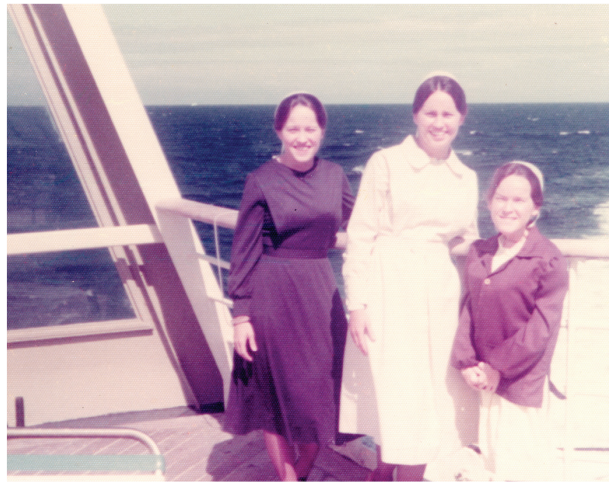
تخرُّجُ فيرا



فيرا البالغة من العمر  
١٨ سنة. صورة  
تخرُّجها الرسميّة.



بعض من إخوة أوقرهلّت في العام ١٩٧٨:  
جُوآن، فيرا، دايفد، لينا، دليلة



كانت فيرا تبلغ ٢٦ سنة عندما زارت مع لينا وجُوآن  
سويسرا وألمانيا وهولندا وإنكلترا.  
أخذت هذه الصورة في مؤخرة سفينة "كوين إليزابيث الثانية".



أساتذة في مدرسة منيرفا المسيحية:  
إستر أسْمِث، فيرا، فيليب استولترقص.



كانت فيرا تحبّ التخطيط للحفلات مع تلاميذها.

صورة أُخِذَتْ في عيد زواج والدَي فيرا الخمسين. تَظْهَرُ الوالدة، إِمَّا أُوقِرْهُلَتْ،  
في الصورة مع بناتها: دليلة، جُوآن، لينا، فيرا، روث، جودي.



فيرا

فيرا تقف على كرسيّ "مولي" وتلتقي بجوني  
إيريكسن تادا. مولي هو كرسيّ متحرك واقف  
صمّمه والد فيرا وصنعه لها بشكلٍ خاصّ.



